دراسات منهجية هادفة
في البناء



تربيتنا الروحية

سعيد حوّى

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت - ٣٩١٧٤٧٠

الطبعـة الخامسة

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م

الإهداء

درج الناس على أن يهدوا كتبهم لجهة ما ، ولم أعتد ذلك لأن كتبى هدية متواضعة منى لأمتى ، ولكن عندما تتجسد الأمة فى رجال ، فقد يكون ذلك مبررا لأن يجعل الإنسان هدية الأمة هدية لهم ، ولذلك فإننى أهدى هذا الكتاب لبركات بلاد الشام وُرَّاث النبوة فيها أمثال : الشيخ حسن حبنكة ، والشيخ ملا رمضان، والشيخ عبد الفتاح أبى غدة .

وكنت أتمنى لو صدر هذا الكتاب والشـيخ محمد الحامد والشـيخ مصطفى السـباعى والشـيخ عبد الكريم الرفاعى والشيخ أحمد البيانونى والشيخ خالد الشقفة ، كنت أتمنى لو صدر هذا الكتاب وهم أحياء ، لكانوا شركاء فى الإهداء من أجل أن يَمنُّوا علىَّ بتصحيح خطأ . .

المؤلف

* * *

ملاحظة

كنت قد أزمعت أن أخرج هذه الرسالة تحت عنوان « تصوف الحركة الإسلامية المعاصرة » .. ثم فكرت أن أخرجها تحت عنوان: «الحياة الروحية لجند الله » ولكن لملابسات متعددة جعلتها تحت عنوان « تربيتنا الروحية » ، وإنما ذكرت هذه الملاحظة هنا لأن مضمون الرسالة قد يكون مرتبطاً بالعنوان الأصيل لها فليلاحظ القارىء ذلك .

* * *



مقدمة

هذه هي الرسالة التاسعة في سلسلة « في البناء » . وكنت متردداً أن أجعلها هي والرسالة الثامنة التي عنوانها « جولات في الفقهين الكبير والأكبر » جزءاً من سلسلة « الفقهين الكبير والأكبر » ، ثم رأيت أنه قد لا تتاح لي فرصة الكتابة في موضوع الفقهين الكبير والأكبر ، ثم إن سلسلة « الأساس في المنهج» قد تغني إلى حد كبير عنها ، ولذلك جعلت هاتين الرسالتين جزءاً من «سلسلة في البناء » لأن رسالة « جولات » لها صلة في البناء الثقافي للحركة الإسلامية، ولأن هذه الرسالة لها صلة في البناء الروحي والثقافي لهذه الحركة فاستقررت على أن تكون هاتان الرسالتان من هذه السلسلة .

والذي دعاني إلى كتابة هذه الرسالة أمور :

أولاً : حاجة الحركة الإسلامية إلى نظرية واضحة عن التصوف وعن السير الروحي بآن واحد . إن النظرة الواضحة عن التصوف تعصم عن الانحراف في تياره الغالي أو في التيار المعادي على غير بصيرة . والسير الروحي لأبناء الحركة الإسلامية شيء لا بد منه ومن ثَمَّ كان الفقه فيه كالفقه في قضايا التنظيم والتنفيذ والتعريف وغير ذلك من أمور لا يسع المسلم المعاصر أن لا يكون له صلة نظرية وعملية فيها .

ثانياً : ندرة الكتاب الصوفي المحرر على ضوء عقيدة أهل السُنَّة والجماعة ومذاهبهم الفقهية حتى إنني كنت أستشعر حرجاً أن أذكر لإنسان كتاباً في التصوف ، وذلك لأن الكثير من كتب التصوف داخلها ما لا يرتاح له العليم فتجد عبارات غير منضبطة أو شطحات غير متزنة أو تضخيماً لأمر على حساب أمر ، فكان لا بد من كتاب يضع الأمور في مواضعها ليكون بمثابة ميزان يستطيع المسلم منه أن ينطلق ليقرأ في كتب التصوف على بصيرة فيما ينبغي أن يأخذ أو يدع على ضوء ضوابط سليمة ترتاح لها قلوب المنصفين .

ثالثاً : إن كثيرين ممن كتبوا فى هذا العلم جعلوه علم الخاصة مع أنه العلم الذى يُطالَب به كل إنسان لارتباطه بقضايا يُطالَب بها كل إنسان كصحة القلب وزكاة النفس وغير ذلك من أمور كلها تكليفية فى حق عامة الخلق ، فكان لا بد من كتاب يجعل الأمر فى محله .

رابعاً : ثم إن هذا العلم فى مسيرته التاريخية اختلط فيه - أكثر من أى علم آخر - أمور جعلته أحياناً كالألغاز ، وجعلته أحياناً وكأنه شىء آخر غير العلم وغير النصوص ، وجعلته أحياناً مستقلاً عن علوم التوحيد والفقه وأصول الفقه ، بل جعلته أحياناً إلهامياً له قوة الوحى فى التشريع أو فى التقرير .. وكل ذلك عجيب غريب فى علم يجب أن يكون كبقية العلوم الإسلامية محرراً منقحاً .

إنه من العجيب أن قارىء كتب التصوف يشعر أنه أمام ألغاز وراء الدين ، وبدلاً من أن يكون هذا العلم طريقاً للتحقق بالنصوص جعلوا التصوف شيئاً وراء النصوص وذلك ما يجرح كبد الفقيه ، ومن ثَمَّ فإنى لم أستشعر اطمئناناً إلا نادراً أن أدل إنسان على كتاب تصوف ما لم يكن هذا الإنسان فقيهاً وعنده وسوسة الفقيه فى تقليب الرأى فيما يقرأ . فيما إذا كان ما يقرؤه منطبقاً على النصوص ؟

وإذا كان من طبعى ألا أقول ما يجرح مشاعر مسلم فى قضية تحتمل أكثر من وجه فإنى لا أرغب فى التدليل بأن أنقل وأنقد وأرد .

ولعل أبشع ما فى الأمر أن نجد كثيراً من المتحذلقين يأتون إلى آية من آيات الله لا تُفهم إلا على وجه واحد ويحاولون أن يعطوها مضامين أخرى ويبنون على مثل هذا جبالاً من الأمور والمسائل ، والأمر كله وهم أو تحريف ، وكان يغنيهم عن هذا كله الوقوف عند النصوص ومحاولة فهمها وتفهيمها والسير للتحقق بها..

إنه لو كان ذلك لكان جيداً بل وكمالاً ، وهذا الذى نريد تحقيقه فى هذه الرسالة ، وهذا الذى حاولناه مع غيره فى سلسلة « الأساس فى المنهج » .

خامساً : ثم إن أكثر المشتغلين فى هذا العلم تصوراتهم الإسلامية قاصرة ومفاهيمهم ضيقة ويعيشـــون بعيدين عن عصرهم وعن بديهيات الإســـلام التى

لا ينبغي أن تغيب عن مسلم معاصر . فأن يبقى هذا العلم قاصراً على هؤلاء فإن في ذلك إبقاء لمريدى السير إلى الله فى أجواء غير صحية ، فكان لا بد للحركة الإسلامية الجهادية أن تبلور هذا الموضوع كما بلورت غيره من الأمور التى تُشكِّل ألف باء الفهم للإسلام وللعمل المعاصر من أجله . ولئن مرت عصور كان للتصوف الجاهل وللصوفية الجهلة دور فى إغفال قضية الجهاد ، فقد آن الأوان أن يعود التصوف إلى وضعه الطبيعى فيكون فى خدمة قضية الجهاد كما هو الشأن فى كثير من الحالات التى انبثق فيها عن التربية الصوفية عمل جهادى ، وإن ننس فلا ننسى ثورة الشيخ سعيد الكردى النقشبندى فى تركيا ، وثورة الشيخ شامل النقشبندى فى تركستان ، وحركة عالم كير فى الهند التى هى أثر عن جهود الشيخ الفاروقى المجددى ، وحركة السنوسيين فى ليبيا ، وحركة الدراويش فى السودان .

هذه معان وغيرها كثير سنراها كانت دافعاً نحو تأليف هذه الرسالة .

* * *

وكل مسلم فى الحقيقة سائر إلى الله ما دام يفعل ما أمره الله عَزَّ وَجلَّ ، وله حظه من مقامات السير بذلك ، ولكن البحث عن الكمال والوصول إليه وإتيان البيوت من أبوابها ومعرفة المصادر والموارد والبدايات والنهايات والحدود والقيود للمقامات كلها دنياها وعلياها . هذا الذى يطلق عليه اسم السير الكامل، ومن هنا ندرك غلط الذى لا يتصور أى سير لله عَزَّ وَجلَّ إلا من خلال التصوف . وندرك خطأ الذى يأخذ على أصل وجود طريق التصوف والسير فيه وهو شئ ذكرناه فى كتاب « جولات » رداً على مَن ينكر وجود علم التصوف ، وهنا نريد أن نرد على غلاة الصوفية الذين لا يتصورون سيراً إلى الله بدون سير على يدى أهل الطريق ، إذ الصحابة رضوان الله عنهم - ومَن بعدهم إلى أن تقعدت قواعد علم التصوف - ما كان لهم هم إلا دراسة الكتاب والسُنَّة وتطبيق ذلك ، فإن لم يكن هذا سيراً فما هو السير ؟ ومن هذه النقاط البسيطة يستطيع المسلم أن يدرك بعض ملامح هذه الرسالة فلنكتف فى هذه المقدمة بذلك .

* * *

ولا شك أن الكتابة فى هذا الموضوع ستثير كثيرين أصبح التصوف عندهم هو رأس البلاء وسبب الفساد .

ولا شك أن هناك أسباباً كثيرة أوصلت هؤلاء إلى مثل هذه النتائج ، ومع وجود هذه الأسباب ، ومع وجود هؤلاء الناس ، كتبت هذه الرسالة وأعتبر كتابتى لها فريضة ، فنحن فى عصر مادى وهذا يقتضى منا أن نقابله بفكر مكافئ وبحيوية روحية عالية ، ونحن فى عصر شهوانى جاهلى وهذا يقتضى منا أن نقابله بأشواق روحية راقية مع تأمين الشهوات المباحة وإبقاء منافذها مفتوحة ، ونحن فى عصر قلّما يوجد فيه مَن يضبط نفسه على مقتضى الأدب الإسلامى الرفيع وهذا يقتضى منا إلحاحاً على التربية النفسية الرفيعة ، وإذا كان هذا كله طريقه التصوف الصحيح السليم فإن الكتابة فى ذلك أصبحت ضرورية ، ثم إن الحركة الإسلامية الحديثة وهى حركة تجديدية فى كل جوانب المجتمع الإسلامى لا بد - وأحد ملامحها الأصيلة أنها حقيقة صوفية - من أن تكتب فى هذا الموضوع فتجدد فيه معيدة إياه إلى أصوله الصحيحة ومنابعه الصافية، ومبعدة عنه ما علق به من دَخَنٍ كثير فتضع الأمور فى مواضعها فى هذا العلم وغيره . وإذا كانت هناك حساسيات عند أتباع هذا العلم فلا يقبلون مناقشة فى عبارة من عبارات أهله أو فى تصرف من تصرفاتهم ، وإذا كانت هناك حساسيات عند المنكرين عليه فلا يقبلون اسمه ولا أهله ولا مباحثه ولا الكلام فيه ، فإن المجددين فى هذه الأمة لا يسعهم أن يقابلوا أمثال هذا كله إلا بكلمة الحق الصادقة والواضعة الأمور فى مواضعها ، فهذا وحده الذى يحسن بالعالم وتصلح به الأمة .. وإذا لم يفعل العالم ذلك فإنه لا يكون قد أدى الأمانة ، أمانة العلم فى جيله .

* * *

إن تسعين بالمائة من الأمة الإسلامية خلال قرون متعددة لهم صلة بالتصوف وأهله بشكل من الأشكال ، إما بالاشتغال فيه أو بالتلمذة على أهله أو بالصلة بهم أو بالثقة فيهم أو بالانتساب الإسمى لهم أو لمن تتلمذ عليهم ، ولا زال

التصوف وأهله حتى الآن هم الذين يصلون إلى بيئات ومناطق لا يصل إليها غيرهم ، فإذا كان الأمر كذلك فإن هذا الأمر وحده كاف لأن يعطى المبرر الكبير للكتابة فى هذا الموضوع لتحريره وتنقيحه ووضع الأمور فى مواضعها فيه ، فلا يكفى أن تذكر الخطأ فى شئ وإنما عليك أن تبيِّن الصواب فيه ، ولا يكفى أن تهدم بل عليك أن تبنى ، وعليك دائماً أن تُقدِّم البديل الصالح للمبدَّل عنه الخاطئ خاصة إذا كان ما أنت فيه يستحيل الاستغناء عنه أو التفريط فيه أو تجاهله .

* * *

لا بد من صبغة صحيحة كبديل عن الأساس الواهى أو الضعيف ، ولا بد من بيان الحق فى كل أمر ، ومن جملة ذلك مباحث علم التصوف وأفعال أهله وأقوالهم وهذا وحده مبرر كاف للكتابة فى هذا الموضوع ، على أن الأمر أوسع من ذلك ، وضرورات الكتابة فى هذا الموضوع أكبر بكثير مما يظنه الظانون ، فالقلب والروح والنفس والعقل والجسد وأشياء كثيرة كبيرة كلها تقتضى بياناً من العاملين فى الدعوة إلى الله ، وإذا لم يؤدوا واجب البيان الصحيح يبقى للضلال سلطانه على النفوس بواسطة البيان الخاطئ ، ويبقى للمستغلين لقضايا التطلعات العليا للقلوب والأرواح سلطانهم على مَن يسمع لهم دون أن يكون لديه ميزان صحيح أو معرفة سليمة من خلالها يعرف ما يسمع وما لا يسمع ، وما يقبل وما لا يقبل،وما يجب فيه الرفض وما يجوز فيه القبول ، وما محل ما يلقى إليه وما يدعى إليه فى شرع الله ...

وإنى لأظن أن أكثر ما سيذهب الإنكار علىَّ فيه فى هذه الرسالة هو قضية الاسم ، فهناك ناس لا يطيقون أن يسمعوا اسم تصوف وصوفية ، ولهؤلاء أقول: على رسلكم فهذا التاريخ بينى وبينكم ، إنه لم ينكر خلال العصور اسم التصوف أحد من الناس لأنه اصطلاح على علم كعلم النحو والبديع والمعانى والفقه وغير ذلك ، ولا مشاحة فى الاصطلاح كما يقول العلماء ، وحتى فى عصرنا هذه فتاوى ابن تيمية خرج منها مجلدان تحت اسم التصوف والأخلاق ولم أر على ذلك مُنكراً فأرجو التأنى فى الإنكار على قضية لا مبرر للإنكار فيها أصلاً ، إذ ما مبرر الإنكار على اسم مباح أُطلق على علم من العلوم حتى أصبح

عَلَماً عليه ، فإذا تجاوزنا هذه النقطة - وينبغى تجاوزها - فإن المضمون هو الذى ينبغى أن يكون محل النقاش فليكن همنا هو الوصول إلى الحق فى المضمون أكثر من مناقشة فى جانب لا يترتب على النقاش فيه أى طائل .

* * *

ولقد حاولنا فى هذه الرسالة أن نقدم نوعاً من التصوف المحرَّر على أصول الكتاب والسُنَّة ومذاهب أهل الحق ، لإيماننا أن هذا وحده هو الذى يجب أن يكون وأن يصير إليه الناس جميعاً ، فالطريق إلى الله لا يمكن أن يُلغى بل يجب أن يُوجد ولكن ينبغى أن يُحرَّر ويُدقَّق وتحرَّر مسائله تحريراً دقيقاً ، فليس الصوفية ولا غيرهم معصومين ، والمعصوم هو الكتاب والسُنَّة ، وقديماً قال أكبر أعلام الصوفية فى عصره أبو سليمان الدارانى رحمه الله : « ربما وقعت النكتة من كلام القوم فى قلبى فلا أقبلها إلا بشاهدى عدل من الكتاب والسُنَّة، لأن الله عزَّ وجلَّ ضمن لى العصمة فى الكتاب والسُنَّة ولم يضمنها لى فيما سوى ذلك » .

ومن هنا ندرك خطأ الصوفى الذى يريد أن يجعل كل حرف قاله صوفى معصوماً ، والذى يريد أن يجعل لكتب الصوفية من العصمة ما للكتاب والسنة، إن أمثال هؤلاء لا فارق بينهم وبين غلاة اليهود والنصارى الذين قال الله عزَّ وجلَّ فيهم : ﴿ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً من دُونِ اللَّهِ وَالمسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ (١) ، فإذا كان رأينا فى أمثال هؤلاء كذلك ، فرأينا فى الذين يرفضون أصل علم التصوف وما فيه لمجرد أن وجد خطأ فيه هو أن هؤلاء يجانبون الرأى الصحيح فى هذا الموضوع فيقابلون خطأ بخطأ ، ويتصرفون برد فعل انفعالى غير عقلانى ولا متزن .

ولقد حاولنا في هذه الرسالة أن نضع قدم المسلم فى سير إلى الله صحيح وخال من الخطأ ، وحاولنا أن نرسم الطريق لوجود طبقة من الوراَّث الكاملين لرسول الله ﷺ يحملون دعوة الله كاملة ويربون الناس ظاهراً وباطناً على الحق، فإن أصبنا فى ذلك فلله الحمد، وإن أخطأنا فإننا نستغفر الله ونحن على استعداد إذا

---

(١) التوبة : ٣١

قامت الحُجَّة على خطأ منا أن نتراجع عنه جهرة فإن الحق وحده هو الذى نحرص عليه ونحرص على التمسك به ، وإن فى قول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَآثَارَهُمْ ﴾ [1] لعظة لنا ولغيرنا تحول دون مجانبة الحق خشية من الخلق .

ونحب أن نؤكد أنه إذا كنا فى هذه الرسالة قد حاولنا إبراز ماهية سير صوفى محرر ، فحملنا خلال ذلك على انحراف وصححنا خطأ وأيدنا حقاً ، فإننا فى ذلك لم نأت بدعاً من الأمر فلم يزل العلماء خلال العصور يقررون السير إلى الله ويؤيدونه ويهاجمون المتصوفة الخاطئين أو المبتدعين أو الجاهلين ، ولم يزل المتصوفة أنفسهم يبرزون الجوانب الإيجابية فى هذا العلم ويحملون على الخطأ في التطبيق ، ولنضرب على ذلك مثالين : مثالاً عن العلماء ، ومثالاً عن الصوفية :

أولاً : فى مقدمة كتاب « كفاية الأخيار » فى فقه الشافعية يقول مؤلفه : « اعلم أن طُلاّب العلم مختلفون باختلاف مقاصدهم ، وهممهم مختلفة باختلاف مراتبهم ، فهذا يتطلب الغوص فى البحر ونحوه لنيل الدرر الكبار ، وهذا يقنع بما يجد فى غاية الاختصار ، ثم هذا القانع صنفان ، أحدهما : ذو عيال قد غلبه هم الرزق ، والآخر : يتوجه إلى الله تعالى بصدق وجد . فلا الأول يقدر على ملازمة الخلق ، والسالك مشغول بما هو بصدده ليله ونهاره مع نفسه فى قلق فأردت .. » . لاحظ قوله : « والسالك مشغول بما هو بصدده ليله ونهاره مع نفسه فى قلق » . فهنا كلام عن سالكين متوجهين إلى الله عزّ وجلّ ، وفى مقام آخر من كتابه يحمل على الصوفية . من هذا كله ندرك أدب العلماء؛ فالسلوك إلى الله مطلوب ، وجوانب الخطأ تُقوَّم هى وأهلها فى الله .. ولننتقل إلى المثال الآخر :

ثانياً : فى قصيدة المباحث الأصلية لابن البنا السرقسطى وهى قصيدة لها عند الصوفية مقام كبير ، يقول فى مقام من هذه القصيدة :

هذا الطريق من أجل الطرق ... فافهم هُدِيتَ واقتده بنطق

ثم هو نفسه يقول فى مقام آخر :

---

(١) يس : ١٢

فهـذه طـريقـة قـد درست	وشجـرة أغصـانها قـد يبست
كـانت إذن مواردأ شـريفة	فاستبدلت مـذاهبـأ سخيفـة
قـد أسست على صحيح العقل	وإنهـا الآن بمحـض الجهـل
يدعى الذى يمشى عليها سالك	وسالكـوها اليوم حـزب هالك

ثم يقول بعد أبيات :

يا قاصدا علم الطريق السالف	لا تقتـد بهـذه الطوائف
ما منهـم مَـن علم المقصودا	منـه ولا الوارد والمورودا
لم يعـرفـوا حقيقـة الطريقة	فالقـوم جُهّـال على الحقيقة
فاحـذرهمو خشيـة يفتنوكـا	واتـرك سبيـلاً لم يزل متروكا

وإذن فما جرينا عليه هو دأب العلماء والصوفية بآن واحد خلال العصور ، نقول هذا ليعرف الصوفى والعالم بآن واحد أننا لم نأت بدعاً من الأمر ، بل ما نحن فيه هو الذى يجب أن يُصار إليه والعبرة للتحقيق والحكم الفصل للنصوص قال تعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلى اللَّهِ والرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ باللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ﴾ [1] ، والصدر مفتوح لكل كلمة حق تقال سواء قالها صوفى أو سلفى بلا حساسية من أحد ، فلا يليق بطالب علم أن يكون إلا عاشقاً للحق باحثاً عنه إذا عثر عليه اعتنقه ، أما ما سوى ذلك فشأن أهل الأهواء . . .

* * *

أولاً : إن للتصوف فيما آل إليه جانبين : جانباً عملياً وجانباً نظرياً ، والجانب العملى منه ما هو متفق مع السنّة ومنه ما يخالفها ، والجانب النظرى فيه منه ما هو من باب الكشوفات والإلهامات ومنه ما كان شرحاً لطريقة التحقق بالعقائد وأخلاق النفس ، والمعركة القائمة حول التصوف إنما تدور بسبب بدع الأعمال وبسبب الكشوفات والإلهامات ، وسنحاول أن نضع الأمور فى مواضعها فى الكثير من هذه الأمور فى هذه الرسالة - إن شاء اللّه تعالى .

---

(١) النساء : ٥٩

ثانياً : إن علينا فى أمر التصوف واجبين ، الأول : أن ندل الإنسان على السير الصحيح إلى الله عزّ وجَلّ ، والثانى : أن نحرر التصوف من دخنه ليصل المسلم بذلك إلى أن يكون عنده مناعة ضد الوقوع فى أسر جاهل أو جهل . وكل ذلك من أجل الوصول إلى تربية صوفية رفيعة وواقعية ، وهذا الذى حاولنا فعله، ولكن هذا كما قلت سيدخلنى فى صراعات مع جهات متعددة بعضها صوفى وبعضها سَلَفى وبعضها ذو حساسية خاصة أمام هذه الأمور . سيقول بعض الصوفية : إن هذا ما شم رائحة الذوق الصوفى ، وأنه لم يعرف اصطلاحاتنا ، وأنه لا يحق له أن يتكلم فى شىء لا يعرفه . وسيقول بعض أعداء التصوف : إن فى هذا الكتاب خدمة لحلقات الصوفية القائمة ، إذ كثيرون سيقرأونه ويقتنعون بالسير وتكون الحصيلة أن يذهبوا إلى شيخ من شيوخ الصوفية غير المتحققين بما ذكرت والذين يربون على الغلط فيسلكون على يديه وسينسون ما ذكرت أو يُفتَنون بغيره . وسيتهمنا بعض الناس أننا قطّاع طريق ومنّاعون للخير . ولعله لهذه الأسباب ولأسباب كثيرة مثلها بقيتُ متردداً آماداً كثيرة فى الكلام عن هذه المواضيع ، فكم مرة وصلت إلى قناعة بضرورتها ، وكم مرة وصلتُ إلى قناعة بأن علىّ ألا أفعل وأن أكتفى بسلسلة « الأساس فى المنهج » عنها ، وأخيراً شرح الله الصدر للكلام - ولله الحمد - ولم يعد فى العمر فسحة حتى أحسب للخلق حساباً ، ولم يعد فى النفس مكان لأن يثنينى مدح المادحين أو قدح القادحين عن أن أقول لهذه الأمة الحبيبة إلىّ - أمتى الإسلامية - كل ما ينبغى أن يقال لها . وبالإجمال أقول لأصناف الناس الذين ذكرتهم :

١ - لقد تتلمذتُ فى باب التصوف على مَن أظنهم أكبر علماء التصوف فى عصرنا وأكثر الناس تحققاً به ، وأذنَ لى بعض شيوخ الصوفية بالتربية وتسليك المريدين ، واشترطتُ عليه أن لا أتقيّد نفسى بطريقة وألا أتقيد فى هذا الشـأن إلا بالكتاب والسنَّة . أقول هذا ليعرف الصوفية أننى أتكلم بفضل الله عن علم وذوق ، وليعرف غيرهم أنه لا يستهوينى إلا الكتاب والسنَّة .

٢ – ان الله عزّ وجلّ يقول : ﴿ وَقُلِ الحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ، فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكفُرْ ﴾ (١) فنحن مهمتنا التبصير ، والله عزّ وجلّ يقول : ﴿ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ (٢) .

٣ – إننى حريص على أن يوجد نوع من التصوف السلفى له شيوخه وحلقاته – حلقات العلم والذكر – وليس أمامى غير هذا الطريق.

٤ – لست حريصاً على أن ينفض الناس عن شيوخهم ، ولست حريصاً على أن ينقطع خير – بل على العكس من ذلك – أتمنى أن تزداد الصلات الطيبة بين الناس وأن تكثر حلقات الخير والعاملون لها ، ولكن على أن يكون ذلك كله مستقيما على أصول الشريعة وفروعها وألا يكون على حساب واجبات أخرى .

٥ – لقد ظهر من خلال التجربة للحركة الإسلامية المعاصرة أن الشىء إذا لم تكن أبعاده واضحة لا يؤتى ثماره ، والحركة الإسلامية المعاصرة اعتمدت التربية الصوفية فكراً وسلوكاً بشكل مجمل ، فقد ذكر الأستاذ البنا فى « رسالة التعاليم » كيف أن مرحلة من المراحل طابعها صوفى من جانب ، وذكر فى «رسالة المؤتمر الخامس » أن من خصائص دعوتنا أنها حقيقة صوفية ، وترك فى مذكرات لمريد التربية الخاصة الحرية فى أن يسلك طريق ذلك ، وذلك فى معترك الكلام عن موقفه من التصوف ، ولكن الذى حدث أن تفصيلاً سَلَفياً فى السير إلى الله لم يتم فكان من آثار ذلك أن كثيرين من أبناء الحركة الإسلامية كانوا يستشعرون فراغاً وخواءً روحياً فأدى ذلك ببعضهم إلى السلوك على يد شيخ أو شيوخ لم يعرفوا حقيقة الدعوة الإسلامية المعاصرة وضرورتها فحرفوهم أو صرفوهم عن واجبات هى فى الذروة من فرائض الله فى هذا العصر .

٦ – وأخيراً .. فإن عصرنا عصر الشهوة وعصر النزوة وعصر المادية ، ولا بد أن نقابل هذه الأشياء فيه بما يكافئها ويقابلها ، وبجزم أقول : إن التربية الصوفية وحدها هى التى تقابل ذلك : فالشهوة لا يحل مشكلتها المقال وحده بل لا بد من

(١) الكهف : ٢٩ (٢) الإسراء : ١٥

الحال ولا بد من البيئة والتربية ، والمادية لا يكافئها الكلمة وحدها بل لا بد من الشعور والذوق والإحساسات الإيمانية مع المقال ، والتمرد لا يعالَج بالكلمة وحدها بل يعالَج بالإخبات لله والتقوى والورع والأدب ... وهذه طريقها العملى هو التصوف .

فإذا اتضح هذا كله لم يبق إلا أن يناقش مناقش : ولماذا اسم التصوف؟ والجواب كما قلت من قبل : ولماذا اسم النحو ؟ ولماذا اسم البديع ؟ ولماذا اسم الصرف ؟ إنه مجرد اصطلاح على علم نشأ كما نشأت بقية الاصطلاحات وتأكد خلال العصور .

ومن الابتداء أحب أن أسجل - ولو كررت - أكثر من أمر حول هذه الرسالة:

١ - إننى أريد فى هذه الرسالة أن أضع قدم المسلم فى طريق السير إلى الله ليذوق حقيقة الإيمان ، وبنفس الوقت أريد أن يتعرف المسلم على معنى الحقيقة الصوفية التى هى إحدى سمات دعوة الأستاذ البنا رحمه الله ، ولم أرد أن أستوعب موضوع التصوف من بدايته إلى نهايته .. فذلك بحث هو أليق بالدراسات العليا وبأهل الاختصاص ، وأنا أكتب لكل إنسان .

٢- كما إننى أريد من هذه الرسالة ورسالة « جولات فى الفقهين » أن أضع قدم المسلم على الطريق للدراسات الصوفية بحيث يقرأ كتب التصوف وبيده ميزان أو مصباح على ضوئه يسير ، وبه يزن ما يقرأ ، ومن ثَمَّ فأنا لا أعتبر هذا الكتاب إلا سلماً للقراءة فى كتب التصوف وخاصة كتب : المحاسبى والغزالى - رحمهما الله - وخاصة الرسالة القشيرية للعالم الفارس المجاهد أبى القاسم القشيرى ، ولا أنسى أن أذكّر برسالة المسترشدين للمحاسبى وتعليقات الشيخ عبد الفتاح أبى غدة حفظه الله عليها .

٣ - ليست هذه الرسالة - كما سنرى - بديلاً عن الصحبة والاجتماع ، ولا تغنى عن توجيهات الشيوخ العالمين العاملين الواعين البصيرين بأحوال العالم وأحوال المسلمين ، والقادرين على نقل الإنسان من حالة دنيا إلى حالة عليا فى الصلاح ، ولكنها تدل على النوعية التى ينبغى أن يبحث عنها الإنسان ليأخذ عنها ، وتدله على طبيعة الأخذ وتحذره من جوانب الخطأ ، وهى فى الوقت نفسه

كافية كنقاط علام على الطريق إلى الله إذا فقد الإنسان أمثال هؤلاء ، أو هي زاد الطريق ريثما يعثر الإنسان على أحد منهم يستريح للأخذ عنه عقل العالِم ويستروح له قلب الفقيه ، ثم إذا أخذ منه أخذ على بصيرة ، على أنه إذا التزم الإنسان بما فيها فإنني مطمئن إلى أنها تغنيه وتكفيه فى سيره إلى الله بما فيه نجاته عند الله إن شاء الله ، ثم إننى أجيز كل مسلم أحس من نفسه فهماً صحيحاً لها وطبّقها وظهرت عليه آثار التطبيق أن يقرأها وأن يربى عليها وخاصة طُلاّب العلم من خريجى كلية شريعة أو أزهر أو متخرجين على شيوخ .

٤ - إننى لم أبن فى هذه الرسالة على فراغ ، ولم أنشىء علماً من عند نفسى ، بل أخذت الكثير مما تيّسر لى أن أقرأه من كتب الصوفية ، كما أن لى تجربتى ، ونحن فى عصر يمر على هذه الأمة يختلط فيه الخير بدَخَن ، قال حذيفة سائلاً رسول الله ﷺ : فهل بعد الشر من خير ؟ قال : « نعم ، وفيه دَخَن » (١) أذكر هذا لأنه قد يقول قائل : إن كاتب هذه الرسالة قد نقل النقل الفلانى عن الكتاب الفلانى الذى فيه كيت وكيت مما قد أعتبره أنا فى نفسى من الدَخَن الكثير ، يفعل ذلك ليسفه الرسالة وصاحبها ويهدم قيمة هذا الجزء الذى نقلته، وإنى لأرجو أن لا يقع المنصف فى مثل هذا لأن الخير قد يختلط بالدَخَن فقد نجد كتاباً فيه الدَخَن الكثير ولكن فيه الخير الكثير أيضاً ، فإذا كان الأمر كذلك فلا يصح أن يحول بيننا وبين أخذ الخير وجود هذا الدَخَن ، كما لا يصح لإنسان أن يلزمنى بكل كلمة قالها مؤلف فى كتاب على أن كلمته تمثل رأيى بمجرد أننى نقلت عبارة أو سريت على مسرى صاحب هذا الكتاب فى شئ منه .

٥ - إننى أفهم حركة الأستاذ البنا ودعوته على أنها حركة حاولت أن تجمع فيها كل الخير الموروث محررة إياه من دَخَنه وكل الخير اللازم لهذه الأمة على أن يكون بلا دَخَن ، بل إننى أفهم أن هذا هو الواجب الأول للحركة الإسلامية المعاصرة . لقد انطلق العمل السياسى فى الأرض الإسلامية بلا ضوابط

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

ولا قيود وأراده الأستاذ البنا بناءً منضبطاً بالإسلام خالياً من الدَخَن منطلقاً على أساس صحيح .

وانطلقت الحركة السَلَفية فى أكثر الأقطار بمفاهيم غامضة ، وأحياناً خاطئة، ويطرق يختلط فيها الهدم بالبناء ، فأرادها الأستاذ البنا سَلَفية منضبطة واضحة المعالم تعرف ما ينبغى تهديمه وما ينبغى بناؤه .

وورثت الأمة الإسلامية إرثاً ضخماً من كتب التصوف ودوائره المتمثلة بمئات الطُرق الصوفية ، وفى خضم الإرث تجد خيراً كثيراً ودَخناً كثيراً فأرادها حقيقة صوفية .. وقل مثل ذلك فى كل شيء ، ولم يكن حسن البنا رحمه الله مخطئاً عند ما جعل من سمات دعوته أنها حقيقة صوفية لأمور :

(أ) لأن التصوف نزعة أصيلة فى النفس البَشرية فلا بد أن تكون جزءاً من دعوتنا ، ولا بد أن تكون لنا مدرستنا الخاصة فيها .

(ب) لأنه ليس أمامنا خيار فى الرفض المطلق للإرث الصوفى ولا فى القبول المطلق فكان لا بد من وجود ميزان للأخذ وميزان للرفض .

(جـ) إنه بدون الاستفادة من التجربة الصوفية قد لا نستطيع أن نعالج الكثير من أمراض النفس البَشرية التى عقَّدتها مسيرة الحياة وطبيعة العصر ، فكما أن الكثير من المسائل اليومية احتجنا للإجابة عليها لرأى الفقيه ، فإن الكثير من المسائل العقلية والروحية والنفسية نحتاج فيها لتجربة المجرِّب ، وفيما كتبناه فى رسالة « جولات » وفى هذه الرسالة ما يكفى للاقناع بأن الأستاذ البنا كان على غاية الصواب إذ جعل من سمات دعوته الرئيسية أنها حقيقة صوفية .

٦ - لقد جعل الأستاذ البنا رتبة النائب واحدة من رتب العضوية داخل الجماعة الإسلامية ، وإننى إذ أعتبر أن نقطة البداية فى صحة أمتنا هو المجدِّد -كما أوضحت ذلك فى رسالة « من أجل خطوة إلى الأمام » .. من « سلسلة فى البناء » - فإننى أعتبر أن وجود طبقة من الوراث الكاملين يغطون احتياجات الدعوة بما يسع الأمة ، أعتبر ذلك هو الخطوة اللاحقة التى لا بد منها

بعد وجود المجدِّد ، وأى فشل فى ذلك إنما هو فشل فى الصميم ، وإننى أعتبر أن رتبة النائب فى الجماعة هى التى تقابل كلمة الوارث الكامل لرسول الله ﷺ وهى التى تقابل رتبة الشيخ المربى فى اصطلاح الصوفية ، وإننى أحلم من خلال هذه الرسالة أن أساعد على وجود النائب فى الحركة الإسلامية بحق فلا تبقى هذه الرتبة بلا مضمون صحيح .. إن الصوفية عندهم اصطلاح « المرشد الكامل» ولقد كان الأستاذ البنا مرشداً كاملاً بشهادة كبار الصوفية أنفسهم وكان كذلك مجدِّدا ، والإخوة النواب هم خلفاؤه الحقيقيون وهى قضية يجب أن تأخذ مضمونها الكامل فى الدعوة . ولا يصح أن نربط بين هذه الرتبة وبين زى بعينه فحتى الصوفية تجاوزوا هذا المعنى فكم من مرشد عندهم لا يقيد نفسه بزى العلماء أو هيئة تخالف ما ألفه الناس ، هذا مع حرصنا على الزى الإسلامى والهيئة النبوية ، إن هذا كله يجعل هذه الرسالة جزءاً من البناء الإسلامى .

* * *

لقد جربتُ كثيراً ورأيتُ كثيراً ونادراً ما وجدتُ كمالاً فى النفس أو إحساناً فى السلوك أو قدرة على التعامل العاقل إلا إذا وُجِدَت تربية إسلامية صوفية صافية ، وذلك لأن مفاتيح النفس البَشرية إنما هى فى هذه التربية وأصولها وقواعدها لأن الصوفية هم الذين ورثوا عن رسول الله ﷺ تربية النفس وتزكيتها وتخصصوا لذلك وتفرغوا له وفطنوا لما لم يفطن له غيرهم ، وقامت لهم فيه أسواق من التجارب الثرة فى كل عصر ، فما لم يأخذ الإنسان عنهم تبقى نفسه بعيدة عن الحال النبوية ، إن الصوفية هم الذين ملكوا العلم الذى تتهذب به النفوس البَشرية ، إن فى علاقتها مع الله عَزَّ وجَلَّ أو فيما سوى ذلك من القدرة على التعامل مع الناس .. ولقد درجت الحركات الماسونية على أن تسمى الإنسان الذى لم ينتسب إلى المحافل الماسونية حجراً غشيماً لأنه ليس منحوتاً بحيث يمكن أن يأخذ محله المناسب فى بناء المجتمع ، والذى نقوله : إن الماسونية

يمكن أن تنحت الحجارة ولكن تبقى الحجارة حجارة فى قسوتها ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ (١) ، لكن التصوف والبيئات الصوفية هى القادرة على إيجاد الإنسان فى كمالاته كلها ، الإنسان الذى يقوم بفرائض العبودية لله ، والإنسان الذى يقدم أعظم العطاء فى باب التعامل مع الآخرين فيقوم بذلك مجتمع كله أدب وكله تراحم وكله عطف وكله مودّة وكله إيثار وكله لطف .. لكن خلط بعض الصوفية الخير بكثير من الدَخَن فأثرّ على الهيكل العام للبناء ، ومهمتنا فى هذا العصر أن نوجد التربية الصوفية الكاملة الصافية وذلك بزرع بيئات صوفية صافية على أن يأخذ التصوف محله فى مجموع الإسلام فلا يكون ملاذاً لكسل أو هرباً عن جهاد ..

* * *

وهناك ناس يطرحون دائماً سؤالاً وفى كل حال إذا أعيتهم الحجج وهو : أليس فى الكتاب والسُنّة ما يُغنى عن هذا الكتاب ؟ والجواب : نعم .. ولكن هذا الكتاب يجمع المثل إلى المثل ، ثم إنه ليس كل إنسان بقادر على أن يقرأ الكثير ويستوعب الجميع ويربط بين المواضيع ، ولا بد للإنسان من أساس موضح ونقطة انطلاق سريعة المتناول .. ومن ثَمَّ كان هذا الكتاب .

فإذا كان الكتاب مقّيداً بالكتاب والسُنّة ومحرراً على ضوء ذلك .. فالإنكار عليه خطأ لأن المنكِر عليه ينبغى أن ينكر على أى كتاب أُلّف ، إذ ليس فى الكتاب والسُنّة ما يَغنى ويكفى ..

وهذا الذى ذكرته فى الجواب ههنا هو فى الحقيقة السر فى نشأة هذا العلم ونشأة كل علم ، لقد وجدَ علم التصوف واستقر .. وكما قررنا فى رسالة «جولات » لم يكن ممكناً ألا يوجد ، وأن لا يستقر ، فعندما تقرأ الكتاب والسُنّة تجد كلاماً كثيراً عن القلب والإيمان والذوق وأمراض القلوب ودواء هذه الأمراض ، وتجد كلاماً عن صمم القلب وعماه وعن سلامته وسقمه وعن تقواه وفسوقه ، وعن النفس البَشرية عن زكاتها وعن فجورها ... وأمثال هذه

---

(١) البقرة : ٧٤

المعانى ، فشئ عادى أن يسجل علماء المسلمين كل ما له علاقة بهذه المعانى وهذه القضايا ضمن سجل خاص ، وأن ينشأ نتيجة لذلك علم خاص فى كل ما له علاقة فى حيثيات هذه المعانى ، وكان هذا العلم هو علم التصوف والسلوك .

فليس المستغرب إذن أن يوجد هذا العلم ، بل المستغرب ألا يوجد إذ دأب علماء المسلمين أن يكتبوا فى كل موضوع على حدة فيضموا الشئ إلى نظيره ومثيله ، ويشرحوا ويفصّلوا ويجيبوا على أى سؤال له علاقة فى هذا الموضوع ، ومن ثَمَّ وُجِدَ العلم وتطور وحدث له ما يحدث لكل علم من التصدى له ممن ليس من أهله والتأليف فيه ممن يتقنه أو لا يتقنه ومن منحرف فيه ومستقيم ، إنه ليس غريباً أن يوجد العلم الذى يسجل فيه المسلمون خلال تاريخهم ملاحظاتهم وتجاربهم الخاصة فى موضوع السير من الغفلة عن الله إلى اليقظة ، ومن الشرود إلى الالتزام ، ومن مرض النفس والقلب إلى صحتها ، ولكن المستغرب ألا يوجد، فإذا وجدَ العلم ووُجدَ المختصون فيه ووُجِدَ الآخذون له فقد قام سوقه ، كيف وهو علم يحتاجه كل مسلم .

وإذا كان كذلك فشئ عادى أن تقوم له مدارس وأن يكثر فيه الأخذ والرد وأن توجد أشياء كثيرة ترافق هذا العلم وتعتبر من مكملاته أو لوازمه ، وشئ عادى أن يكون الطريق الأقصر للراغب أن يتعلم أو يتعرف أو يعمل ، أن يقرأ هذا العلم فى كتبه وأن يأخذه من معدنه ، وفى هذا المقام يقال ما يقال فى غيره من العلوم: الكتاب والسنة فيهما بيان كل شئ ومن ذلك ما له علاقة فى هذا العلم ولكن ..

هل كل إنسان أحاط فى الكتاب والسُنَّة وعنده قُدرة أن يجمع النظير إلى النظير وأن يعرف تفصيل المجمل وأن يضع الأمور فى مواضعها ؟ وهل الناس متساوون فى الفهم وفى بُعد النظر وفى عمق الإدراك ؟ إن الذين يُنَفِّرون المسلم العادى عن أخذ العلوم من كتبها وأهلها يُطَوِّلون عليه الطريق بل يمنعونه من الوصول ، فكما لا يقال للمسلم : تتبع موضوع الناسخ والمنسوخ من كتب التفسير إن أردته ، وكما لا يقال للمسلم : تتبع أسباب النزول من مطولات كتب التفسير مع وجودها فيها ، بل يقال له : اقرأ كتاب الناسخ والمنسوخ لفلان وأسباب النزول لفلان ، فهكذا هنا وفى كل علم فذلك الطريق الأقصر لتحصيل العلم والتعرف عليه .

* * *

وإذا كان لا بد من وجود علم فلا بد كذلك من تحريره وتنقيحه ، فكيف إذا حدث لهذا العلم ما حدث لعلم التصوف من كونه سار فى واد والتصوف العملى سار فى واد آخر . ونقصد بعلم التصوف ههنا التصوف العلمى المحرر على ضوء الكتاب والسُنَّة والمرضى من قِبَلِ العلماء الراسخين فى العلم ، فإذا اتضح هذا كله فإن عذرنا فى كتابة هذه الرسالة أصلاً وفى تسميتها هذه التسمية أصبح قائماً ..

وإنما أطلنا فى الاعتذار لكتابة هذه الرسالة وأطلنا فى تبيان الضرورات التى ألجأتنا لكتابتها لأن كثيرين من إخواننا الذين نحبهم ويحبوننا يتمنون لنا ولأنفسهم أن نبقى فى معزل عن المعارك العلمية الدائرة رحاها بين المسلمين اليوم لنكون أداة جمع للجميع على الخير ونشكل قاسماً مشتركاً بين الجميع لصالح معركة الإسلام ، وأنا أحرص على ما يحرصون ، ولكن عملية البناء لأنفسنا لا تعفينا عن أن نطرق هذه المواضيع ، وعملية البناء تأتى دائماً فى الدرجة الأولى ..

* * *

ولقد أهملتُ فى هذا الكتاب بحث كثير من الأمور التى أعتبر أن بحثها لا يخدم من الناحية النظرية أو العملية إلا خدمات استثنائية لا تذكر ، لاعتقادى أن مثل هذه الأمور يجدها الإنسان فى أى كتاب ولا يترتب على قراءتها فى هذه الكتب ما يمكن أن يسبب ضرراً ، ولذلك أعفيت نفسى من الإشارة إلى كثير من المباحث حرصاً منى على أن تبقى هذه الرسالة مختصرة جداً لا يمل منها قارئها ولا يضيع فى ثنايا الحيثيات عن الجوهر الأصيل وأنا من طبيعتى أننى لا أحب أن أكتب فى أمر إلا حيث أجد ضرورة لذلك وبالقدر الذى تحتاجه هذه الضرورة ، وههنا الأمر كذلك ، فإذا رأى راءٍ أننى لم أسر فى هذا التأليف على الطريق المعتادة عند المؤلفين من كونهم يهتمون بذكر الاسم وسبب التسمية وغير ذلك مما يعتبرونه أركاناً فى التأليف فى أى علم ، فذلك لاعتقادى أن هذا متوافر فى أى كتاب آخر ، والذى أحرص عليه هو أبعد من أن تكون هذه الرسالة إضافة كتاب فى علم – على ما لذلك من مبررات – ولكنى أعتبر ذلك

مهمة المختصين ولا أعتبر نفسي واحداً من هؤلاء في أي اختصاص ، وإنما أنا مساعد في عملية البناء ، فما تقتضيه هذه العملية أعتبر من واجبي أن أبذل فيه جهداً بقدر استطاعتي ، أقول هذا معتذراً عن القصور الذي يمكن أن يؤاخذني فيه قارئ هذه الرسالة إذا لم يجد فيها بعض ما يجب أن يكون ، على أنني أظن أنني لم أفرِّط في جوهر ينبغي أن يُعرف ، ولا يصعب على القارئ أن يمد يده إلى مثل الرسالة القشيرية - لأبي القاسم القشيري ، أو لكتاب قواعد التصوف للشيخ أحمد الزروق ليجد جواباً على أي موضوع أهملته أو أهملت التوسع فيه ، وكم أتمنى لو طبع هذان الكتابان مع التعليق المختصر عليهما من فقيه صوفي ..

وأخيراً أقول : إن الكتابة في موضوع السير إلى الله ضرورة تقتضيها ضرورات متعددة ، فهذا الإنسان له ما يسمى بالنفس وما يسمى بالعقل وما يسمى بالقلب وما يسمى بالروح ، وكل واحد من هذه المعاني عوالم عجيبة غريبة لا تنكشف للإنسان إلا من خلال السير إلى الله عَزَّ وجَلَّ ، ومن ثَمَّ كان السير إلى الله عَزَّ وجَلَّ ضرورياً للإنسان ليعرف الإنسان ذاته وما انطوى عليه ، ومن ثَمَّ كان الإنسان الذي لا يسير إلى الله لا يعلم شيئاً كثيراً عن آفاق النفس وآفاق الذات وهذا سبب أول يدفع الإنسان نحو السير إلى الله عَزَّ وجَل . والسير إلى الله عَزَّ وجَلَّ هو الطريق الوحيد للمعرفة الصحيحة الذوقية الشعورية لله عَزَّ وجَلَّ ، فإن الإنسان يجهل الكثير عن خالقه عَزَّ وجَلَّ ما لم يسر إلى الله عَزَّ وجَلَّ حتى لو كان مؤمناً ، ففارق كبير بين الإيمان العقلي النظري وبين الإيمان الشعوري الذوقي ، وهذا سبب ثان يدفع الإنسان إلى السير إلى الله عَزَّ وجَلَّ. والنفس البشرية تمرض ولا تصح إلا بسلوكها الطريق الصحيح إلى الله عَزَّ وجَلَّ، والنفس البشرية مطالَبة بعظيم من الأخلاق ولا تنال الفلاح بدونه وهذا لا تتحقق به بدون السير إلى الله عَزَّ وجَلَّ ، وهذا سبب آخر يدفع إلى السير إلى الله عَزَّ وجَلَّ .. ومن ثَمَّ كان السير إلى الله عَزَّ وجَلَّ واجباً على درجات تختلف باختلاف الاستعدادات ، فلا بد من سير ، وعلى قدر الهمم تكون درجات

السائرين ، قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [١] ، وقال : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾[٢] ، وقال عليه الصلاة والسلام فى الحديث الصحيح : « لو لكان الإيمان فى الثريا ، لناله رجال من أبناء فارس » [٣] ..

والسير إلى اللّٰه عَزَّ وجَلَّ يقتضيه التنفيذ الواعى الحكيم لأوامر اللّٰه عَزَّ وجَلَّ فالذى لا يعرف أصول السير إلى اللّٰه والغاية منها يفوته الكثير من تنفيذ الأوامر الإلٰهية كقوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ [٤] ، وكقوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ [٥] ، كما يقتضيه تذوق المعانى الإسلامية الواردة فى الكتاب والسُنَّة كقوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [٦] ، وكقوله عليه الصلاة والسلام : « اعبد اللّٰه كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » [٧] .. فالسير إلى اللّٰه ضرورى ، والكتابة فيه ضرورية ، ودفع الأوهام فيه ضرورى ، وإنهاء الغلو فى شأنه ضرورى .. وكل ذلك دافع إلى كتابة هذه الرسالة .

على أنه كما قلنا من قبل : « إننا نعتقد أن كل مسلم سائر إلى اللّٰه ما دام يفعل ما أمره اللّٰه عَزَّ وجَلَّ وله حظ من مقامات السير بذلك ، ولكن البحث عن الكمال والوصول إليه وإتيان البيوت من أبوابها ومعرفة المصادر والموارد والبدايات والنهايات والحدود والقيود للمقامات كلها - دنياها وعلياها - هذا الذى يطلق عليه اسم السير الكامل . ومن هنا ندرك غلط الذى لا يتصور أى سير إلى اللّٰه عَزَّ وجَلَّ إلا من خلال التصوف والسير فيه وهو شئ ذكرناه من قبل رداً على مَن ينكر وجود علم التصوف ورداً على غلاة الصوفية الذين لا يتصورون سيراً إلى اللّٰه بدون سير على أيدى أهل الطريق ، إذ الصحابة رضوان اللّٰه عليهم - ومَن

---

(١) الشمس : ٩ - ١٠ . (٢) الحج : ٣٧ (٣) رواه البخارى .
(٤) العلق : ١ (٥) المزمل : ٨ (٦) القصص : ٨٨
(٦) رواه أبو نعيم فى الحلية وهو حديث حسن ومعناه فى الصحيح .

بعدهم إلى أن تقعدت قواعد علم التصوف - ما كان لهم هم إلا فى دراسة الكتاب والسُنَّة وتطبيق ذلك . فإذا لم يكن هذا سيراً .. فما هو السير ؟ ومن هذه النقاط البسيطة يستطع المسلم أن يدرك بعض ملامح هذه الرسالة فلنكتف فى هذه المقدمة بذلك . ولشعورنا أن مجموعة من الأمور تحتاج إلى تصحيح قبل البدء بعرض موضوعات هذه الرسالة الخاصة بالتصوف جعلنا الباب الأول فيها « مدخل إسلامى عام » فإلى الباب الأول ..

* * *

الباب الأول

مدخل إسلامي عام

الإسلام كما قال الأستاذ البنا : « نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً ، فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة ، وهو خُلُق وقوة أو حق وعدالة ، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء ، وهو مادة وثروة أو كسب وغنى ، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة ، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواءً بسواء » .

وقال رحمه الله : « فإننا نعتقد أن الإسلام معنى كامل ينتظم شئون الحياة جميعاً ويفتى فى كل شأن ويضع له نظاماً محكماً دقيقاً ولا يقف مكتوفاً أمام المشكلات الحيوية والنظم التى لا بد منها لإصلاح الناس » .

وهذا الذى قاله الأستاذ البنا عن الإسلام هو عين الحق فى شأن الإسلام هو من أهم البديهيات التى غابت عن أذهان الكثير من المسلمين فضلاً عن غيرهم مع أن نصوص القرآن واضحة فى هذا الشأن قال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [1] فكلمة : « تَبياناً لَكل شئ » واضحة فى أن القرآن قد غَطى الحياة البشرية كلها بإعطائها الجواب الشافى فى شئون الهداية فى كل أمر ، وإنما غطى القرآن الحياة البَشرية إما بالجواب المباشر وإما بقول رسول الله ﷺ وفعله وحاله الذى هو شرح للقرآن ، وإما بما أحال عليه الكتاب والسنّة من طرق من خلالها تُستنبَط أحكام الإسلام فى الأحوال العادية والأحوال الاستثنائية بما يسع الزمان والمكان والأشخاص والأحوال ، وههنا مواضيع متعددة غفل عنها الكثيرون أو جهلها الكثيرون ، فكما غفل كثير من الناس أو جهلوا قضية شـمول الإسـلام ، فقد

---

(١) النحل : ٨٩

جهلوا أو أغفلوا قضية أخرى وهى قضية الإيمان ، إذ الإيمان بالإسلام كله شرط لاعتبار الإنسان مسلماً ، فإذا كان التصور العام عن الإسلام مخدوشاً فشئ عادى أن تكون قضية الإيمان نفسها مخدوشة .. وكثيراً ما يحدث لبس فى موضوع الصلة بين الإسلام والإيمان ، وكثيراً ما يحدث خطأ فى فهم النصوص التى تذكر الإيمان والإسلام فاقتضى ذلك أن نوضح هذه القضايا .

إن كلمة الإسلام تُطلق على الدين الذى أنزله الله عَزَّ وجَلَّ على محمد ﷺ والذى فصَّلته نصوص الكتاب والسُنَّة ، وهو بهذا المعنى - كما رأينا - نظام شامل كامل يسع مسائل الحياة البَشرية كلها ، ففيه العقائد وفيه العبادات وفيه الشرائع وله مؤيداته ، فهو عقائد وشرائع وشعائر ، وهو تغطية كاملة شاملة لأمر الدنيا والآخرة بما يسع الزمان والمكان . وتطلق كلمة الإسلام صفة للإنسان الذى دخل فى الإسلام فيقال : فلان أسلم بمعنى دخل فى الإسلام ، ويقال إسلام فلان بمعنى استسلام فلان وعمله فى هذا الدين ، ومن ثَمَّ تطلق كلمة الإسلام على العمل فإذا أسلم قلب الإنسان وجوارحه لله فى كل ما كلَّفه الله به ظاهراً وباطناً فذلك المسلم الحق قال تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ (١) ، وإذا أسلمت جوارح الإنسان دون قلبه فذلك المنافق ما دام كذلك ، وأما الإيمان فيُطلق على مجرد التصديق القلبى مع الإذعان كما يُطلق أحياناً على إيمان القلب وما يقتضيه ذلك الإيمان من آثار عملية وذلك هو الإيمان الكامل الذى وقر فى القلب وصدَّقه العمل ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾(٣) ، وعلى هذا فالإيمان الكامل تصديق القلب وإذعانه

---

(١) الزمر : ٢٢ (٢) الأنفال : ٢ - ٤ (٣) الحجرات : ١٥

مع عمل الجوارح بمقتضيات ذلك . فالإيمان الكامل والإسلام الكامل سواء فهما بمعنى واحد ، إذ الإسلام الكامل استسلام القلب والجوارح ، والإيمان الكامل هو تصديق القلب وتصديق الجوارح ، ومن ثَمَّ نجد القرآن يقول : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) فهؤلاء مسلمون ومؤمنون ، إيمانهم هو عين إسلامهم وإسلامهم هو عين إيمانهم لأنهم مؤمنون كُمَّل ومسلمون كُمَّل ، والإسلام الكامل هو عين الإيمان الكامل .

وأحياناً يتخلف الإيمان عن الإسلام كأن يدخل أحد فى الإسلام ويعمل بأعماله ولم يصل نور الإيمان الكامل إلى قلبه . قال تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (٢) فههنا عمل بالإسلام وتخلف فى نورانية القلب فى الإيمان ، إلا أن الآية تشعر أن العامل بالإسلام هو على الطريق للتحقق بالإيمان القلبى ، فههنا إذن نجد فارقاً بين كلمتى الإسلام والإيمان ، إذا أدركنا مبدئياً هذه المعانى أصبحنا نستطيع أن نفهم لماذا تُذكر بعض الأمور أحياناً على أنها من الإسلام ولماذا تُذكر نفس هذه الأمور على أنها من الإيمان ، ولماذا تذكر بعض الأمور فى سياق الكلام عن الإيمان المحض بمعنى التصديق ، وأحياناً تذكر بعض الأمور فى سياق الكلام عن الإسلام بمعنى عمل الجوارح واستسلامها ، وفى هذه الجوانب كلها يقع نوع من الغلط أو يوجد نوع من القصور فى الفهم والتصور .

والملاحَظ أنه كما حدث قصور فى التصورات حول الإسلام فقد وُجِدَ قصور فى التصورات حول مقامات السير فى دين الله ، وقصور فى العمل فى هذه المقامات نفسها هو أثر عن القصور فى التصور العام .

إنه فى الأحوال العادية إذا قبلتُ الدخول فى دين الله - الإسلام - فعليَّ أن أعرف ماهية دين الله ، وعليَّ أن أعرف ما هو واجب الوقت فى حقى وأن أنفذه سلباً أو إيجاباً ، تنفيذاً لأمر أو انتهاءً عن نهى ، وسيترتب على عملى فى

---

(١) الذاريات : ٣٥ - ٣٦ (٢) الحجرات : ١٤

الإسلام أن يتنور قلبى وأن يزداد نور الإيمان فيه ، وكلما زدتُ فى العمل ازداد نور الإيمان حتى يرتقى القلب إلى مقام الإحسان : « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » [1] . إذ مقام الإحسان هو ذروة مقام الإيمان بدليل الحديث : « أفضل الإيمان أن تعلم أن الله شاهدك حيثما كنت » [2] . وبقدر نمو الإيمان والتحقق بمقام الإحسان سينعكس ذلك على سلوكى - استقامةً وعملاً وإحساناً - وبذلك أتحقق بالتقوى التى هى هبة الله لعباده قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [3] وبقدر الاستمرار على تقوى الله نكون مؤدين حق الشكر ونحن فى سبيل الترقى فيه وهو أعلى المقامات وأرقاها ، قال تعالى : ﴿ اعْمَلُواْ آلَ دَاوُودَ شُكْراً ، وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [4] .

وما التقوى إلا الطريق الموصل لهذا المقام ، قال تعالى : ﴿ فَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [5] إنه بقدر وضوح قضية الإسلام وما يجب علىَّ فيه من عمل هو واجب الوقت . وهذا يختلف سعة وشمولاً باختلاف أحوال الناس ، وبقدر وضوح قضية الإيمان فى جانبيه العملى والذوقى ، وبقدر وضوح قضية الإحسان فى جانبيها القلبى والذوقى والعملى ، وبقدر وضوح قضية التقوى فى جوانبها القلبية والتصورية والسلوكية ، وبقدر وضوح قضية الشكر فى القيام بحقوق العبودية الكاملة لله شكراً ، إنه بقدر هذا كله يكون السير فى دين الله صحيحاً ، وهذه مواضيع كثيرة فصلت فيها فى أمكنة متعددة من سلسلة « فى البناء » والأخطاء فى شأنها كبيرة وكثيرة ، والأخطاء فيها كثيرة ، ولكثرة الأخطاء فيها فلا علينا لو عرضنا هذه القضية بتوسع أكثر مكررين بعض المعانى كعادتنا عندما نريد من القارئ أن يتنبه لقضية ما بشكل أدق .

* * *

---

(١) رواه أبو نعيم فى الحلية ، وهو حديث حسن .

(٢) رواه الطبرانى وأبو نعيم ، وهو ضعيف .

(٣) محمد : ١٧ (٤) سبأ : ١٣ (٥) آل عمران : ١٢٣

رأينا أن الإسلام دين الله ، وأن الله عَزَّ وجَلَّ لم يترك قضية إلا وقد ذكر حكمها إما صراحة أو استنباطاً ، فالإسلام على هذا هو مجموع أحكام الله فى كل قضية : فى العقائد والعبادات وأنظمة الحياة ، ويدخل فى الإسلام الإيمان بنصوص الكتاب والسُنّة وبطرق استنباط الأحكام من الكتاب والسُنّة ، وعلى هذا فالإسلام شئ واسع إلى حد لا يُتصور ، ويكفى لنتصور هذه السعة أن ينظر الإنسان إلى هذا الإرث الضخم من الكتب الفقهية التى تبلغ عشرات الآلاف ، وإلى هذا الإرث الضخم فى كتب أصول الفقه وفى كتب العقائد وفى كتب التصوف وفى غير ذلك من التآليف من تفاسير وشروح لكتب السُنّة ... إلى غير ذلك ، فإذا كان هذا هو الإسلام فما مجموع ما يُكلّف به الإنسان ؟ وماذا ينبغى أن يأخذ كل فرد على حدة من هذا الدين ؟ وما هى مقامات السير فى هذا الدين إلى الله عَزَّ وجَلَّ ؟

إن على الإنسان أن يقبل هذا الدين ويؤمن به ، فإذا قبله فعليه أن يبدأ العمل فيما هو مفروض عليه منه أو مندوب ، وأن يترك ما هو محرَّم عليه أو مكروه ، فيبدأ يتعلم ويتعرف ويأخذ حظه من الصلاة والزكاة والصوم ، وإذا جاءت أشهر الحج - وكان عليه حج - ويذكر الله ويقيد نفسه بالكسب فلا يأخذ إلا حلالاً فهذا حظه من الإسلام بمعنى الاستسلام العملى لله وبالمعنى الوارد فى قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [١] ومن الآية ندرك أن استمرار الإنسان بالقيام بأعمال الإسلام يرشحه ليأخذ حظه من مقام الإيمان القلبى ، لاحظ قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ يقول النحاة أن « لمَّا » تؤذن كثيراً بتوقع ثبوت ما بعدها نحو ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ [٢] أى إلى الآن لم يذوقوه وسوف يذوقونه . طبِّق هذا المعنى على قوله : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ أى إلى الآن لم يدخل وسوف يدخل إذا استمررتم على ما أنتم عليه ، ولاحظ أنه سيدخل إلى القلوب ، والمراد بالقلوب هنا القلوب

---

(١) الحجرات : ١٤ (٢) سورة ص : ٨

التى فى الصدور قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴾ (١) . وهذا الموضوع سنتوسع فيه فيما بعد . إن الانتقال من الإيمان العقلى إلى الإيمان القلبى الذوقى هو المقام الثانى من مقامات السير إلى الله فى دين الله عَزَّ وجَلَّ ، إن كثيرين يبقى إيمانهم فى حدود الأعمال الظاهرة والأقوال الظاهرة لاحظ هذا الحديث الصحيح : « سيخرج قوم فى آخر الزمان حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام ، يقولون من قول خير البرية ، يقرأون القرآن لا يجاوز إيمانهم حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإنَّ فى قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة »(٢) . فههنا ظاهرة عبَّر عنها الحديث : « إيمانهم لا يجاوز حناجرهم » فهو لا ينتقل من الحناجر إلى القلب: أى لا يتجاوز الكلام إلى الفؤاد . إنها ظاهرة مَرضية تعنى انقطاع الإنسان عن السير فى دين الله ووقوفه عند المرحلة الأولى منه ... فإذا استطاع الإنسان أن يتجاوز هذه المرحلة فيصل عندئذ الإيمان إلى قلبه فإنَّ هذا الإيمان يزداد ويزداد حتى يصبح شعوراً بصفات الله عَزَّ وجَلَّ وأفعاله ، وعندئذ يصل الإنسان إلى مقام الإحسان الذى عبَّر عنه الرسول ﷺ بقوله : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (٣) . إن مقام الإحسان هذا هو ذروة الإيمان ، فإذا تمكن الإيمان فى القلب أصبح إحساناً ولذلك ورد فى الحديث : « أفضل الإيمان أن تعلم أن الله شاهدك حيثما كنت » (٤) . وبالجمع بين الحديثين ندرك أن الإحسان هو أفضل الإيمان ، ومن تعريف الإحسان فى الحديث ندرك أن الإحسان هو عبادة الله فى حالة شعورية محددة . والعبادة بشكل عام فى دين الله توصل إلى مقام فى دين الله أرقى وهو مقام التقوى قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٥) والتقوى هى مرحلة النضج الكامل للتفاعل مع الإسلام والإيمان والإحسان ، فهى علم وعمل ، وهى ملكة قلبية وسلوك ، وهى

---

(١) الحج : ٤٦ (٢) رواه الشيخان وأبو داود والنسائى .
(٣) رواه مسلم . (٤) رواه الطبرانى وأبو نعيم . (٥) البقرة : ٢١

حالة ينسجم فيها العقل مع القلب مع الجوارح ، وهى فى النهاية هبة الله لمن أسلم وعمل وأحسن قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (١) فالتقوى هبة الله لمن اهتدى ، والهداية بدايتها الإيمان بالله قال تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ (٢) والطريق إليها المجاهدة ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (٣) ، إيمان بالله يرافقه مجاهدة النفس بالقيام بالعبادة ، وأعمال الإسلام توصل إلى التقوى التى هى إيمان واتباع كتاب كما ورد فى أوائل سورة البقرة - وهو موضوع فصّلنا فيه كثيراً فى كتاب « جند الله ثقافة وأخلاقاً » - فإذا تحقق الإنسان بالتقوى أوصلته التقوى إلى مقام الشكر وهو أعلى المقامات فى السير فى دين الله تعالى ... ودليلنا أن التقوى توصل إلى الشكر قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٤) فالشكر ذروة المقامات وقليل أهله وهو مقام الرسل عليهم الصلاة والسلام ، قال رسول الله ﷺ : « أفلا أكون عبداً شكوراً »؟(٥). وقال تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ، وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾(٦) فأن يعمل الإنسان شكراً لله على منّه بأن يُسخّر كل شئ أعطاه الله إياه فى الطريق الأحب إلى الله على ضوء شرع الله دون أن يهمل أمراً لله ، تاركاً المحرّمات والمكروهات ، مقيماً الفرائض والواجبات والمندوبات ، على حالة قلبية هى حالة الشكر لله عزّ وجلّ ، إنّ هذا هو ذروة السير فى دين الله ... إذا اتضحت هذه المعانى كلها أصبح بالإمكان أن ندرك مجموعة الأخطاء التى يقع الناس فيها فى هذا الباب ، فهناك ناس يقفون عند أنّ عليهم أن يصلوا ويصوموا .. ويؤمنوا ويعبدوا .. دون أن يكون عندهم تصور عام لدين الله ، ودون أن يصلوا إلى التقوى بمعناها الواسع الذى هو الالتزام المطلق بشرع الله فى الشئون الفردية والشئون العامة وفى تحقيق الإسلام فى النفس وعلى الأرض ، ومن ثَمّ فمع أنهم يسلمون بالتقوى إلا أنهم لا يعرفون مضمونها الحقيقى وقد يتوهمون أنها المقام الأدنى من المقامات فهى دون الإحسان عندهم ، وينتج عن

---

(١) محمد : ١٧ (٢) التغابن : ١١ (٣) العنكبوت : ٦٩
(٤) آل عمران : ١٢٣ (٥) رواه البخارى . (٦) سبأ : ١٣

ذلك أن تصورهم لمقام الشكر خاطئ وبالتالى فإن تحققهم ضعيف أو قاصر ، وهناك ناس يبنون تصورهم على فهم قاصر لحديث شريف يفصلونه عن سواه من النصوص ، ويظنون أنه قد اجتمع فيه كل شئ مع أنه تفصيل لبعض المعانى وتبيان لأهمية بعضها وله محله فى مجموع الدين ، فلا يُفهم منفصلاً عن النصوص ، بل يُفهم فى محله من مجموع النصوص ، هذا الحديث هو الحديث المشهور الذى تحدث فيه رسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان - وهو موضوع توسعنا فيه فى مقدمة كتابنا عن الإسلام فليراجع هناك - فالحديث بيّن أهمية أركان الإسلام بالنسبة لمجموع الإسلام ، وبيّن ماذا يدخل فى كلمة الإيمان ، وأعطانا مفهوماً دقيقاً لموضوع الإحسان فى دين الله فهو مبيّن لدين الله من حيث إنه فصل فى قضايا مهمة فى دين الله ولا يعنى أن هذا وحده هو دين الله .

* * *

وكما وقع الكثير من الناس فى أغلاط حول ما مرّ ، فقد وقعوا فى أغلاط حول قضية التكليف والمكلف وأنواع التكاليف :

١ - من بين المخلوقات المشاهَدة كلّف الله عَزّ وجَلّ الإنسان ، وكلّف الجن من المخلوقات المغيبة عنا قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [1] فما هو التكليف ؟ ومن هو المكلف ؟ وما هى التكاليف ؟

أما التكليف فله تعريفان ، التعريف الأول : أنه إلزام ما فيه كلفة ، والتعريف الثانى : أنه طلب ما فيه كلفة ، والفارق بين التعريفين أن التعريف الأول فيه إشارة إلى التكليف بفعل الواجب وترك المحرّم ، وأن التعريف الثانى يدخل فيه فعل المندوبات وترك المحرّمات ، ومن التعريف ومن اسم التكليف نفهم أن ما كلّف الله عَزّ وجَلّ به عباده فيه شئ ما من المشقة ، فالذين يتصورون أن الدين هو لصالح الراحة فقط بمعناها العامى مخطئون ، وأما المكلّف فهو الإنسان البالغ العاقل السليم الحواس الذى بلغته دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وهو كذلك الجنى العاقل الذى بلغته دعوة الرسل وكان سليم الحواس، وقال علماؤنا:

(١) الذاريات : ٥٦

إنَّ الجن مكلَّفون من لحظة خلقهم فلا يتوقف تكليفهم على البلوغ . وأما التكاليف فمنها العقلى ومنها الفكرى ومنها العلمى ومنها العملى . والمكلِّف هو اللّه عَزَّ وجَلَّ بواسطة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فالإنسان لم يخلقه اللّه عبثاً بل خلقه ليكلِّفه ، ولم يخلق اللّه عَزَّ وَجلَّ هذا الكون بلا حكمة بل خلقه لحكمة لا تتحقق دون وجود تكليف .

٢ - وأول الواجبات هو معرفة اللّه عَزَّ وجَلَّ ، ثم معرفة الرسل ، ثم معرفة شريعة اللّه عَزَّ وجَلَّ ، ثم معرفة ما يلزم كل مكلَّف من هذه الشريعة على حدة تفصيلاً ، ثم معرفة ما يلزم لتحقيق هذه الواجبات إذ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، والالتزام بكل ما يقتضيه ذلك من عمل إن فى التعليم أو فى التطبيق كذلك من باب الواجبات ، وفى هذا المقام تجد أخطاءً كثيرة ، فمثلا التصور العام الصحيح عن شريعة اللّه فريضة يهملها الكثير ، ومجموع ما يطالَب به كل إنسان من علم وعمل قضية لا يعرف الكثير حيثياتها فيعرضونها عرضاً قاصراً مبتوراً ، ومعرفة لوازم القيام بكثير من الواجبات المفروضة تغيب عن كثير من الناس فيهملون نتيجة لذلك فرائض ، ومن ثَمَّ كان من فرائض هذا العصر البيان المستوعِب لهذه الشئون .

٣ - ويدخل فى باب معرفة اللّه : معرفة صفاته وأسمائه وأفعاله ، وما يجب له وما يستحيل فى حقه ، وما يجوز ... وهو باب واسع وقع فيه أكثر الخلق بأخطاء كثيرة وعصم اللّه أهل السُّنة والجماعة فيه قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ اللَّه عَمَّا يَصفُونَ * إلاَّ عبَادَ اللَّه الْمُخْلَصينَ ﴾ (١) ، فعباد اللّه المخلصون هم الذين وصفوا اللّه عَزَّ وجَلَّ بكل كمال ، ويدخل فى باب معرفة الرسول معرفة ما يجب فى حقه وما يستحيل وما يجوز ، ومعرفة مجموعة من المسائل فى هذا المقام . ويدخل فى باب معرفة شريعة الرسول أن يكون عند الإنسان تصور عام عن هذه الشريعة وأصولها وفروعها وبديهياتها ومعالمها ، ويدخل فى باب ما يلزم كل

---

(١) الصافات : ١٥٩ - ١٦٠ .

مكلّف من معارف تخصه أن يعرف الإنسان ما يجب عليه من مقام الإسلام ومقام الإيمان ومقام الإحسان ومقام التقوى ومقام الشكر ، ويختلف ذلك من إنسان لإنسان سعة وشمولاً ، ويدخل فى باب التعرف على الطريق لتحقيق الواجبات معرفة الطريق لأداء كل فريضة ولإقامتها سواء أكانت فريضة عينية أو كانت فريضة كفائية ، ومن جملة ذلك فى عصرنا أن يعرف الإنسان الطريق إلى جعل كلمة الله هى العليا فى قُطره وفى مجموع أقطار الأمة الإسلامية ومجموع العالم ، وهذا كله هو الأساس العملى للعمل فهناك فرائض فى باب العلم وفرائض فى باب العمل .

٤ - وهناك تكليفات كلّف الله عَزَّ وجَلَّ بها كل إنسان على حدة ، ولكن هناك تكليفات كلّف بها مجموع الأمة ، وقد أطلق علماؤنا على هذا كله تعبير : « فروض العين » و « فروض الكفاية » ، والناس كثيراً ما يغلطون فى هذا الموضوع فكثيراً ما ينظرون إلى موضوع فروض الكفايات نظرة قاصرة ، هذه النظرة القاصرة تتعطل بها فروض الكفايات ، فمثلاً من المعلوم أن فرض الكفاية يبقى فرض عين حتى يقوم - وأحياناً يتعين - إنسان ما أو مجموعة ما بعينها لإقامة فرض كفاية وعندئذ يصبح فرض الكفاية فى حق هؤلاء فرض عين ، وكثيراً ما يحدث أن قضية النظرة الشاملة لفروض الكفاية تنعدم عند بعض الناس فينعدم نتيجة لذلك التوجيه نحوها فتبقى الأمة الإسلامية فى حال قصور أو تخلف أو تأخر ، وكثيراً ما يحدث أن تغيب عن بعض الناس معرفة الطريق لتحقيق الوصول إلى فروض الكفاية كما يغيب عنهم معرفة الطريق لمعرفة الوصول إلى التحقق بفرض العين وفى ذلك ما فيه .

٥ - وقد رأينا فى هذا الباب أن المكلّف هو العاقل البالغ السليم الحواس الذى بلغته الدعوة ، فالبالغ إذن هو المكلّف ولكن مرحلة ما قبل البلوغ لها أحكامها فى شريعة الله عَزَّ وجَلَّ ، وإذا كان الإنسان نفسه غير مكلّف بها فغيره مكلّف فى حقه بأن يؤهله لمرحلة ما بعد البلوغ ، فما هى مجموع القضايا التى ينبغى أن يعطاها كل إنسان قبل البلوغ ، وكم من المسلمين يفطن لها ويعطيها

حقها ؟ إن هذه كذلك من جملة المسائل التى يقع فيها الكثير فى أخطاء أو فى تصورات قاصرة أو ضعيفة وسبب ذلك كله ضياع التعليم الصحيح وفقدان الإنسان المستوعِب لرسالة اللّه عَزَّ وجَلَّ إلا القليل ممن أكرمه اللّه عَزَّ وجَلَّ .

* * *

وكما وقع الكثير من الناس فى أخطاء حول ما مَرَّ ، فقد وقعوا فى أخطاء حول نظرتهم إلى أشياء فى ذواتهم أو من ذواتهم أو بشكل عام فى النظرة إلى ذواتهم . فمثلاً يعرف الإنسان عن نفسه أنَّ له عقلاً ، ويتكلم الإنسان عن شئ اسمه القلب وشئ اسمة الروح وشئ اسمه النفس وشئ اسمه الحياة ، وهذه الأمور كلها من ألصق الأشياء فى الإنسان ، ولكنك تجد فى هذا المقام أغلاطاً لا تكاد تُحصر منها أغلاط عند غير المسلمين وأغلاط عند المسلمين ، ولا يُستغرب القصور عند الكافر إن فاته الإدراك الصحيح لهذه الأمور ، ولكن المسلم الذى عنده الجواب الصحيح لهذه الأمور هو الذى يُستغَرب فى حقه ألا تكون واضحة لديه ، ومن ثَمَّ نجد خلطاً عند الكثيرين حول التصور عن العقل الشرعى والعقل الذى هو أداة التفكير ، وخلط فى الكلام عن جهاز التفكير الذى هو الدماغ وعن القلب الذى هو شئ آخر موجود فى الصدر ، ونجد خلطاً بين الكلام عن القلب الحسى وعن القلب الآخر ، كما نجد عدم وضوح فى التصورات عن النفس والروح . متى تكون النفس عين الروح ، ومتى تكون النفس والروح عين القلب وعين العقل ، ومتى تكون المسألة غير ذلك ؟ ثم الحياة وصلتها بهذه الأشياء . حياة الحيوان المنوى ثم حياة الجنين قبل نفخ الروح فيه ثم حياة الجنين بعد نفخ الروح فيه ، هناك أخطاء كثيرة حول هذه الأمور بعضها صغير وبعضها لا يترتب عليه شئ ، وعلى كل فإنه من المناسب أن نقول كلمة فى هذا الموضوع ، ولهذه الكلمة أهميتها بالنسبة لمجموع هذه الرسالة ، كما أن هذه الرسالة ستوضح بعض هذه الأمور شيئاً فشيئاً ..

* * *

يختلط على الكثير فهم قضية العقل والقلب والروح والنفس فى المصطلح الإسلامى فيقعون نتيجة لذلك بأغلاط متلاحقة ، وكثيراً ما يدخل الكتّاب الإسلاميون فى أبحاث ومناقشات نتيجة للغموض فى هذا الشأن ، والسر فى ذلك - والله أعلم - أن الشارع أعطى هذه الأمور مصطلحات خاصة ويستعملها الناس على معان أخرى ، ومن ثَمّ يقع اللبس فى هذا الشأن ، وهو لبس يؤدى أحياناً إلى كفر أو إلى إنكار معلوم من الدين بالضرورة ، ولنضرب مثالاً على ذلك :

تُطلق كلمة القلب على القلب الحسى الذى محله الصدر ، والشارع يطلق كلمة القلب على قلب آخر محله الصدر مرتبط بالقلب الحسى هو محل الإيمان والكفر ، وألف الشعراء والكتّاب أن يتحدثوا عن القلب كمحل للعواطف من حب وبغض ، ولا شك أن الصلة قائمة بين القلب فى كلام الشعراء والأدباء وبين القلب الذى هو محل الكفر والنفاق والإيمان - كما سنرى - ولا شك أن القلب الحسى شئ وهذا القلب شئ آخر ، ألا ترى مثلاً فى عصرنا حيث أبدلوا قلباً حسياً بقلب حسى لم تتغير نتيجة لذلك العواطف ...

إذا أدركت هذا المعنى عرفت الفارق بين القلب فى اصطلاح الشارع والقلب فى اصطلاح الناس ، والخلط فى ذلك سبّب أخطاءً كثيرة ... وكما حدث هذا فى موضوع القلب حدث هذا فى موضوع الروح والنفس والعقل ، وأدى ذلك إلى الوقوع فى أغلاط مرتبطة فى العقائد . ومن ثَمّ كان علماؤنا يعتبرون الكلام عن هذا الموضوع جزءاً من أبحاث العقائد ، وهى كذلك جزء رئيسى من أجزاء علم التصوف بل هى محوره الرئيسى ، لأن هناك جانباً غيبياً فى هذه الأمور والأمور الغيبية يكون التفصيل فيها من اختصاص الشارع فالشارع وحده هو الذى يحدثنا عنها ، وموقفنا منها هو الإيمان والتسليم وهذا مظهر آخر من مظاهر كونها من أبحاث العقيدة ...

غير أن هذه الأمور وإن كانت غيبية إلا أن لها علاماتها ويستطيع صاحبها أن يحسها كما يستطيع الآخرون أن يستشعروا ، آثارها ومن ثَمّ فهى قضايا غيبية من ناحية ، محسّة من ناحية أخرى ، للتجربة البشرية ، والإحساسات

البَشرية دخل كبير فى التعرف عليها ، ومن ثَمَّ كان هذا الموضوع متداخلاً تتداخل فيه قضايا العقائد بقضايا التصوف بقضايا المادة بقضايا العلم والتجربة، ومن ثَمَّ كانت كل طائفة من الخلق عندها فى هذه الأمور تصورات تختلف عن تصورات طوائف أخرى ، ولكل طائفة فى هذا الشأن دعاوى فى هذه الأمور .

والمسلم الحق العليم هو وحده الذى يضع الأمور فى مواضعها فى هذه الشئون لأنه على نور من ربه ، وربه دلَّه على الطرق العملية التى توصله إلى معرفة كل أمر بطريقه . فما يوصل إليه التجريب فالطريق إليه التجريب ، وما يوصل إليه العقل فالطريق إليه العقل ، وما يوصل إليه بيان الشارع فالطريق إليه هذا البيان ... وهكذا ، فإذا اتضح هذا فلنبدأ الحديث عن هذه المعانى ولا يفوتنا قبل ذلك أن نسجل ههنا أمراً هو : أن أمور العقائد الإسلامية لا تنفصل عن قضايا التحقق والتذوق والسلوك ، وأن الكلام عنها بشكل مجرد لا بد أن يكمله كلام عنها فى مكان آخر ، ومن ثَمَّ نجد الكلام عن القلب أو الروح أو النفس موزعاً بين كتب العقائد والتصوف . وكون التصوف أصابه ما أصابه ، وكون علم العقائد تعقَّد كثيراً حتى صعب على الإنسان العادى فهم مسائله فقد غابت معان كثيرة عن المسلم ، ونحن هنا بسبيل جلاء التصور العام عن النفس والروح والقلب والعقل ، ونبدأ بما قاله حجة الإسلام الغزالى فى إحيائه . قال تحت عنوان : « بيان معنى النفس والروح والقلب والعقل وما هو المراد بهذه الأسامى » : « اعلم أن هذه الأسماء الأربعة تستعمل فى هذه الأبواب . ويقل فى فحول العلماء مَن يحيط بهذه الأسامى واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها ، وأكثر الأغاليط منشؤها الجهل بمعنى هذه الأسامى واشتراكها بين مسميات مختلفة ، ونحن نشرح فى معنى هذه الأسامى ما يتعلق بغرضنا :

اللفظ الأول « لفظ القلب » : وهو يطلق لمعنيين ، أحدهما : اللحم الصنوبرى الشكل المودع فى الجانب الأيسر من الصدر وهو لحم مخصوص وفى باطنه تجويف وفى ذلك التجويف دم ... هو منبع الروح ومعدنه ، ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته إذ يتعلق به غرض الأطباء ولا تتعلق به الأغراض الدينية ، وهذا القلب موجود للبهائم ...

ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب فى هذا الكتاب لم نعن به ذلك ، فإنه قطعة لحم لا قدر له وهو من عالم الملك والشهادة إذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلاً عن الآدميين .

والمعنى الثانى : هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسمانى تعلق ، وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسان وهو المدرك العالِم العارف من الإنسان وهو المخاطَب والمعاتَب والمعاقب والمطالَب ، ولها علاقة مع القلب الجسمانى ، وقد تحيرت عقول أكثر الخلق فى إدراك وجه علاقته فإن تعلقه به يضاهى تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة أو تعلق المتمكن بالمكان ، وشرح ذلك مما نتوقاه لمعنيين أحدهما : أنه متعلق بعلوم المكاشفة وليس غرضنا من هذا الكتاب إلا علوم المعاملة .

والثانى : أن تحقيقه يستدعى إفشاء سر الروح وذلك مما لم يتكلم فيه رسول الله ﷺ فليس لغيره أن يتكلم فيه ، والمقصود أنَّا إذا أطلقنا لفظ القلب فى هذا الكتاب أردنا به هذه اللطيفة وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها لا ذكر حقيقتها فى ذاتها ، وعلم المعاملة يفتقر إلى معرفة صفاتها وأحوالها ولا يفتقر إلى ذكر حقيقتها .

اللفظ الثانى « الروح » : وهو أيضاً يُطلق فيما يتعلق بجنس غرضنا لمعنيين : أحدهما : جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسمانى فينتشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن ، وجريانه فى البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها ، يضاهى فيضان النور من السراج الذى يدار في زوايا البيت فإنه لا ينتهى إلى جزء من البيت إلا ويستنير به ، والحياة مثالها النور الحاصل فى الحيطان ، والروح مثالها السراج ، وسريان الروح وحركته فى الباطن مثال حركة السراج فى جوانب البيت بتحريك محركه ، والأطباء إذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى ، وليس شرحه من غرضنا إذ المتعلق به غرض الأطباء الذين يعالجون الأبدان ، فأما غرض أطباء الدين المعالجين للقلب حتى ينساق إلى جوار رب العالمين فليس يتعلق بشرح هذه الروح أصلاً .

و « المعنى الثانى » : هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان وهو الذى شرحناه فى أحد معانى القلب وهو الذى أراده الله تعالى بقوله : ﴿ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ (١) وهو أمر عجيب ربانى تعجز العقول والأفهام عن درك حقيقته .

اللفظ الثالث « النفس » : وهو أيضاً مشترك بين معان ويتعلق بغرضنا منه معنيان ، أحدهما : أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الإنسان على ما سيأتى شرحه ، وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان فيقولون : لا بد من مجاهدة النفس وكسرها ، وإليه الإشارة بقوله ﷺ : « أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك » (٢) .

المعنى الثانى : هى اللطيفة التى ذكرناها التى هى الإنسان بالحقيقة وهى نفس الإنسان وذاته ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة . قال الله تعالى فى مثلها : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ (٣) ، والنفس بالمعنى الأول لا يُتَصور رجوعها إلى الله تعالى فإنها مبعدة عن الله وهى من حزب الشيطان ، وإذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها سميت النفس اللوامة لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره فى عبادة مولاه . قال تعالى : ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ (٤) ، وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعى الشيطان سميت النفس الأمَّارة بالسوء ، وقد يجوز أن يقال : المراد بالأمَّارة بالسوء هى النفس بالمعنى الأول ، فإذن النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم ، وبالمعنى الثانى محمودة لأنها نفس الإنسان – أى ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات .

---

(١) الإسراء : ٨٥ — (٢) رواه البيهقى فى الزهد بإسناد ضعيف وله شاهد .
(٣) الفجر : ٢٧ – ٢٨ — (٤) القيامة : ٢

اللفظ الرابع « العقل » : وهو أيضاً مشترك لمعان مختلفة ذكرناها فى كتاب « العلم » والمتعلق بغرضنا من جملتها معنيان ، أحدهما : أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور فيكون عبارة عن صورة العلم الذى محله القلب .

والثانى : أنه قد يُطلق ويراد به العلم المدرك للعلوم فيكون هو القلب - أعنى تلك اللطيفة - ونحن نعلم أن كل عالِم له فى نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه، والعلم صفة حالة فيه ، والصفة غير الموصوف والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالِم ، وقد يُطلق ويراد به محل الإدراك - أعنى المدرَك - فإذن قد انكشف لك أنّ معانى هذه الأسماء موجودة وهى : القلب الجسمانى ، والروح الجسمانى، والنفس الجسمانية الشهوانية ، والعلوم ، فهذه أربعة معان يطلق عليها الألفاظ الأربعة ، ومعنى خامس ، وهى : اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان . والألفاظ الأربعة بجملتها تتوارد عليها ، فالمعانى خمسة والألفاظ أربعة ، وكل لفظ أطلق لمعنيين ، وأكثر العلماء قد التبس عليهم اختلاف الألفاظ وتواردها فتراهم يتكلمون فى الخواطر ويقولون : هذا خاطر العقل وهذا خاطر الروح وهذا خاطر القلب وهذا خاطر النفس ، وليس يدرى الناظر اختلاف معانى هذه الأسماء ، ولأجل كشف الغطاء ذلك قدّمنا شرح هذه الأسامى .

وحيث ورد فى القرآن والسُنَّة لفظ القلب فالمراد به المعنى الذى يفقه من الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء ، وقد يكنى عنه بالقلب الذى فى الصدر ، لأن بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب علاقة خاصة فإنها وإن كانت متعلقة بسائر البدن ومستعملة له ولكنها تتعلق به بواسطة القلب ، فتعلقها الأول بالقلب وكأنه محلها ومملكتها وعالمها ومطيتها » . (انتهى) .

من كلام الغزالى ندرك أنّ النفس والعقل والقلب والروح تأتى أحياناً بمعنى واحد ، وإنما تختلف التسميات باختلاف الصفة التى للروح البشرية ، فإذا غلبت الشهوة هذه الروح سميت نفساً ، وإذا غلبت الروح الشهوة المحرّمة سميت عقلاً ، وإذا أصبحت لها مواجيدها الإيمانية سميت قلباً ، وإذا عرفت الله حق المعرفة وأعطته العبودية الخالصة سميت روحاً ، كما أنّ هذه الأشياء تأتى أحياناً

ويراد بها شئ آخر غير ما ذكرناه ، فقد يراد بالنفس الدم وقد يراد بها الحياة ، ويطلق الناس اسم العقل أحياناً على مادة التفكير وهى الدماغ ، ويطلقونه أحياناً على الذكاء،ويطلقونه أحياناً على المعنى المنظم للجسم ... وكل ذلك مرتبط بالدماغ ، وقد يذكرون الروح ويريدون بها مجرد الحياة ، ثم ما هى هذه الحياة ؟ فإنهم يختلفون فى الجواب ، ونتيجة لهذا كله فإن مجموعة من الأخطاء فى هذه المقامات تقع ، ومجموعة من التشويشات كذلك تقع ، إذ يأتى مثلاً كافر إلى نص محمول على معنى فى هذه الشئون فيحمله على معنى آخر فيها ليشوِّش على الجهلة ، ونجد بعض المسلمين تستقر بهم أحد الملاحظ فى هذه الشئون فيحملون عليها كل هذه المعانى فى كل الأحوال ، فمثلا تبدأ رحلة الحياة بالنسبة للإنسان منذ تخلقه حيواناً منوياً ، ولكل حيوان منوى حياته الخاصة به ، فإذا ما اتحد الحيوان المنوى بالبويضة وجدت قطعة حية مرتبطة بحياة جسد الأم ، حتى إذا بلغ كذا شهراً دخلته الروح فبدأ حركته الخاصة به ، فالحياة الخلوية موجودة قبل وجود الروح وهى لا تناقضها ولا تعارضها . ويأتى كافر يخلط بين قضية الروح والحياة عن عمد فيحاول أن يشوِّش كما فعل بعضهم إذ جاءوا إلى قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ﴾ [1] فقالوا : إنَّ هذا النص محمول على أن الحيوان المنوى ميت بينما هو حى ، والمراد بالنص الحالة التى كانت لأجزاء الحيوان المنوى قبل تخلقه، فإن أجزاءه ليست إلا ذرَّات ميتة صارت غذاءً ثم منها وُجِدَ الحيوان المنوى فبدأت رحلة حياة الإنسان ثَمَّ ... فالحياة الخلوية إذن شئ ومجئ الروح بعد ذلك شئ آخر ، ولا يتناقضان ، بل هما شيئان متكاملان .

لاحظ الآن حالة الجنون والحالة التى يسميها الصوفية الجذب ، فالجنون حالة مرتبطة بالدماغ أحياناً ، بينما الجذب حالة مرتبطة بالقلب ، فللدماغ صلة بما يسميه الناس عقلاً وللقلب صلة بما يسميه الناس عقلاً ، والعقل الشرعى مرتبط بالدماغ من ناحية وبالقلب من ناحية أخرى ، ومن ثَمَّ قال العلماء : إن العقل هو القلب وتشهد لذلك نصوص كثيرة ، والمراد به ههنا العقل الشرعى الذى يضبط

---

(١) البقرة : ٢٨

الإنسان به تصرفاته على مقتضى شرع الله ، لاحظ أن نوعاً من الأدوية يُسَكِّن الأعصاب فنجد الإنسان إذا أخذها هادئاً لا يُستثار ، ولاحظ أن نوعاً من الأدوية يجعل الإنسان فى حالة هيجان كامل ، وهكذا نجد أن ما يُلقى فى الدم يؤثر على حالة الإنسان بشكل عام ، ومن ثَمَّ فالدم يمكن أن يكون فى بعض الحالات هو النفس ، وقد تُطلق كلمة النفس على الذات كلها ، وقد تُطلق على التصرفات الشهوانية والعصبية للإنسان ، والناس يغلطون فى هذه المقامات فيسمون شيئاً باسم شئ وتكون الجهة مختلفة ، ونحن ههنا لسنا بسبيل التفصيل ولكنّا نريد أن نوضح نقطة من النقاط التى يقع فيها الغلط ، ونظن أن الأمر اتضح نوع وضوح كاف لمعرفة هذا الجانب ، ولنختصر الكلام فى هذا الموضوع بما يلي :

إنَّ هناك حياة للجسم قبل حلول الروح فيه ، وإنَّ هناك نفساً للإنسان هى أثر مجموعة العوامل الفيزيولوچية والبيئية فى الجسد بعد وجود الروح فيه ، وإنَّ هناك دماغاً للإنسان ينظم قضية الجسد كلها وللروح تعلق به ، وإنَّ هناك قلباً حسياً للإنسان وللروح تعلق به ، فالجنين فى بطن أمه قبل حلول الروح فيه يستمد حياته من حياة أمه ولكنه بعد حلول الروح فيه تصبح له حياته الكاملة المستقلة نوع استقلال . ومن ثَمَّ فعندما تسحب هذه الروح من الإنسان فيما بعد يموت ، وبهذا نفهم الفارق بين حياة الجنين بدون روح وهو فى بطن أمه قبل نفخ الروح فيه وموته فيما بعد إذا سحبت الروح منه .

وإذا حلّت الروح فى الجسد تأثرت بالعوامل الفيزيولوچية والبدنية المختلفة فأثرت عوامل الشهوة والغضب فيها ، فإما أن تتغلب على ذلك بسلوك الطريق الموصلة إلى ذلك أو تغلبها عوامل الشهوة والغضب ، وههنا معترك الصراع بين هدى الأنبياء لإبقاء الروح على طبيعتها السليمة وبين غواية شياطين الإنس والجن فى أن يجعلوا الروح تتابع الهوى .

إن الفقهاء يسمون الدم نفساً فيقولون مثلاً : إذا مات حيوان ليس له نفس سائلة ووقع فى الماء .. ومرادهم بهذا : الدم . وعنون صاحب « المنتقى » لأحد الأبواب بقوله : « باب ما لا نفس له سائلة لم ينجس بالموت » لاحظ الآن هذا الكلام الطبي ، يقول الدكتور الطبيب « خالص كنجو » : « وما هو السر فى

هذا الميل الجنسى ، إنه يعود إلى عملية الإباضة الداخلية حيث ينفجر جريب صغير حامل للبويضة ليقترن بها من المبيض إلى البوق حيث يحدث اللقاح فى الثلث الوحشى النهائى منه ، وهذه الأخيرة ظاهرة تحتاج للوقوف عليها وتندلق الهرمونات من هذه القربة الصغيرة إلى داخل الجسم بكثرة مما يرفع التوتر الجنسى عند المرأة ، وهذا بدوره يعود إلى الحلقة الخفية حلقة التبادل المتعاكس ما بين النفس والجسم » .

إذن للدم ومحتوياته صلة كبيرة بالروح وتأثير عليها . فى حديث ضعيف عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الغضب جمرة فى قلب ابن آدم »، فللأشياء الموجودة فى الدم صلة بقضية الشهوة وقضية الغضب ، وإذن فللتركيب الجسمي تأثيره على الروح ، وهذا التأثير يقوى أو يضعف ، والإنسان يستسلم لهذا التأثير أو يقاومه أو يسعى للتحكم فيه . والمهم أنّ هناك صلة بين الجسد وتركيبه ومواده وعالَم الروح ، ولكل منهما تأثيره على الآخر ، والرسل عليهم الصلاة والسلام هم الذين دلونا على حدود التعامل ما بين الجسد والروح أو ما بين النفس الشهوانية والروح .

* * *

وكما وقعت أخطاء فى التصورات كما مَرّ فقد وقعت أخطاء حول قضية التقليد والاجتهاد ، وقضية ما لا يسع الإنسان جهله وما يسعه جهله ، وما يسعه أن يقلد فيه وما لا يسعه أن يُقلّد فيه ، وما يجب عليه أن يرفضه بداهة لأنه يناقض المعلومات من الدين بالضرورة ، وما يمكن أن يكون للبحث والتحقيق فيه سبيل ، ولإدراك طرف من هذا الشأن نقول :

١ - يفرِّق علماؤنا بين التقليد فى أصول الشريعة وبين التقليد فى فروع الشريعة ، وبين التقليد فى الواضحات البديهيات وبين التقليد فى المشتبهات ، وهذه قضايا ندر مَن يضعها فى مواضعها ويعرف حدود مسائلها وقد كثر الجهل بها حتى بين الذين يتصدرون للعلم والتعليم ويعرفهم الناس باسم العلماء ، ومن ثَمّ عمت البلوى وطمّت ولم تعد الأمور واضحة عند الكثير من الناس .

فالأصل أنّ التقليد فى أمور أصول الدين - أى فى العقائد - لا يجوز ، والأصل أنّ التقليد فى كل ما عُلِمَ من الدين بالضرورة لا يجوز على خلاف بين

العلماء فى حدود عدم الجواز هل يصل إلى الكفر أو إلى الفسوق ، والأصل عندهم أن التقليد لغير العالِم فى فروع الشريعة التى لا يستطيع الإنسان العادى أن يعرف حكم الله فيها بنفسه أن يُقلدٍّ فيها من هو مظنة معرفتها وهم الأئمة المجتهدون ، وحدود هذه المعانى واسعة ، فما هى هذه العقائد التى لا يجوز التقليد فيها ؟ وما هى بديهيات الشريعة التى لا يسع مسلماً إلا أن يعرفها ؟ وما هى الفروع التى يسع المسلم أن يجهلها فيُقلّد فيها ؟

كثيراً ما يكون قصور فى التعبير عن هذه الأشياء ، إن معرفة الله والطريق إلى التعرف على رسل الله عليهم الصلاة والسلام ، ومعرفة الأدلة التى تدل على الله وصفاته ، ومعرفة الأدلة التى تثبت أن محمداً رسول الله . كل ذلك من الأصول ، ومعرفة أصول الشريعة الإسلامية وأنها الكتاب والسُنّة والإجماع، وما اعتمده الكتاب والسُنّة والإجماع من معايير وموازين متفق عليها كل ذلك من الأصول ، وما كان واضحاً فى الكتاب والسُنّة والإجماع من أمور إذا كان هناك تواتر لفظى أو معنوى فكله من باب الأصول ، إنَّ القرآن كله متواتر اللفظ ، وكثير من نصوص السُنّة متواتر اللفظ أو المعنى ، وكل ما كان من هذا القبيل إذا كان واضح المعنى قطعى الدلالة فإنَّ مدلوله يكون من باب المعلوم من الدين بالضرورة لا يسع مسلماً جهله ، والتقليد فيه مما لا ينبغى .

٢ - غير أن هناك فارقاً بين التقليد فى بعض أنواع العقائد والتقليد فى بعضها الآخر ، والتقليد فى بعض الأصول والتقليد فى الفروع ، فهناك قضايا تقليد الشارع وحده فيها هو الواجب ، وقضايا القناعة العقلية مع الشرعية هى الواجب ، وفى الفروع تقليد الأئمة هو الواجب لغير المجتهد مع معرفة الدليل إذا كان المرء عالماً ، وتقليد الأئمة فيها هو الواجب للعامى ولا يلزم بمعرفة الدليل ، وهذه كذلك من غوامض المسائل فى هذا المقام .

٣ - ويدخل فى الأصول والبدهيات الشرعية أمور كثيرة : منها معرفة الله ومعرفة السير القلبى إليه ، ومنها معرفة الرسول ، ومنها معرفة ضرورة اتباع الكتاب والسُنّة ، ومنها معرفة الواجبات والمحرّمات ومعرفة أنواع من السُنَن الثابتة بالمتواترات ، ويدخل فى ذلك أشياء كثيرة من جملتها معرفة وجوب

تزكية النفس وقضايا الإيمان القلبى والعقلى ، ومنها التصور العام للإسلام ، ومنها وجوب الجهاد لإعلاء كلمة الله ، ومنها وجوب الحكم بما أنزل الله ، ومنها وجوب معرفة أن الأمة الإسلامية أمة واحدة وأن وحدتها السياسية واجبة ... وقضايا كثيرة لا تدخل تحت حصر . وفى هذا الكتاب بيان لبعض القضايا ووضعها فى محلها ..

٤ - وهذه الأمور التى يجوز فيها تقليد الشارع وحده والأمور التى يجب أن يصل فيها الإنسان إلى قناعة عقلية لا يشترط فيها أن يحسن الإنسان تعدادها ولا ذكر التفصيلات فى شأنها ، وإنما يكفى فيها أنه لو سئل الإنسان عنها ألا ينكرها وأن يذكر بعض الأدلة الإجمالية فيها .

إذا أدركت حدود التقليد فإنك تجد محل الغلط الكثير فى هذا الشأن حيث تجد إنساناً يُقلِّد حيث لا يجوز التقليد ، وإنساناً يتحرج عن التقليد حيث يجوز التقليد ، وإنساناً تدفعه الثقة فيُقلِّد فى الأخطاء المنسوبة إلى إنسان - وقد تكون مكذوبة عليه - وكل ذلك لا بد للمسلم أن يحرر ذاته منه ...

وهكذا ومن خلال ما مَرَّ عرفنا أن هناك أغلاطاً فى التصور العام عن الإسلام ، وأغلاطاً فى التصور حول قضية الإيمان ، وأغلاطاً فى التصور العام عن مقامات السير فى دين الله ، وأغلاطاً فى قضية التكليف ، وأغلاطاً فى التصورات عن النفس والعقل والقلب والروح ... وكل ذلك تنعكس سلبياته على المسلم وعلى الحياة الإسلامية نوع انعكاس ، وإذا بحثنا عن سبب مجموعة الأغلاط التى ذكرناها فإننا نجد أن سببها يعود إلى فقدان العلم الصحيح المستوعب الشامل وخاصة عند العلماء الذين عنهم يأخذ الآخذون المفاهيم والتصورات والذين هم القدوة العملية وإليهم المرجع ...

النظرة الكلية الشاملة للإسلام أحياناً نجدها مفقودة ، الفهم الصحيح المستوعب للكتاب والسُنَّة نجده قاصراً ... التصور العام عن طرق استنباط الأحكام الشرعية نجده ضعيفاً ... العلوم التى انبثقت عن الكتاب والسُنَّة من فقه وتوحيد وتصوف نجد التصورات فى شأنها إما قاصرة أو ضعيفة أو غير

شاملة أو فيها أخطاء ، ما يلزم من جوانب أخرى كلها ضرورى لاستكمال الثقافة الإسلامية المتكاملة نجده مهزوزاً أو معدوماً ... القدوة الصالحة فى هذا كله والبيئات الصالحة لعطاء هذا كله تكاد تكون محصورة ...

ومن أجل بعض هذا كتبنا كتاب « جند الله ثقافة وأخلاقاً » وكتبنا رسالة « جولات فى الفقهين الكبير والأكبر وأصولهما » وكتبنا هذه الرسالة لأن التصوف ودوائره كان من أهم الأسباب التى عن طريقها تسلل الغلط إلى كثير من الدوائر ... وقبل أن نبدأ الكلام فيه نحب أن نعتذر لعلمائنا وشيوخنا الأجلاء إذ أننا ونحن نتهم بالقصور ونوزع التهم يميناً وشمالاً لم نقصد أن نمس منهم أحداً (حاشا لله) ، ولكن نريد أن ترتفع هممنا وهمم إخواننا طلاب العلم لتحصل جميعاً ما ينبغى لنا من كمال . وإنما فصلت فى هذا المدخل فى هذه الأمور التى ذكرتها حتى لا يغيب عن بال أحد محل بحثنا فى هذه الرسالة بالنسبة لمجموع ما يحتاجه الإنسان ، وأن هذه الرسالة ليست إلا تصحيحاً لبعض الأمور فى جانب واحد ، وكل ذلك للتنبيه على أن هذه الرسالة جزء من كل ، هذا الكل هو سلسلة « فى البناء » ولنبدأ الكلام فى علم التصوف .

* * *

الباب الثانى

فى مجالات علم التصوف الأصلية

تجد فى كتب هذا العلم عشرات الآلاف من المسائل ، تجدها فى معرض تقرير مسائله أو فى ذكر قضايا تاريخية أو فى معرض الكلام عن أئمته وأعلامه المشتغلين فيه ، ولكن مجالات هذا العلم الأصليه ترجع إلى مجموعة أمور وكلها يكمل بعضها ، وبعضها متداخل ببعضها الآخر ، فهو فى مباحثه الرئيسية يبحث فى الروح وفى القلب وفى العقل وفى النفس ، كما يبحث فى الجانب التحقيقى من علم العقائد ، كما يبحث فى الجانب الباطنى القلبى من قضايا الفقه ، ثم هو الجانب العملى التحققى بالكتاب والسُّنَّة ، وهو محاولة للتحقق الكامل بحال رسول الله ﷺ وأصحابه وسيرهم فى مقامات الإسلام والإيمان والإحسان والتقوى والشكر ... وغير ذلك ، ومباحثه هذه ذات جانبين : نظرى مكمل وعملى متبع ، ونستطيع أن نقول : إن هذه هى مجالات هذا العلم الرئيسية ، ولكن ككل علم لا بد أن تنشأ بسبب مجالاته الرئيسية مجالات أخرى متفرعة عن هذه المجالات ، وهذا كله يقتضى اصطلاحات لغوية ومصطلحات عملية وتعبيرات خاصة ، كما يقتضى وجود مدارس وأئمة ، ويقتضى وجود تجارب ووقائع ، كما اقتضى وجود خطأ وصواب ، وهذا يحتاج إلى تحقيق وتحرير وتنقيح ، وهذا كله اقتضى ضوابط وقواعد تضبط الشطط وتبعد عن الانحراف وتُبقى الأمور فى إطارها الصحيح ، وكل هذا ارتبط بهذا العلم وأصبح أجزاء فيه ، وهذا الباب تعريف فى مجالات هذا العلم الرئيسية كما حددناها ، فلنعرض لها باختصار لندرك طبيعة هذا العلم من خلال معرفتنا لهذه المجالات الرئيسية فيه .

أولاً - الروح فى علم التصوف :

ليس فى هذا العلم فى أصوله بحث فى قضايا الروح أو ماهيتها فهذا شىء محكوم بالنصوص ، والنصوص لم تتحدث عن هذه الماهية : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إلاَ قَلِيلاً ﴾ [١] ... فالبحث عن ماهية الروح تكلف ، وأهل هذا العلم بعيدون عن التكلف ، وإنما كلامهم فى الروح يدور حول قضيتين هما :

إرجاع الروح إلى أصل معرفتها ، وإرجاعها إلى كمال عبوديتها ، فالله عزَّ وجَلَّ قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ من بَنى آدَمَ من ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ، قَالُواْ بَلَى ﴾ [٢] ... قال أُبَىَّ بن كعب : جمعهم فجعلهم أرواحاً ثم صوَّرهم فاستنطقهم فتكلموا ثم أخذ عليهم العهد والميثاق وأشهدهم على أنفسهم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ، قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ ..

فالروح فى أصل الخلقة عارفة بالله مقرة له بالعبودية معترفة أنه ربها ، ولكن هذه الروح بمخالطتها الجسد تبدأ تطرأ عليها الطوارىء فتفقد من معرفتها وعبوديتها نتيجة لذلك ونتيجة لسماعها وتلقيها وأخذاً من بيئتها كما قال عليه السلام : « يولد الإنسان على الفطرة فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه »[٣] . فالروح تبدأ تتأثر بمجموعة العوامل التى تحيط بها من جسد وبيئة ، ويترتب على ذلك ما يترتب من بُعد كثير أو قليل عن معرفتها الخالصة بالله وعبوديتها له وهذا يقتضى ارجاعاً لها إلى أصلها وإلى كمالها ... وكثيراً ما يقع الناس فى غلو يبعدهم عن الفطرة أو فى تقصير يبعدهم عن العبودية ، قال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ إلَا الحَقَّ ﴾ [٤] .

وقال تعالى عن أهل الكتاب : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [٥] .

---

(١) الإسراء : ٨٥ (٢) الأعراف : ١٧٢ (٣) رواه البخارى وغيره .
(٤) النساء : ١٧١ (٥) الحديد : ٢٦

إنّ إرجاع الروح إلى وضعها الأصيل الكامل ليس عملية سهلة ، وكذلك لا يتقنها كل إنسان ، وعلى كل حال تبقى قضية مطلوبة من الإنسان ، وهذا العلم يبحث فيما يبحث فى هذا الشأن . فالروح ينبغى أن تعود إلى معرفتها الكاملة بالله ، وهذا يقتضى فيما يقتضى أن نتحقق بأسماء الله مع العبودية الكاملة لله . وهذا طريقه علم صحيح ومجالسة مع أهل ذلك وذكر لله عَزَّ وجَلَّ ، قال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الحَيِّ الَّذى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِه، وكَفَىٰ به بذُنُوب عبَاده خَبيراً * الَّذى خَلَقَ السَّمَوَات والأرْضَ ومَا بَيْنَهُمَا فى سِتَّةِ أيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى العَرْشِ ، الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِه خَبِيراً ﴾ [1] . لاحظ قوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلْ به خَبِيراً ﴾ إن هذا النص يحتمل أكثر من معنى، أحدها : أن تسأل العارفين بالله عن الله . وفى وصية لقمان لابنه يقول تعالى : ﴿ واتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أنَابَ إلَيَّ ﴾ [2] فالرجّاعون إلى الله طريقهم مسلوكة ، فالعلم بالله وصفاته ، والعلم بالعبودية الخالصة لله وطريقها ، والأخذ عن أهل ذلك والاقتداء بهم مع الذكر الكثير معه ، وتذكر الآخرة طريق الروح إلى العودة. ونلح على قضية الذكر لأنه بالذكر يتم التحقق الكامل بأسماء الله وبمعرفته ، يقول رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه : « وأنا معه إذا ذكرنى »[3]. فالله عَزَّ وجَلَّ مع العبد إذا ذكره العبد ، ومعيَّة الله للعبد آثارها كثيرة من جملتها رعاية الله للعبد فلا يخطىء ولا يزل ، ومن جملتها أن يحققه الله عَزَّ وجَلَّ بأسمائه ، فمعيَّة الله لروح الإنسان تجعل هذه الروح تأخذ عن أسماء الله وصفاته بقدر ما تذكر هذه الروح وتتقرب إلى الله بذكر أسمائه . فهذا أول مجال من مجالات علم التصوف .

* * *

---

(١) الفرقان : ٥٨ - ٥٩ (٢) لقمان : ١٥ (٣) متفق عليه .

ثانياً – القلب فى علم التصوف :

يوجد عن القلب فى كتاب الله وسُنّة رسوله كلام كثير ، فالله عزّ وجلّ أخبرنا عن القلب كثيراً : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴾ (١) فالقلب يعمى ، وقال تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ وَالقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٢) فالقلوب تقسو ، وقال تعالى : ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً ﴾ (٣) فالقلوب تمرض . وقال تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ، وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ (٥) فالقلب يصيبه الختم ويكون عليه الران ، وقال تعالى : ﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا ﴾ (٦) فالقلب الكافر يصغى لوسوسة شياطين الإنس والجن ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (٧) . فللقلب وضعه الصحى الذى يكون به سليماً ، وقال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (٨) . فالقلب يُمتحن كما يُمتحن الجسد وبالتالى فإنه يسقط أو ينجح، وقال تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ (٩) فهناك قلوب لا تعقل ، وقال تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ (١٠) فالإنسان يريد ولكن القلب لا يطاوع ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ (١١) فلا هداية لقلب إلا بالإيمان بالله ، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (١٢) فهذه حالة للقلب يطبع

---

(١) الحج : ٤٦ (٢) الحج : ٥٣ (٣) البقرة : ١٠

(٤) المطففين : ١٤ (٥) البقرة : ٧ (٦) الأنعام : ١١٣

(٧) الشعراء : ٨٨ – ٨٩ (٨) الحجرات : ٣ (٩) الأعراف : ١٧٩

(١٠) الأنفال : ٢٤ (١١) التغابن : ١١ (١٢) محمد : ١٦

الله بها على قلب صاحبها ، وكذلك تجد كلاماً كثيراً عن القلب فى حديث رسول الله ﷺ .

يقول عليه الصلاة والسلام : « ألا وإنَّ فى الجسد لمضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله : ألا وهى القلب » [1] . ويقول عليه الصلاة والسلام : « تُعرض الفتن على القلوب عوداً عوداً فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباد كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أُشرب من هواه » [2] . قال أبو خالد : فقلت لسعد : يا أبا مالك .. ما أسود مرباد ؟ قال : شدة البياض فى سواد ، قلت : فما مجخياً ؟ قال : منكوساً .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « إنَّ الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من الكتاب وعلموا من السُّنَّة » . يقول حذيفة : ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال : « ينام الرجل النومة فتُقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر كوكب ، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر المجل كجمر دحرجته على رجلك ، فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال : إنَّ فى بنى فلان رجلاً أميناً ، حتى يقال للرجل ما أجلده ، ما أظرفه، ما أعقله ، وما فى قلبه مثقال حبة من إيمان ، ولقد أتى علىَّ زمان ، وما أبالى أيكم بايعت لئن كان مسلماً ليردنه علىَّ دينه وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه علىَّ ساعيه ، وأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً » [3] .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مصفح ، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن فسراجه فيه نوره ، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص عرف ثم أنكر ، وأما القلب المصفح

---

(١) رواه البخارى .   (٢) رواه مسلم .   (٣) رواه الشيخان وأبو داود والنسائى .

فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق كمثل القرحة يمدها القيح والدم ، فأى المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه » . قال ابن كثير عن سند هذا الحديث : وهذا إسناد جيد حسن .. وهكذا نجد كلاماً كثيراً عن القلب فى كتاب الله وفى سُنَّة رسوله عليه الصلاة والسلام ...

هذا القلب ما هى علامات صحته وسقمه ؟ وما هى موازين استقامته وانحرافه ؟ وما هى ضوابط كمالاته ونقصانه ؟ وكيف نعيد الإبصار الصحيح إليه والسمع الغيبى إليه ؟ كيف يستنير وكيف يظلم ؟ ما هو طريق السير إلى تنويره ؟ كل ذلك جزء من علم التصوف ، وكل ذلك له اختصاصيوه والمتتبعون له والعالمون فيه ، ولا يجوز أن تخلو الأمة الإسلامية منهم ، ومتى خلت الأمة منهم فهذا يعنى أن أنواعاً من العلوم بدأت ترتفع من الأرض . أخرج الترمذى بإسناد قال عنه : حسن غريب ، عن أبى الدرداء قال : « كنا مع النبى ﷺ فشخص ببصره إلى السماء ثم قال : « هذا أوان يختلس العلم من الناس حتى لا يقدرون منه على شىء » فقال زياد بن لبيد الأنصارى : كيف يُختلس منا وقد قرأنا القرآن ، فوالله لنقرأنه ولنقرئنه أبناءنا ونساءنا . فقال النبى ﷺ: «ثكلتك أمك زياد ، إن كنت لأعدك من فقهاء المدينة ، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغنى عنهم » . قال جبير : فلقيت عبادة بن الصامت فقلت : ألا تسمع ما يقول أخوك أبو الدرداء ؟ فأخبرته الذى قال فقال: صدق .. إن شئت حدثتك بأول علم يُرفع ، أول علم يُرفع من الناس الخشوع ، يوشك أن تدخل المسجد الجامع فلا ترى فيه رجلاً خاشعاً » .

والآن لاحظ هذه النصوص :

قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ – أى السورة المنزَّلة – رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (١) ، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ – أى القرآن – لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن

(١) التوبة : ١٢٥ (٢) فصلت : ٤٤ (٣) الأنفال : ٢

رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٤) إنك ترى من ملاحظة هذه النصوص موازين تعرف بها صحة القلب ومرضه من خلال أحواله مع القرآن، وتدرك من خلالها كيف أن لبعض الناس قلباً ، وإذن فبعضهم لا قلب له ، والقلب في هذا كله هو غير القلب الأحمر الذي ينظم عملية توزيع الدم والذي يشترك فيه الإنسان والحيوان ، إنه قلب آخر مرتبط بذلك القلب نوع ارتباطه ومحله الصدر . قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٥) ، وقال تعالى : ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ (٦) وهو موضوع مَرَّ معنا من قبل .

هذا الموضوع ، موضوع القلب صحته ومرضه ، جزء رئيسي من مباحث علم التصوف ، فالصوفية العاملون تقريباً هم أبرز مَن تكلم في هذا الموضوع خلال العصور حتى أصبحوا أهل الاختصاص فيه ، ولكن لما غلب الجهل على المتكلمين في هذا العلم . اختلط الأمر حتى أصبح ما هو طريق صحة للقلب علامة على الخطأ ، ومن ثَمَّ فقد عمَّت أمراض القلوب فكان ذلك جزءاً من أمراض هذا العصر ، وكان شيئاً طبيعياً أن يكون جزءاً من أجزاء التجديد الإسلامي المعاصر إحياء هذا الجانب .

مما مَرَّ تتبين أهمية هذا الجانب من علم التصوف ، وتتبين كذلك أهمية هذا العلم ، ومن النصوص التي ذكرناها ومن الملاحظات التي أبديناها يصبح بالإمكان أن نضع خطوطاً عريضة لقضية القلب هي بمثابة نقاط علام على الطريق الأقوم لهذا الموضوع .

---

(١) يونس : ٥٧ (٢) سورة ق : ٣٧ (٣) الزمر : ٢٣
(٤) محمد : ٢٤ (٥) الحج : ٤٦ (٦) الأحزاب : ١٠

١ - إنَّ عالَم القلب عالَم واسع ومرضه وصحته قضيتان دقيقتان يتوقف عليهما خراب الدنيا والآخرة أو عمارها . فالقلب إذا كان مريضاً رافق ذلك فى الدنيا مواقف متناقضة خاطئة يبقى الإنسان معها فى قلق وحيرة وكان عاقبة أمره إلى بوار وخسار : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾ (١) .

٢ - إصلاح القلب يحتاج إلى علم وعمل وصحبة ، العلم ليعلم الإنسان ماهية الصحة من المرض ، والعمل لإنهاء المرض وطرده ، والصحبة لاستمرار الهمة فى السير . والمذاكرة فى شأنه حتى لا يتصور متصور ما دون الصحة صحة ، وهذه الأمور كلها بعض مباحث هذا العلم ، علم التصوف .

* * *

ثالثاً - العقل فى علم التصوف :

يلاحظ فى المصطلحات الإسلامية أن هناك العقل التكليفى والعقل الشرعى ، فالعقل التكليفى يملكه كل إنسان ما لم يكن مجنوناً ، وبه يكلَّف الإنسان ، فهذا حد أدنى من العقل يملكه الإنسان المكلَّف وبسببه يكلَّف ويحاسَب ويكون مسئولاً أمام الله عن تصرفاته .. ثم بعد ذلك ، الناس قسمان : فقسم فقهوا عن الله وعقلوا خطابه فآمنوا به والتزموا فيه فهؤلاء هم العقلاء الحقيقيون ، وفريق لم يفقه عن الله ولم يلتزم فهؤلاء لا عقل لهم - العقل الشرعى - قال تعالى حاكياً ما يقوله أهل النار : ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٢) . هذا النوع من العقل مقره القلبَ وله درجات، فهناك العقلَ الشرعىَ الكامل الذى مظهره ضبط الإنسان شهواته على أمر الله مع الفهم عن الله والتسليم له . هذا النوع من العقل وكيفية الوصول إليه هو أحد مباحث علم التصوف .

كيف تفقه قلوبنا عن الله ؟ كيف يكون ضبطنا لأنفسنا على مقتضى أمر الله، ما هو الطريق لذلك ؟ كل ذلك من مباحث علم التصوف ، ولا شك أن هذا مرتبط بقضية الإرادة الخيِّرة وتقويتها ومخالفة النفس الأمارة بالسوء وتربيتها ،

---

(١) النساء : ٨٨ (٢) الملك : ١٠ .

فموضوع العقل هذا مرتبط بعالم القلب من ناحية وعالم النفس من ناحية أخرى ... إن القلب عندما يكون ضعيفاً أمام قوة النفس الأمارة بالسوء فإنه يستسلم لرغباتها وأهوائها المخالفة لشرع الله ، وكلما قوى القلب بدأ يستعصى على هذه الرغبات ولكنه يبقى ضعيفاً أمام بعضها الآخر ، فمع كراهيته للمعصية نجده مغلوباً على أمره أحياناً أمام هوى نفسه الأمّارة ، وهكذا نجد الناس أنواعاً تتدرج قوة ضبطهم لأنفسهم من الصفر إلى المائة بالمائة على حسب كمالهم . الضبط الكامل هو العقل الشرعى الكامل ، فكيف تتم عملية الارتقاء بالعقل من نقطة البداية حيث يبدأ الفقه عن الله حتى نقطة النهاية حيث ينضبط سلوك الإنسان انضباطاً تاماً على أمر الله فى كل شىء ، هذا الجانب يبحثه علم التصوف ويتكلم فيه .

والانضباط على أمر الله لا يعنى أن يخرج الإنسان من شهوات نفسه كلها ، فالإنسان مبتلى بهذه الشهوات ، وقد أعطاه الشارع المسار الصحيح لتحقيق الشهوات المباحة وفتح له منافذ للخلاص من الشهوات المحرَّمة ، وهذا كله جزء من الطريق ، فالسير الحقيقى إلى الله سير يتفق مع الفِطرة .. ولا يعارضها ولا يحاربها .. نجد مسلماً راغباً فى التوبة من الزنا مثلاً فإذا وُجِدَ فى ظرف شهوانى وجد نفسه مغلوباً على أمره مساقاً إلى المعصية من قِبَلِ نفسه وشيطانه مع كراهته لما هو فيه . كيف يفعل هذا المسلم ليقوى قلبه على دفع المعصية والبُعد عنها ؟

هناك مجموعة أمور عليه أن يفعلها : أن يزداد نور قلبه ، أن تزكو نفسه ، أن يسير فى الطريق الصحيح لقضاء شهوته فى حدود المباح أو أن يخفف من دوافع الشهوة بواسطة بعض الرياضات من تحكم بالتغذية وإتعاب للجسد وتخفيف للطعام وبُعد عن مثيرات الشهوة وغير ذلك . كل ذلك جزء من العلاج ليتغلب المسلم على المعصية ، وتغلبه على المعصية هو عقل فى حقه بالنسبة لهذا الموضوع ، غير أن الأمر واسع جداً : فهناك الشهوات الحسية ، وهناك الشهوات المعنوية كحب الرئاسة والجاه والحرص على الدنيا وغير ذلك ، وهناك ضبط الجوارح ومنها اللسان على أمر الله ، وهناك ضبط النفس والقلب على أمر

الله ، وهناك السير نحو تحقيق الأوامر كلها . كل ذلك أثر من آثار وجود العقل الشرعى عند الإنسان ، وهذا العقل الشرعى حتى يصل إليه الإنسان فيصبح هو مسيره بشكل عفوى غير متكلف له سيره وأصوله ، وهذا كله أحد مجالات هذا العلم ومباحثه الرئيسية ، والسير العملى الصحيح فى هذا العلم هو فى الحقيقة سير للوصول إلى العقل الشرعى الكامل ، فالراغبون فى هذا العلم عليهم أن يرغبوا فى مثل هذا ، والمعترضون عليه عليهم ألا يعترضوا على مثل هذا .

* * *

رابعاً - النفس فى علم التصوف :

بعض الصوفية يعتبر النفس هى الروح بعد مخالطتها الجسد ، فمخالطة الروح للجسد جعلت للجسد تأثيرات عليها ، هذه التأثيرات سببها احتياجات الجسد فى الأصل إذ تتبناها الروح ، فإذا ما أصبح للجسد مطالب مرضية ولم يكن هناك ضبط للنفس وصلاح فى القلب فإن مطالب النفس تصبح لا نهاية لها والجسد يسير فى خدمتها نحو البوار ، والروح عندما خالطت الجسد أصبح لها تطلعاتها، ومن تطلعاتها الرغبة فى الخلود الحسي أو المعنوى وهو الموضوع الذى استغله الشيطان فى إزلال آدم : ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [(١)] وهكذا تتولد عند النفس معان تصل فى أحيان كثيرة إلى أمراض ، وهذه الأمراض يتولد بعضها عن بعض وتتزايد أو تتناقص ولكنها تبقى أمراضاً ، ومن ثَمَّ جاءت شرائع الله عَزَّ وجَلَّ بمجاهدة هذه النفس حتى تستقيم، يقول عليه الصلاة والسلام : « والمجاهد مَن جاهد نفسه فى ذات الله »[(٢)] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [(٣)] ، ومن ثَمَّ كانت نقطة البداية فى الصحة النفسية أو المرض النفسى عدم الرضا عن النفس ، يقول ابن عطاء فى الحكم: « أصل كل معصية وشهوة وغفلة : الرضا عن النفس ، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة :

---

(١) طه : ١٢٠. (٢) رواه الترمذى وابن حبان . وهو صحيح

(٣) النازعات : ٤٠ - ٤١

عدم الرضا عنها ، ولأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه ، فأى علم لعالِم يرضى عن نفسه وأى جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه » ، وقال الشيخ زروق : « وأصول الأخلاق المذمومة ثلاثة : الرضا عن النفس ، وخوف الخلق ، وهم الرزق ، فيتولد من الأول : الشهوة والغفلة والمعصية ، ومن الثانى : الغضب والحقد والحسد ، ومن الثالث : المرض والطمع والبخل » ، ثم قال : « لكن التزام أصل واحد ينفى جميعها وهو عدم الرضا عن النفس فى جميع الأحوال والحذر منها فى كل الأوقات » وقال السلمى : « وأما أخلاق النفس فمنها الكبر والعجب والفخر والخيلاء والغش والبغض والحرص والأمل والحقد والحسد والضجر والجزع والهلع والطمع والجمع والمنع والجبن والجهل والكسل والبذاء والجفاء واتباع الهوى والازدراء والاستهزاء والتمنى والترفع والحدة والسفه والطيش والمراء والتحكم والظلم والعداوة والمنازعة والمعاندة والمخالفة والمغالبة والمزاحمة والغيبة والبهتان والكذب والنميمة والتهويش وسوء الظن والمهاجرة واللؤم والوقاحة والغدر والخيانة والفجور والشماتة .. إلى غير ذلك مما يكثر تعداده فيجب على المريد معرفتها ومجانبتها والمجاهدة فى تبديلها بأحسن منها ، فمَن لم يعرف ذلك لم يزدد مع مرور الأيام إلا إدباراً ، فتبدل الكبر بالتواضع والحدة بالتؤدة والكذب بالصدق وبالله التوفيق » .

واستطراداً نقول : إنّ أصول المعالجة كما يراها أئمة السلوك إلى الله تكمن فى مخالفة النفس إذا طالبت بمعصية أو بتوسع فى المباح . وفى احتمال الأذى من الخلق فى طاعة الله ، وفى التحكم بلباسها ضمن الحدود الشرعية والمسنونة ، ولنرجع إلى أصل الموضوع :

قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ (٣) ،

---

(١) الشمس : ٧ - ١٠ . (٢) يوسف : ٥٣ (٣) القيامة : ٢

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِى فِى عِبَادِى * وَادْخُلِى جَنَّتِى ﴾ (١) هذه آيات ذكرت حالات للنفس ، فهناك نفس مزكّاة ونفس مدسّاة ونفس أمّارة بالسوء ونفس لوّامة ونفس مطمئنة تستحق من الله الرضا وهى فى ذاتها راضية عن الله . يفهم من هذا كله ومن قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ (٢) أن النفس بحاجة إلى مجاهدة . قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (٣) هذه المجاهدة ما هى ؟ وما هى حدودها ؟ وما هى وسائلها المشروعة ؟ وما هى كمالات النفس المزكاة التى ينبغى أن تتحقق بها ، كل ذلك أحد مباحث علم التصوف الرئيسية وهو أحد مجالات هذا العلم .

إنّ تزكية النفس هى إحدى أمهات أمور التصوف بل إنها لتكاد أن تكون علماً على هذا العلم وهى قضية أهملت فى هذه الأمة تقريباً إلا عند هذه الطائفة مع أنه من المقاصد الرئيسية لبعثة الرسل عليهم السلام تزكية الأنفس . قال تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (٤) إنك نادراً ما تجد مَن يتكلم فى شأن تزكية النفس وهو يعرف ماهية هذه التزكية وطريقها من خارج هذه الطائفة ، ولكى يكون الأمر واضحاً فحاول أن تقارن بين آثار علماء المسلمين خلال العصور وأحص مَن منهم تكلم فى هذا الموضوع فإنك لا تجد إلا القليل من خارج هذه الطائفة أعطى هذا الموضوع حقه أو أغناه . وحتى ابن القيم رحمه الله وهو أحد الأفذاذ الذين تكلموا فى هذا الموضوع كانت نشأته وتربيته الأولى صوفية ثم تتلمذ علي ابن تيمية فأعطى التصوف اتجاهاً سَلَفياً ، ولولا النشأة الأولى ما استطاع ابن القيم أن يفيض فيما أفاض فيه ، ولولا ابن القيم ما وُجدَ فى مدرسة ابن تيمية مَن يتكلم فى هذا العلم ويخصه بالتأليف .. ومما مر معنا ندرك أن تزكية النفس تحتاج إلى مزك وتحتاج إلى مجاهدة من قِبَلِ صاحبها وهذا

---

(١) الفجر : ٢٧ - ٣٠.
(٢) النازعات : ٤٠.
(٣) العنكبوت : ٦٩
(٤) البقرة : ١٥١

يقتضى علماً ، علماً بكمالات النفس ونقائصها ، وعلماً بطريق التحقق فى الكمالات وطرق التخلص من النقائص ... وكل ذلك هو أحد مجالات علم التصوف الرئيسية .

* * *

خامساً - التصوف والجانب التحققى من علم العقائد :

فى علم العقائد عادة تعرض مسائل الاعتقاد وتعرض الأدلة عليها وتذكر عادة أمهات الأمور التى وقع فيها خلاف بين أهل السُنَّة والجماعة وغيرهم ولا يشار إلى الجانب الذوقى والعاطفى والشعورى والتحققى والطريق إلى ذلك إلا لماماً ، فمثلاً يعرض فى علم العقائد أن الله عَزَّ وجَلَّ متصف بالسمع والبصر والكلام والإرادة والقدرة والحياة والعلم ، ولكن أن يستشعر العبد أن الله يسمعه وأن الله يراه ، وأن يتذوق القلب وهو يقرأ القرآن أنَّ القرآن كلام الله ، وأن يستشعر الإنسان أن كل شىء مخلوق هو أثر قدرة الله عَزَّ وجَلَّ .. هذه المعانى وأمثالها لا تُبحث عادة فى كتب علم العقائد وإنما تُبحث عادة فى كتب التصوف ، فهى التى تبحث عن تذوق معانى العقيدة مع ملاحظة أن هذا التحقق ليس من باب المندوبات بل أحياناً يكون من باب الفرائض ، ونلاحظ أن السُنَّة أعطت قضية التذوق لمعانى العقيدة الكثيرة الكثير : « ذاق طعم الإيمان : مَن رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً » (١) ، « ثلاث مَن كُنَّ فيه وجد فيهن طعم الإيمان: مَن كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومَن أحب عبداً لا يحبه إلا لله ، ومَن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار» (٢) .

فى كتاب للعقائد قد تقرأ كلاماً عن الإيمان وحده وعن الكفر ومظاهره وعن النفاق وتعريفه ، ولكن كتب التصوف هى التى تتحدث عن الطريق للتحقق العملى بمعانى الإيمان والطريق العملى للتحقق باليقين والاطمئنان وطرق التخلص من النفاق ، وهذه كلها قضايا لا يكفى فيها أن يعرف الإنسان حدَّها فقد يعرف

---

(١) رواه مسلم والترمذى .

(٢) رواه الشيخان والترمذى والنسائى .

الإنسان حدَّها ويبقى بينه وبين حقائقها بعد إذا لم يسر فى طريق ذلك ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا ، قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَكِن قُولُواْ أَسْلَمْنَا ، وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ (١) . أخرج الطبرانى فى الكبير بإسناد رجاله رجال الصحيح عن ابن عمر رضى الله عنه قال : كنت عند النبى ﷺ إذ جاءه حرملة بن زيد فجلس بين يديه فقال : يا رسول الله ، الإيمان ههنا - وأشار إلى لسانه ، والنفاق ههنا- وأشار إلى صدره ، ولا نذكر الله إلا قليلاً ، فسكت عنه صلى الله عليه وسلم فردد عليه ذلك حرملة فأخذ صلى الله عليه وسلم بطرف حرملة فقال : « اللّهم اجعل له لساناً صادقاً وقلباً شاكراً وارزقه حبى وحب مَن يحبنى وصيِّر أمره إلى الخير » . فقال حرملة : يا رسول الله ، إن لى إخواناً منافقين كنت فيهم رأساً ألا أدلك عليهم ؟ فقال ﷺ : « مَن جاءنا كما جئتنا استغفرنا له كما استغفرنا لك ، ومَن أصر على دينه فالله أولى به ولا تخرق على أحد ستراً » وهكذا نجد أن قول اللسان شىء وما فى القلب شىء آخر ، فما هو الطريق للتحقق بمعانى العقيدة ؟

تجد إنساناً يحفظ الكثير عن صفات رسول الله ﷺ ولكنه بعيد عن الاقتداء به ، وتجد إنساناً لا يعرف إلا القليل ولكنه حريص على الاقتداء ، تجد إنساناً قد أخذ حظه من وراثة النبوة فى صفاتها الضرورية كالأمانة والتبليغ والصدق والفطانة ، وتجد إنساناً يتكلم فى مثل هذا وهو أبعد الناس عن ذلك ، فمجرد العلم شىء والسير للتحقق وطرق ذلك شىء آخر ، فما هو العلم الذى يدل على الطريق ويكمل الجوانب التى تتحدث عنها كتب العقائد عادة ؟

إنَّ هذا العلم هو علم التصوف من بين العلوم الإسلامية ، ولئن خالط هذا العلم الكثير فهذا لا يلغيه أو يجعلنا نتحسس منه بل علينا أن نصفيه ونعطيه حدوده وحقوقه ، فعلم العقائد هو الذى يقيِّد علم التصوف ، وعلم التصوف هو الذى يكمل علم العقائد من حيث إنه الجانب التحققى فيه ، فإذا زاد على ذلك

---

(١) الحجرات : ١٤

بأن ناقضه أو أوجد عقائد جديدة تخالف كتاباً أو سُنّة أو تخالف عقائد أهل السُنّة والجماعة خلال العصور كما وُرِثَت عن السَلَف فههنا الانحراف والزيغ والابتداع الخبيث ، عندما تقرأ فى كتاب صوفى أو تسمع من صوفى كلمة لم ترد فى كتاب أو سُنّة أو لم تجر عادة على ألسنة السَلَف مما ليس من قبيل الاصطلاح أو من قبيل الفهم الصحيح للنصوص ، أو من قبيل التحقق بمعنى مذكور فى الكتاب والسُنّة ، فلا عليك أن ترده وأنت مطمئن على أن ما فعلته هو عين التصوف الحق وليس سواه ، وهؤلاء أئمة السلوك الذين أجمعت الأمة على قبولهم معك .. يقول أبو سليمان الدارانى : « ربما وقعت النكتة من كلام القوم فى قلبى فلا أقبلها إلا بشاهدى عدل من الكتاب والسُنّة فإنَّ اللّه ضمن لى العصمة فى الكتاب والسُنّة ولم يضمنها لى فيما سوى ذلك » . ومن وصايا أئمة السلوك المشهورة قول أحدهم : « يا بنى ، كن مُحدِّثاً صوفياً ولا تكن صوفياً مُحدِّثاً » وما ذلك إلا لأن الصوفى المحدِّث يجعل النص من وراء الهوى أما المحدِّث الصوفى فيجعل الهوى من وراء النص . عندما تجد فى كتاب أو تسمع من إنسان فهماً لنص يخالف فهم أئمة الاعتقاد أو أئمة الاجتهاد أو أئمة التفسير أو قواعد الفقه فأسقطه بدون تردد . إن التصوف هو التحقق ، فإذا ما أراد أهله أن يعطونا عقائد جديدة أو اجتهادات فقهية جديدة أو تصورات خاطئة أو بناءات فاسدة فى قضايا العقائد على أحاديث موضوعة أو ضعيفة فلا ينبغى أن نتردد فى الرد ، بل إنَّ مثل هذه المعانى هى أول ما يُحمل عليه الحديث : « مَن أحدث فى أمرنا هذا ماليس منه فهو رد » [1] .

تُرى أى حدث أكبر من أن نُحدِّث فى قضايا العقائد بما لم يجر على قلب صحابى أو على لسانه ، بل لو نطق به أحد أمام ذلك الجيل لقتلوه أو عزّروه بلا تردد .. اللّهم إننا سلم لمن سالمت ، حرب لمن حاربت ، برآء من كل ما خالف

---

(١) رواه البخارى .

ما كان عليه هَدى رسولك ﷺ وأصحابه . لقد أصبح من علامات الوصول عند متأخرى الصوفية أن يقول الإنسان « أنا الله » ، وأصبح علامة على الفتوح أن يقول قائل : « إنَّ الكون هو الله » . فوالله ما لهؤلاء إذا قالوها إلا السيف يقطع رقابهم مهما لبسوا من مسوح الترهب وتزينوا بأزياء الصلاح . جاء القرآن ليقول : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ (١) ، وهؤلاء يقولون عن كل شيء إنه الله !! تُرى هل يتردد مسلم فى أن يستعمل السيف مع هؤلاء ؟ أنا أقول هذا الكلام وأنا أعلم ما يتأولون به هذا الكلام ، ولكن والله لأن نقتل مَن يقول هذا – وإن كان له تأويل – أفضل ألف مرة أن نعتقد بصلاحه أو نسكت عليه مهما كان له من تأويل ، وأى تأويل يمكن أن يقبله قلب مسلم لإنسان يقول : « أنا الله » أو مثال ذلك من الكفر اللعين الخبيث . إن التصوف الحق هو التذوق للعقيدة الحق ، فإذا ما زاد على ذلك أصبح زندقة ولم يعد تصوفاً ، على أننا نقول : إن علينا ألا نتسرع فى الحكم بالكفر إلا بعد التثبت من فهمنا ومن نسبة القول إلى صاحبه . وعبارة : هذا النص كفر، والله أعلم بصاحبه – عبارة حكيمة إذا وافقت محلها حقيقة . وبعد هذا الاستطراد نرجع لنقول :

إنَّ من مجالات علم التصوف الرئيسية هذا الجانب الذى أسميناه بالجانب التحققى بالعقائد الإسلامية ، عقائد أهل السُنَّة والجماعة ، أما ما سوى ذلك فليتق الله أهله ، تُرى هل فهم أحد من سَلَف هذه الأمة أنَّ العذاب فى مثل قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً ﴾ (٢) بأن العذاب ههنا من العذوبة ؟! وهل فهم أحد من السلف مثل قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ، كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ (٣) تُرى هل فهم أحد من سَلَف هذه الأمة من مثل هذه الآيَة أن الكفار يتلذذون بالعذاب حتى لو عُرِضَ عليهم أن يخرجوا من النار

---

(١) المائدة : ٧٢ (٢) النبأ : ٣٠. فاطر : ٣٦ - ٣٧

ما خرجوا ؟! أليس ربط هذه المعانى بالتصوف إثباتاً لعقائد مناقضة لما عليه السَلَف ولما ذكره أهل السُنّة والجماعة فى كتبهم أليس هذا هو الضلال والكفر بعينهما ؟! شيء عجيب مثل هذه الاتجاهات ، والأعجب من ذلك أن يعتبر القائلون بمثل هذا أنهم عارفون بالله وأنهم أهل الحقيقة . تالله إنهم لأجهل خلق الله بالله وإنهم لأهل حقيقة الكفر .

إنّ الله عزّ وجلّ قال : ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً ، إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ (١) أن يجعل أحد لله من عباده جزءاً فذلك كفر مبين . أترى هؤلاء الذين يقولون بأن الكون هو جزء من الذات الإلهية تكثف ! أفهؤلاء عارفون بالله ؟ ياويلهم ، ياويلهم ، اللّهم إنّا نبرأ اليك من تأويل الجاهلين وغلو الغالين وانتحال المبطلين .. إن هذا النوع من التصوف الذى حرّف النصوص عن مواضعها والذى يثبت عقائد مناقضة أو مخالفة لعقائد أهل السُنّة والجماعة ليس تصوفاً إسلامياً بل هو الضلال عن الحق ، إن التصوف الذى نعرفه والذى ندعو إليه هو التصوف الذى يتحقق به الإنسان بمعانى العقيدة ، صاحبه عارف بالله معرفة أهل السُنّة والجماعة . له معرفة ذوقية شعورية تتفق مع محكمات الكتاب والسُنّة ، صاحبه متحقق بالقدوة برسول الله ﷺ فى الظاهر والباطن ، صاحبه يستشعر أمر الآخرة وكأنه رأى عين ، وقل مثل ذلك فى إستشعاره أمور العقيدة كلها ، أما أن يكون للصوفية عقائد خاصة بهم فإن هذا هو الضلال عن التصوف نفسه كما أراده أئمته الذين تكلموا فيه وابتدأوه علماً منبثقاً عن الكتاب والسُنّة ، يحترم الفهم الصحيح والتذوق الصحيح للنصوص . أما أن يحرف النصوص عن مواضعها فذلك طريق اليهود مع كتبهم لا طريق المسلمين ، تالله لقد ضل هؤلاء أكثر من ضلال النصارى ، فالنصارى جعلوا المسيح جزءاً لله وهؤلاء جعلوا كل شيء جزءاً لله . التصوف الحق تحقق بأمور العقيدة فقط ولا زائد على ذلك .

* * *

---

(١) الزخرف : ١٥

سادساً – التصوف كمكمل لعلم الفقه :

تبدأ كتب الفقه عادة بأبحاث الطهارة من حيث الفعل والقول ، ولكنها نادراً ما تتحدث عن المعانى القلبية التى ينبغى أن ترافق عملية الطهارة ، ثم تتحدث عن الصلاة : شروطها وأركانها وواجباتها وسننها وآدابها ومكروهاتها ومفسداتها ، ولكنها لا تتحدث عن المعانى الباطنة التى ينبغى أن ترافقها كالخشوع مثلاً . والطريق إليه والعوامل المؤدية إليه ، مع أنه علم من العلوم بشهادة النصوص بل هو أول علم يُرفع من الأرض كما ورد فى الحديث الذى مر فى هذا الباب .

فما هو العلم الذى يكمل علم الفقه فى هذه الشئون ؟ لا شك أنه علم التصوف ، فهو العلم الذى يبحث عادة عن مثل هذه الشئون ، ولا تقتصر مهمة علم التصوف عند هذه الشئون إذ يكمل علم الفقه فى النواحى الباطنة كتعليم الإخلاص والطريق إليه ، بل هو الذى ينمى استعداد الإنسان بالالتزام بالأحكام الفقهية ، بل إن الإنسان لا يكمل إلتزامه إلا إذا كمل سيره ، ومن ثَمَّ فقد تحدث أئمة السلوك عن الفناء فى أفعال الله ، وعن الفناء فى صفاته ، وعن الفناء فى ذاته ، وهى مواضيع سنرى ما فيها ، ثم يتحدثون عن الفناء فى الأحكام فالنتيجة العادية للمعرفة الذوقية لله عَزَّ وجَلَّ هى الالتزام الكامل بأحكامه ، ومن هنا نفهم ضلال بعض المحسوبين على التصوف إذ يعتبرون السير إلى الله قرين التفلت من أحكامه ، وكيف يكون الأمر كذلك والله عَزَّ وجَلَّ يقول لرسوله ﷺ : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنْ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [1] ولذلك قال الجنيد فى طائفة جعلت الوصول إلى الله قرين التفلت من أحكام الشريعة ، قال فى هؤلاء : « نعم وصلوا ولكن إلى سقر » ، وقديماً قال الفقهاء : « مَن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ، ومَن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومَن جمع بينهما فقد تحقق » فالتصوف لا بد منه كمكمل للفقه ، والفقه لا بد منه كحاكم للتصوف وكحاكم للعمل وموجه له ، ومَن فاته شىء من ذلك فقد فاته نصف الأمر ..

---

(1) الجاثية : ١٨

التصوف والفقه علمان متكاملان ، فإذا تعارضا فذلك الخطأ أو الضلال أو الانحراف ، والمقصود بالتعارض أن ينطلق الصوفى بعيداً عن الفقه مع أن الفقه هو الحاكم ، أو يبتعد الفقيه عن التطبيق فذلك علامة على فسوق القلب . يقول الشيخ أحمد الزروق فى كتابه « قواعد التصوف » : « يحكم الفقيه على الصوفى ولا يحكم الصوفى على الفقيه » فإذا ما اتضح هذا الأمر نقول : عندما نقول على الفقيه أن يتصوف أو على الصوفى أن يتفقه ، فعلينا أن نكون واضحين فى أن المراد أن يشمل علم الفقيه ما له علاقة بالأحكام وما له علاقة بطريق العمل والتحقق ، وأن يشمل علم الصوفى ما يلزمه من الأحكام التى يحتاج إليها ، وأن يرافق ذلك كله عمل صحيح على ضوء العلم الصحيح ، ولذلك قال كبار أئمة السلوك كالشيخ الرفاعى : « إن نهاية العلماء والصوفية واحدة » نقول هذا ههنا لأن بعض جهلة الصوفية يقذفون فى وجه كل إنسان هذه العبارة : « مَن لا شيخ له فشيخه الشيطان » يقولها صوفى جاهل وهو يدعو لشيخه الجاهل ، ويقولها صوفى جاهل وهو يدعو لشيخه العليم . ويقولها صوفى مخطىء وهو لا يعرف أن يضعها فى مواضعها ... إنَّ مَن لا شيخ له ، أى مَن لا يوجد مَن يُعلّمه العلوم الشرعية . أى الإنسان الجاهل الذى لا يتعلم ويرفض التعليم فهذا إنسان شيخه الشيطان ، أما الإنسان الذى يسير على ضوء العلم فهذا إمامه العلم والشريعة .

ومن القواعد التى ذكرها الشيخ زروق فى كتابه « قواعد التصوف » موضوع احتياج المريد للشيخ فقال : « إن التقوى لا تحتاج إلى شيخ لوضوحها »، وقال: « واللبيب يكفى الكتاب فى ترقيه ولكنه لا يسلم من رعونة نفسه » فالمهم إذن هو قدرة الإنسان على التعلم ثم أخذ العلم والسير على ضوء هذا العلم ...

هذا هو الحد الأدنى الذى افترضه اللّه على عباده وهذا يمكن أن يتوافر للإنسان إذا كان عنده قدرة على التعلم والفهم من خلال مطالعات شخصية فى الكتب المعتمدة الموثقة ، كما يمكن أن يأخذه الإنسان من العلماء العاملين سواء

أكانوا ممن اصطلح على تسميتهم أنهم صوفية أو لا ، وهو موضوع سنراه ، ولكننا أحببنا أن نؤكده بأن نذكره أكثر من مرة ، ولنعد إلى موضوعنا ، إنَّ علم التصوف وعلم الفقه علمان متكاملان ولا بد منهما لكل إنسان مع ملاحظة أن ما يحتاجه إنسان منهما يختلف عما يحتاجه إنسان آخر ، ويبقى التوسع فيهما أو فى واحد منهما من فروض الكفايات فى حق الأمة ومن باب المندوبات فى حق كل مسلم ، وبهذه الفقرة أدركنا مجالاً رئيسياً من مجالات علم التصوف

* * *

سابعاً – التصوف والجانب العملى التحققى بالكتاب والسُنَّة :

الكتاب والسُنَّة نصوص ، والمسلم مكلَّف بالفقه لها والتحقق بها ، فإذا وُجِدَ فقه للنصوص ، دون تحقق بها كان هناك خلل ومَن ثَم نجد أنَّ رسول الله ﷺ «كان خُلُقه القرآن »، ونجد أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يحفظون بعض القرآن فيتفقهون بما حفظوه ثم يعملون به ثم ينتقلون إلى غيره .

والعلماء العاملون والصوفية المحققون خلال تاريخ هذه الأمة هم الذين اجتمع لهم الفقه والتحقق بآن واحد . ما هو الإيمان ؟ وما هى حقيقته ؟ وكيف التحقق بذلك ؟ ما هو الإسلام ؟ وما هى حقيقته ؟ وكيف التحقق بذلك ؟ ما هو الإحسان؟ وما هى حقيقته ؟ وكيف التحقق بذلك ؟ ما هى التقوى ؟ وما هى حقيقتها؟ وكيفية التحقق بذلك ؟ ما هو الشكر ؟ وما هى حقيقته ؟ وكيفية التحقق بذلك ؟ وقُلْ مثل ذلك فى الصبر والتسليم والرضا والتوكل ومحبة الله والإخلاص ... وقُلْ مثل ذلك فى الحلم والكرم والعفة والتواضع وعدم الإستشراف لما فى أيدى الآخرين ، والزهد والورع والخشوع .. وقل مثل ذلك فى آداب الظاهر والباطن . إن فى الصلاة أو فى الزكاة أو فى الصوم أو فى الحج أو فى السفر أو فى الجهاد أو فى التناصح والمذاكرة أو فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أو فى أدب الصحبة والجوار أو فى البر وصلة الأرحام إلى غير ذلك مما تحدثت عنه النصوص .

الفقه الصحيح للنصوص والتحقق الصحيح بها يمثل الأخذ الكامل للكتاب والسُنَّة . وقد بذل العلماء الربانيون كامل الجهد للوصول إلى فقه الكتاب والسُنَّة ، وبذل الصوفية المحققون كامل الجهد للتحقق بالكتاب والسُنَّة لتبقى معانيها حية تتمثل بأناسى هم محل القدوة خلال العصور ، وبذلك كله بقى ويبقى الإسلام حياً ، ولا يأتى الخلل إلا من فهم خاطىء أو قاصر أو من تحقق قاصر أو ناقص ، وقد وُجدَ هذا وهذا فكان ما كان ، ولا بد من عودة كاملة لهذا وهذا حتى يصلح الأمر ويحيا الإسلام . والطامة الكبرى تكون عندما يجتمع فهم خاطىء وتحقق خاطىء . وأبشع ما نرى ذلك عند جهلة الصوفية فعندئذ يقع فى هذه الأمة ما وقع فى غيرها من تحريف للكلم عن مواضعه وتحقق فى مسارب الضلال ، وههنا تأتى مهمة العلماء الربانيين فى إرجاع الأمور إلى نصابها فى نفى تأويل الجاهلين وتحريف الغالين وانتحال المبطلين .

عند قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ، وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ ﴾ [(١)] وقف بعض جهلةَ الصوفية ، فأرجع الضمير فى كلمتى « منه » إلى الله عَزَّ وجَلَّ ، وذلك تحريف للكلم عن مواضعه وفهم جاهل للنصوص لم يقل به أحد من هذه الأمة ، وأمثال ذلك ما أكثره عند أمثال هؤلاء فإذا ما سكت العالِم أمام هذا الهراء فماذا بقى من معالم للعلم بل للإسلام لم تُهدَم .

إنَّ واجب العالِم العامل فى هذا المقام أن يعيد الأمر إلى نصابه من أجل سلامة الفهم ، وأن يحقق المسلم بما يستوجبه الفهم الصحيح للنص فى الفرار من قسوة القلب بمعرفة أسبابها والفرار من موجباتها والتحقق بما يقابلها من إخبات لله رب العالمين وخشوع له . إن هذا هو المجال الصحيح للعالِم والصوفى ، أو للعالِم الصوفى وما سوى ذلك فليس من العلم فى شىء ولا من التصوف فى ورد ولا صدر ، وفى هذا المقام نذكر هذا النص : أخرج الدارمى عن معاذ أنه قال :

---

(١) البقرة : ٧٤

« إنه يُفتح القرآن على الناس حتى تقرأه المرأة والصبى والرجل فيقول الرجل : قرأت القرآن فلم أتبع ، ثم يقوم به فيهم فلا يتبع ، ثم يحتظر فى بيته مسجداً فلا يتبع ، فيقول : قد قرأت القرآن فلم أتبع ، وقمت به فلم أتبع ، وأحتظرت فى بيتى مسجداً فلم أتبع ، والله لآتينهم بحديث لا يجدونه فى كتاب الله ولم يسمعوه عن رسول الله لعلى أتبع . قال معاذ : فإياكم وما جاء به فإنه ضلالة » .

وأخرج أبو داود عن معاذ رضى الله عنه أنه قال : « إن وراءكم فتناً يكثر فيها المال ويفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن والمنافق والرجل والمرأة والعبد والحر والصغير والكبير ، فيوشك قائل أن يقول : ما للناس لا يتبعونى وقد قرأت القرآن وما هم بمتبعى حتى أبتدع لهم غيره ، فإياكم وما ابتدع ، فإنما ابتداع ضلالة ، وأحذركم زلّة الحكيم فإنَّ الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم وقد يقول المنافق كلمة الحق » . وقال : « اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات التى يقال : ما هذه ؟ ولا يثنينك ذلك عنه فإنه لعله يراجع وتلق الحق إذا سمعته فإن على الحق نوراً » .

إنَّ المجال الصحيح للتصوف الصحيح هو التحقق الصحيح بالنصوص على ضوء الفهم الصحيح ، فالصوفى الحق هو الذى لا يكتفى بمجرد الفهم بل يحاول أن يجمع مع الفهم التحقق حيث يفوت غيره ذلك . أما ما سوى ذلك فليس تصوفاً بل هو إنحراف وضلال ...

عندما تُعرَّف السُنَّة يقال فى تعريفها : هى ما أُثِرَ عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة ، والصفة على أنواع ، منها الصفة الحسية ومنها الصفة المعنوية ، والصفة المعنوية أو الباطنة يسميها الصوفية حالاً ، والصوفية المحققون هم من أكثر خلق الله حرصاً على التحقق بصفة رسول الله ﷺ الظاهرة والباطنة ، فكما أنهم حريصون على الاقتداء به فى لباسه وطعامه وشرابه وهيئته ، فهم حريصون على الاقتداء به باطناً وعلى أن يتحققوا بحاله عليه الصلاة والسلام ، وهم فى هذا كله على غاية من التحقق والتتبع ، وهو أمر يفوت الكثير من المسلمين الكثير منه ، وهؤلاء يأخذون الكثير ، الكثير فيه

« كان رسول الله ﷺ إذا صلى يُسمع من جوفه أزيز كأزيز المرجل »[1] من كثرة خشوعه عليه الصلاة والسلام . هذا حال ، وكان رسول الله ﷺ أحب اللباس إليه القميص - أى ما يسمى باصطلاح الناس اليوم « الجلابية » - فهذه صفة ، والصوفية أكثر الناس مسارعة إلى التحقق بصفات رسول الله ﷺ العملية والحالية ، فهذا مجال رئيسى آخر للتصوف الحق ، فإذا أدرك إنسان ما ذكرناه فى هذه الفقرات السبع ، أدرك بالتالى ماهية علم التصوف ومجاله الحقيقى ، وأدرك بالتالى جوانب الغلو والانحراف عن هذا العلم ، كما أدرك خطأ الذين يحاربونه كله ، وأدرك من خلال ذلك كثيراً من الأسباب التى تدعو بعض الناس إلى أن يحاربوا هذا العلم بسبب انحرافات بعض المنتسبين إليه ، وعلى أهل العلم فى كل عصر أن يضعوا الأمور فى مواضعها ، دون حساسيات من ناحية، ودون وجل ودون خوف من لومة اللائمين بالباطل فذلك جزء من التحقق بقوله تعالى : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾[2] .. نسأل الله أن يجعلنا منهم ...

وشىء عادى - وهذه مجالات التصوف - أن يعتبر التصوف علماً ، وأن يكون لهذا العلم اصطلاحاته ككل علم ، ومن ثَمَّ نجد فى هذا العلم اصطلاحات: حال ومقام وبقاء وفناء وقبض وبسط ... وغير ذلك من اصطلاحات كثيرة وكلها يُعبِّر عن معان صحيحة فى الأصل ، ولو أعطاها بعض المنتسبين الغلاة لهذا العلم مفاهيم خاطئة فهذا لا يؤثر على جوهر الحقيقة .

وكما نشأت لهذا العلم وفيه اصطلاحات فقد وجد عند أهل هذا العلم كثير من الأمور اعتمدوها لإقامته ، وللتحقق بمضامينه كأثر عن نص أو أثر عن تجربة . هذه الأمور أصبحت جزءاً كذلك من هذا العلم . وما دام الأصل المعتمَد فى هذا العلم أنّ الفقه الصحيح هو الحاكم فلا حَرَج فى أمر يُعتمَد إذا كانت الفتوى الصحيحة المستقيمة تجيزه . أما إذا كان غير ذلك فهو مردود على صاحبه كائناً

---

(١) رواه أبو داوود والترمذى .

(٢) المائدة : ٥٤

مَن كان . وبهذا كله نكون قد أدركنا حقيقة من حقائق التصوف الأوَّلية إذا عرفنا مجالات هذا العلم الأصيلة . وإذا أردنا الآن أن نبسط الأمر بعد أن أدركنا أبعاد هذا العلم وآفاقه ومجالاته الرئيسية فإننا نستطيع أن نقول : إن التصوف باختصار هو السير إلى اللّه فى الطريق الذى حدده اللّه لمرضاته . والصوفية يُعبِّرون عن هذا بكلمة « السير إلى اللّه » ومعناها فى الحقيقة ما ذكرناه . فليكن الباب الثالث فى هذا الموضوع ، وهو فى الحقيقة بداية الكلام عن الجانب النظرى والعملى فى هذا العلم ومن الآن فصاعداً علينا أن نعطى للعمل محله بعد الفهم .

*　*　*

الباب الثالث

في السير إلى الله

ماذا يعنى ؟ ما هى أركانه ؟ ما هى نقطة البداية فيه ؟

السير إلى الله يعنى الانتقال من نفس غير مزكّاة إلى نفس مزكّاة ، ومن عقل غير شرعى إلى عقل شرعى ، ومن قلب كافر أو منافق أو فاسق أو مريض أو قاس إلى قلب مطمئن سليم ، ومن روح شاردة عن باب الله غير متذكرة لعبوديتها وغير متحققة بهذه العبودية إلى روح عارفة بالله قائمة بحقوق العبودية له ، ومن جسد غير منضبط بضوابط الشرع إلى جسم منضبط انضباطاً كاملاً بشريعة الله عَزّ وَجَلّ ، وبالجملة : من ذات أقل كمالاً إلى ذات أكثر كمالاً فى صلاحها وفى اقتدائها برسول الله ﷺ قولاً وفعلاً وحالاً . هذا كله داخل فى عباراتهم فى تعريف السير إلى الله ، وهو فى مجمله كله سير إلى الله عَزّ وجَلّ . وبعضهم يقصر السير إلى الله على حالة وحيدة وهى حالة الانتقال من الإيمان العقلى إلى الإيمان الذوقى ، ومن حالة الشعور القلبى بأفعال الله إلى الشعور بصفاته إلى الاستغراق الروحى ، أو ما يسمى عندهم بمقام الفناء ثم مقام البقاء ، ولكن هذا فى الحقيقة أحد مظاهر السير وواحد من أجزائه ومرحلة فيه . وما أكثر الأغلاط التى ترافق هذا الموضوع عند الكثير من الناس ، وما أكثر الأوهام التى تصيب تصورات الناس فى هذا الشأن . وما أكثر ما يختلط الجوهر بالعرض والحقيقة بالخطأ فى هذا الموضوع ، ولذلك كان الكلام فى هذا الموضوع صعباً ومحيّراً ، وتقريبه وتبسيطه أمراً فيه مشقة كبيرة .

فكثيراً ما تصبح الوسائل غايات والبدايات نهايات ، وما هو كالمقدمة لما بعده يصبح وكأنه كل شيء ، ولنضرب على ذلك مثالاً : بعضهم يعتبر الوصول إلى القلب السليم المطمئن هو ذروة السير إلى الله ويعتبرون ذلك غاية الغايات وينسون واجبات كثيرة .

إنَّ الوصول إلى القلب السليم هدف ، ولكن القلب السليم هو الذى أصبح يتلقى أوامر الله بمنتهى التسليم والرضا ، ويسير الجسم به على حسب أوامر الله بكامل القوة والحيوية والجدية ، ومن أوامر الله الأمر بالجهاد وجعل كلمة الله هى العليا ... فأن ترى صوفياً مشغولاً بقضية القلب السليم طوال حياته وهو ناس أوامر الله بإعلاء كلمته ، وغافل عن واجبات الوقت الكثيرة ويعتبر ما هو فيه هو الكمال مع تفريطه بكثير من الواجبات ... مثل ذلك غلط كبير ، إن لم نقل أكثر من ذلك : إن الفارق بين صاحب القلب السليم وغيره كما يكون فى جوهر القلب يكون فى صلاح العمل ، وقوة الأخذ بكتاب الله وأحكامه ، وقديماً كان ادعاء المعرفة بالله عاملاً من عوامل الفرار من الورع ... فأى معرفة هذه تلك التى ينطفىء بها مع الإنسان نور ورعه ؟ هذا رسول الله ﷺ أعرف الخلق بالله، كان أكثر خلق الله خشية ومن ثَمَّ قال عليه السلام : « إنى لأتقاكم لله وأكثركم له خشية » [1] .

إن الكلام عن السير إلى الله ليس سهلاً ... أولاً : لأنه لا يمكن حصره وضبطه ، وثانياً : لأن الناس فى هذا الشأن أصناف ، ولكلٍ مشربه الذى ألفه وحصر فيه ما لا يدخل تحت حصر وينظر إلى الأمور كلها بمنظاره الخاص به ويحاسب على ذلك ، وهذا كذلك مظهر من مظاهر الغلط فى هذا الشأن ، ومن العجيب أنك تجد عند كثير من الناس القاعدة المسلَّمة والعمل المخالِف ، فمثلاً من عبارات الصوفية المشهورة على لسان كل واحد منهم : « لله طَرائق على عدد الخلائق » وهى واضحة المعنى تشير إلى أن طرق الوصول إلى الله كثيرة جداً ، ولكنك تجد الكثيرين يربطون بين الوصول وبين معان بعينها ، هذه المعانى

---

(١) متفق عليه .

قد لا يستطيعون إقامة الدليل على اعتمادها فى السُنّة الثابتة أصلاً ، فكيف يُعلّق أمر الوصول إلى الله - وهو من أهم الأمور الشرعية على الإطلاق - بقضايا لم تكن النصوص فيها واضحة وضوحاً كاملاً تدل على مفاهيم بعض من هؤلاء للأمور الآنفة الذكر ؟ ولذلك أجدنى مضطراً لعرض قضية السير إلى الله عَزّ وجَلّ مرة ومرة ومرة بشكل ثم بآخر ليتضح الأمر فى هذا الشأن وليتجنب المسلم الأغاليط ، وأهم من هذا كله ليأخذ حظه من السير إلى الله على بصيرة .

إنّ كثيرين من الناس ربطوا بين التصوف والألغاز وجعلوه مليئاً بالأسرار فضخّموا وأوهموا حتى أصبح التصوف عَلَماً على الشيء الذى لا يمكن فهمه أصلاً ، وجعلوا التصوف شيئاً خاصاً بطبقة من الناس وهو فى أصله ومضمونه مطالب به كل الناس ، فهل كان واحد من الصحابة إلا وله سيره الخالص إلى الله عَزّ وجَلّ ؟ وهل الصحابة إلا قدوة الخلق فى كل شىء ؟ ولماذا الدعاوى والتبجحات ؟

هذا علىٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وهو الذى تمر عليه أكثر الطرق الصوفية - على شك فى ذلك - عندما سأله بعضهم : هل خصّكم رسول الله ﷺ بشىء ؟ قال : « لا ... ما أعلمه إلا فهماً أوتيه عبد من كتاب الله وما فى هذه الصحيفة » [1] ، ولم يكن فى الصحيفة إلا بعض الأحكام الشرعية .

هذا هو الأمر : الإنسان كلما صفا حاله مع الله ، دَقّ فهمه عن الله وعن رسول الله ﷺ . إنى أريد أن أرجع فى التصوف إلى أصوله الصحيحة ليكون زاداً للجميع ، ثم لكل إنسان سقفه وفهمه ، وقد خص رسول الله ﷺ بعض أصحابه بمعان ولكنها ليست من قبيل التكليف العام للأمة ، ثم إنّ تفسير هذه المعانى معروف ، فلا يجوز لأحد أن يحملها على ما ينقض الشريعة . لقد خص حذيفة رضى الله عنه بتعريفه على المنافقين ، وسر ذلك واضح وهو أن يوجد فى جيل الصحابة مَن يضع الأمور فى مواضعها إذا أصبح لواحد من المنافقين وضع

---

(١) رواه البخارى والترمذى وأبو داود والنسائى وأحمد ، واللفظ للبخارى .

ما يمكن أن يؤثر على المجتمع الإسلامى ، وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول : « أخذتُ عن رسول الله ﷺ جرابين ، جراباً بثثته بينكم ، وجراباً لو ذكرته لقُطِعَ منى هذا الحلقوم » [١] . والجراب الثانى لَمَّحَ عنه أبو هريرة عندما كان يقول : أعوذ بالله أن تدركنى سنة ستين وإمرة الصبيان ، وقد تبيَّن بعد ذلك أنه يعنى إمرة يزيد بن معاوية ، وإذن فالأمر مرتبط بقضية أحداث سياسية معيَّنة ستجرى على هذه الأمة ، لأنه لو تكلم بها لقُتِلَ بسبب ما سيتركه كلامه من آثار ، ثم لو كان ما عند أبى هريرة مما كُلِّفت به الأمة لأظهره ، ثم لا يصلح كلامه متكئاً لأى إنسان يدَّعى أن هذا الذى خُصَّ به هو من نوع كذا وكذا مما لا يتفق مع أصل شرعى ، إذ فى هذه الحالة يستطيع كل مدع ، وكل عدو للإسلام ، وكل زنديق ، وكل باطنى أن يدَّعى أن ما هو فيه وما يدعو إليه هو من مثل هذا الجراب .. هذا كلام ساقط لا تقوم به حُجَّة . ليس هناك فى الإسلام ظاهر ينقض باطناً ولا باطن ينقض ظاهراً ، ومن ادَّعى ذلك فإنه كافر بإجماع المسلمين : ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ ، عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي * وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [٢] ، « وإيمُ الله لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء » [٣] . بحجة الأسرار صار لكل قضية رموزها ، وبحجة معرفة أسرار الذات الإلهية طرح بعضهم قضية وحدة الوجود حتى أصبح المسلم عند هؤلاء إذا لم يقل بها لا يكون عارفاً بالله ، ونجد بعضهم يراوغ فى هذا الشأن فإن جاءه متشرع فسَّرها له بشكل ، وإن جاءه مستسلم فسَّرها له بشكل آخر ، ونحن لا نحاسب الناس على نيَّاتهم ولكن نحاسبهم على أقوالهم . قال بعض الصوفية :

وما الكون فى التمثال إلا كثلجة ... وأنت لها الماء الذى هو نابع
فما الثلج فى تمثالنا غير مائه ... وغيران فى حكم قضته الشرائع

---

(١) رواه البخارى .   (٢) يوسف : ١٠٨ .   (٣) رواه ابن ماجه .

ماذا يفهم الفاهم من هذين البيتين سوى أنّ هذا الكون هو الذات الإلهية بعينها ولكنها تكثفت فصارت كوناً ، كالماء تكثف فصار ثلجاً ، فالشرائع تقول : إنّ الثلج غير الماء - أى أنّ الكون غير المكوِّن ، ولكن صاحب هذا القول يقول : إنّ الثلج هو الماء وبالتالى الكون هو الله أو هو جزء من الذات الإلٰهية تكثف .

وعبَّر بعضهم عن هذا الموضوع بالمثال التالى : إنّ هذا الكون بالنسبة للذات الإلهية كله كموج البحر فلا هو عين البحر وليس غيره . ونقول : إن موج البحر هو جزء من البحر.

لهؤلاء نقول : أفهمونا قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً ، إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ (١) ما المراد بهذا ؟ أليست هذه الآيَةَ واضحة فى الإنكار على من جعل لله تعالى جزءاً ؟ وأن مَن جعل ذلك كافر بيِّن الكفر ؟ فهل الأسرار المدعاة فى التصوف نتيجتها أن نضل كما ضلت أمم سابقة ؟ نعوذ بالله من ذلك .

نحن نعلم أنّ هناك حالات للسالك يحس فيها بأحدية الذات الإلهية ويستشعر فيها اسم الله الصمد ، وهى حالة يستشعر فيها السالك فناء كل شىء ، ولكن هذا الشعور لا بد أن يرافقه الاعتقاد بأنّ الله خالق ، وأنّ هناك مخلوقاً ، وأن الخالق غير المخلوق . إنّ التصوف هو تذوق العقيدة لا تقريرها بما يخالف النصوص والفهم الصحيح لها ، ولا يفوتنا ههنا أن نقول : إنّ هناك ناساً يؤولون مثل هذا الكلام الذى ذكرناه تأويلات يتفق ظاهرها مع شرع الله ، وقد سمعنا بعض شيوخنا يحمل البيتين على محمل مقبول شرعاً ، أمثال هؤلاء الناس نحاسبهم على أقوالهم ونكل نياتهم إلى الله عَزَّ وجَلَّ ، فإذا كانت أقوالهم فى هذا الشأن كاعتقادهم فيه فنرجو لهم السلامة وإلا فنصوص الكتاب ظاهرة فى الحكم عليهم ...

---

(١) الزخرف : ١٥

إن التصوف علم يحتاجه كل الناس ويسع كل الناس ، وقد يدق فهم بعض السالكين لبعض النصوص ، وقد يفهم بعض السالكين إلى الله من معانى النصوص ما لا يشعر به الآخرون ، وكل ذلك لا غبار عليه إذا لم ينقض نصاً أو يخالف نصاً أو إجماعاً ، غير أنَّا نرى كثيراً من الكلام عند طبقات من الصوفية لا نرى له مثيلاً فى عصر الصحابة ، ولا فى عصر التابعين ، ولا فى عصر تابعى التابعين ، ويخالف النصوص ويخالف الإجماع . ثم بعد ذلك يقدَّم التصوف للأمة على أنه هو هذا ويريد أصحابه هؤلاء من الأمة أن تُسلِّم لهم بذلك ، ومَن لم يُسلِّم يا ويله من الألسنة الحداد والقلوب المنكرة ... لهؤلاء نقول : على رسلكم .. إنَّ الله حَدَّ حدوداً وأنزل شرائع ونصوصاً هى الفيصل بين الحق والباطل ، وهى وحدها الحكم والميزان ، وما سوى ذلك ضلال وأوهام ...

على ضوء ما ذكرناه من اعتبارنا أنَّ التصوف هذا شأنه سنعرض قضية السير إلى الله ، غير أننا نحب أن ننبه إلى أننا ونحن نحاول أن نفهم التصوف علماً للجميع ونرسم ملامح للطريق تسع الجميع ، إنَّ علينا أن نتأنى فى الحكم ... فقد نُقل عن كثير من أئمة التصوف بعض المعانى وكثير منها يمكن أن يكون له وجهه الفقهى والعلمى والشرعى ، ومن ثَمَّ فعلينا أن نتأنى فى الحكم على ما نقرأه من كتبهم وما نسمعه من أقوالهم وما نراه فيمن حولنا ، علينا أن نتأنى فى الحكم ليكون حكمنا على بصيرة ، فإذا اطمأننا إلى أن حكمنا على قضية ما حكم صحيح شرعاً ، وأن ما حكمنا عليه أنه خطأ لا يحتمل غير ذلك فلا ينبغى عندئذ أن نتردد فى الحكم ، على أننا فى هذه الرسالة سنضع كثيراً من الأمور فى نصابها بحيث يتضح وجه الخطأ أو الصواب فى كثير من الأمور مما له علاقة بالتصوف وأهله ، ولنبدأ بالمقصود :

إنَّ ركنى السير إلى الله اللذين يستحيل سير بدونهما هما العلم والذكر ، فلا سير إلى الله بدون علم ، ولا سير إلى الله بدون ذكر ، فالعلم هو الذى يوضح الطريق ، والذكر هو زاد الطريق وأداة الترقى ، قال عليه الصلاة والسلام : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه عالماً ومتعلماً » [1] .

---

(١) رواه ابن ماجه وهو صحيح .

نحن بحاجة إلى العلم لنعرف الأوامر الإلهية ، ولنعرف حكمتها فننفذ الأوامر ونحقق الحكمة ، ونحن بحاجة إلى الذكر ليكون الله معنا فى سيرنا إليه ، يقول الله عَزَّ وجَلَّ فى الحديث القدسى : « وأنا معه إذا ذكرنى » [1] . وسترى قضية الذكر وأهميتها فى السير إلى الله بشكل واضح فى تفصيلات تأتى . فركنا السير إلى الله : علم وذكر ، ويستحيل أن يكون سير إلا بذلك ، غير أن السُلاَّك على نوعين :

نوع غلب عليه الذكر مع أخذه حظه من العلم ، ونوع غلب عليه العلم مع أخذه حظه من الذكر ، وكل واحد منهما واصل فى النهاية بإذن الله عَزَّ وجَلَّ ، ولا شك أن العلم المراد منه هو العلم بالكتاب والسُنَّة وهو ما يحتاجه السالك فى سيره قبل أى شيء آخر ، وأن المراد بالذكر هو الذكر المأثور أو المندوب إليه الداخل ضمن أوامر الله ورسوله عليه الصلاة والسلام فى باب الذكر ..

إنَّ الناس بشكل عام نوعان ، نوع رغبته فى العلم كبيرة وقُدرته على العلم موجودة ، ونوع قُدرته على العلم محدودة وطاقته على العبادة والعمل والذكر كبيرة ، فهذا طريقه الإكثار من الذكر ولا بد له من العلم ، ولقد قال ابن البنا السرقسطى : « والقوم فى هذا على فرقتين وحكمهم فيه على ضربين »:

– الفرقة الأولى :

« ففرقة طريقهم مبنية على العقائد وحسن النية »

وهذا يقتضى علماً وحسن توجه إلى الله .

« قالوا فإن النفس كالمرآة ينطبع الماضى بها والآتى »

أى مما هو مستقر فى أصل الخلقة للروح من معرفة الله والعبودية له والتسليم لأمره ماضياً وحاضراً ومستقبلاً « وإنما يعوقها أشياء » أى يعوق الروح عن أصل معرفتها أشياء هى « ترك المحاذاة أو الصداء » أى يعوقها عن معرفتها

---

(١) متفق عليه .

وعبوديتها إما غفلتها أو الصدأ المتراكم عليها بسبب الذنوب أو الغفلة ، وإذا كان الأمر كذلك ، فالعلاج هو إزالة الصدأ بحسن التوجه إلى اللّه عَزَّ وجَلَّ وذلك لا يتم إلا بذكر ، « قالوا وإن العين قد تغور » أي يذهب ماؤها والمراد بالعين هنا أصل الفِطرة « وإنما يخرجها الحفير » أي يرجع الماء فى العين بعد نضوبه الحفر وذلك عن طريق الذكر ، « وهذه طريقة الإشراق » أى هذا النوع من السير إلى اللّه يسمى طريق الإشراق . قال ابن عجيبة : وتسمى طريقة الجلاء والتصفية لأنها مبنية على تصفية القلوب والسرائر بتخليتها من الرذائل وتحليتها بالفضائل .

أقول : وهذا كله لا يتم إلى بعلم وذكر « كانت وتبقى ما الوجود باقى » فهى طريقة فى السير إلى اللّه مستمرة لأن كثيرين يسهل عليهم بعد أخذ حظهم من العلم أن يستغرقوا فى الذكر والعبادة .

– الفرقة الثانية :

« وفرقة قالت بأن العلما   من خارج بالاكتساب أسمى »

أى أرفع وأعظم فهذه طريقة الأصل فيها العلم ولا بد من الذكر ، « وشرطوا العلوم فى اصطلاحه » أى فى اصطلاح هذا النوع من السير « إذ لا غنى للباب عن مفتاحه » فالعلم هو مفتاح الوصول إلى اللّه عَزَّ وجَلَّ ولكن أى نوع من العلم ؟

« فليس للطامع فيه مطمع   ما لم تكن فيه علوم أربع »

فهذه العلوم مع الذكر هى شرط الوصول وقد حددها « وهى علوم الذات والصفات » أى معرفة ذات اللّه وصفاته وأسمائه « والفقه والحديث والحالات » أى وعلم الفقه وعلم الحديث أى والقرآن ، ثم علم الأحوال والمقامات والمنازلات ومخادع النفوس ومكايدها وما يجرى مجرى ذلك ، « وهذه طريقة البرهان » أى هذا النوع من السير ، سير قائم على الدليل التفصيلى فى كل قضية « وهى لكل حازم يقظان » إنَّ كلا من الطريقتين لا بد له من علم وعمل ، وأول العمل الذكر ، ولكن كما قلنا من قبل . طريقة : العلم فيها له المقام الأول من حيث

نسبة العمل وللذكر المقام الثانى ، وطريقة : الذكر فيها له المقام الأول من حيث نسبة ما يقضى فيه من الوقت ، وللعلم المقام الثانى فلا بد فى كل من الطريقتين من علم وعمل ، ولذلك يقول ابن البنا نفسه :

« إذ الطريق العلم ثم العمل   ثم هبات بعدها تؤمل »

وإنما قيدنا الأولية فى الطريقين من حيث نسبة ما يعطى لكل منهما من الوقت ، لأن الأولية المطلقة فى كل من الطريقتين للعلم لأن العلم هو الإمام ولذلك قالوا :

« وكل مَن بغير علم يعمل   أعماله مردودة لا تُقبل »

فالعلم هو البداية لكل أنواع السُلاَّك إلى الله عَزَّ وجَلَّ ولذلك قال ابن البنا : « فإن أتى القوم أخو فتون » ، الفتون - كما قال فى مختار الصحاح - هو الافتتان ، أى إذا جاء الشيوخَ إنسانٌ مفتتن بما يقطع عن الله وبما يشغل القلب عنه من ذنب وغيره « وقال ياقوم أتقبلونى » « تقبلوه صادقاً أو كاذباً » فذلك أدبهم مع الله ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ، أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [1] ولذلك قال : « إذ كان محتوماً عليهم واجباً » ، أى أن يقبلوا كل مَن جاءهم ثم بيَّن بماذا يأمرونه ابتداءً فقال : « وحذَّروه من ركوب الإثم » « وأمروه باقتباس العلم » لاحظ قضية العلم كبداية،« وأمروه بلزوم الطاعة » « والماء والقبلة والجماعة »،« وقرروا فيه شروط التوبة» ، «أمروه بلزوم الصحبة »،« ثم أمدوه بعلم ظاهر » - لاحظ قضية العلم - « حتى استقامت عنده السرائر » ..

إنَّ ركنى الطريق كما قلنا : علم وذكر ، ولا بد من تحديد لقضية العلم ومن تحديد لقضية الذكر ، فكل إنسان يطالب من العلم بقدر حاله وبقدر احتياجه ،

---

(١) الأنعام : ٥٤ - ٥٥

وهو موضوع يختلف باختلاف الناس والبيئات واختلاف العصور ، فهناك قضايا يطالَب بها كل إنسان ، وقضايا يطالب بها إنسان دون إنسان ، لم يكن الصحابى مثلاً بحاجة إلى أن يتعلم علوم اللغة العربية لأنه يفهمها ويتكلمها على السليقة ، ولم يكن بحاجة إلى علم تجويد لأنه يتلقى عن رسول الله ﷺ القرآن كما أُنزل ويؤديه كذلك ، وكثير من الشُبَه والبدع وأنواع من الكفريات وزخارفها لا يصادفها جيل ويصادفها جيل آخر ، أو لا يصادفها إنسان فى مكان ويصادفها إنسان فى مكان آخر ، وكثير من الأمور يطالَب بها جيل ولا يطالَب بها جيل آخر ، فمثلاً لا يطالَب جيل يعيش فى ظل دولة إسلامية بالعمل لإقامة دولة إسلامية ولا بالعلوم اللازمة لذلك ، ولكن جيلاً فقد الدولة الإسلامية مثلاً ولم يعد يعيش فى قُطر كلمة الله هى العليا فيه ، مثل هذا الجيل بحاجة إلى أن يعرف العلوم اللازمة لإقامة فريضة الله هذه ، إن قضية العلم والذكر كركنين فى السير إلى الله لا بد أن تُفهم فهماً صحيحاً ، خاصة فى عصرنا الذى غفل الناس فيه كثيراً عن فرائض وضيَّعوا كثيراً من طاقاتهم فى الدفاع عن قضايا ليست من باب السُنَن ، وهى إما من باب المباحات أو من باب البدع ، وكل ذلك لا يستأهل أن يقف المسلم المعاصر عنده طويلاً ..

إذا اتضح إلى حد ما موضوع العلم والذِكر كركنين فى السير إلى الله ، فقد آن لنا أن ندخل لب الموضوع بشكل أوسع ، إن لب الموضوع فى السير إلى الله هو الوصول إلى القلب السليم ، ففى الحديث : « إنَّ فى الجسد لمضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله : ألا وهى القلب » [1]. إنَّ صلاح القلب به صلاح النفس وصلاح الجسد وهو صلاح للروح ، إذ فى هذه

(١) رواه البخارى .

الحالة تكون الروح فى وضعها الصحيح ، وهو نقطة البداية فى الاستقامة ، وبهذا الصلاح يكون استعداد الإنسان للتلقى عن الله كاملاً ، والقُدرة على الخلاص من الفتنة متوفرة بإذن الله ، ومن ثَمَّ فنقطة البداية الصحيحة لحياة إسلامية كاملة هى صلاح القلب وإصلاحه ، والسير إلى الله فى جوهره هو هذا السير فى القلب نحو صلاحه ثم الاستمرار به فى حالة الصلاح والقيام بحقوق العبودية الخالصة لله عَزَّ وجَلَّ حتى الموت ، وفى هذه الدائرة أغلاط كثيرة يقع فيها السُلاّك إلى الله عَزَّ وجَلَّ ستتبين لنا شيئاً فشيئاً .

* * *

الباب الرابع

فى ماهية السير القلبى إلى الله

يقول عليه الصلاة والسلام فى الحديث الذى مَرَّ معنا من قبل : « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط عليه غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مصفح ، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن ، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر ، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة ، يمدها القيح والدم ، فأى المادتين غلبت على الأخرى ، غلبت عليه » فى هذا الحديث : بيان لأنواع القلوب البَشرية بالنسبة لقضية الإيمان ، وواضح من الحديث أن القلب الكافر الذى رُبِطَ على غلافه والقلب المنكوس لا فائدة منهما فى قضية الإيمان ، والقلب الذى فيه مثل السراج يزهر هذا هو القلب الهدف وهو القلب السليم وهو غاية سير السائرين فى عملية إصلاح القلب ، والقلب الذى هو محل العلاج هو القلب الذى لا زال فيه بقية من نور الفِطرة ، أو هو القلب الذى فيه بقية من إيمان ، مثل هذا القلب هو محل العلاج ، وهو القلب الذى يفترض على أصحابه فرضاً أولياً أن يسيروا فى الطريق إلى صلاحه وإصلاحه ، هؤلاء الفريضة الأولى فى حقهم هى السير نحو صلاح قلوبهم حتى تصل إلى أن تكون القلب المؤمن العارف ، ولا شك أن القلب الكافر والقلب المنافق الفريضة الأولى فى حق أصحابهما هى الإسلام والإيمان ، ولكن هذا مما لا نطمع فيه ، إذ لا محل

عند هؤلاء للسماع أصلاً فضلاً عن الاستجابة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنتَ بِهَادِى الْعُمْىِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ، إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾[١] وإذن فالفريضة الأولى فى حق مرضى القلوب هى إصلاح قلوبهم ثم الاستمرار بها فى حالة معينة بإعطائها الزاد اليومى اللازم والغذاء الذى تحتاجه ، وهى قضية تختلف من إنسان لإنسان ، ثم ملاحظتها من فترة إلى أخرى بالقيام بعملية تجديد الإيمان فيها وهكذا الشأن حتى الوفاة . ولن يستطيع أحد أن يحافظ على سلامة قلبه وصحته وهو مقصر فى فريضة من الفرائض أو هو مستمر على منكر من المنكرات ، لاحظ أن رسول الله ﷺ يقول : « إنه ليغان على قلبى حتى أستغفر فى اليوم مائة مرة » [٢] . فأنت ترى أن رسول الله ﷺ يفعل شيئاً ما ليبقى قلبه على حال معيَّن ، ثم إنه عليه الصلاة والسلام يقول : «إنَّ الايمان ليخلق فى جوف أحدكم كما يخلق الثوب فاسألوا الله أن يجدد الإيمان فى قلوبكم » [٣] ويقول عليه الصلاة والسلام : « جدِّدوا إيمانكم » ، قيل: يا رسول الله .. كيف نجدِّد إيماننا ، قال : « أكثروا من قول : لا إله إلا الله »[٤] . إنه من خلال هذه النصوص ندرك صحة ما قلناه ..

إنَّ المرحلة الأولى هى الانتقال بالقلب من مرض إلى صحة ، ثم المرحلة الثانية إعطاء هذا القلب الزاد اليومى والزاد اللازم كل حين ليبقى القلب محافظاً على حالته الإيمانية الرفيعة ويبقى هذا هو الشأن فى حق كل إنسان حياته كلها حتى يلقى الله عزَّ وجلَّ ، قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [٥] أى الموت ؛ فإنَّ به انكشاف الأمور الغيبية على حقيقتها ..

---

(١) النمل : ٨٠ - ٨١

(٢) أخرجه مسلم وأبو داود .

(٣) أخرجه الطبرانى فى الكبير وأخرجه غيره ، وهو حديث حسن .

(٤) رواه الإمام أحمد بإسناد جيد .

(٥) الحجر : ٩٩

والطريق إلى إصلاح القلب العلم ثم العمل بالإسلام ، ومحل الذكر فى العمل هو الأول فهذه قضايا ثلاث . يقول عليه الصلاة والسلام فى الحديث : « إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى منها إنما هى قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً فذاك مَن فقه دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعمل ، ومثل مَن لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » (١) . من هذا الحديث ندرك أن طبيعة القلوب تتحدد وتتبين من خلال موقفها من العلم والهدى الذى بُعثَ به رسول الله ﷺ ، فالتلقى والعلم هو الذى به تتبين حقيقة القلوب . إنَّ تجاوب القلوب مع الوحى أو عدم تجاوبها ، أخذها للعلم أو عدم أخذها له ، كل ذلك متوقف أولاً على العلم ، فالعلم هو الأول كوسيلة للإصلاح ، لكن القلوب تتفاوت فى مواقفها ، وعلى كل فإذا كانت القلوب من النوع الذى يحفظ ولا ينبت ، أو من النوع الذى لا يحفظ ولا ينبت وكان فيها إيمان فإنه لا بد من عملية إصلاحية علاجية وههنا يأتى كوضع ضرورى دور المربى والولى والمرشد أو الشيخ الكامل .

بشكل عام ندرك من هذا الحديث أن العلم لا بد منه ، ومع العلم العمل بالإسلام كطريق لا بد منه لتتسلل أنوار الإيمان شيئاً فشيئاً إلى القلب حتى يستنير كله ، قال تعالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا ، قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَكِن قُولُواْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (٢) . فالإيمان لم يدخل ولكنه على وشك الدخول بسبب الإسلام وأعمال الإسلام . فكل عمل من الإسلام يفعله الإنسان إذا صحَّت النية فيه له نوره الذى يتسلل إلى القلب ، فإذا تصورنا الآن إنساناً قلبه فيه إيمان ونفاق ، وتصورنا أنَّ هذا الإنسان قطع مدد النفاق عن قلبه بتركه الفسوق وأعمال الكافرين وبتركه المعاصى ، وتصورنا أنَّ هذا

---

(١) أخرجه الشيخان . (٢) الحجرات : ١٤

الإنسان أقبل بهمة ونشاط على أعمال الإسلام من صلاة وزكاة وصوم وجهاد وذكر وقراءة قرآن وغير ذلك ، مثل هذا الإنسان لا يلبث بعد فترة حتى يستنير قلبه ويصل بسرعة إلى القلب المؤمن الذى فيه مثل السراج يزهر ، والفرائض كلها لا بد منها كطريق فى عملية الإصلاح هذه ، ومن الفرائض الصلاة وهى ذكر ولكن باب الذكر أوسع ، والذكر فى قضية القلوب له المكان الرفيع ، قال تعالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (1) ، ولكن الوصول إلى الحالة التى يعطى الذكرَ فيها القلبَ اطمئناناً يعتبر وضعاً متقدماً فى السير الإيمانى ولذلك جاء قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ، أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (1) ... والفلسفة الكثيرة فى هذا المقام لا تغنى شيئاً عن العملَ الكثير . إنه بقدر الهمة على العلم وعلى العمل - وخاصة الذكر - يستطيع الإنسان أن يقطع مراحل كبيرة ، ولحكمة ما نلاحظ أن رسول الله ﷺ وأصحابه قد كلفوا بالآيات الأولى من سورة المزمل سنة كاملة . ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً * إِنَّ لَكَ فِى النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ (2) . أن يقبل المسلم على صلاته فريضة ونافلة وأن تكون له أوراده الكثيرة من الأذكار وقراءة القرآن مع العلم والقيام بفرائض الوقت كلها ، إن شيئاً ما من هذا القبيل يختصر به المسلم سيره إلى إصلاح قلبه بسرعة كبيرة وذلك بقدر ما يبذل من جهد وطاقة ، فالمُنْبَتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ... فإذا وصل إلى طمأنينة القلب وحياته وتنوره بقى عليه أن يحافظ على هذه الحالة وأن يزيد نورانية قلبه وذلك بالمحافظة على حد أدنى من الأوراد المتعددة تكفى احتياجات قلبه .

وهذه الاحتياجات تختلف باختلاف الناس ، فالإنسان المضطر لخلطة بيئات فاسدة أو كافرة تختلف حاجات قلبه عن إنسان يعيش ليلاً ونهاراً فى بيئة المسجد وفى أجواء الصالحين . ولذلك نلاحظ أن رسول الله ﷺ ندب الناس إلى

---

(1) الرعد : 28   (2) المزمل : 1 - 8

أنواع كثيرة من الأذكار والأوراد وترك بعد الفرائض والواجبات للإنسان حرية الاختيار للمندوبات وما أكثرها ، ثم على كل مسلم أن يلاحظ حاله القلبى فى كل فترة فيجدد إيمانه بالإقبال على كلمة التوحيد ولذلك نلاحظ أنَّ اللَّه عَزَّ وجَلَّ فرض علينا فرائض سنوية كالصوم والزكاة ، وبعضها عمرية كالحج . وكل ذلك له محله فى قضية استمرارية الإيمان وتجديده وحياته وصلاح القلب ، وفى دوائر مما ذكرناه تقع أغلاط كثيرة يرتكبها كثير من الناس فلنحاول أن نحدد بعض هذه الأغلاط من خلال عرض بعض الأمور :

أولاً : ما أمر اللَّه عَزَّ وجَلَّ الإنسان بشىء ولا نهاه عن شىء إلا وفى ذلك حكمة ومصلحة للإنسان ، ومجموعة ما فرض اللَّه عَزَّ وجَلَّ على الإنسان وشرعه له هو الذى فيه دواؤه وعلاجه . فلو حدث أن الإنسان عطَّل أمراً ما من الأوامر فلا بد أن يترتب على ذلك فساد فى نفسه وفيمن حوله . هذه ناحية ، والناحية الثانية أنه مامن أمر ولا نهى شرعه اللَّه عَزَّ وجَلَّ إلا وفى ذلك حكمة ، فإذا لم يحقق الإنسان الحكمة من تنفيذه الأمر يترتب على ذلك فساد فى نفسه وفساد فيمن حوله ، ولنضرب على ذلك أمثلة تبيِّن المراد : فرض اللَّه عَزَّ وجَلَّ الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والكسب الحلال وصلة الأرحام وبر الوالدين وغير ذلك من الفرائض ، وكل فريضة يخاطب بها الإنسان ، إذا أتى بها ترتب على ذلك مصلحة لا تتحقق إلا بها ، وإذا تركها ترتبت على ذلك مفسدة لا تزول إلا بإقامتها . فهذا القتال فى سبيل اللَّه عندما يكون فريضة فيُهمَل يترتب على ذلك كما قال اللَّه عَزَّ وجَلَّ : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ - أى عن إقامة فريضة القتال - أَن تُفْسِدُواْ فِى الأَرْضِ وَتُقَطِّعُواْ أَرْحَامَكُمْ ﴾ (١) فحيث لا يكون قتال فى سبيل اللَّه يوجد إفساد وقطيعة رحم . وهكذا قل فى أى فريضة تعطل أو أى حرام يرتكب لا بد أن يترتب على ذلك فساد ، قال تعالى : ﴿ فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ ﴾ (٢) ،

---

(١) محمد : ٢٢ (٢) المائدة : ١٤

ثم كل فريضة شرعها الله عَزَّ وجَلَّ إنما شرعها لحكمة ، فهذه الصلاة قال الله عَزَّ وجَلَّ فيها : ﴿ إنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ (١) ، وقال تعالى فيها : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِيَ ﴾ (٢) فعندما يؤدى الإنسان الصلاة ولكنه يكون فيها غافلاً عن ذكر اللَّه ولا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر لا يكون قد أدى حكمة الصلاة ، وقل مثل ذلك فى كل فريضة . فهذا الصوم شرعه الله عز وجل كطريق موصل للتقوى وضبط النفس ، قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٣) ، ويقول عليه الصلاة والسلام : « مَن لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه » (٤) . فلو أنَّ إنسان صام ولم يحقق حكمة الله التى من أجلها شُرِعَ الصوم لا يكون قد أقام الفريضة حق القيام ، ومن ثَمَّ ندرك أنَّ المربين الذين لا يربون على أن يحقق المسلم الحكمة التى من أجلها كان الأمر والنهى هؤلاء مقصرون ولا يمكن أن تستقيم مع تقصيرهم نفس الإنسان ولا حياة الناس . وفى موضوعنا الذى نحن فيه : لا يمكن أن يتم صلاح للقلب البشرى أصلاً بهذا التفريط ...

وفى إغفال هذه القضية تكمن أهم أغلاط بعض المتصدرين للتوجيه والتربية من الصوفية وغيرهم ، ومن ثَمَّ فلا تصلح على يدهم القلوب ولو ادَّعوا فى ذلك الدعاوى العريضة وخدعوا بذلك أنفسهم ومريديهم والمسلمين ...

أن يكون للمسلم موقف من كل شئ سلباً أو إيجاباً هذا واجب وقته فهو ضد الكفر وأهله ونظامه ومع الإسلام وأهله ونظامه ..

أن يعطى المسلم ولاءه للمسلمين ويحجبه عن الكافرين ... أن يعمل المسلم من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا وذلك لا يكون إلا إذا كان الإسلام حاكماً والمسلمون حاكمين ..

---

(١) العنكبوت : ٤٥ (٢) طه : ١٤

(٣) البقرة : ١٨٣ (٤) رواه البخارى .

هذه كلها فرائض فعندما تجد مربياً يربى على تعطيلها بل على محاربة أهلها فكيف يستقيم قلب الإنسان على مثل هذا التضليل ...

إنَّ هؤلاء لا تصلح بهم القلوب بل تفسد بهم العقول والقلوب والأرواح والأجساد والفرد والمجتمع والإنسانية ...

هؤلاء ليست قلوبهم ربانية ولا محمدية ...

هل كان أصحاب رسول الله ﷺ على حياد فى الصراع بين الكفر والإسلام ؟ هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يسمحون لأنفسهم أن يروا الكفر البواح وهم لا يعملون على إنهائه ؟ ماذا فعل أبو بكر للردَّة ؟ والآن هذه الردَّة مستشرية فى كل مكان وكأن الدنيا عند بعض الناس فى غاية الإسلام ...

ولو أن هؤلاء اقتصروا على موقف العاجز واعترافه لهان الخطب ، ولكنهم مع عجزهم يربون على العجز ويفلسفون له ويحاربون من يتحملون فى الله عبء الصراع مع الكفر وأهله وما أقساه من صراع ...

إنهم فى هذا لا يخرجون عن كونهم نماذج تنطبق عليهم إلى حد كبير أو قليل هذه الآيات : ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً * وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَالَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ (١) ، ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ، وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ، فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ، أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾ (٢) إن مَن لم يفهم قضية صلاح القلب فى الإطار الذى ذكرناه من أنه

---

(١) النساء : ٧٢ - ٧٣ (٢) الأحزاب : ١٨ - ١٩

التطبيق الكامل للفرائض مع التحقق بالحكم التى شرعها الله عَزّ وجَلّ .. إن مَن لم يفهم المسألة كذلك فإنه يكون على غلط عظيم فى فهم قضية القلب السليم .

* *

ثانياً : ومن مظاهر الغلط الرئيسية التى يقع فيها بعض ممن يتصدرون لعملية إصلاح القلوب من الصوفية والعلماء وغيرهم . أن الكثير منهم تغيب عنه أن من شروط صلاح القلب أو إصلاحه التخلى عن معان ، كما أن من شروط ذلك التحقق بمعان . فالذكر بأنواعه وأعمال الإسلام بأنواعها ، كلها قضايا ذات صلة بإصلاح القلب ، وعدم التفريط بالقيام بحق الأمر والنهى شرط لصلاح القلب وإصلاحه .

وفى هذا المقام يقع بعض الناس فى غفلة عن البديهيات ولتوضيح هذا المقام فلنستعرض بعض المعانى .

(أ) قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ، وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ، يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ، وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ، لَهُمْ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ ، وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) فههنا مرض يستحيل معه شفاء القلب والعلّة الرئيسية ههنا هى وجود الإنسان الذى عنده استعداد لسماع الأكاذيب وعنده استعداده للتجسس على المسلمين لحساب الكافرين ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ وما أكثر الذين يسمعون الإشاعات الكاذبة ويصدقونها فى المسلمين ﴿ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ وما أكثر الذين يتطوعون فى نقل أخبار المؤمنين للكافرين ..

من هذا المثال ندرك أن قضية صلاح القلب لها شروطها السلبية كما أنّ لها شروطها الإيجابية ولكن القليلين هم الذين يدركون ذلك .

---

(١) المائدة : ٤١

(ب) قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً ، وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ، لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ (١) لاحظ أنَّ قسوة القلب ههنا كانت عقوبة على نقض الميثاق فى معان بعينها ، فما هى هذه المعانى ؟ إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالرسل ونصرتهم وإقراض الله قرضاً حسناً ، والآن لاحظ أن الله عَزَّ وجَلَّ جعل قول المسلم : « سمعنا وأطعنا » عهداً وميثاقاً ... قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ (٢) ، والآن فلنسائل أنفسنا : أى شىء أُخذ العهد به على بنى إسرائيل فى هذه الآية لم يُؤخذ علينا ؟ من صلاة أو زكاة أو إيمان بالرسل أو نُصرة لهم أو إقراض لله عَزَّ وجَلَّ ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ﴾ (٣) ، ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ (٤) ، فلو أن المشتغلين فى صلاح القلوب لم يلاحظوا مثل هذا فأهملوا شيئاً منه كنُصرة رسول الله ﷺ بنُصرة شريعته ونُصرة سُنَّته ونُصرة دينه ونُصرة حَملة شريعته فكيف يتم صلاح القلب والحالة هكذا ...

ومن هذا المثال ندرك كذلك أن قضية صلاح القلب لها شروطها السلبية والإيجابية . ولعله من هذا المثال والذى قبله نعلم أنَّ من الشروط الأولى لصلاح القلب الانتماء الصحيح لجماعة المسلمين الحقيقية والإخلاص لها وفيها ومحاربة أعداء الله معها بدلاً من أن نكون عوناً لهم وجواسيس عليها ، إن الانتماء لجماعة المسلمين المتمثلة بالحق وأهله هو الطريق الصحيح لنُصرة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ولذلك فلا صلاح لقلب إذا لم يتم الانتماء ، يقول

---

(١) المائدة : ١٢ - ١٣
(٢) المائدة : ٧
(٣) الأحزاب : ٤٥ - ٤٦
(٤) الفتح : ٨ - ٩

عليه الصلاة والسلام : « أن تلزم جماعة المسلمين وإمامهم » [1] . والجماعة أن تكون على الحق ولو كنت وحدك ، هذا ما فسَّرها به ابن مسعود رضى الله عنه ... فأن نجد ناساً يحاربون التجمع على الحق ونُصرته فذلك خطأ وضلال وأنَّى يكون مع ذلك صلاح قلوب ؟ اعتبر بعضهم حسن البنا رحمه الله مخطئاً لأنه تدخل فى السياسة وكأن المسلم بالخيار ... وكل الاتجاهات الكافرة تتجمع لتصل إلى الحكم لتحقق أهدافها الكافرة التى بها القضاء على الإسلام ... كأن المسلم فى الخيار والشأن كذلك أن لا يتجمع على الإسلام لينصره ويحول دون القضاء عليه ، كأن هؤلاء لم يفهموا من الإسلام أبداً بديهياته التى تقول : بأنَّ كلمة الله يجب أن تكون العليا ، وأنَّ على المسلم أن يسير فى طريق ذلك ، وكيف تكون كلمة الله هى العليا إذا لم يعمل المسلمون لذلك بطريق ذلك ؟ كل اتجاه كافر يعمل للوصول إلى الحكم فى عصر أصبح الحكم يتدخل فى الصغيرة والكبيرة ، فإلى مَن نوكل بقاء الإسلام وإستمراره بعد أن كلفنا الله بذلك بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾[2]، وقال : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُواْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [3] ، أم نريد أن نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَٰهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ؟ [4] ، إنَّ إصلاح القلب هو إحدى مهمات الرسل الأساسية ، فإذا تصدَّر لها مَن يريد أن يتصدروا لمقام الأنبياء دون دفع ثمن ذلك فيافداحة الكارثة ، قال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ [5] وفى قراءة ورش : « وكأين من نبى قُتِلَ معه ربيون كثير » ، وإذن فكثير من الرسل قُتلوا ... ولقد رأيت ممن يدَّعون أنهم يسيرون فى طريق إصلاح القلوب مَن يعتبرون القتل علامة على عدم الكمال فهل هؤلاء يعقلون ؟ هذا عمر قُتِل ، وهذا عثمان قُتِل ، وهذا علىٌّ قُتِل ، وهذا طلحة قُتِل ، وهذا

---

(١) رواه البخارى .
(٢) محمد : ٤
(٣) محمد : ٣١
(٤) المائدة : ٢٤
(٥) آل عمران : ١٤٦

الزبير قُتل ، فهل هؤلاء لم يكملوا والقاعدون عن الجهاد هم الكُمَّل ؟ أهذه تربية للقلوب أم إفساد لها ؟ نعوذ بالله أن نَضِل أو نُضَل .

(جـ) يقول عليه الصلاة والسلام فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد : « لولا تمرغ قلوبكم وتزيدكم فى الحديث لسمعتم ما أسمع » ، ويقول : « لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسوا قلوبكم فإن القلب القاسى بعيد من الله » [1] . وقال تعالى عن أولئك الذين لم يرد أن يطهر قلوبهم والذين مَرَّ ذكرهم معنا فى هذه الفقرة : ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ [2] أى للحرام والرشا . هذه النصوص وأمثالها تدلنا على كثرة الشروط السلبية والإيجابية لصلاح القلب من بُعْد عن اللقمة الحرام وبُعْد عن الكلمة الزائدة وغير ذلك ، وكثيررن من الذين يشتغلون فى تربية الناس لا يفطنون لمثل هذا .

* *

ثالثاً : لا يصل القلب إلى أن يكون مؤمناً خالص الإيمان فيه مثل السراج يزهر ، إلا إذا وصل إلى معرفة الله معرفة ذوقية قلبية صافية ، والإنسان بقدر معرفته بالله يزداد خضوعاً لأحكامه وتطبيقاً لها والتزاماً بها وأخذاً بقوة لها ، مهما ترتب على ذلك من خرق عادات أو ضغط مجتمع أو انحراف سُلطة . فالتلقى الكامل عن الله والعمل بشريعته وأخذ كتابه بقوة ذلك مقتضى صلاح القلب ، قال تعالى : ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ [3] ، ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [4] ، وقال الله عَزَّ وجَلَّ لرسوله عليه الصلاة والسلام : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ [5] هذا كله يشير إلى أن الوصول إلى القلب العارف هو مقدمة التلقى الكامل عن الله عَزَّ وجَلَّ ، ومن هنا نفهم خطأ الذين يتصورون أن السير إلى معرفة الله لا يتطلب

---

(١) رواه مالك . (٢) المائدة : ٤٢ (٣) مريم : ١٢
(٤) الزمر : ٥٥ (٥) الجاثية : ١٨ - ١٩

أخذ الأحكام ، ثم يتصورون أنه إذا وصل الإنسان إلى المعرفة فلا عليه لو فرّط في الأحكام . وهذا هو محل الخطأ الكبير عند الكثير من الناس . هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ أكثر خلق الله معرفة لله وأكثرهم جهاداً في سبيله وأكثرهم التزاماً بأحكام شريعته ، فأين هذا النفس الآن عند الذين يشتغلون في قضايا القلوب ، لا بد من وضع الأمور في مواضعها في هذه الشئون كلها . مما ذكره صاحب الرسالة القشيرية عن اثنين من كبار الصوفية كانا في قتال أهل الكفر فالتفت أحدهما إلى الآخر يقول : أتحس الآن بمتعة كتلك التي شعرت بها ليلة عرسك ؟ ثم قال : أما أنا فكذلك ، فانظر بالله عليك حال هذا الصنف من الصوفية الذين يجددون في القلب تذكر حال أصحاب رسول الله ﷺ إذ كان أحدهم يرى أحلى أيامه يوم جهاد كما قال خالد رضي الله عنه : « ما ليلة يهدى إليّ فيها عروس أنا لها محب في يوم شديد زمهريره أحب إليّ من أن أكون على رأس كتيبة من المهاجرين أصبّح قوماً أو أمسّيهم » ، وقارن بين هذا الحال وحال الذين ألفوا الدعة والمتعة في أشد عصر وأصعبه يمر على الإسلام والمسلمين ، وباختصار نقول : إنّ السير القلبي يعني الوصول إلى الإيمان الخالص ومعرفة الله الكاملة . وإنّ لذلك طريقه السلبي والإيجابي ، وإنّ ذلك كله هو مقدمة الأخذ الكامل القوي لشريعة الله عَزّ وجَلّ وإقامة أحكامه وجعل كلمة الله هي العليا .

وفيما بين البداية والنهاية يوجد قصور وتقصير وأغلاط وإهمال ، ونسأل الله أن يلهمنا الحق وأن يجعلنا من العاملين .

* * *

الباب الخامس

فى الأوراد والواردات
وفى أجواء آيات المشكاة

قال تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ، يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ * فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ وَالأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ، وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١)

إنَّ فهم هذه الآيات من أعظم العون على فهم قضية القلوب وقضية السير إلى الله عزَّ وجَلَّ ، ولذلك سنحاول أن نتفهمها من خلال ما نستطيع من عرض مبسَّط لها .

فى الآية الأولى مثل أحد أجزائه المشكاة والمصباح والزجاجة .

المشكاة : هى الكوة غير النافذة فى الجدار ، والمصباح : هو السراج ، والزجاجة : هى القنديل الذى يحوى السراج المنير .

(١) النور : ٣٥ - ٣٨

هذه الأجزاء الثلاثة فى المثل ماذا تقابل ؟ إنها تقابل فى الإنسان المؤمن ثلاثة أشياء ، جسده وقلبه والنور الموجود فى هذا القلب ، فالجسد يقابله المشكاة، والقلب يقابله الزجاجة ، والنور يقابله السراج الموجود فى قلب الزجاجة ، ودليلنا على ما ذهبنا إليه من أنَّ جسد المؤمن يقابل المشكاة وأن قلبه يقابل الزجاجة وأن النور الموجود فى قلبه يقابل السراج الموجود فى قلب الزجاجة ، ما قاله ابن كثير ، وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أُبَىّ بن كعب فى قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ ، مَثَلُ نُوره ﴾ [1] قال : هو المؤمن الذى جعل الله الإيمان والقرآن فى صدره فضرب الله مثله فقال : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ فبدأ بنور نفسه ثم ذكر نور المؤمن فقال : مثل نور مَن آمن به ، قال : فكان أُبَىّ بن كعب يقرأها : « مثل نور مَن آمن به » فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن فى صدره ، وهكذا رواه سعيد بن جبير وقيس بن سعد عن ابن عباس أنه قرأها كذلك : « مثل نور مَن آمن بالله » ، من هذا النقل تدرك أنَّ ما اتجهنا إليه صحيح و ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ بمعنى أنه هاديهما فلا هداية فى السموات والأرض إلا بنوره ، جَلَّ جلاله ، ثم ضرب مثلاً لهدايته الأشياء بنوره بهداية المؤمن ، وضرب لهذه الهداية الأمثلة العظيمة لتتبين عظمة هدايته وجلالها ، وإذن فالمشكاة جسد المؤمن الذى يحوى قلبه ، والزجاجة هى قلب المؤمن الذى يحتوى نور القلب الذى به يهتدى المؤمن فيرى الأشياء على حقائقها ويسير على هدى من ربه بسبب هذا النور ، هذه هى المرحلة الأولى فى هذا المثل .

ثم تأتى المرحلة الثانية فى المثل : هذه الزجاجة التى تحتوى المصباح هى القلب الذى يحتوى النور ، شُبِّه فى شدة نوره بالكوكب المضىء الذى يشبه الدر لفرط ضيائه وصفائه ، ونلاحظ هنا أنه دمج الكلام عن الزجاجة ومصباحها - أى القلب ونوره - بأن شبَّه الجميع بالكوكب الدرى فالسراج مضىء والزجاجة نفسها مضيئة لصفائها ونقائها وهذه هى المرحلة الثانية فى المثل .

(١) النور : ٣٥

ثم تأتى المرحلة الثالثة : هذا المصباح فى الزجاجة من أين يوقد ؟ من أين يستمد نوره ؟ كيف تستمر نورانيته ؟ أو نقول : هذا النور فى القلب - أو هذا القلب المنوّر - من أين يستمد نورانيته وما هو المدد الذى يأتيه ؟ وما هو المولّد لهذا النور ؟ قال تعالى : ﴿ يُوقَدُ ﴾ أى هذا المصباح فى الزجاجة ، أى النور الموجود فى قلب المؤمن ﴿ من شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ (١) ، أى كثيرة المنافع ﴿ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ (١) قال النسفى : « يعنى ليست من المشرق ولا من المغرب بل الوسط منهما .. » والزيتونة هنا شريعة اللّه عَزَّ وجَلَّ ، قال ابن كثير : فشبَّه المؤمن فى صفائه فى نفسه بالقنديل من الزجاج الشفّاف الجوهرى وما يشبهه من القرآن ، والشرع بالزيت الجيد الصافى المشرق المعتدل الذى لا كدر فيه ولا إنحراف ، لاحظ قول ابن كثير : « والشرع بالزيت الجيد الصافى المشرق » فالزيتونة هنا إذن هى شريعة اللّه وهى لا شرقية ولا غربية ، بل هى ربانية خالصة ، ونحن فى عصرنا ندرك معنى كون شريعة اللّه لا شرقية ولا غربية بشكل أوسع مما كان السابقون يدركونه بعد أن أصبح الشرق عَلَماً على الشيوعيين والغرب عَلَماً على الرأسماليين ، وهذه المرحلة الثالثة من المثل .

ثم تأتى المرحلة الرابعة من المثل : هذه الشجرة المباركة التى يستمد منها القلب نوره ، هذه الشريعة النافعة التى يستمد منها القلب نوره كم هو عظيم نور زيتها ؟ قال تعالى : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ (١) ، قال النسفى : « وصف الزيت بالصفاء والوميض وأنه لتلألئه يكاد يضىء من غير نار » فما أعظم نورانية هذه الشريعة التى تمد نور القلب ؟ وما أعظم بالتالى نور هذا القلب الذى يستمد نورانيته من شريعة هذه شأنها ولذلك قال تعالى : ﴿ نُّورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ (١) فهذه هى المرحلة الخامسة من المثل . قال النسفى : « أى هذا النور الذى يشبَّه به الحق نور متضاعف قد تناصر فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت حتى لم تبق بقية مما يقوى النور ، وهذا لأن المصباح

---

(١) النور : ٣٥

إذا كان فى مكان متضايق كالمشكاة كان أجمع لنوره بخلاف المكان الواسع فإنّ الضوء ينتشر فيه ، والقنديل أعون شىء على زيادة الإنارة وكذلك الزيت وصفاؤه » . قال ابن كثير : وقال السدى فى قوله تعالى : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ قال : نور النار ونور الزيت حين اجتمعا أضاءا ، ولا يضىء واحد بغير صاحبه . كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه ، لاحظ قوله : « كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا » . وبهذا ينتهى المثل الذى ضربه الله عَزَّ وجَلَّ لتوضيح نوع هدايته وعظمها ...

ومن خلال المثل أدركنا أنّ العمل بشريعة الله هو الذى يمد نور الإيمان بالمدد الدائم وقد رأينا كلمة السدى الأخيرة فى هذا الموضوع حيث قال : « نور النار ونور الزيت حين اجتمعا أضاءا ، ولا يضىء واحد بغير صاحبه . كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه ، من هنا نعلم أن العمل بالقرآن هو المدد الدائم للقلب الذى به يبقى سراج القلب مشتعلاً ، وبه يبقى الإنسان مهتدياً ، وبقدر ما يعمل الإنسان بهذا القرآن يزداد نور قلبه اجتماعاً وإضاءة ، وتعكس المشكاة - أى الجسد - هذا النور فتضىء الطريق لصاحب النور ولغيره ... ولنستمر فى عرض الآية .

مما مَرَّ من الآية ندرك عظيم هداية الله ، وندرك وضوح نوره ، ولكن لماذا يبقى ناس على الكفر ؟ والجواب : أنّ هؤلاء لا يريد الله هدايتهم ولذلك قال تعالى : ﴿ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ، واللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) . أى يهدى لنور شريعته ، أو يهدى الله مَن يشاء لأهل الإيمان حتى يأخذوا منهم ويهتدوا بهديهم . والآن تأتى الآية الثانية لتبين لنا أين نجد هذا النوع من الناس الذين هذا شأن قلوبهم فى النور والهداية .

قال تعالى : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ (٢) قال النسفى : «أى كمشكاة فى بعض بيوت الله وهى المساجد » ، والمشكاة هى

(١) النور : ٣٥ (٢) النور : ٣٦

جسد المؤمن ، فهذا النوع إذن من القلوب وأهلها مظنة وجوده المساجد ، ومن هنا ندرك أنّ نقطة الانطلاق فى التربية الإيمانية العالية هى المساجد ...

ثم تستمر الآيات فى وصف هذا النوع من الناس : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا ﴾ أى فى المساجد ﴿ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ أى بأداء الصلاة فيها صلاة الفجر وغيرها ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ (١) ، ذكرت لنا الآية ماهية الأعمال التى بها يكون المدد النورانى للقلب وهى : التسبيح والذكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والخوف مما يكون فى اليوم الآخر .

ثم بيّن ربنا عزّ وجلّ بماذا سيتكرم على هؤلاء فقال : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ، وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢) ....

وقبل أن نبدأ بتبيان الهدف الذى من أجله سقنا الكلام فى هذه الآيات نحب أن نسجل بعض الملاحظات استطراداً :

أولاً : كتب أحد أساتذة جامعة دمشق – ومعروف عنه أنه ذو فكر يسارى– كتاباً عن الشموع والقناديل فى الأدب العالمى وصل فى نهايته على أنه لم يسجل فى تاريخ العالم فى وصف الشموع والقناديل أبلغ مما سجلته آية : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٣) .

ثانياً : نلاحظ من الآيات أهمية التربية المسجدية ، وأنّ الانطلاقة الإيمانية الصحيحة هى التى تبدأ من المسجد ، وفى الحديث : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان » (٤) .

ثالثاً : هذه الآيات ألّف بعضهم الرسائل المطوّلة فيها ولذلك فنرجو ألا يظن أحد أننا أعطيناها حقها من البحث ... كل ما فى الأمر أننا ذكرنا فى تفسيرها ما يساعد على فهم ما نحن بصدده من هذه الرسالة .

---

(١) النور : ٣٧ — (٢) النور : ٣٨

(٣) النور : ٣٥ — (٤) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه وهو حديث صحيح .

وبعد ...

فلماذا تحدثنا عن الآيتين اللتين صدَّرنا بهما هذا الباب ؟ لقد تحدثنا عن هاتين الآيتين لنعرف الصلة بين العمل بالشريعة وبين نورانية القلب ، ولنعلم أن العمل بالشريعة له وارادته على القلب ، وأنَّ لكل نوع من العمل وارادته النورانية إلى قلب المسلم ، وأنَّ هناك أعمالا بعينها وارادتها فى المقام الأعلى ، ولذلك خصتها الآيات بالذكر وهى التعلق بالمساجد وكثرة الذكر والتسبيح وإقامة الصلوات وإيتاء الزكوات والخوف من اليوم الآخر . فمن طمع أن يكون قلبه مستنيراً دون أن يكون له أعماله وأوراده فإنه لا يكون قد أتى البيوت من أبوابها ...

ولعله من خلال ما مَرَّ أدركنا فكرة الورد والوارد التى يتحدث عنها الصوفية كثيراً . إنَّ ورد الإنسان : هو ما رتَّبه عَلى نفسه من أنواع الطاعات والعبادات ، والوارد : هو ما يُكرِم اللّه عَزَّ وجَلَّ به قلب الإنسان من فيوضات وأنوار ومعان ، وإذا أدركنا قضية الورد والوارد أدركنا ضرورة أن يكون للمسلم أوراده اليومية ، وسننقل فيما يأتى بعض عبارات ابن عطاء اللّه السكندرى فى قضية الورد والوارد ونُعلِّق عليها لتتضح بعض جوانب هذا الموضوع من خلال كلام الصوفية بعد ما رأينا شيئاً مما تشير إليه النصوص فيه .

قال ابن عطاء : « تنوعت أجناس الأعمال لتنوع واردات الأحوال » .

أقول : إنَّ اللّه عَزَّ وجَلَّ فرض على المسلم فرائض متنوعة ، وطالبه بأعمال كثيرة ، لأن القلب البَشرى يحتاج إلى أنواع من الواردات المتعددة ، فلكل عمل آثاره فى القلب إذا صحت النيَّة ، وصلاح القلب بالقيام بالأعمال كلها ، فكل عمل يخلف نوعاً من الأحوال فى القلب ، وكل حال يحتاج إلى نوع من العمل الصالح حتى يكون ...

وقال ابن عطاء : « من علامات إتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات والتكاسل عن القيام بالواجبات » .

أقول : فى ذلك إشارة إلى أنّ المسلم عليه ألا يفرّط فى فريضة على حساب نافلة ، وهى قضية يغفل عنها أكثر الخلق ، فأكثر الخلق يجهلون فرائض الوقت – وما أكثرها – ويستغرقون أوقاتهم بأمور هى من باب المباحات ، وبعضها من باب البدع ، ويظنون أنفسهم أنهم يحسنون صنعاً .

وقال ابن عطاء : « إذا رأيت عبداً أقامه الله تعالى بوجود الأوراد وأدامه عليها مع طول الإمداد فلا تستحقرن ما منحه مولاه لأنك لم تر عليه سيما العارفين ولا بهجة المحبين ، فلولا وارد لما كان وِرد » .

يفهم من كلام الشيخ أنه متى وُجِدَ الوِرد فقد وُجِدَ الوارد ، أحس به صاحبه أم لم يحس ، أحس به الآخرون أو لم يحسوا ، وقد بيَّن الشيخ أهمية الوِرد للإنسان ، وأدَّب بعض جهلة الصوفية الذين يحتقرون أهل الأوراد إذا لم تظهر عليهم بعض المعانى .

وقال مؤكداً أهمية الوِرد : « لا يحتقر الوِرد إلا جهول ، الوارد يوجد فى الدار الآخرة والورد ينطوى بانطواء هذه الدار ، وأولى ما يعتنى به ما لا يخلف وجوده ...

ورود الإمداد بحسب الاستعداد وشروق الأنوار على حسب صفاء الأسرار » .

وقال : « مطالع الأنوار القلوب والأسرار ، نور مستودع فى القلوب مدده من النور الوارد من خزائن الغيوب ، نور يكشف لك به عن آثاره ونور يكشف لك به أوصافه » .

فى هذه الفقرة إشارة إلى أنواع من الواردات الإلهية على القلب والآثار التى تتركها فيه .

وقال مبيِّناً أنواعاً من الأحوال لها أنواع من الواردات : « إن أردت ورود المواهب عليك صحح الفقر والفاقة (إلى الله) لديك ، تحقق بذلك يمدك بعزه ، وتحقق بعجزك يمدك بقدرته ، وتحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته » .

وقال : « قوم تسبق أنوارهم أذكارهم ، وقوم تسبق أذكارهم أنوارهم ، وقوم تتساوى أذكارهم وأنوارهم ، وقوم لا أذكار ولا أنوار نعوذ بالله من ذلك ، ذاكر ذكر ليستنير قلبه فكان ذاكراً ، وذاكر استنار قلبه فكان ذاكراً ، والذى استوت أذكاره وأنواره فبذكره يهتدى وبنوره يقتدى » .

وقال حاضاً أهل الذكر ألا يتركوا أورادهم بسبب بقاء غفلة القلوب : « لا تترك الذِكر لعدم حضورك مع الله فيه لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك فى وجود ذكره ، فعسى أن يرفعك من ذِكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة ، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذِكر مع وجود حضور ، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور .. وما ذلك على الله بعزيز ».

وقال مبيِّناً حكمة تعدد الطاعات في الشريعة : « لما علم الحق منك وجود الملل لوَّن لك الطاعات ، وعلم منك وجود الشره فحجرها عليك فى بعض الأوقات ، كعند طلوع الشمس وكحجره علينا أن نصوم يومى العيد وأيام التشريق » .

وقال مبيِّناً محل الصلاة وأهمية وارداتها : « الصلاة طهور للقلب من أدناس الذنوب واستفتاح لباب الغيوب ، الصلاة محل المناجاة ومعدن المصافاة ، تتسع فيها ميادين الأسرار وتشرق فيها شوارق الأنوار ، علم وجود الضعف منك فقلَّل أعدادها وعلم احتياجك إلى فضله فكثَّر أمدادها »

أقول : إن هذا القلب البَشرى يحتاج إلى أدوية وأغذية ، وفى الصلاة دواء وغذاء ، وفى الصوم دواء وغذاء ، وفى الذكر دواء وغذاء ، وفى الجهاد دواء وغذاء ، وفى صلة الأرحام دواء وغذاء ، وفى العلم دواء وغذاء .. وبعض الناس كالأنبياء هذا كله فى حقهم غذاء وترقيات ، ولعله بهذا كله أدركنا أهمية الأوراد فى حياة المسلم وفى إصلاح قلبه وفى ترقيه فلننتقل إلى باب آخر .

* * *

الباب السادس

البداية الصحيحة فى التربية الإسلامية

بعد الإيمان العقلى ، وبعد واجب الوقت ..
هى التركيز على القلب وخطورة الفشل فى إصلاحه

فى التربية الإسلامية نقطة البداية هى الإيمان فقد ورد فى أكثر من أثر عن الصحابة هذا المعنى : « كنا نُؤتَى الإيمان قبل القرآن » وقد تحدثنا فى كتاب « جند الله ثقافة وأخلاقاً » عن السر فى ذلك ، وهنا نقول باختصار : إنَّ القرآن له خصائصه ، ومن خصائصه أنه لا يأخذ الإنسان منه حظاً إلا إذا كان مؤمناً، فهو لا يلامس القلوب إلا إذا كانت هذه القلوب مؤمنة ولذلك قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِه إِيمَاناً ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (١) .

لاحظ كيف أن السورة بالنسبة للذين فى قلوبهم مرض تحدث تأثيراً عكسياً، فبدلاً من أن تكون زيادة إيمان فى حقهم تكون عامل زيادة فى المرض . وعلى هذا فنحن إذا ما أردنا أن يلامس القرآن القلب البشرى ملامسة صحيحة بحيث يستفيد هذا القلب من القرآن . فإنَّ علينا أن نطبب هذا القلب أولاً بأن نجعله مؤمناً خالص الإيمان . وعلى هذا فأهم نقطة يركز عليها المربى منذ الابتداء هى إصلاح القلب.وأى فشل فى هذا الشأن فيه دليل إما على جهل المربى أو على عدم صدق المريد أو على أن المنهج خاطىء أصلاً .

---

(١) التوبة : ١٢٤ - ١٢٥

إنّ نقطة البداية الصحيحة هى التركيز على القلب حتى تصل به إلى الصحة، لأنه بمثل هذا النوع من السير تطمئن على وضع الإنسان وعلى خروجه من دائرة إغراء الشيطان ووسوسته وفتنته ، سواء أكان الشيطان شيطان إنس أو جن . قال تعالى : ﴿ شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴾ (١) .

لاحظ ههنا أنّ الذى يصغى قلبه إلى شياطين الإنس والجن ويرضى هذه الوسوسة هو الإنسان الذى لا يؤمن بالآخرة ، فإذا ما أردنا أن نخرج إنساناً عن دائرة وساوس الشياطين فإنّ علينا أن نبدأ بالقلب وإصلاحه . وعندما نقول القلب فلا يعنى هذا إهمال الفكر ، بل من جملة ما يصلح به القلب : العلم والفكر والمعرفة ، مع الذكر والعمل وغير ذلك مما رأيناه وسنراه فى هذه الرسالة ...

فى حياة رسول الله ﷺ والأصحاب تجد ظاهرة واضحة وهى أنّ الصحابى إذا أسلم نجده فى بداية إسلامه فى غاية الاندفاع لدرجة الغلو ، حتى إنّ رسول الله ﷺ فى كثير من الأحيان كان يتدخل لإرجاع بعض الأصحاب إلى دائرة الاعتدال . وهذه الحالة تجدها دائماً فى كل حالة صدق مع الله ، وإذا توجَّه إنسان إلى الله إما بعد حياة جاهلية أو بعد قبول للفهم الحق لدين الله عَزَّ وجَلَّ ، فى هذه المرحلة من الاندفاعة الصادقة يجب أن يكون كل جهدنا منصباً على نقل قلب الإنسان من المرض إلى الصحة ، لأننا إذا فشلنا فى ذلك فإننا نُعرِّض هذا الإنسان للانقطاع عن السير إلى الله أو لترك دعوة الله أو للانحراف عن أمر الله . أو باختصار : فإننا نُعرِّضه لقبول إلقاءات الشيطان . وما أخطرها .. ولتوضيح هذا المقام لا بد من فهم هذه الآيات :

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ

(١) الأنعام : ١١٢ - ١١٣

آيَاته ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

لاحظ فى الآيات قوله تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٢) . فمن كان فى قلبه مرض أو كان قلبه قاسياً ، هذا الذى يفتتن بإلقاء الشيطان . فإذا ما أردنا أن نجنب إنساناً ما فتنة الشيطان فعلينا أن ننقل قلبه من مرضه إلى صحته ومن قسوته إلى خشوعه .

ثم لاحظ فى الآيات قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٣) . إنك تجد فى هذا النص أن العلم هو الطريق لصلاح القلب وإصلاحه ، فأهل العلم هم الذين يخرجون من إلقاءات الشيطان بخشوع أكثر ويقين أعلى وإيمان أرقى ، وهذا يؤكد ما ذكرناه من قبل من أنّ أحد ركنى السير إلى الله : العلم ، وأنّ الذى لا يدرك هذا خاطىء وواهم جداً ..

أسرعنا فى ذكر هاتين الملاحظتين حول الآيات استعجالاً للمقصود الذى من أجله سقنا الآيات ، إلا أنّ الآيات تحتاج إلى وقفة أوسع فلنحاول عرضها لأن هذه الآيات من الآيات التى يكثر الأخذ والرد حول معناها ، ونحن فى هذه السطور القليلة سنقدم خلاصة فى شأنها لا يعثر عليها الإنسان إلا بمشقة ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ ﴾ (٤) ماذا يتمنى الرسول أو النبى ؟ إن أمنية الرسول أو النبى إنما هى فى قومه وأتباعه أن يرتفع بهم من مقام العبودية الكاملة ، إلى مقام الصدّيقية الكبرى . إن مثل هذا هو أمنية

---

(١) الحج : ٥٢ - ٥٤
(٢) الحج : ٥٣
(٣) الحج : ٥٤
(٤) الحج : ٥٢

الرسول والنبى عليهم الصلاة والسلام جميعاً ، فماذا يفعل الشيطان ؟ إنّ الشيطان فى مثل هذه الحالة يحاول أن يقطع الطريق على أمنية الرسول والنبى بإلقاءاته الإلقاءات الخبيثة فى قلوب محل أمنية الرسول ، قال تعالى : ﴿ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ (١) . أى فى قلوب محل أمنيته - وهم قومه وأتباعه - وهذا الذى يدل عليه السياق ، فإذا ألقى الشيطان إلقاءاته فإنّ من سُنّة الله عزّ وجلّ : ﴿ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) . إن من سُنّة الله عزّ وجلّ إبطال إلقاءات الشيطان وإحكام الآيات فى القلوب على مقتضى العلم والحكمة ، وقد بيّن الله عزّ وجلّ سُنّته هذه بالآيتين التاليتين فقال : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أى المنافقين ﴿ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٢) أى المشركين أو المرضى بقسوة القلب ، ولو لم يكن شركاً فهؤلاء وهؤلاء هم الذين يقبلون إلقاءات الشيطان فيفتنون بها . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ (٢) .. دلت الآية على أنّ مرضى القوب وقساتها ظالمون ، وأنهم فى خلاف بعيد عن الحق . إنّ هؤلاء هم الذين يقبلون إلقاءات الشيطان ، ثم قال تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٣) ، أى إنّ إلقاءات الشيطان فى قلوب أهل العلم لا يترتب عليها إلا زيادة إيمان بالقرآن وزيادة خشوع للقرآن واطمئناناً به ، ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٣) ، أى فى الفهم والسلوك .

إنّ القلب البَشرى إذا قبل الحق اندفع فيه ، ثم تأتيه هجمة معاكسة من الشيطان ، هذه الهجمة إما أن يسقط فيها إنسان أو يرتفع بسببها إنسان . يسقط مرضى القلوب وقساتها وينجح أصحاب العلم وأصحاب القلوب السليمة ، والمربى الذى لا يدرك أبعاد هذه الأمور فيلاحظها ويعرف كيف يتوقعها ويتصرف أمامها مرب فاشل ...

---

(١) الحج : ٥٢ (٢) الحج : ٥٣ (٣) الحج : ٥٤

إذا أدركنا معنى الآيات التى مرت معنا أصبح بإمكاننا أن ندرك مضمون الحديث الذى مَرَّ معنا أكثر من مرة فى هذه الرسالة : « تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباد كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه » .

فالفتن تعرض على القلوب بشكل مستمر فأى قلب هو الذى ينكر هذه الفتن فلا يقبلها ؟ إنّ الآيات هى التى دلتنا على هذا النوع من القلوب . إنه القلب السليم من المرض والقلب غير القاسى ، لأن القلب المريض والقلب القاسى كلاهما قابل لإلقاء الشيطان ، ومن ثَمَّ ندرك بوضوح أنّ نقطة البداية الصحيحة فى التربية الإسلامية هى التركيز على القلب للوصول به إلى حالة الصحة ، وأنّ كل فشل فى ذلك إنما هو فشل فى الصميم فى إيجاد المسلم الحق المستقيم على أمر الله المستمر على دينه ...

إنّ الفشل فى إصلاح قلب الإنسان يخرج لنا نماذج مَرضية من البَشر كل منها متعب وضال . يخرج لنا نوعاً من الغلاة لا يُطاقون وكلهم تعب وإتعاب كالخوارج ، ففى الحديث الصحيح : « يخرج فى آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من قول خير البرية . يقرأون القرآن لا يجاوز إيمانهم حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن فى قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة » [١] .

لاحظ هذا النوع من الناس : « إيمانهم لا يجاوز حناجرهم » أى لم يصل إلى قلوبهم ، وكما يخرج لنا هذا النوع من الناس يخرج لنا أصنافاً من الفُسَّاق والمنافقين والكاذبين والمرتدين – حتى من أبناء المسلمين– إنه حيث لا قلب سليم فثَمَّ الهلاك الدنيوى والأخروى ، فلا تذكر بقرآن ، لأن القرآن يحتاج إلى قلب

---

(١) رواه الشيخان .

سليم : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (١) ، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (٢) ، وحيث لا قلب سليم فلا نجاة عند الله ولا وعظ ينفع ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (٣) ، ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (٤) .
إنه لا بد من جهد متواصل فى أنفسنا للوصول إلى القلب السليم،ولا بد من جهد متواصل مع كل مسلم - بل مع كل إنسان - للوصول إلى القلب السليم ، وعلينا أن نركّز منذ الابتداء مع كل مَن توجه إلى الله لكى نصل به إلى القلب السليم .. تلك هى البداية الصحيحة فقط ..

إنَّ الإنسان بين أمرين : إما أن يُوجِّه قلبه سلوكه كله ، أو يكون قلبه موجهاً بأشياء كثيرة . فالقلب عندما يكون قليل النور ضعيف الإيمان أو اليقين، أو عندما يكون مريضاً أو قاسياً ، فإنه فى هذه الأحوال كلها يكون موجهاً . النفس تتغلب عليه فنجده مستسلماً أمام شهوات النفس مستسلماً أمام أمراضها ، الكبر يوجه قلبه ثم ذاته ، والحسد يوجه قلبه ثم ذاته ، وقُلْ مثل ذلك فى كل مرض . والشهوة الجنسية تسيطر على قلبه فيستسلم لها ، وشهوة البطن تسيطر عليه فيستسلم لها ، ومغريات الحياة الدنيا تسيطر عليه فيستسلم لها ، وإيحاءات الشياطين - شياطين الإنس والجن - تسيطر عليه فتوجهه ويخضع لها ويفتتن بها . وقراراته الفعلية تكون مريضة ومتأثرة بهذه المعانى كلها . إن هذا كله بعض ما يترتب على عدم صلاح القلب ، أما إذا صلح القلب فإنه يكون هو الموجه ، إنه من ناحية يتخلص من إيحاءات الشياطين ، ثم هو يرفض الاستسلام لشهوات النفس ، وبنفس الوقت يكون هو الموجه لسلوك الإنسان على ضوء

---

(١) محمد : ٢٤ — (٢) سورة ق : ٣٧
(٣) محمد : ١٦ — (٤) الشعراء : ٨٨ - ٨٩

شريعة الله عزّ وجلّ ، والفارق كبير جداً بين الحالتين ، حالة أن يكون القلب هو الموجِّه (بكسر الجيم مع تشديدها) وحالة أن يكون القلب هو الموجَّه (بفتح الجيم مع تشديدها) ، « استفت قلبك ولو أفتاك الناس وأفتوك » [1] . ولذلك فكما قلنا : إن أول ما يحرص عليه المربى هو أن ينقل القلب البَشرى إلى آفاقه العليا فى الإيمان والنور : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّه ﴾ [2] ، ومن هنا ندرك أهمية الأوراد الكثيرة المتعددة للإنسان فى ابتداء سيره ، وأهمية استغراق الإنسان فى الأذكار ، وأهمية الاعتكافات والخلوات المليئة بالتعبد والتحنث والذكر والعلم وغير ذلك ، ولأمر ما كان رسول الله ﷺ يتعبد الليالى ذوات العدد فى غار حراء ثم جاءه الوحى وهو هناك ، ولأمر ما واعد الله موسى عليه السلام أربعين ليلة على الجبل ، فإذا كان الرسل عليهم الصلاة والسلام - وهم أصفى خلق الله فطرة وأرقاهم قلوباً - سُيِّروا فى مثل هذا الطريق فما بال بقية الخلق؟ وإذا كان رسول الله ﷺ وأصحابه كلفوا حوالى سنة بقيام الليل إلا قليلاً ، فما ذلك إلا لما تقتضيه عملية بناء أنفس ذلك الجيل العظيم : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ [3] .

لاحظ الصلة بين قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ ، وبين الأمر بقيام الليل إلا قليلاً ، إنَّ نقطة البداية الصحيحة فى التربية الإسلامية التركيز على القلب ، ولكون الصوفية أول ما يبدأون يبدأون بما له صلة فى ذلك، فإنك تجدهم أنجح الناس فى تربية الإنسان المستقيم على أمر الله ، وسواء فعلها الصوفية ، أو لم يفعلوها ، فإن السُنَّة النبوية والوحى الإلهى قد دلانا على نقطة البداية هذه .

---

(١) رواه البخارى فى التاريخ .

(٢) الزمر : ٢٢

(٣) المزمل : ١ - ٥

إنك عندما تأتى للإنسان من لحظة البداية وأنت تعلّمه تقول له : يا أخى .. إنّ رسول الله ﷺ يقول : « مَن لازم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » (١) . ثم تطالب هذا الأخ بملازمة الاستغفار أياماً تطول أو تقصر على حسب حاجة قلبه . ولا يظنن ظان أنّ المسألة تحتاج إلى مئات بل إلى الآلاف وعشرات حتى يستقر معنى الاستغفار وحقيقته فى القلب . وحتى يصبح الاستغفار خُلُقاً للإنسان ليؤدى دوره الدائم فى جلاء القلب . قال ابن كثير : وقد روى ابن جرير والترمذى والنسائى وابن ماجه من طرق .. عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء فى قلبه ، فإن تاب منها صقل قلبه ، وإن زاد زادت ، فذلك قول الله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ » (٢) . قال الترمذى : حسن صحيح ولفظ النسائى : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت فى قلبه نكتة سوداء فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه فإن عاد زيد فيها تعلو قلبه فهو الران الذى قال تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ ، فإذا اشتغل الإنسان بالاستغفار حتى ظهرت عليه ثمراته لفت نظر الأخ إلى الإقبال على الصلاة على رسول الله ﷺ لأنها طريقة فضلى للوصول إلى القلب المنور ، فالحديث الشريف يقول : « مَن صلى علىّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً » (٣) ، وإذا صلى الله علينا أخرجنا من الظلمات إلى النور ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (٤) ، فيطلب منه أن يلازم الصلاة على رسول الله ﷺ أياماً طوالاً ، وأن يكررها عشرات الآلاف حتى تؤتى ثمارها فى إصلاح القلب وتنوره ، والمسألة لا حد لها إلا ظهور الآثار ، فإذا ما ظهرت ثمار ذلك فى تنور حال الأخ لفت نظره إلى الحديث الشريف الذى رواه أحمد والنسائى والحاكم :

---

(١) رواه أبو داود .
(٢) المطففين : ١٤
(٣) رواه أحمد ومسلم وأبو داود .
(٤) الأحزاب : ٤٣

« جدِّدوا إيمانكم »، قيل : يا رسول الله ، كيف نجدِّد إيماننا ؟ قال : « أكثروا من قول لا إله إلَّا الله » فيبدأ الأخ الاستغراق بذكر لا إله إلا الله أياماً طوالاً وبعشرات الآلاف حتى يصبح قلبه موحِّداً خالصاً مستنيراً استنارة كاملة ... وهكذا .

ثم يلفت نظر الأخ إلى الاستغراق بقراءة القرآن والتأمل فى معانيه فقد قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِى الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) ، لاحَظ قوله تعالى : ﴿ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِى الصُّدُورِ ﴾ ، فيختم الختمات الكثيرة مع التأمل والتدبر ، وخلال ذلك كله يعوِّد نفسه على ورد دائم كورد الدعاء الذى ذكره الأستاذ البنا فى نهاية المأثورات (١٠٠ مرة) استغفار ، (١٠٠ مرة) صلاة على رسول الله ﷺ ، (١٠٠ مرة) لا إله إلَّا الله ، و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ثلاث مرات ، وهكذا مع ملازمة قراءة ما تيسر من القرآن وجزء فى اليوم يعتبر ورداً معتدلاً هذا مع شىء من قيام الليل وملازمة صلوات الجماعة وإقامة السُّنَن الرواتب وسُنَّة الضحى ، وهذا كله مع العلم أنَّ هذا كله ربما قذف بالأخ إلى قمة القلب السليم منذ الابتداء بإذن الله ، وعندئذ فعليه أن يرتب أوراده بحيث يأخذ قلبه دواءه وغذاءه اللازمين ليبقى قلبه على إستمرارية إيمانية عالية .

ولعله من المناسب هنا أنَّ نقول : إن أصلح الإخوان وأقوى الإخوان ينبغى أن يتولوا أمر التربية للأخ فى بداية سيره ، لأن البداية المحرقة هى التى توصل إلى النهاية المشرقة ، وفى حكم ابن عطاء : « مَن لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة » .

والملاحظ أننا لم نقيِّد ما ذكرناه من الأذكار الحارقة فى المرحلة الأولى للسير بعدد معيَّن ، لأن حالة الناس القلبية مختلفة واحتياجات كل واحد منهم تختلف عن احتياجات الآخر ، فالقلب الذى ظلمته كثيرة لا يكفيه القليل ، بينما قلب آخر ، إقبال قليل على الذكر قد ينقله من حال إلى حال ، ثم إنَّ التقيد بعدد فيما

---

(١) يونس : ٥٧

لا نص فيه قضية فيها أخذ ورد كثيران عند الناس ، والأستاذ البنا اكتفى بتسجيل الخلاف فى هذا الموضوع ولكنه لم يرجّح شيئاً ، ولذلك فنحن نؤثر أن يُترك هذا لفراسة الأخ المربى ورؤيته واحتياجات الأخ المسلم ، كما يُترك هذا لإحساسات الأخ نفسه ، وبعضهم يرى « السبعين ألفاً » لكل نوع من أنواع الذكر المطلق كافية فى مرحلة الابتداء لنقل المسلم من حالة إلى حالة ، خاصة فى الأذكار الثلاثة التى ذكرناها :« الاستغفار،والصلاة على النبى ﷺ ، ولا إله إلّا الله»، وبعض المشتغلين بالتصوف وبعض الكاتبين فيه يعتبرون أنّ القفزة العالية نحو معرفة الله لا بد فيها من ذكر الاسم المفرد - أى لفظ الجلالة « الله » - فهم يعتبرون أن تعرف القلب على الله وصفاته وأسمائه بشكل لا يغيب فيه القلب عن الله لا بد له من ذكر الاسم المفرد ، ويذكرون فى ذلك حججاً ، ويعتبرون أنّ ذكر هذا الاسم هو بمثابة دواء للقلب فإنه تذكر لفظ الجلالة « الله » بشكل مستمر فهذا طريق تعرف القلب الذوقى على الله ، ثم بعد ذلك تبدأ تستشعر معنى صلاتك وأورادك .. وهذا موضوع سنتعرض له فيما بعد ، وههنا نذكره لمجرد أن نجعل هذا الموضوع يطرق سمعنا من ناحية ، ومن أجل أنّ نؤكد أن معرفة الله ليس هذا شرطاً فيها كما يقول هؤلاء ، فالإيمان العالى والقلب المنور يمكن أن يصل إليه الإنسان عن مثل هذا الذكر - وعن طريق غيره - وإن كان لهذا الذكر آثاره السريعة العملية المجرَّبة فى هذا الموضوع ...

فيما مَرّ ركزنا على أن نقطة البداية الصحيحة هى التركيز على القلب ، وحتى لا يفهمنا أحد فهماً خاطئاً نقول : إنّ الواجب الأول فى حق الإنسان - كما ذكره علماء التوحيد على خلاف بينهم فى بعض الدقائق - هو المعرفة العقلية لله ، ثم بعد ذلك واجب الوقت ، وهذا لا يتناقض مع ما ذكرناه ، فالمعرفة العقلية ثم واجبات الوقت هى التى عنها تصل الأنوار إلى القلوب وتبدأ عملية إصلاح القلب ، وبدون هذا يستحيل سير قلب أصلاً ، وعلينا أن ندرك دائماً معنى واجب الوقت ، فهو معنى دقيق يغيب عن كثير من الناس ، فقد يدخل الإنسان فى الإسلام فى وقت ضحى مثلاً ويكون فى هذه اللحظة واجب

الوقت فى حقه هو الجهاد ، فعليه أن يجاهد ، وقد يكون مديناً والجهاد فى حقه فرض عين فيصبح واجب الوقت فى حقه قضية الدَّيْن وأمر الجهاد ، وقد يسلم فى وقت ظهر مثلاً فواجب الوقت فى حقه تعلم الطهارة وكيفية أداء الصلاة وخاصة صلاة الظهر ، وقد يكون الوقت رمضان فواجب الوقت فى حقه الإمساك عن المفطرات بقية يومه ، وقد يكون على أهبة الإقدام على معصية فواجب الوقت يكون - زائداً على ذلك - هو ترك المعصية ، ومع هذا كله فقد يأتيه والده فى ذلك الوقت ويطلب منه مطالب مباحة فيكون من واجبات وقته تنفيذها ، وقد يكون فى نفس الوقت يمارس عملاً من أعمال الكسب فواجب وقته أن يعرف حكم هذا العمل شرعاً ويلتزم بما ألزمه الله عَزَّ وجَلَّ . وهكذا نجد أنَّ قضية واجب الوقت من الأمور المهمة جداً ، ونادراً ما يفطن لها حتى مَن يتصدرون للعلم ، ولذلك يفوت خير كثير .

إنك تلاحظ فى أحاديث رسول الله ﷺ تفضيلاً للجهاد على غيره ، أو تفضيلاً للذكر على غيره ، أو تفضيلاً للصلاة على غيرها ، أو تفضيلاً للحج على الجهاد .. وسر ذلك - كما يقول العلماء - يعود إلى مجموعة حالات ، حالة يكون فيها شىء هو واجب الوقت فى حق إنسان فهذا هو الأفضل فى حقه ، أو حالة يكون فيها شىء هو الواجب الأرقى فى لحظة على غيره ، أو حالة يكون فيها شىء شرط قبول ، أو شرطاً لتحقيق حالة الإخلاص فى شىء آخر ، وهى قضايا دقيقة لا يفطن لها إلا فقيه حكيم ، إنَّ هناك حالات أَخَّر فيها رسول الله ﷺ الصلاة عن وقتها بسبب الجهاد كما حدث يوم الخندق ، وقال لأصحابه مرة : « لا يصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة » ، فأنت تلاحظ من الحديث الأخير كيف أن واجب السرعة فى الحركة الجهادية كان واجب الوقت الذى تؤجل الصلاة بسببه ، وهو موضوع قد نبحثه فى محل آخر . وإنما أشرنا إليه ههنا حتى لا يفهم فاهم - ونحن نتحدث عن كون البداية الصحيحة فى التربية الإسلامية هى التركيز على القلب - أننا غافلون عن الواجبات الأولى ...

ولعله من خلال هذا الباب كله أدركنا مجموعة أغلاط يقع فيها الناس فى مواضيع هذا الباب ، منها : إهمال المعرفة العقلية لله ، ومنها الغلط فى معرفة واجب الوقت وخاصة فى بعض مواضيع تعتبر فى عصرنا من أخطر المواضيع كواجب العمل لإقامة الحكم الإسلامى وإعادة الوحدة الإسلامية والخلافة الإسلامية ، فهذه من واجبات العصر ، ومع ذلك تجد من علماء المسلمين - والعياذ بالله - من يعمل فى الطريق المعاكس لها من محاربة العاملين لذلك ، ومن موالاة الذين يعملون ليل نهار فى إفساد الأموال والأعراض والقضاء على الإسلام . ومما يقع فيه الغلط ما ذكرناه فى موضوع التربية القلبية وقد رأينا ذلك كله فى هذا الباب .



الباب السابع

فى ضرورة الورد اليومى والدورات الروحية

لعله اتضح من الأبواب الأخيرة ضرورة بعض الأمور ، وحتى لا يبتعد العلم عن العمل فى هذا البحث - وهو فى الأصل بحث عملى - فإننا نحب أن نخرج بالشىء العملى بعدما عرفنا كثيراً من الأسس النظرية التى تساعدنا على فهم هذه الجوانب العملية . إننا باختصار ندعو المسلم إلى العلم ، وإلى أن تكون له فى حياته دورات روحية ، وأن تكون له أوراد يومية ، ولا يعجزنا أن ندرك ضرورة ذلك من خلال ما مَرَّ معنا ولكن ولزيادة التأكيد والتوضيح نذكر بعض المعانى :

(أ) العلم :

فى حديث رواه البزار والطبرانى فى الكبير بإسناد رجاله رجال الصحيح عن أبى مالك الأشجعى عن أبية قال : « كان النبى ﷺ إذا أسلم الرجل أول ما يُعلِّمه الصلاة - أو قال : علَّمه الصلاة » وفى هذا الموضوع أكثر من حديث صحيح ، نلاحظ من مثل هذا النص ضرورة الفقه فيما يلزم الإنسان ، وقد رأينا من قبل ضرورة العلم ، وقضية العلم تحدثنا عنها كثيراً فى هذه السلسلة، « سلسلة فى البناء » فتحدثنا عن البدايات والنهايات وما بين ذلك ، إن البدء فى السير العملى الشامل إن فى المدارسة أو فى المطالعة الشخصية أو فى التلقى أو فى حضور الحلقات العلمية الإسلامية العامة أو الخاصة شىء لا بد

منه ، ولكل قضية محاذيرها التى لا بد للمسلم أن يلاحظها ، وفى هذه السلسلة بمجموعها تبيان للمحاذير التى لها صلة بهذه القضايا وأشباهها ، وههنا نقول :

١ - اجعل نصب عينيك أن تصل إلى ثقافة إسلامية هادفة ومبرمجة ومتكاملة ، بحيث لا تضيع من مهم عن أهم ولا تضيّع مهماً .

٢ - ستجد الكثيرين الذين يريدون أن يحجروك على صيغة معينة من فكرهم وسترى أنّ التحقيق ليس معهم ، فتأن كثيراً وتثبت كثيراً ولا تجعل التعصب يأسرك فتترك بعض الحق ، ولا تجعل حب الرجال مانعاً لك عن الوصول إلى الحق الخالص ومعرفته فى كل قضية .

٣ - مهما درست فلا تبق بعيداً عن الكتاب والسُّنّة ومحاولة الفهم الصحيح لنصوصهما ، واجعل للحفظ من الكتاب والسُّنّة نصيباً من وقتك وجهدك .

٤ - ستصادف جهلة كثيرين يثنونك عن العلم أو عن أنواع منه ، أو يصرفونك إلى أنواع غير مفيدة منه على حساب أنواع أخرى ، أو يحقرون لك أبواباً من العلم لا بد منها ، هؤلاء لا تصغى لهم مهما رأيت من صلاحهم . فالصلاح شىء وأن يستحق إنسان مقام الإرشاد فى نفسك شىء آخر ، ولذلك وُجِدَ ما يسمى فى التاريخ بـ « المرشد الكامل » الذى إحدى مواصفاته أن يكون عالِماً بالمذاهب الأربعة قادراً على الفتوى بها ، وغير ذلك من المواصفات التى تؤهله لأن يعطيه إنسان ما مقام الإرشاد فى نفسه ، وهو موضوع سنعرج عليه فى هذه الرسالة .

إذا تنبهتَ لهذه النقاط الأربعة وسرتَ فى طريق العلم فإنك ستصل بإذن اللّٰه إلى خير .

* *

(ب) الدورات الروحية :

إننا ندعو المسلم إلى أن تكون له دورات روحية فى حياته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وبالقدر الذى يتيسر له ، فإن استطاع أن تكون دورته أربعين يوماً فليفعل ، وإن إستطاع ثلاثة أيام أو سبعة أيام أو ثمانية أو أكثر أو أقل

أو شهوراً فليفعل ، فإن استطاع أن يتفرغ لهذه الدورة بما لا يضيع عملاً ولا واجباً كان بها ، وإلا فليفعل ما استطاع بما لا يضيع عياله ولا عمله الذى يكسب منه قوته ولا واجباته اليومية ، وإن استطاع أن يربط بين الدورة وبين بعض الشهور كرمضان أو الأشهر الحُرُم أو العشر الأول من ذى الحجة أو غير ذلك مما ورد فيه نصوص تدل على خصوصيته كان ذلك ، وإلا فمتى تيسّر ، ولينظم برنامج الدورة بحيث يكون مردودها الروحى عالياً ، فإذا استطاع أن يجمع بين صيام وقيام وصلوات جماعة وقراءة قرآن وأنواع من الأذكار كان بها ، وإلا فما استطاع من ذلك ، وإذا اقتصر على نوع من الذكر كالصلاة على رسول الله ﷺ ، أو لا إله إلاَّ الله ، أو الاستغفار ، أو الجمع بين التسبيح والتهليل والتكبير والتحميد ... فذلك طيب ، وإذا جمع بين هذا كله يكون طيباً .

إنَّ مثل هذه الدورات ترتقى بالإنسان ارتقاءات كبيرة وتنقل قلبه من حال إلى حال . وإنَّ فى سُنَّة رسول الله ﷺ الكثير مما يجعلنا نستأنس لمثل هذا ، مثل اعتكافه عليه الصلاة والسلام،فقد ثبت أنه اعتكف ﷺ فى رمضان وغيره ، واعتكف فى بعض السنين عشرين يوماً ، ومثل خلوته عليه الصلاة والسلام فى غار حراء ، وهى مع كونها قبل النبوَّة ، إلا أنها كانت من توفيق الله لرسوله ﷺ ، ومثل الأمر فى ابتداء الإسلام بوجوب قيام الليل على كل مسلم ثم نُسِخَ الوجوب ولكن الندب بقى ، وهناك نصوص تشير إلى أرقام مثل الحديث الذى رواه ابن ماجه والترمذى : « مَن صلَّى فى مسجد جماعة أربعين ليلة لا تفوته الركعة الأولى من صلاة العشاء كتب الله بها عتقاً من النار » . تُرى لو أنَّ مسلماً قرر فيما بينه وبين نفسه أن يقيم دورة روحية لنفسه مدتها أربعون يوماً ، أو أقل أو أكثر ، فماذا يترتب على ذلك ؟ لا شك أنَّ إيمانه سينمو ، ومعانى التوحيد فى قلبه ستترسخ ، وسيعطيه ذلك صفاء فكر وحسن تأمل ، هذا عدا عن معان كثيرة أخرى كلها ضرورى فى عصر غلبت عليه المادة وطغت الشهوات ، فإذا ما كرر ذلك كل فترة فى حياته فإنَّ ذلك محل رجاء أن يبقى نور الإيمان فى قلبه عظيماً ، وأن يبقى الإيمان فى قلبه جديداً .. وإذا أردنا أن نقترح جدول دورة من هذه الدورات فبالإمكان مثلاً أن يكون فى هذا الجدول :

١ - صلوات الفرائض جماعة .

٢ - إقامة السُنَن الرواتب كلها .

٣ - المحافظة على سُنَّة الضحى وسُنَّة قيام الليل والوتر .

٤ - بالإمكان أن يكون من البرنامج صلاة التسابيح يومياً .

٥ - أن يخصص لنفسه برنامج ختمات من القرآن خلال الدورة .

٦ - أن يضع فى حسابه الاشتغال بأوراد الذكر من استغفار ، إلى صلاة على رسول الله ﷺ ، إلى توحيد ... إلى غير ذلك من الأذكار المطلقة ، وليحاول أن يذكر كلاً منها سبعين ألفاً . فعدد السبعين تتحقق فيه الكثرة .

٧ - أن يضع فى حسابه تطبيق الأوراد المرتبطة بشىء كأوراد الصلاة وأوراد النوم وغير ذلك . وإذا رأى من نفسه مللاً من نوع أشتغل بنوع آخر ، ويستطيع الواحد منا أن يتصرف على ضوء ذلك .

٨ - صيام ما تيسَّر من الأيام مع الإقلال من الطعام والكلام والخُلطة . إنَّ بعض الناس قد يقولون : هذه عطالة ، وبعضهم يقولون : هذه بطالة ، وبعضهم يقولون الكثير ليصرفوا المسلم عن مثل هذا . إنَّ هؤلاء جميعاً موازينهم خربة وتفكيرهم الإيمانى سقيم ، إنَّ ذَرَّة من الإيمان لا يعادلها شىء ، فإذا كانت ذَرَّة من الإيمان يخرج بها الإنسان من النار وتقيه الخلود فيها ، فما بالك إذا كانت هذه الدورات تجعل إيمان الإنسان كالجبال فتعطيه طمأنينة القلب وترفعه عن هواجس النفس وتجنبه وساوس الشيطان وفتنته .

إنَّ على كل مسلم أن يفكر فى مثل هذا ، وإنَّ على المربين فى الأمة الإسلامية أن يعطوا لذلك أهمية خاصة ، ويكفى كل مسلم ليدرك صحة ما ذكرناه أن يتذكر هذين الحديثين : « إنَّ الإيمان ليخلق فى جوف أحدكم كما يخلق الثوب ، فاسألوا الله أن يجدِّد الإيمان فى قلوبكم » [١] ، « جدِّدوا إيمانكم » ، قيل : يارسول الله ، كيف نجدِّد إيماننا ؟ قال : « أكثروا من قول لا إلٰهَ إلاَّ اللَّهَ » [٢].

---

(١) رواه الطبرانى .

(٢) رواه أحمد .

إذا كان الإيمان وهو موجود يحتاج إلى تجديد ، فكيف بالقلوب الغافلة ، فكيف بالقلوب المصفحة ، فكيف بالقلوب التى فيها ظُلمة ، فكيف بالقلوب التى فيها وساوس ، فكيف بالقلوب الحائرة ، فكيف بالقلوب القلقة ، فكيف بالقلوب الشاكة ، فكيف بالقلوب التى غزتها الأمراض والشهوات .. إنَّ هذه كلها إذا أرادت أن تقفز قفزة سريعة فوق هذه الحال لا بد لها من دورات روحية مكثفة ذات برنامج روحى ، والبرنامج الذى اقترحناه ههنا نموذج فقط ، وإلا فلو أنَّ مسلماً خصص لنفسه أياماً يشتغل بها مثلاً فى الصلاة على الرسول ﷺ فقط مع قيامه بالفرائض فإنَّ لذلك آثاره الطيبة على قلبه . المهم ألا ينسى مسلم نفسه من دورة روحية أو دورات فى حياته .

* *

(جـ) الأوراد اليومية :

إنه لا بد للمسلم من غذاء روحى يومى ، هذا الغذاء يتمثل بالقيام بالفرائض والواجبات اليومية والمداومة على ما يمكن من المندوبات بالقدر المستطاع الذى يعطى القلب احتياجاته من الغذاء والدواء ، والذى يكون به المسلم فى ترق دائم .

هذا الورد اليومى الذى يرتبه المسلم على نفسه ينبغى أن يلاحظ فيه أن يجعل له حداً أدنى لا بد أن يؤديه ، ثم بعد ذلك إن وجد فراغاً أو إقبالاً من النفس زاد ، وإذا رأى من نفسه كسلاً أو مللاً تصرف معها بما يُحسن من سياسة حكيمة للنفس . وإذا غلبته نفسه فكسلت لسبب من الأسباب فإنه إن استطاع أن يعوِّض ذلك عوَّضَ ، وإلا استأنف من جديد فى أول لحظة تفىء نفسه فتعود إلى ما رتبه لها صاحبها من أوراد يومية ، والنصوص فى قضية الأوراد اليومية كثيرة منها الذى مَرَّ معنا ، وللتأكيد والتوضيح نذكر بعض النصوص ونُعلِّق عليها .

١ - قال شقيق : « مرض عبد الله فعُدْناه ، فجعل يبكى فعوتب فقال: لا أبكى لأجل المرض لأنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « المرض كفَّارة » ، وأنا أبكى أنه أصابنى على حال فترة ولم يصبنى فى حال اجتهاد ، لأنه يُكتب للعبد من الأجر إذا مرض ما كان يُكتب له قبل أن يمرض فمنعه منه المرض » ،

من مثل هذا النص ندرك أنّ المسلم العامل تكون له أوراده اليومية الخاصة، ولذلك نجد عبد الله بن مسعود يبكى على أنّ مرضه جاء وهو فى غير الحالة العليا من العمل اليومى .

٢ - يُستأنس لهذا الموضوع بكل ندب نُدبنا فيه لعمل سواء أكان هذا العمل ذِكراً أو غيره .

٣ - من حديث صحيح لعائشة رضى الله عنها أنها روت عن رسول الله ﷺ قوله : « خذوا من الأعمال ما تطيقون ، فإنّ الله لا يمل حتى تملوا ، وإنّ أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قَلّ » (١) ، وفى رواية عنها : « وكان آل محمد إذا عملوا عملاً أثبتوه » ، وهذا يدل على أنّ هناك أعمالاً معينة كان فيها نوع من الالتزام اليومى فى حياة آل رسول الله ﷺ ، كما أنّ فى قوله عليه الصلاة والسلام : « خذوا من الأعمال ما تطيقون » ، ما يشير إلى أنّ المسلم ينبغى أن يرتب لنفسه عملاً يومياً فى حدود طاقته .

٤ - قوله عليه الصلاة والسلام : « إنه ليغان على قلبى حتى أستغفر فى اليوم مائة مرة » (٢) ، وملازمته عليه الصلاة والسلام لقيام الليل ولأعمال معينة كل ذلك يدل على أنه عليه الصلاة والسلام كانت له أوراده اليومية وهو أسوة كل مسلم ، فالأوراد اليومية فى حياة المسلم هى زاده اليومى الذى لا ينبغى أن يهمله ، وعلى هذا فإننا ندعو كل مسلم أن يرتب لنفسه ورده اليومى ، ويدخل فى ذلك تنظيم أوقاته لترتيب أمر الصلاة : فرضها ونفلها ، ونخص بالذكر قيام الليل وسُنّة الضحى لغفلة الناس عنهما ، ويدخل فى ذلك أوراد الصلوات ، ويدخل فى ذلك قراءة القرآن . والحد المعتدل فى ذلك جزء لقوله عليه الصلاة والسلام فى الحديث الصحيح لابن عمرو بن العاص عن القرآن : « اقرأ القرآن فى كل شهر » (٣) ، ويدخل فى ذلك الاستغفار اليومى والصلاة على رسول الله ﷺ

---

(١) متفق عليه . (٢) رواه مسلم .

(٣) راجع حادثة ابن عمرو بن العاص فى البخارى ومسلم وأبى داوود والنسائى .

يومياً ، والتهليل والتسبيح يومياً ، ويدخل فى ذلك ملاحظة الأيام التى نُدبنا إلى عمل خاص بها أن نخصها بعمل ما كالصلاة على رسول الله ﷺ يوم الجمعة وليلته ، وكقراءة سورة الكهف فيها . ويدخل فى ذلك أن تلاحظ الأوراد والأذكار التى ربطت بمناسبة ، ويدخل فى ذلك ملاحظة الأيام التى نُدبنا إلى صومها ، وأخيراً يدخل فى ذلك العلم وكل عمل يقتضيه حق العلم .. إنَّ الأوراد التى نُدبنا إلى الإكثار منها بدون حدود يستطيع الواحد منا أن يرتب على نفسه منها بالقدر الذى لا يشق عليه وعلى حسب احتياجات قلبه وبما لا يتعارض مع القيام بواجبات أخرى .. وإذا أردنا أن نقدم نموذجاً تقريبياً لأوراد المسلم اليومية فبإمكاننا أن نقول :

(١) صلوات الجماعة ، ورواتب الصلوات وأذكارها وقيام الليل وسُنَّة الضحى .

(٢) استغفار يومى بما لا يقل عن مائة مرة .

(٣) « لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له .. له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير » ، بما لا يقل عن مائة مرة .

(٤) صلاة على الرسول ﷺ بما لا يقل عن مائة مرة .

(٥) قراءة : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ثلاث مرات .

(٦) قراءة جزء من القرآن .

(٧) أذكار الأوقات والأعمال كأذكار الطعام والنوم والدخول والخروج .

(٨) الإكثار بعد ذلك من الأذكار التى نُدبنا إليها بشكل مطلق كالاستغفار أو الصلاة على رسول الله ﷺ أو التهليل أو الحوقلة أو التسبيح أو التحميد أو غير ذلك مما فيه ندب خاص .

وهذه بعض نصوص تشير إلى ما ذكرناه : « عن أغر مزينة – رفعه إلى رسول الله ﷺ : « إنه ليغان على قلبى حتى أستغفر فى اليوم مائة مرة » ،

وفى رواية : « توبوا إلى ربكم ، فوالله إنى لأتوب إلى ربى مائة مرة فى اليوم»[1] ، وعن أبى هريرة - رفعه إلى النبى ﷺ : « مَن قال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير » فى اليوم مائة مرة ، كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى . ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه ، ومَن قال : « سبحان الله وبحمده » فى يوم مائة مرة ، حُطّت عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر »[2] .

وأخرج النسائى عن أبى طلحة رضى الله عنه : « أنّ النبى ﷺ جاء ذات يوم والبُشرى فى وجهه ، فقلنا : إنا لنرى البُشرى فى وجهك ، قال : إنه أتانى المَلك فقال : يا محمد ، إنّ ربك يقول : « أما يرضيك أنه لا يصلّى عليك أحد إلا صلّيتُ عليه عشراً ، ولا يُسلّم عليك أحد إلا سلّمتُ عليه عشراً » .

وروى الطبرانى فى الأوسط والصغير عن أنس - رفعه إلى رسول الله ﷺ : « مَن صلّى علىّ صلاة واحدة صلّى الله عليه بها عشراً ، ومَن صلّى علىّ عشراً صلّى الله عليه بها مائة مرة ، ومَن صلّى علىّ مائة مرة كتب الله بين عينيه براءة من النفاق وبراءة من النار ، وأسكنه الله يوم القيامة مع الشهداء » .

وأخرج أبو داود عن ابن عباس - رفعه إلى النبى ﷺ : « مَن لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ، ومن كل هم فرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب».

وأخرج الطبرانى فى الكبير عن محمد بن يحيى بن حيان عن أبيه عن جده : « أنّ رجلاً قال : يا رسول الله ، أجعل ثُلث صلاتى عليك ؟ قال : « نعم إن شئت»، قال : الثلثين ؟ قال : «نعم» . قال : فصلاتى كلها ؟ قال : «إذن يكفيك الله ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك » .

---

(١) رواه مسلم وأبو داود .   (٢) للشيخين والموطأ والترمذى .

وأخيراً نقول : إنَّ المسلم عليه أن يرتب لنفسه برنامجاً خاصاً يومياً ، وآخر أسبوعياً يكمل البرنامج اليومى ، وآخر شهرياً يكمل اليومى والأسبوعى ، وآخر سنوياً يكمل الثلاثة الأول ، وآخر عمرياً يكمل ما قبله بحيث يؤدى واجباته كلها ، ويملأ حياته بالخير ويكون فى حال ترق دائم ، ومن خلال الدورات الروحية ، ومن خلال البرنامج اليومى ، ومن خلال إقامة ما نُدِبنا إليه أو افترِض علينا أسبوعياً كحقوق يوم الجمعة ، أو من خلال ما شُرِع لنا سنويا كصيام رمضان ، أو شهرياً أو أسبوعياً كالصيام المندوب ، أو ما افْتُرِض علينا عمرياً كالحج ، ومن خلال إقامة واجب الوقت وواجب الحال وواجب المناسبة كصلاة الجنازة أو عيادة المريض أو إطعام الجائع أو الإحسان إلى الجار أو بر الوالدين أو صلة الرحم أو الجهاد المفروض أو المندوب .. من خلال هذا كله يكمل المسلم ويلقى الله وهو عنه راض . وإنَّ العلم والدورات الروحية والأوراد اليومية هى الزاد الذى لا بد منه لإقامة هذا كله .

وبهذا الباب يكون قد اتضح لنا كثير من جوانب السير إلى الله ، وقد آن الأوان لأن ننتقل إلى جوانب أخرى فى هذا الموضوع لها صلة بعالَم النفس وتزكيتها - وهو الجانب المكمل للكلام عن القلب - ومن ثَمَّ فسيأخذ هذا الموضوع معنا مجموعة من الأبواب اللاحقة فى هذه الرسالة .

* * *

الباب الثامن

فى النفس ومطالبها وأمراضها
وصلة ذلك بعالم القلب والسلوك

نلاحظ أنَّ هناك تطابقاً أحياناً فى الحديث عن القلب والنفس لدرجة يشعر الإنسان من خلال بعض النصوص وبعض كلام الصوفية بأنهما شىء واحد ، ويلاحظ أحياناً من خلال مطالعة بعض النصوص ومن خلال كلام الصوفية أنهما شيئان منفصلان ، وقد تحدثنا فى بداية هذه الرسالة عن قضايا العقل والقلب والروح والنفس ، وههنا نضيف ما يعمق الفهم .

فى الحديث الشريف : « لا يدخل الجنة مَن كان فى قلبه مثقال حبة من كبر » [١] .

إننا نجد فى هذا الحديث أنَّ القلب نفسه يمرض بمرض الكبر ، ونجد النص القرآنى يقول ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [٢] ، ولا شك أن من التزكية للنفس أن يطهرها الإنسان من الكبر . بل من أول معانى التزكية أن يطهر الإنسان نفسه من الشرك الذى هو المظهر الأرذل للكبر . قال تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِىَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا

---

(١) رواه مسلم .　　　　(٢) الشمس : ٩ - ١٠ .

سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ (١) ، وإنما الصرف فى هذا القلب ، قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٢) ، إنك تجد ههنا تداخلاً بين قضية النفس والقلب . ولكنك تجد كذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ (٣) ، ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ (٤) .

ونجد عند الصوفية شيئاً يسمونه الهاجس النفسى وله صلة بأوامر النفس للقلب ، فههنا نجد حالة ثانية من حالات الكلام عن القلب والنفس .

قال تعالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ ﴾ (٥) ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ ﴾ (٦) ، فههنا قلب يطمئن فى الذكر ونفس وصلت إلى الاطمئنان ، وقال تعالى : ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ ﴾ (٧) ، والظن محله القلب لأن له صلة بالاعتقاد،قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (٨) .

من كل هذه المعانى التى ذكرناها ندرك أنَّ الكلام عن النفس أحياناً يعنى الكلام عن القلب ، وأحياناً لا يعنى ذلك ، وهذا هو الذى نقلناه عن الغزالى فى أول هذه الرسالة إذ يذكر أنَّ النفس والقلب والعقل تأتى أحياناً بمعنى واحد ، وأحياناً يكون لكل مدلوله ، ولتوضيح هذا المقام فى قضية القلب والنفس فلنعرض الأمر عرضاً مبسطاً :

---

(١) الأعراف : ١٤٦ — (٢) الحج : ٤٦ — (٣) يوسف : ٥٣

(٤) القيامة : ٢ — (٥) الرعد : ٢٨ — (٦) الفجر : ٢٧

(٧) آل عمران : ١٥٤ — (٨) البقرة : ٤٥ - ٤٦

إذا جُرِح الإنسان فى معركة أو حدث معه نزيف كثير يحس الإنسان بعطش شديد وهكذا يحس بطلب مُلّح على الشرب فيطلبه ، ومهما أراد أن يقاوم ذاته فيمنعها عن الطلب يجد نفسه أحياناً مغلوباً ، فههنا دافع جسدى غلب القلب .

وبدون شعور من الطفل يبدأ بأكل التراب عندما يكون جسمه بحاجة إلى الكلس . وقاعدة عامة : إذا احتاج الجسم لنوع من الغذاء وُجِدت عنده مطالب لأنواع من الطعام تحتوى ذلك فيجد الإنسان نفسه أحياناً مدفوعاً بدوافع شديدة نحو نوع من الطعام بعينه .

ومن المعروف فى عالم الحيوان والإنسان أن الإفرازات الجنسية المطروحة فى الدم تُوجِد عند الإنسان والحيوان هواجس واندفاعات وتخيلات ومتطلبات تكون قاسية أحياناً وكثيراً ما يستسلم ناس لها ، ولا حرج فى استسلام قلب لدافع شهوة مباحة وفى الحلال ، ولكن الكارثة عندما يستسلم الإنسان لها فى الحرام .

وهناك نوع من العقاقير إذا استعملها الإنسان زادت فى حدة طبعه ، ونوع آخر يساعده على الهدوء ، ونوع آخر يمكن أن يوجد عنده رغبة فى العزلة أو نوع من كراهية الناس ، ومن ثَمَّ ندرك تأثير طبيعة الغذاء على تصرفات الإنسان . وبذلك ندرك حكمة تحريم أنواع من الحيوانات أو الأطعمة فى الإسلام . إنَّ نوع ما يُلقَى فى الدم من أغذية أو إفرازات يؤثر على الجملة العصبية فيتلقى القلب البَشرى مطالب ، هذه المطالب هى التى يمكن أن تكون جزءاً مما يسميه الصوفية هواجس النفس ، وهذه الهواجس أقسام : فمنها الطلب الحرام ، ومنها الطلب المباح ، ومنها الطلب الذى لا بد منه الذى يكون تأمينه من باب الفروض ... وهكذا ..

فى الشريعة الإسلامية إذا تاقت نفس الإنسان للجِماع أصبح الزواج فى حقه واجباً شرعياً عليه إذا استطاع ، فإذا كثر التوق لدرجة خاف فيها الغلبة على نفسه فقد أصبح الزواج فى حقه مفروضاً وعليه أن يضبط نفسه ريثما يتزوج . والطعام والشراب اللذان لا بد منهما لاستمرار الحياة البَشرية ولجعل الإنسان فى

حالة يقوم بها بواجباته فريضة من الفرائض على الإنسان . مثل هذه المطالب تأمينها للنفس شيء عادى ، ولكن النفس إذا طالبت بفعل هو فى ذاته معصية كان ذلك من باب الأمر بالسوء : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّى ﴾ (١) .

إذا أدركنا هذه القضية عرفنا لِمَ يفرِّق بعضهم بين النفس والقلب ، فهؤلاء يريدون بالنفس هنا طلبات الجسد وحاجاته ورغباته التى يمليها على القلب ، فالقلب ههنا شيء والنفس شيء آخر ، ولكن بعضهم يُعبِّر عن القلب بالنفس من باب أنَّ القلب هو ذات الإنسان ونفس الإنسان هى ذاته ، فهؤلاء لا يُفرِّقون فى هذا المقام بين نفس وقلب ، وفى هذا المقام يقال : إنَّ المراد بالقلب هو النفس ، ويكون المراد بمرض القلب ومرض النفس واحداً ، ويكون المراد بتزكية القلب وتزكية النفس شيئاً واحداً ، فالقلب هنا عين النفس . والنفس ههنا هى عين القلب وعلى مثل هذا المقام تحمل هذه النصوص : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ ﴾ (٢) ، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (٣) ، « إنَّ فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » (٤) .

والمسلم مكلَّف بمعالجة مطالب نفسه سلباً أو إيجاباً ، ومكلَّف بتطبيب قلبه ونفسه بتزكية هذا القلب وتزكية هذه النفس من خلال الخلاص من أمراضه كالحسد والكبر والعُجب وحب الدنيا ، ومن خلال تحقيق هذه النفس أو هذا القلب بأخلاقه العليا من إخلاص وتوكل وخشية وغير ذلك ، وفى هاتين القضيتين تفريط خطير وغلط كبير .

بعض الناس يهمل قضية المطالب وعلاجها ويهمل قضية الأمراض والأخلاق النفسية العليا ، وبعض الناس لا يفرِّق بين المطالب الضرورية للنفس فيحاربها

---

(١) يوسف : ٥٣ — (٢) البقرة : ١٥١

(٣) الشمس : ٩ - ١٠ . — (٤) رواه البخارى .

وبين المطالب التى يجب حربها فعلاً ، وبعض الناس لا يعرف أصلاً ما هى موازين الصحة وجوانب المرض ، فلا يعرف بماذا يتحقق ولا مما يتخلص ، وههنا تأتى أهمية المرشد الكامل أو الوارث النبوى الكامل أو العالِم العامل أو الولى المرشد .

والإسلام جاء فيه تفصيل لكل شىء ، ومن جملة ذلك آفاق القلب والنفس، ومعالجة أمور النفس والقلب ، وطرق العلاج وموازين الصحة والمرض ، وذلك شىء لا يمكن أن يكون فى هذا العالَم جواب صحيح عليه إلا فى الإسلام ، ولا تفسير كامل له إلا فى الإسلام ، وإنّ الذين كتبوا فى هذه الشئون من أمثال حجة الإسلام الغزالى كتبوا فى الحقيقة فى أرقى الأمور وأعلاها على الإطلاق ، وإنه لخسارة للبَشرية كلها ألا تقرأ ما كتب أمثال هؤلاء ..

وعوداً على بدء فى موضوع هذا الباب ، ولزيادة الإيضاح بضرب الأمثلة نقول :

تبدأ الشهوة الجنسية تتفتح عند الإنسان شيئاً فشيئاً ، وذلك أمر عادى ، ويحاول بعض الناس أن يعتبر ذلك ظاهرة مَرضية بل يفكرون فى القضاء عليها وذلك خطأ فى فهم الأشياء أصلاً ، وفى الإسلام أنت مطالَب أن تتزوج لتحقق الحكمة فى وجود هذه الشهوة أصلاً ، وعليك بعد الزواج أن تضبط هذه الشهوة ضمن الحدود المباحة ، وقبل الزواج عليك أن تعالج هذه الشهوة بالضبط وأنواع العلاج ريثما تتزوج ، وقد يكون العلاج بالصوم وباختيار نوعية الطعام ، وقد يكون باستعمال العادة السرية - فقد أجاز بعض الفقهاء استعمال العادة السرية إذا كثرت الشهوة الجنسية - لصرف الشهوة لا لجلبها ، وقد يكون العلاج فى استغراق الإنسان فى العمل والذكر وأنواع الرياضات الجسمية ، وقد يكون فى هذا كله ، وههنا تكمن مهمة الإنسان فى هذه المرحلة . فلو طالبته نفسه بزنا أو لواط أو غير ذلك مما هو محرّم فعليه أن يقطع الطريق عليها . فلو أنّ القلب طاوع النفس ههنا - أى طاوع مطالب الجسد - فإنه يكون مريضاً إذا غلبت

عليه الشهوة المحرَّمة . ومن هنا ندرك موقف المسلم من مطالب النفس ، والمراد بالنفس هنا مطالب الجسد ، وندرك ماذا يعنى مرض النفس ، والنفس ههنا القلب ، وندرك لِمَ فى - بعض الأحيان - يعبِّر العلماء بالنفس عن القلب ويعبرون بالنفس على معنى مختلف عن القلب ..

بعض الناس يسيرون فى طريق محاربة كل مطلب للنفس كائناً ما كان ، وهذا خطأ ، ففى الحديث : « إنَّ لنفسك عليك حقا » [(١)] ، وبعض الناس يعطون أنفسهم كل ما تشتهيه وهذا خطأ ، قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَىٰ * فَإِنَّ الجَنَّةَ هِىَ المَأْوَى ﴾ [(٢)] ، وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [(٣)] ، وقال رسول الله ﷺ : « والمجاهد من جاهد نفسه فى الله » [(٤)] ، والمسلم الحق على ضوء العلم يعمل فيضبط النفس عن شهواتها المحرَّمة ويمنعها أن تتوسع فى المباح خشية مطالبته بالحرام ، هذا فى أمر مطالب الجسد ، ثم هو يزكى نفسه - أى قلبه ههنا - من كل مرض فيمنع أمراض القلب أن تؤثر على سلوكه ، ويحاول تطهير القلب من أصل المرض كما يحاول أن يحقق القلب بأخلاق الصحة ، وأن يعطى هذه الأخلاق مداها فى سلوكه ، وهذه العملية كلها يخلط الكاتبون فى الحديث عنها فيعتبرون مطالب النفس كلها أمراضاً كأمراض القلب وهو موضوع يلاحَظ أثناء مطالعة كلام الكاتبين فى هذه الشئون ..

* * *

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ * تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [(٥)] .

---

(١) رواه البخارى . (٢) النازعات : ٤٠ - ٤١ (٣) العنكبوت : ٦٩

(٤) رواه الترمذى وابن حبان . (٥) إبراهيم : ٢٤ - ٢٦

عندما تأخذ كلمة « لا إله إلاّ اللّه » مداها فى القلب فإنها تحرق كل الأمراض ، وتوجد فى القلب أخلاقاً لها ثمراتها فى السلوك كالمحبة للّه والإخلاص له والخوف منه والتوكل عليه ، ويستقيم جسد الإنسان وعقله على منهج الإسلام - أى على منهج لا إله إلاّ اللّه . أما إذا كان القلب فيه كفر أو نفاق أو فسوق فإن ظلمة القلب وآثار ذلك فى سلوك الإنسان لا بد أن تظهر، فمع الكفر أو النفاق أو الفسوق يكون الحسد . وفى الحديث الصحيح : « ولا يجتمعان فى قلب عبد مؤمن : الإيمان والحسد » ، والحسد له ثمراته الخبيثة فى الحياة البَشرية ، وهكذا يترتب على إهمال صحة القلب ومرضه - أى على إهمال تزكية النفس ومجاهدتها - ما يترتب . وتضيع بين مطالب النفس وأمراض القلب أحياناً محاكمات الدماغ فى كثير من الأمور ، وعقل الإنسان يتأثر بهذا كله . فيكون التناقض أحياناً بين الذات والفكر والسلوك . والإسلام عالج هذا كله علاجاً حكيماً فوُجِدَ بذلك كله الإنسان الحق ، وبدون ذلك فلا إنسان ولا إنسانية، ومن ثَمَّ نقول : حيثما يوجد الإسلام يكون الإنسان وإلا فلا، والدعاة إلى اللّه الذين لا يدركون هذه المعانى يُفرِّطون فى أهم الأمور على الإطلاق ..

* * *

أحيأنا تكون مطالب الجسد عاتية تصعب السيطرة عليها ، وأحياناً تكون ليِّنة تسهل السيطرة عليها ، والمسلم مكلَّف فى كل حال أن يبذل جهداً للاستقامة على أمر اللّه ، وإذا غُلبَ فواقع المعصية فعليه أن يتوب إلى اللّه مباشرة ، وأمراض النفس أحياناً تَكون معقدة وأحياناً تكون بسيطة ، والقلوب بعضها يستعصى على العلاج وبعضها كثير الاستجابة له وبعضها سريع الامتصاص لمظاهر الصحة . وطبيعة القلوب فى الأصل مختلفة : فقلب ليِّن وقلب شديد ، وهذه مواضيع متعددة سنراها ، ولأمر ما تعددت العبادات وتعددت الأعمال وأنواع القربات وفى ذلك كله حكمة .

* * *

والحياة البَشرية لا تصلح إلا بذلك ، ولكل حالة مرضية دواؤها ، ولكل حالة صحية طريقها الموصل إليها وأسبابها الدالة عليها .. وإذا عرفنا قضية القلب والنفس ومتى تعتبر النفس هى القلب والقلب هو النفس ومتى يكون القلب غير النفس فى الاصطلاح ، وإذا عرفنا كيف نضع مطالب النفس ونصنفها ومحل ذلك فى صحة القلب ومرضه ، وإذا عرفنا ماهية المرض القلبى والنفسى ، وإذا أدركنا مبدئياً قضية العلاج وقضية الصحة ، وأنّ لذلك طريقه ، وإذا أدركنا مبدئياً تأثيرات ذلك كله على السلوك ، إذا أدركنا ذلك أصبح بالإمكان أن نبنى على هذا الأساس فننتقل إلى باب آخر ملاحظين أنه إذا ذكرنا النفس من الآن فصاعداً فالمراد بها هذا الجانب الذى تعنى فيه النفس القلب . فإذا قلنا تزكية النفس أو أمراض النفس فالمراد تزكية القلب أو أمراض القلب ، ولكن أحياناً قد يُراد بتزكية النفس معالجة مطالبها حتى لا تطلب إلا خيراً ومعالجة إستقامة الجسد ، فالمعنى ههنا أعم . فليلاحظ القارئ ذلك أثناء كلامنا . ولن يفوته من خلال السياق أن يدرك ذلك إن شاء الله .

* * *

الباب التاسع

في سلّم الأمراض وسلّم الصحة

يولد الإنسان على الفطرة كما ورد فى الحديث الذى رواه الشيخان : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة – فطرة الله التى فطر الناس عليها – فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه » . وكما ورد فى الحديث الذى رواه أحمد : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يُعرِّف عنه لسانه ، فإذا عبّر عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً » . هذه الفطرة يكون فيها القلب على حاله الأكمل والروح على حالتها المثلى ، فالقلب خال من الأمراض مشتغل بنور التوحيد ، والروح عارفة بالله مقرة له بالعبودية ، ثم يحدث ما يحدث بعد ذلك من غفلة أو انحراف . تبدأ هذه الغفلة برؤية عالم الأسباب والتعلق بها من لحظة أن يلتقم الطفل ثدى أمه ، ثم بعد ذلك يبدأ يرضع من البيئة أخلاقها وآدابها وعقائدها وغير ذلك مما يترتب عليه من انحراف أو غفلة أو نسيان ..

وجاء الإسلام لإرجاع الإنسان إلى هذه الفطرة . قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً ، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [1] .

من هذه الآيات نعلم : أن الفطرة هى إقامة الإنسان وجهه لدين الله دون

---

(١) الروم : ٣٠ - ٣٢

التفات عن ذلك إلى غيره ، وأنها الإنابة إلى الله والتقوى وإقام الصلاة ونفى الشرك ، وبقدر اجتماع هذه المعانى فى إنسان يكون على الفطرة ، وبقدر ما يفرِّط فى واحدة منها يكون مفرِّطاً فى قضية الفطرة . وإقامة الوجه لدين الله ونفى الشرك يدخل تحتهما معان كثيرة ، والتقوى يدخل تحتها معان كثيرة جداً فصّلناها فى كتاب « جند الله ثقافة وأخلاقاً » ، وإقامة الصلاة حق القيام مرتبطة بأمور كثيرة لها صلة بقضايا القلب وخشوعه وغير ذلك من أعمال جسد وتوجه قلب . ومَن أدرك هذه المعانى كلها أدرك حقيقة الفطرة بصرف النظر عن الفلسفات والتعقيدات والتفصيلات ، فنحن ههنا نكتب لمسلمين مؤمنين فقط ، فإذا اتضح هذا فلنر المسألة فى جانبها الأكثر تبسيطاً ..

إذا استنار القلب بنور التوحيد الخالص فرأى الأشياء كلها من فعل الله، استقبل كل المصائب بالصبر والتسليم والرضا ، وإذا استنار القلب بنور التوحيد نما عنده التوكل على الله والإخلاص لله والخشوع والإخبات . وإذا استنار القلب بنور التوحيد فرأى النعم كلها صادرة عن الله نمت عنده محبة الله والرغبة بشكره . وكل ذلك أثر عن التوحيد الخالص الذى هو أثر عن معرفة الله وصفاته وأسمائه وأفعاله والشعور بذلك . وإذا استنار القلب بنور معرفة الله وتوحيده توجه القلب كله لدين الله ولم يلتفت عنه يميناً وشمالاً ، وعندئذ ينتفى الشرك كله كبيره وصغيره . ومن مثل هذا القلب تؤدى الصلاة كاملة لله كمظهر أرقى للعبودية لله وتقديم واجب الشكر له ، وبشكل تلقائى تكون خشية الله فى هذا القلب كبيرة فيكون التلقى عن الله كاملاً : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [(١)] ، ومن مثل هذا القلب ينبثق سلوك منسجم مع دين الله وهذه هى التقوى . ومجموع هذه الأمور هى الفطرة الكاملة ..

---

(١) الزمر : ٢٣

وبقدر الخلل فى التوحيد اعتقاداً أو شعوراً يوجد الشرك الأكبر أو الأصغر ، فإذا وُجد الشرك الأكبر انطفأ نور الفطرة كله ، وإذا وُجد الشرك الأصغر كأن يعمل الإنسان عملاً لغير الله رغبة فى جاه أو دنيا أو غير ذلك ، إذا وُجد هذا خيمت ظلمة نفسية على القلب ، وإذا انعدم الصبر وُجدَ الكفر ، وإذا قَلَّ الشكر وُجد نوع من الظلمة يقابل ذلك ...

وبقدر خفوت نور التوحيد تظهر أمراض العجب والرياء والحسد والكبر والغرور وغير ذلك من الأمراض . إذ لو كان الإنسان يرى أنَّ الله عَزَّ وجَلَّ هو المعطى ما وُجدَ الحسد ، ولو عرف الإنسان أن الله عَزَّ وجَلَّ هو خالق كل شيء ما وُجدَ عجب ورياء ، ولو عرف الإنسان مقام العبودية ما وُجدَ عجب وغرور ، ولو كان الإنسان عبداً لله حقاً ما وُجدَ الجبروت ، ولو كان فى القلب خشية من الله ما وُجدَ ظلم لعباده ولا انحراف عن أمره . ومن ههنا ندرك أصل المرض وبدء الصحة ، فأصل المرض الشرك ، وبدء الصحة التوحيد ، وإذا أدركنا ذلك عرفنا معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [1] . فالشرك هو النجاسة التى تجعل أصحابها عين النجس لكونها تصبغ أجسادهم وسلوكهم وأنفسهم وعقولهم وأرواحهم بها فتصبح ذواتهم نجسة غير محسوسة ولكنها نجاسة ..

مما مَرَّ ندرك أنَّ الدرجة الأولى فى سلم الارتقاء هى التوحيد ، وأنَّ الدرجة الأولى فى سلم الخرابات هى الشرك الأكبر أو الأصغر ، ثم عن التوحيد تبدأ الصحة ، وعن الشرك تتفرع الأمراض القلبية والسلوكية من كبر وعُجب ، وفخر وخيلاء ، وبخل وغش ، وبغض وحرص وأمل ، وحقد وحسد ، وضجر وجزع ، وهلع وطمع ، وجمع ومنع ، وجبن وجهل ، وكسل وبذاء وجفاء ، وإتباع الهوى وإزدراء وإستهزاء ، وتمن وترفع ، وحدة وسفه ، وطيش وغلواء ، وتحكم وظلم ، وعداوة ومنازعة ، ومعاندة ومغالبة ومزاحمة ، وغيبة وبهتان وكذب ونميمة ، وتهويس وسوء ظن ، ومهاجرة ولؤم ، ووقاحة وغدر ، وخيانة وفجور وشماتة ... إلى غير ذلك ..

---

(١) التوبة : ٢٨

هذه الأمراض النفسية والقلبية - وغيرها كثير - إذا وُجِدَت فى القلب أثّرت على نور التوحيد ومنعت نور الإيمان والتوحيد من التسلل إلى القلب ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَكِن قُولُواْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [1] . فالإيمان لم يدخل ولكنه على وشك الدخول ، إذ هذا الذى يقتضيه استعمال كلمة « لما » فى اللغة العربية .

وإذن فإن هناك حالة يوجد فيها عمل ولكن توجد موانع تمنع من وصول الأنوار إلى القلوب ، ومن مظاهر ذلك الذين حدّثنا عنهم رسول الله ﷺ فى أحاديث صحيحة أنّ إيمانهم لا يجاوز تراقيهم هذا مع أننا نحقر صلاتنا مع صلاتهم وصيامنا مع صيامهم . فهذا كله يدل على أنّ هناك حالات للقلب إذا وُجدت فإن أنوار الإيمان نفسها لا تصل إلى القلب ، وقد ذكر ابن عطاء الله السكندرى بعض عبارات فى حكمه توضح هذا المقام فقال : « كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته ، أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبّل بشهواته ، أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله ولم يتطهر من جنابة غفلاته ، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته » .

وقال : « أنوار أُذِنَ لها فى الوصول ، وأنوار أُذِنَ لها فى الدخول ، ربما وردت عليك الأنوار فوجدت القلب محشواً بصور الآثار فارتحلت من حيث نزلت . فَرِّغ قلبك من الأغيار يملأه بالمعارف والأسرار » ...

هذه المعانى كلها تصل بنا إلى قضية مجاهدة النفس والتخلص من أمراضها كجزء من السير إلى الله .

إن هناك مطلباً للنفس وهناك مرض للنفس ، وهناك استجابة للنفس ومطالبها واندفاعات سلوكية هى أثر عن أمراضها . والمسلم فى هذه الدوائر كلها مكلّف ، فهو مكلّف بأن يعطى النفس مطالبها العادلة ، وأن يجاهد مطالبها الظالمة الآثمة ، وهو مكلّف فى إزالة المرض بالسير فى طريق الشفاء ، ومكلّف بنفس الوقت

---

(١) الحجرات : ١٤

ألا يستجيب لأوامر المرض ، والأمر صعب دقيق ، والمستعان هو الله جَلَّ جلاله.
وإذا أردنا أن ندرك بعض هذه الأمور عن طريق قريب يكفى أن نتأمل بعض الاستعاذات التى علّمنا إياها الله جَلَّ جلاله أو رسوله عليه الصلاة والسلام . فقد علّمنا الله ورسوله ﷺ أن نستعيذ بالله من أمور كثيرة ، ومَن تأمل لبعض نماذج هذه الاستعاذات يدرك كثيراً من جوانب ما ذكرناه ، وهذه نماذج :

(أ) ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَق * من شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِى العُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾[1]
ألا ترى فى الاستعاذة بالله مَن شر حاسَد إذا حسد أن للحسد فى القلب آثاره الشريرة فى السلوك على المحسود ؟

(ب) أخرج الترمذى وأبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه أن أبا بكر قال : يا رسول الله ، مرنى بكلمات أقولهن إذا أمسيت وإذا أصبحت . قال : « قل اللّهم فاطر السمٰوات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شىء ومليكه ، أشهد أنّ لا إلٰه إلّا أنت ، أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه » . قال: « قلها إذا أصبحتَ وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك » . ألا ترى فى قوله عليه الصلاة والسلام : « أعوذ بك من شر نفسى » أنّ النفس لها مطالبها الشريرة وحاشاه ﷺ أن يكون لنفسه مطلب إلا فى الله ولكنه التعليم .

(جـ) أخرج الشيخان عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اللّهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم والبخل . وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات » . ألا ترى فى استعاذته عليه الصلاة والسلام بالله من العجز والكسل والجبن والبخل إشارة إلى أمراض منها الجسدى النفسي ومنها النفسى الخالص الذى له آثاره السيئة في الحياة .

(د) أخرج أبو داود عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اللهم إنى أعوذُ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق » . ألا ترى فى هذا الحديث إشارة إلى مجموع أمراض قلبية ونفسية .

---

(١) سورة الفلق .

(هـ) أخرج أصحاب السُنَن عن شكل بن حميد قلت : يا رسول الله ، علّمنى تعوذاً أتعوذُ به . فأخذ بكفى وقال : « قل : اللّهم إنى أعوذ بك من شر سمعى ومن شر بصرى ومن شر لسانى ومن شر قلبى ومن شر منيى » . ألا ترى ههنا أنَّ للمنى شراً [1] .

هذا طريق قريب أخذنا منه قضية الأمراض النفسية والقلبية . ولكن الأمر أوسع من ذلك . ونحن هنا خطتنا الإجمال ، فإذا كان الأمر كذلك فإنه مع الأذكار والأوراد والعلم لا بد من عملية بحث عن طرق الشفاء من أمراض القلب والنفس لتتم لنا عملية السير إلى الله . إنَّ كل مرض للقلب ينبثق منه إذا أطاعه الإنسان سلوك ، فالحسد تنبثق عنه محاولات الإساءة إلى المحسود ، والحقد تنبثق عنه عمليات الانتقام ، والبخل ينبثق عنه المنع ... وهكذا قُلْ فى كل مرض قلبى أو نفسى .. وما آفات اللسان وأنواع كلامه الآثم من سخرية واستهزاء وغيبة ونميمة وغير ذلك إلا أثراً عن الأمراض القلبية والنفسية ، وما مواقف الإنسان المحرَّمة واستجابته لدواعى الشهوات إلا أثراً عن أمراض القلب والنفس ... وهكذا ..

وههنا لا بد من شيئين : معرفة بالأمراض ومجاهدة للنفس حتى لا تستجيب لها ومجاهدة للتخلص من هذه الأمراض . فالأذكار والأوراد والأعمال وخاصة فى حالات تعقيد القلب والنفس بأنواع من الأمراض ليست كافية وحدها لإزالة هذه الأمراض بل لا بد من علم ولا بد مع العلم من مجاهدة ، والذكر هو زاد السير ولازمه ، وبسبب هذا نجد عند الصوفية اصطلاحات المجاهدة والتخلية والتحلية والتزكية . وفى هذا المقام يظهر احتياج الكثيرين للمرشد المربى ذى الفراسة الصادقة البصير بأمراض النفوس وطرق معالجتها ...

وبشكل عام .. إنَّ العلم بأمراض النفوس يساعد على طب النفوس ، والعلم بمظاهر الصحة يساعد على السير فى طريقها ، وكنا من قبل ذكرنا أنَّ العلم جزء

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن .

من السير إلى الله فليلاحَظ أنَّ جزءاً من هذا العلم ما له علاقة بهذا الموضوع ، وقد فصَّل الغزالى فى إحيائه فى هذه المواضيع بما لم يلحق فيه ، وذكرنا من قبل أهمية الذكر والعبادة والأوراد فى السير إلى الله فليكن ذلك على ذكر منا . وههنا وضح لدينا أمر وهو ضرورة مجاهدة النفس لمنعها من هواها ولتخليصها من أمراضها ولتحليتها بجوانب صحتها وذلك شىء مكمل لقضية الأوراد فى السير إلى الله ، وهذا هو الجانب العملى الثانى فى رحلتنا إلى الله وفى سيرنا كذلك فى هذه الرسالة . فليكن الباب القادم حديثاً عن المجاهدة وأركانها كنقطة انطلاق نحو صحة النفس والقلب . وفى طريق الخلاص من أمراض القلب وفى عملية عودة بالذات نحو الفطرة . ولن يتم ذلك لأحد إلا بتوفيق من الله . قال تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَاءُ ﴾ (١) . ولذلك فالمستعان على هذا هو الله وحده ، ولقد كان من دعاء رسول الله ﷺ : « اللهم آت نفسى تقواها وزكّها أنت خير من زكّاها أنت وليها ومولاها » (٢) . وإذا كان الشأن كذلك فالمستعان هو الله ولكن الله عَزَّ وجَلَّ ربط الأمور بمسبباتها ، ولقد جعل الله عَزَّ وجَلَّ من مهمات رسوله ﷺ تزكية الأنفس ، قال تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِى وَلاَ تَكْفُرُونِ ﴾ (٣) . فنحن مكلَّفون بالأخذ بالأسباب للوصول إلى نفس مزكّاة مع الاستعانة بالله جَلَّ جلاله ..

والخلاصة ... نقطة البداية فى الصحة إذن كلمة التوحيد وتنور القلب بها ، ونقطة البداية فى المرض أو الموت كلمة الشرك أو عدم تنور القلب تنوراً كاملاً بكلمة التوحيد . عن الأول تنبثق كل مظاهر الصحة الظاهرة أو الباطنة ، وعن الثانى تنبثق كل الأمراض الظاهرة أو الباطنة ، ومن ثَمَّ فإنَّ المرشدين الكُمَّل

---

(١) النور : ٢١ (٢) رواه مسلم . (٣) البقرة : ١٥١ - ١٥٢

لا يكون لهم هَمٌّ مثل أن ينقلوا قلب المريد إلى التوحيد ، فمتى استنار القلب بنور التوحيد وانسجم سلوك الإنسان مع ذلك من خلال علم شامل وذكر دائم والتزام صحيح فإنَّ كمالاً لا مثيل له يوجد فى النفس فيُحدِث تغييراً هائلاً فيها . ويترتب عليه فى أنفس الإنسانية أو فى أنفس شعب من شعوبها إذا تفاعلت هذه الأنفس مع كلمة التوحيد ما لا يخطر بالبال من كمالات ، ويظهر من ثمرات ذلك ما يحيِّر العقول ويدهشها . هؤلاء العرب قبل الإسلام لم تكن لهم ثقافة عريقة ، ولم تكن لديهم عادات حضارية متأصلة ، ولم تكن لهم تجربة فى الحكم والإدارة ، ولم تكن لهم قدرة على ضبط الانفعالات ، وما شئت أن تتحدث عن قصورهم فى كثير من الأمور فإنك تستطيع أن تتحدث . هذا عدا عن جهل بالله عَزَّ وجَلَّ وعدم وجود نظرة كلية عندهم فى شئون الحياة ، عندما قبلوا كلمة التوحيد حق القبول وتحققوا بها حق التحقق ، كما شهد الله بذلك لأصحاب رسول الله ﷺ الذين كانوا معه يوم الحديبية : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ – أى كلمة التوحيد – وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ (١) . فكانوا أهل كلمة التوحيد ، وانسجم سلوكهم مع كتاب التوحيد « القرآن » بما يتفق مع هذه الكلمة ، فماذا كان ؟ كل شىء اختُصِر لهم اختصاراً ، وإذا بهذا الشعب الجاهل أصبح شعباً مُعلِّماً وأصبح قدوة فى الخير وملك من الإمكانيات ما استطاع به أن ينهى دولاً عظمى وأن يوجد نظاماً جديداً فى العالَم وأخذت شعوب العالم نفسها دين هذا الشعب ديناً لها .

والآن والمسلمون فى أوضاعهم الحاضرة كما نرى : إنَّ هناك شعوباً فى العالَم وصلت إلى ذروة فى القوة والمدنية ووُجِدَت عندها عادات وتقاليد فى شأن الحكم والسياسة والإدارة . ووُجِدَ عندها وعى سياسى عظيم وقدرات إدارية هائلة ودراسات واسعة فى كل شىء ، وإنَّ هذا كله لا يمكن أن يلحق به المسلمون فى أوضاع من السير العادى فضلاً عن أن يكون لهم دور السبق ، فضلاً عن أن

---

(١) الفتح : ٢٦

يكون لهم دور العطاء ، فضلاً عن أن يكون لهم دور المعلّم ، إنّ شيئاً واحداً هو الذى يختصر لهم الطريق :

كلمة التوحيد وانسجام سلوكى معها على ضوء الكتاب والسُنّة من خلال علم وعمل وتفاعل والتزام . إنّ هذا وحده هو الذى يختصر الطريق فيوجد بذلك الإنسان السليم الكامل قلباً وعقلاً وجسداً ، وعياً وأخلاقاً وسلوكاً ، خبرة فى النفس ، وقدرة على تعليمها وتهذيبها ، وإدراكاً لكل لوازمها ، وبهذا نجد شعوباً تقفز بسرعة من حال إلى حال ، من حال القهر السياسى والعبودية السياسية ، من حال التخلف المدنى والتخلف السلوكى إلى غير ذلك . فالعمل يقوى والإنتاج يتوسع ودوائر التعامل العادى تنمو .. وقُلْ غير ذلك فى كل شىء . ومن هنا ندرك فظاعة جريمة الذين يريدون أن يحولوا بين الحركة الإسلامية وبين أن تؤدى دورها كاملاً فى صياغة شعوب الأمة الإسلامية على ضوء كلمة التوحيد وكتاب التوحيد لتوجد أمة نموذجية معلمة قائدة كبديل عن هذه الأمة التى أفسدتها ثقافات فاسدة وحكومات فاسدة مفسدة واستعمار طويل مديد حاول خلال فترة استعماره الفعلى أو المتشكل بأشكال جديدة أن لا يُبقى قيمة إلا دمرها . إنّ كلمة التوحيد متى استقرت فى القلب ونورته تفرع عنها التوكل والإخلاص والصبر والشكر والإحسان والتقوى ، والعمل بالإسلام من صلاة وزكاة وشورى ، وانتصار من الظلم وصلة رحم وحسن خُلُق وحسن جوار وكلمة طيبة فى محلها وقُدرة على الجهاد وأخلاقياته الرفيعة وغير ذلك من مئات الأخلاق ، بينما كلمة الشرك يتفرع عنها الرضا عن النفس وما يستتبع ذلك من غفلة وشهوة وخطيئة وما يتفرع عن ذلك من أمراض كالكبر والعُجب والحسد وغير ذلك مما مرت معنا صورته . وإنّ كثيراً من أمراض الشرك قد يغطيها موقف مفتعل من إنسان أو ثقافة تجريبية فى أمة ولكن ذلك بمثابة تغطيةً للمرض لا قضاءً عليه ، والآن لنتذكر ما ورد فى هذا الباب والذى قبله . وخاصة لنتذكر قضيتين ، الأولى : أنّ هناك أمراضاً فى القلب متى وُجِدَت تحول دون

وصول الأنوار إلى القلب وهذا يقتضى عملية استكشاف لهذه الأمراض وسير فى طريق التخلص منها وحمل النفس على معان أخرى .

الثانية : أنَّ علل هذه الأمراض الرئيسية منها ما هو فكرى ومنها ما هو نفسى ، والفكر علاجه العلم والتأمل . ولكن النفس علاجها المجاهدة ، وهذا يقتضى منا كلاماً عن المجاهدة . وهو فى الحقيقة الأثر المباشر الذى ينبغى أن ينبثق عن العلم الصحيح وعن الذكر الدائم . فإذا كنا من قبل قلنا : إنَّ ركنى السير إلى الله « العلم » و « الذكر » . فإنَّ العلم الصحيح لا بد أن ينبثق عنه مجاهدة للنفس مباشرة ، والزاد المعين على هذه المجاهدة هو الذكر ، وإذا لم يتولد عن العلم مجاهدة فإنه لا يكون علماً صحيحاً . يقول ابن عطاء : « ولأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خير من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه . وأى علم لعالِم يرضى عن نفسه » . وهو معنى صحيح ، فالرضا عن النفس يتولد عنه ما رأيناه من قبل من كبر وعُجب وغرور وغير ذلك ، فحيثما وُجِدَ رضا عن النفس لا يكون علم ، وحيثما وُجِدَ علم صحيح وُجِدَ عدم رضا عن النفس فوُجِدَت مجاهدة ، فالمجاهدة هى الانبثاق الأول عن ركنى السير إلى الله : الذكر والعلم ، وبدونها لا يكون سير كامل إلى الله .. فليكن الباب العاشر فيها .

* * *

الباب العاشر

فى المجاهدة وأركانها

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [(١)] .

من هذه الآية ندرك أنّ الهداية إلى الطرق الموصلة إلى الله ورضوانه هى أثر المجاهدة . فالمجاهدة كسب الإنسان ، والهداية هبة الله للإنسان ، والمجاهدة والهداية كلاهما لا يتم إلا بتوفيق الله وبمعونته ، لذلك علّمنا ربنا أن نقول فى صلاتنا : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [(٢)] ، فالمجاهدة هى وسيلة الهداية القلبية إلى الله ورضوانه .

والهداية هى مقدمة التقوى . قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [(٣)] . فالتسلسل إذن على الشكل التالى : مجاهدة توصل إلى هداية . وهداية توصل إلى تقوى ، وكل ذلك لا يتم إلا بتوفيق الله ومعونته وعطائه . ومن هنا ندرك أنّ نقطة البداية الصحيحة فى السير إلى الله هى المجاهدة ، ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام : « والمجاهد مَن جاهد نفسه فى ذات الله » [(٤)] . وإنما كان هذا هو المجاهد لأن الهداية إلى السبل - والتى منها القتال فى سبيل الله - لا تكون بلا مجاهدة ، ومن ثَمّ فالقتال نفسه لا يكون قتالاً مقبولاً إلا بعد هداية ، ولا هداية إلا بعد مجاهدة ، إلا إذا شاء ربك أن يعطى عبده بلا سبب...

---

(١) العنكبوت : ٦٩ (٢) الفاتحة : ٥ (٣) محمد : ١٧

(٤) رواه أحمد بإسناد حسن وزاد : « فى الله عز وجل » .

وههنا وفى هذه الدوائر توجد أغلاط كثيرة ، فهناك ناس تصورهم عن المجاهدة خاطىء ، وهناك ناس يقفون عند المجاهدة ولا يصلون إلى السبل ، قال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) . فهم يشتغلون فيما يتصورونه مجاهدة ولا يصلون إلى السبل بأن يفهموها ويسيروا فى مسالكها ، وهناك ناس يتنقلون من مجاهدة إلى سير فى السبل ، ولكنهم لا يصلون إلى حقيقة التقوى . إن فى الفهم أو فى الملكة أو فى السلوك ، وكل ذلك منشؤه الجهل ، وكل ذلك سببه أنَّ نقطة البداية – التى هى المجاهدة – ليست صحيحة ، وعلى هذا فلا بد من فهم لقضية المجاهدة ، ولا بد من فهم لقضية التقوى ، ولا بد من فهم لقضية السبل . والموضوع متداخل البدايات والنهايات ، كثير الوشائج . فمعرفة التقوى جزء من المجاهدة ، والتقوى نفسها بعضها أثر المجاهدة وبعضها من المجاهدة . وفى كتاب « جند الله ثقافة وأخلاقاً » بيان واسع لهذه الشئون فليراجَع .

ونحن هنا بسبيل أن نرسم صورة لقضية مجاهدة النفس فى أسسها العامة التى نصل بها إلى أن تتخلص النفس من أمراضها ، وتتحقق بمعانى صحتها مفترضين أنَّ السائر فى هذا الطريق سائر فى طريق العلم الصحيح ومستوعب لما يلزمه من العلم ابتداءً وانتهاءً فليلاحَظ ذلك .

تبدأ المجاهدة من نقطة الإيمان بالله ووحدانيته ، وأنَّ محمداً رسول الله ﷺ ، وقد لا يحس المسلم الناشىء فى بيئة إسلامية بأنَّ الأمر ههنا يحتاج إلى ذكر فى باب المجاهدة وهذا خطأ كبير . فأكبر شىء على الإطلاق أن يستطيع الإنسان أن يقفز من كفر إلى إيمان ، أو أن يعلن إيمانه فى بيئة تستنكر الإيمان أو تسخر من أهله . قال تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ (٢) .

---

(١) المائدة : ١٥ – ١٦ (٢) التغابن : ١١

ثم تأتى المرحلة الثانية فى المجاهدة وهى القيام بفروض الوقت من صلاة إذا جاء وقتها،أو صيام رمضان إن جاء ، أو أداء زكاة إذا حال الحول ، أو أداء حج إذا حضر وقته وكان الإنسان مستطيعاً ، أو نكاح إذا كانت الدوافع الجنسية إليه كبيرة وتيسر ذلك للإنسان ، أو ضبط معاملة من بيع أو إجارة على مقتضى الشرع إن كان يمارسها ، أو صلة رحم وبر والدين إن كان هناك رحم ووالدان .... وغير ذلك من فروض الوقت ، ولكل إنسان فروض وقته التى قد تتفق مع فروض الآخرين وقد تختلف على حسب حاله ووضعه وغير ذلك . فهناك مريض لا يستطيع الصوم فليس الصوم فى هذه الحالة فرض وقته ، وهناك إنسان لا يملك مالاً فهذا ليس عليه زكاة ، وهناك إنسان ميت والداه فهذا ليس عليه فى هذا الشأن واجب بر والديه بل هناك فى حقه مندوبات تلاحَظ .

وبعد ملاحظة فرض الوقت لا بد من ملاحظة أدب الوقت . فما هو أدب وقت الصباح ووقت السَحَر ووقت الغروب . وما هو أدب الكون فى سفر أو فى عرس أو فى مأدبة أو فى سجن أو مع مجموعة أو فى مدرسة أو دكان أو فى نزهة أو فى فرح أو فى ترح ، وهى قضايا مكملة لفروض الوقت . وكما أنَّ هناك ملاحظة وتطبيقاً لموضوع فروض الوقت وآدابه فهناك ضبط النفس عن المحرَّمات والمكروهات التى تطالب بها النفس أو يصادفها السائر خلال سيره . فهذا جانب ثان فى المجاهدة .

ثم جزء ثالث فى المجاهدة ، وهى قضية ما يرتبه الإنسان على نفسه من نوافل العبادات من صلاة وزكاة وصيام واعتكاف وحج وأدعية وأذكار وقراءة قرآن ، ويدخل فى ذلك ما مَرَّ معنا من قضايا الدورات الروحية والأوراد اليومية فهذا الجانب الثالث .

ثم تأتى القضية الرابعة ، وهى التى نطلق عليها أركان المجاهدة : إنَّ الذين تكلموا عن أركان المجاهدة ذكروا أركاناً أربعة هى : العزلة والصمت والسهر والجوع . وسنتكلم عنها بإجمال ليعود الأخ إذا أراد تفصيلاً إلى الكتب الموسعة كالإحياء وغيره .

ثم تأتى القضية الخامسة ، وهى عملية تأمل النفس والقلب واكتشاف الأمراض ومعالجتها . وهى القضية الأخيرة للمجاهدة وإحدى ثمارها الرئيسية . والقضيتان الأخيرتان هما محل التفصيل فيما يأتى وهما اللتان تدور حولهما عبارات الكثيرين إذا تكلموا فى موضوع المجاهدة ، وفى هذا الباب سنكتفى بذكر أركان المجاهدة ، وفى الباب التالى سنعرض لقضية معالجة الأمراض ، فلنبدأ الكلام عن الأركان الأربعة للمجاهدة ولنبدأ بالعزلة :

ليست العزلة هى الأصل فى حياة المسلم ، بل الخُلطة الصالحة والاجتماع الطيب والألفة للخير وأهله . هذا هو الأصل فى حياة المسلم ، وفى الأحاديث التالية مصداق ما قلناه :

« المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذى لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم » [1] . « المؤمن يألف ويؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » [2] ، « يد الله مع الجماعة ومَن شذ شَذَّ فى النار . » ، « وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية » [3] ، والجانب المكمل لهذا الأصل فى حياة المسلم أنه يعتزل الكفر والنفاق والفسوق وأهل ذلك ، ويعتزل المجالس التى فيها استهزاء بآيات الله وغير ذلك مما ينبغى العزلة عنه ، قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ من دُون اللَّه وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيّاً ﴾ [4] . ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَآؤُاْ منكُمْ وَممَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّه كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ وَالبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِاللَّه وَحْدَهُ ﴾ [5] . وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِى آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِه ، وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [6] .

---

(١) رواه أحمد وغيره . (٢) رواه أحمد . (٣) رواه الترمذى .
(٤) مريم : ٤٨ (٥) الممتحنة : ٤ (٦) الأنعام : ٦٨

وقال رسول الله ﷺ : « مثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك إن لم يصبك منه شيء أصابك من ريحه ، ومثل جليس السوء كمثل صاحب الكير إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه » [1] . وقال عليه الصلاة والسلام : « مثل المنافق كالشاة العائرة بين الغنمين ، تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة » [2] . وقد كرِّه الفقهاء مخالطة الفُسّاق ورفع الكلفة معهم .

من هذا كله ندرك ما هو الأصل فى حق المسلم فى قضية الخُلطة والعُزلة . ولعل أوضح شيء فى هذا الباب قوله عليه الصلاة والسلام لحذيفة عندما سأله : فيم تأمرنى إن أدركنى ذاك ؟ قال : « تلزم جماعة المسلمين وإمامهم » . قال : فإن لم يكن للمسلمين جماعة ولا إمام ؟ قال : « اعتزل تلك الفرق كلها - أى فرق الضلال - ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك » [3] . فلا عُزلة عن الجماعة الإسلامية ، والعُزلة كل العُزلة عن الضلال وأهله . هذا هو الأصل العام فى حياة المسلم فى قضية الخُلطة والعُزلة . فإذا اتضح هذا الأصل ندرك متى تجب العُزلة المطلقة فى حياة المسلم ، وإذا وجبت فعليه أن يجاهد نفسه ليحملها عليها لأن من طبيعة النفس أنها تألف الأُنس بالناس . ولكن إذا تأملنا الحديث الشريف : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق » - إذا تأملنا هذا الحديث - ندرك أنَّ الحالات التى تجب العُزلة المطلقة على الإنسان حالات عارضة أو طارئة أو مؤقتة ، ومن ثَمَّ فنحن نبحث فى معرض السير إلى الله موضوع العُزلة كركن من أركان المجاهدة كدواء لقلب الإنسان ونفسه وضرورة ذلك أحياناً فى حياة المسلم ...

هذا هو ما نعنيه ، وهذا أقصى ما نراه للمسلم فى هذا الباب إلا إذا كان هناك ظرف خاص أو وضع عارض أو طارىء ، فالتقوى تقدَّر زماناً ومكاناً وشخصاً ، ومن ثَمَّ فمحل بحثنا ههنا إذن هو العُزلة كدواء للقلب ومحلها فى المجاهدة . فلنر بعض عبارات الصوفية فى هذا الشأن .

---

(١) رواه أبو داود .   (٢) رواه مسلم والنسائى .   (٣) رواه البخارى .

يقول ابن عطاء : « ادفن وجودك فى أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه . ما نفع القلب شىء مثل عُزلة يدخل بها ميدان فكرة ، كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته ، أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبّل بشهواته ، أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله ولم يتطهر من جنابة غفلاته ، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته » ؟

فى هذه الكلمة لخص ابن عطاء مجموع المعانى التى يحتاج الإنسان فيها إلى عُزلة كدواء . متى اشتهر الإنسان كثرت علائقه ، وإذا كثرت علائقه ضاع كثير من وقته بسبب هذه العلائق ، وإذا ضاع كثير من وقته تعذر عليه تكميل نفسه علماً وعملاً وحالاً . فهذه حالة من أجلها تُطلب العُزلة ، وإذا خلا الإنسان بنفسه وجال بفكرة فى ملكوت السمٰوات والأرض ، انعكس ذلك على قلبه صلاحاً . فهذه حالة ثانية من أجلها تُطلب العُزلة . وما دام الإنسان يخالط فصفاء قلبه ضعيف وانطباع الأشياء فى هذا القلب قوى ، وعُزلة معها فكر وذِكر تساعده على جلاء مرآة قلبه . وما دام الإنسان فى خُلطة فكثير من مثيرات الشهوات يمكن أن تجر قلبه،والعُزلة تقطعه عن مثل هذا . وذلك يساعد قلبه على التحرر من رق الشهوات فهذا جانب آخر تساعد عليه العُزلة . وما دام الإنسان على خُلطة فالغفلة تغلبه ، فإذا أتيحت له عُزلة مع ذِكر وفِكر فإنَّ هذا يساعده على يقظة قلبه ، وما دام القلب كثير الخلطة فهو كثير الهفوات . وهذا يحول بينه وبين فهم دقائق الأسرار . والعُزلة تساعده على الخلاص من هفوات القلب وعلى التأهل لصالح فهم دقائق الأسرار .

هذه مجموعة من المعانى التى اعتُمدَت من أجلها العُزلة الشاملة أو العُزلة الجزئية كجزء من مجاهدة النفس ، بل كركن فيها مع ملاحظة أنَّ ذلك كله ينبغى أن يكون مرحلياً فى حياة الإنسان ، وألا يكون على حساب واجبات الوقت وآدابه وتضييع حقوقه ، ولعل فى خلوة رسول الله ﷺ فى غار حراء قبل الوحى ما يمكن أن يُستأنس فيه للعُزلة الشاملة . وفى سُنَّة الاعتكاف ما يمكن أن يُستأنس فيه للعُزلة الجزئية .

وعلى كل الأحوال ؛ فالعُزلة إذا لم يكن فيها تضييع حق أو واجب فهى من باب المباحات ، وحتى ولو لم يترتب عليها أى مصلحة ، أما إذا ترتب عليها مصالح من إصلاح قلب أو تحصيل علم أو زيادة إيمان فإنها تنتقل من كونها مباحة إلى ما هو أرقى من ذلك . فإذا تعينت طريقاً لتحقيق فرض أو للتخلص من حرام فقد تأخذ طابع الفرضية . ولم يزل كل المفكرين فى العالَم يجدون فى العزلة فرصة للتأمل وإنتاج الأفكار . ولذلك كان الإنكار على مَن يعتزل عُزلة مؤقتة ، شاملة أو جزئية للتخلص من داء أو لتحقيق مصلحة علمية أو إيمانية ما دام ليس على حساب حق أو أدب وقت . إنَّ مَن ينكر ذلك إبصاره للأمور ضعيف وآفاقه الفكرية ضيقة . ونكتفى بهذا القدر فى الإشارة إلى الركن الأول من أركان المجاهدة فى إصطلاح السائرين إلى الله .

ولننتقل إلى الركن الثانى من أركان المجاهدة فى اصطلاح السائرين إلى الله ، وهو الصمت .

إنَّ تهذيب اللسان فى الإسلام من أهم الأمور على الإطلاق ، ولذلك نجد أنَّ رسول الله ﷺ يقول : « مَن يضمن لى ما بين لحييه - أى لسانه - وما بين فخذيه أضمن له الجنة » [1] . ويقول عليه السلام : « أوَ لا أدلك على ملاك الخير كله » ؟ قال : « كُفَّ عليك هذا - وأشار إلى لسانه » . قال : وإنَّا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ قال : « ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم » - أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

فضبط اللسان على مقتضى شرع الله من أهم الأمور على الإطلاق ومن أصعبها على الإنسان وعلى النفس البَشرية . والأصل فى قضية اللسان ألا يستعمله الإنسان إلا فى الخير وأن يضبطه عن كل شر ، بل أن يضبطه عن اللغو فضلاً عن الشر .

---

(١) رواه أبو داود .

قال عليه الصلاة والسلام : « مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت »[1] . وقال تعالى : ﴿ لَا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ وَتَنَاجَوْا بِالبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾[3] .

وآفات اللسان التى ينبغى أن يُجنِّب المسلم لسانه إياها كثيرة جداً ذكرها الغزالى فى إحيائه وعدَّدها فلتراجع هناك . وعلى هذا فالأصل فى موضوع اللسان أن يحفظه الإنسان من دائرتى الإثم واللغو وأن يستعمله فى دائرة الخير ، والتمييز بين ما هو خير وشر وما هو لغو وحق يحتاج إلى علم واسع وضبط كثير للنفس .

فاللسان هو أداة التعبير الأولى عن النفس ، والنفس ميَّالة لأشياء كثيرة ، واللسان أقرب الطرق للتعبير عن هذه الأشياء . وما أكثر الأشياء التى تميل إليها النفس ولا يصح أن تظهر علي اللسان . النفس ميَّالة للفخر وميَّالة للسباب والخصام إذا غضبت ، وميَّالة للمسامرة حتى فى اللغو وميَّالة أحياناً لانتقاص الآخرين وميَّالة لأن تُشعر الآخرين بفضلها ، كل ذلك وأمثاله كثير مما لا ينبغى أن يعطى المسلم نفسه مداها فيه . وعليه أن يعوِّد نفسه على الانضباط فى ذلك ، ومقدمة ذلك كله التحكم فى اللسان . ومقدمة التحكم فى اللسان تعويد الإنسان نفسه على الصمت ثم الكلام المنضبط على الأصول ، ومَن لم يعوِّد نفسه على الصمت صعب عليه أن يعتاد وزن كلماته قبل أن يتكلم . فهذه واحدة من جملة معان اعتمد بسببها تعويد الإنسان نفسه على الصمت جزءاً من المجاهدة وضرورة من ضرورات السير إلى الله عزَّ وجَلَّ . وقد يحسن أن يقول الإنسان الكلمة الخيِّرة ولكن قد لا يحسن أن يقول الكلمة الحكيمة . فمثلاً أن تُذكِّر الناس بالآخرة وأن تُحذِّرهم من سخط الله وأن تُذكِّرهم بناره هذا خير ،

---

(١) رواه البخارى .   (٢) النساء : ١١٤   (٣) المجادلة : ٩

ولكن إذا فعلت ذلك على مائدة الطعام لا تكون حكيماً . ولذلك كرِّه الفقهاء للإنسان أن يُذكِّر بمثل هذه الشئون فى مثل هذه الحال لأن ذلك يتنافى مع أدب المقام ، فهذا مثال يوضِّح كيف أنَّ الكلمة قد تكون خيِّرة ولا تكون حكيمة ، وهذا موضوع واسع جداً لا يستطيعه أحد إلا بتوفيق من الله ولذلك قال تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْراً كَثِيراً ﴾ (١) .

وتعويد الإنسان نفسه على الصمت مقدمة لاعتياد الإنسان على أن يحاكم كلمته قبل أن يقولها . وهذه حكمة ثانية من حكم اعتماد تعويد الإنسان نفسه على الصمت كجزء من مجاهدة النفس وركن من أركان ذلك ، ولا شك أنَّ اللسان هو أحد منافذ الخطأ الرئيسية والكبرى . فإذا ما أفلح الإنسان فى ضبطه يكون قد قطع شوطاً كبيراً فى تهذيب نفسه واستقامتها .

والصمت مقدمة فى الضبط ، فمَن نجح فى الصمت أصلاً كان على أن ينجح فى الكلام المنضبط أقدر بتوفيق الله . وأخيراً فإننا لو تذكرنا الحديث الشريف : « لولا تمرغ قلوبكم وتزيدكم فى الحديث لسمعتم ما أسمع » ، لو تذكرنا هذا الحديث لوجدنا أنَّ التزيد فى الحديث عامل من عوامل حجب القلب عن الغيب ، ولذلك كان الصمت طريقاً لصلاح القلب . كل هذه المعانى جعلت الصمت ركناً من أركان المجاهدة .. ولكن أى صمت ؟

الصمت الذى هو دواء والذى هو مقدمة فى ضبط اللسان فهو صمت مرحلى ، والصمت حيث لا يكون الكلام واجباً أو مفروضاً . أما إذا كان الكلام واجباً أو مفروضاً كأمر بمعروف أو نهى عن منكر أو تعليم واجب فالصمت عندئذ حرام . ضمن هذه الشروط يحسن الصمت كجزء من مرحلة فى حياة الإنسان ، فالصمت وسيلة لا غاية ولمرحلة فى الحياة ريثما تستقيم النفس لا لكل الحياة ...

على ضوء ذلك كله نفهم قضية الصمت كركن من أركان المجاهدة للنفس . فلننتقل إلى الركن الثالث من المجاهدة وهو الجوع :

---

(١) البقرة : ٢٦٩

يقول عليه الصلاة والسلام فى الحديث الذى أخرجه الطبرانى بإسناد حسن : « عليكم بالحزن فإنه مفتاح القلب » . قالوا : يا رسول الله ، وكيف الحزن ؟ قال : « أخنعوا أنفسكم بالجوع وأظمئوها » . من هذا الحديث نرى كيف أن الجوع يمكن أن يكون دواءً للنفس فى بعض أحوالها وأمراضها .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « يا معشر الشباب ، مَن استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومَن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وُجاء » [1] . وكذلك نجد فى هذا الحديث كيف أنَّ الجوع يمكن أن يكون دواءً للنفس فى بعض حالاتها ، لأن الصوم من جملة معانيه أنه جوع وعطش ، فإذا رافق الصوم توسع كثير فى الأكل ليلاً لم يؤدِّ الغرض منه فى كسر حدَّة الشهوة ، فالصوم نهاراً ، وعدم التوسع فى الطعام ليلاً ، هو الدواء لهذه الحالة .

إذا اتضح من هذين الحديثين كيف أنَّ الجوع يمكن أن يكون علاجاً لبعض حالات النفس نكون قد وضعنا الأساس الذى نفهم على ضوئه فكرة اعتماد الجوع كركن من أركان المجاهدة فى مرحلة من مراحل الحياة ، ومراحل السير إلى الله .

فلنر بشكل أوسع ما يعمق إدراكنا لهذه القضية ...

القاعدة العامة فى الإسلام فى موضوع الطعام هى : أنَّ الأكل والشرب بالقدر الذى يقيم أود الإنسان حتى يستطيع القيام بالفروض والواجبات . الأكل بهذا القدر فرض ، والتوسع فى الطعام لدرجة الشبع المباح والإسراف فيه حرام ، قال تعالى : ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُواْ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [2] .

والإسراف قضية نسبية تختلف باختلاف الناس وأحوالهم واختلاف العصور والأوضاع الاقتصادية . وإذا كان الأكل حتى الشبع مباحاً فأن يعطى الإنسان نفسه كل شهواتها حتى المباحة . إنَّ ذلك يتنافى مع الذوقية الإسلامية والروحانية العامة للإسلام . ثم إنَّ النصوص تشير إلى السمنة كمرض فى

(١) رواه البخارى .   (٢) الأعراف : ٣١

المجتمع الإسلامي . ففي الحديث في ذم خلف طالح يأتي بعد سَلَف صالح : « يشهدون ولا يستشهدون . ويخونون ولا يأتمنون ويظهر فيهم السمن » [1] . فالتوسع في الطعام ، وإهمال قضايا الجسم حتى يصل الإنسان إلى السمنة موضوع مرضي في المجتمع الإسلامي ، والنصوص واضحة في ذلك ، من كل ذلك ندرك أنه وإن كان الأكل حتى الشبع مباحاً فإن الشبع الدائم في حياة المسلم ليس هو الأصل ولذلك نجد الحديث الصحيح يقول : « بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن لم يكن فثلثٌ لطعامه ، وثلثٌ لشرابه ، وثلث لنَفَسه » [2] . أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

هذا هو الأصل الأغلبي في حياة المسلم ، فإذا أهمل المسلم هذا الأصل فبطرت نفسه أو استعصى عليه ضبطها ، أو حتى وهو يلاحظ هذا الأصل إن استعصت عليه نفسه أو بطرت ، فإنَّ عليه أن يداوي ذلك كله بالجوع ، بالصوم أو بدون صوم ، وكذلك الحال لو أنه أصابته سمنة مرضية نتيجة لإهمال نفسه فعليه أن يداوي نفسه بالجوع غير المضر أو بنوع من السياسة يتخلص فيها من هذا الحال ، ولئن كان الجوع علاجاً والشبع مباحاً - فلا بد من ملاحظة الضرر في الحالين فكل ما أدى إلى ضرر جسمي أكيد فهو محرَّم ، وكل ما أدى إلى ضرر محتمَل فهو مكروه ، ومن ثَمَّ فلا بد من ملاحظة ذلك .

وعلى ضوء ذلك كله نفهم قضية الجوع كركن من أركان المجاهدة ، ولا تنس أنَّ الصوم كجزء من المجاهدة بالجوع هو الأرقى ...

ويبقى الركن الرابع في باب المجاهدة وهو السهو :

إنَّ عدم تحكم المسلم في نومه قد يترتب عليه تفريط خطير في كثير من الأمور ، فصلاة الفجر جماعة قد تتعرض للخطر ، والاستغفار بالأسحار قد يتعرض للخطر ، وقيام الليل والتهجد قد يضيعان ، وصلاة العشاء في جماعة ، وأوراد ما بعد الفجر ، وأشياء كثيرة يمكن أن يصيبها خلل نتيجة لعدم تنظيم

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه الترمذي .

الإنسان نومه وتعود نفسه على التحكم فى شأن النوم وخاصة فى عصرنا الذى غلبت فيه طرائف الحياة الغربية على بلادنا . إنَّ الغربى ينتهى من عمله فينام ثم تأتى فرصة لهوه ومتعته فيستمر بها إلى وقت متأخر من الليل ثم ينام إلى ساعة متأخرة ليذهب إلى العمل . هذا هو الوضع الغالب هناك وهو وضع أصبح هو الغالب على الكثير منا بحكم ارتباط حياة الإنسان المعاصر بأجهزة التليفزيون ونشرات الأخبار فى الراديو وغير ذلك . هذا الوضع تضيع معه كثير من الفروض والنوافل والسُنَن الإسلامية ، ولذلك لا بد له من علاج وأمر النوم فى كل عصر يحتاج إلى علاج وتحكم ولكنه فى عصرنا يزداد الطلب له .

وإنَّ لليل فى الإسلام لشأناً خاصاً . قال تعالى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ (١) . فأن ينشىء الإنسان العبادة فى الليل فذلك ثقيل عليه ، وله بذلك أجر ، وإنَّ لعبادة الليل من الصفاء ما ليس لغيرها ، ومن التأثير فى النفس ما ليس لغيرها ، ومن الفهم للمعانى فيها ما ليس لغيرها ، وقد جاءت هذه الآية فى سياق قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ (٢) . إنَّ لليل فى الإسلام لشأناً وتكفى هذه الآيات السابقة لإدراك ذلك . ومن مظاهر هذا الشأن ما نجده فى الأحاديث التالية : أخرج الترمذى بإسناد حسن : « قيل : يا رسول الله ، أى الدعاء أسمع ؟ قال : « جوف الليل الآخر ودبر الصلوات المكتوبات » .

وأخرج الستة إلا النسائى عن رسول الله ﷺ :« ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : « مَن يدعونى فأستجيب له . مَن يسألنى فأعطيه . مَن يستغفرنى فأغفر له » .

---

(١) المزمل : ٦ (٢) المزمل : ١ – ٨

وإنَّ لقيام الليل فى الإسلام لشأناً ، وكذلك للدعاء والاستغفار فى الثلث الأخير من الليل ، وكذلك لصلاة العشاء وصلاة الفجر فى جماعة ، وكذلك لأوراد ما بعد الفجر : « مَن صلَّى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل ، ومَن صلَّى الفجر فى جماعة فكأنما صلى الليل كله » (١) . « إنَّ هاتين الصلاتين - الصبح والعشاء - أثقل الصلاة على المنافقين ، ولو تعلمون ما فيهما لأتيتموهما ولو حبواً على الركَب » (٢) . « مَن صلَّى الصبح فى جماعة ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس ، ثم صلَّى ركعتين كان له كأجر حجّة وعُمرة تامة تامة تامة » .

من كل ذلك ندرك ماهية المراد بمجاهدة النفس فى شأن السهر ، ولماذا كان السهر ركناً من أركان المجاهدة ، ومن كل ذلك ندرك أنَّ السهر نفسه ليس هدفاً بل قد يكون مكروهاً إذا لم يتحقق الهدف منه ، ففى الحديث : « كان رسول الله ﷺ يكره النوم قبل العشاء والحديث بعده » (٣) . السهر الذى يرافقه لغو مكروه ، فكيف إذا رافقه حرام ؟ أما السهر الهادف الملىء بالعلم والعمل والذكر والقيام وقرآءة القرآن بما لا تضيع معه صلاة جماعة ... مثل هذا السهر هو المراد ، فقد كان رسول الله ﷺ يسمر هو وأبو بكر فى شئون المسلمين (٤) . وكان من سُنَّة داود عليه السلام أنه كان ينام نصف الليل ويقوم ثُلثه ثم ينام سُدسه . إذا أدركنا قضية السهر فلنتذكر أنَّ النوم حاجة عادية للإنسان ، وعندما نطالبه بالسهر فإنما نطالبه بتعويد نفسه على حياة إسلامية كاملة ، ومن ثَمَّ فعلى المسلم أن يُعوِّض احتياجات جسمه إلى النوم فى أوقات أخرى إذا فاته حظه من ذلك فى الليل، ولذلك كان من السُنَّة القيلولة - وهى نومة ما قبل الظهر - ومَن فاتته يستطيع أن يُعوِّضها فيما بعد الظهر والأمر واسع ، وبهذا كله أدركنا مضمون هذا الركن الرابع من أركان المجاهدة .

---

(١) رواه مسلم ومالك .

(٢) رواه أبو داود وغيره .

(٣) متفق عليه .

(٤) متفق عليه .

ومن الملاحَظ أن لهذه الأركان صلة ببعضها ، فمَن شبع كثيراً احتاج إلى النوم الكثير ، ومَن لم يجاهد نفسه بالصمت قد يضيع عليه سهره ، والعُزلة تساعد على التحكم فى قضايا السهر والصمت والطعام . ولعله من خلال عرضنا لقضية أركان المجاهدة ، عرفنا لِمَ اعتُبِرت هذه القضايا الأربعة أركاناً فيها . إنه إذا استطاع المسلم أن يتحكم فى كلامه وطعامه ونومه وخُلطته فقد أصبح على أبواب الخير كله ، وقد أصبح بإمكانه أن يتحكم فيما سوى ذلك . وأن يمر الإنسان على دورات فى حياته ينظم فيها هذه الشئون لينطلق بعد ذلك فى حياة تنضبط فيها هذه الأمور ضمن حدين : أدنى وأعلى ، فإنَّ ذلك هو الوضع العادى فى حياة المسلم .

ولنعد الآن إلى فكرة الدورات الروحية لنضيف إليها عنصر المجاهدة مع الأوراد والأعمال الأخرى .

افرض أننى قررت أن أقيم لنفسى دورة روحية نفسية مقدارها أربعون يوماً – وليس الأربعون شرطاً كما رأينا من قبل – ولكن هناك نصوص كثيرة يمكن أن نستأنس بها لموضوع الأربعين يوماً . منها قوله تعالى : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ (١) .

ومنها قوله عليه الصلاة والسلام : « مَن صلَّى أربعين يوماً فى جماعة لم تفته التكبيرة الأولى كتب اللّه له براءتين : براءة من النار وبراءة من النفاق » (٢) .

ومنها هذه الرواية : قال عمر لرجل : كم رابطت ؟ قال : رابطت ثلاثين . قال : ألا رابطتَ أربعين .. فالأربعون إذن لها ما يستأنس فيه ، فإذا قررتُ أن أقضى هذه الأربعين بأقل قدر من الخلطة مع عدم التفريط فى الواجبات ورتبتُ أمر

---

(١) الأعراف : ١٤٢ (٢) رواه الترمذى بإسناد حسن .

طعامى بحيث أكتفى باللقيمات فيها ، ورتبتُ أمر سهرى ونومى فى اليوم بما يحقق أهداف السهر والنوم ، ورتبت أمر كلامى بحيث لا أقول إلا ما يلزم ، هذا مع ترتيب أمور العلم والصلاة والصوم والأوراد وقراءة القرآن - مما مر معنا من قبل - فإننى بذلك أكون قد جمعتُ فى هذه الدورة أنواعاً من المجاهدة والمعالجة بآن واحد ، فإذا رتبتُ هذا كلَّه مع قضية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أو مع قضية الدعوة إلى الله ، أو مع قضية عمل جهادى أو تدريب جهادى أو مع برنامج علمى مكثف ، فإنَّ الدورة يكون مردودها كبيراً ، على أنه يمكن أن يكون لكل قضية دورة تلاحَظ بها هذه القضية بشكل أخص مع بقية الواجبات .

على أنه إذا فاتنا أن نرتب هذه الأمور من خلال دورات طويلة فلنرتب ذلك بشكل آخر . وإذا فاتنا قضية الدورات مع التفرغ فبالإمكان أن نرتبها مع العمل الحياتى ، وما لا يُدرك كله لا يُترك جله ، وطريق الجنة صعب ويحتاج إلى ثمن : « ألا إنَّ سلعة الله غالية ، ألا إنَّ سلعة الله الجنة » [1] .

* * *

(١) رواه الترمذى .

البَابُ الحادِىّ عَشَرَ

فى السّير إلى الله

مِن بَدايته إلى نهايته

وفيه : قضية معالجة أمراض النفس البَشرية
كجزء من المجاهدة وأنواع السائرين

يبدأ السير إلى الله عادة بانبعاث الهمة – أى توجه الإرادة إلى الله . وههنا يكون غموض وقد يحدث خطأ ، ولنتصور أنَّ انبعاث الهمة أو توجه الإرادة رافقه تعرف على مرشد كامل ، فماذا يفعل المرشد الكامل أو الوارث النبوى الكامل ؟ الجواب البسيط : أنَّ المرشد يُسيِّر كل إنسان بحسب ما يليق بحاله ، فمَن كان عنده استعداد عالٍ جداً سار به فى طريق الوراثة النبوية الكاملة ، ومَن كان استعداده أدنى سار به فى طريق أقل مشقة ، ومَن كان حاله أدنى أعطاه بقدر حاله . وهكذا نجد بشكل تلقائى دوائر بدايتها دائرة السائرين فى طريق الوراثة ، وأُخراها طبقة المبتدئين والحواشى والمتبركين والدائرين فى فلك حلقة الشيخ وهكذا ، وكل ذلك منضبط بضوابط ، ولكن فراسة الشيخ تبقى ذات صلة كبيرة فى السير ، هذه صورة للسير ولكن قد لا يوجد الشيخ المرشد الكامل ، فما العمل ؟ وكيف تكون صورة السير ؟

كل ذلك نحب أن نمسه مساً رفيقاً فى هذا الباب ، وستأتى فى أبواب لاحقة قضية الشيخ والمرشد الكامل وما له صلة بهذه المعانى ، ونرى هناك خطورة شأنها وكثرة الأغلاط فيها وكثرة المدعين لمقامها ، بل لو قلنا إنها عِلّة العلل فى

كل أغلاط الصوفية لم نبتعد كثيراً ، فلنؤجل الكلام عن هذا الموضوع إلى هناك ولنتكلم ههنا مفترضين حالتين فقط ، الأولى : وجود المرشد الكامل - أى الوارث النبوى الكامل ، أى الولى المرشد فى اصطلاح القرآن ، والثانية : عدم وجوده .

إذا جاء إنسان إلى مرشد كامل فالمفروض أن يكون عنده استعداد للطاعة فى المعروف ، وأؤكد على كلمة « الطاعة فى المعروف » لأن ما سواها لا يجوز ، وبالتالى فالولى المرشد يدله على ما ينبغى فعله بما يناسب حاله . وبشكل عادى يأمره بالعلم والذكر . ولكن يسير كل إنسان فى العلم بما يناسب حاله ، وفى الذكر بما يناسب حاله وهمته ووقته . ومن خلال العلم والذكر وفى أجواء الوعظ وحضور حلقات الذكر وفى جو المذاكرة تظهر أمارات الصدق عليه وعلامات القبول لديه ، ويرى مدى استعداده لسير أرقى وأعلى . وفى هذه المرحلة لا بد من تنبيهه على شروط التوبة ، ولا بد من الاستغفار الكثير ، ولا بد من التخلص من حقوق العباد بطريق ذلك . وفى هذه المرحلة لا بد من أن يفهم قضية جماعة المسلمين ووجوب تحرير ولائه لهم لأنه بدون ذلك لا يشم رائحة الإيمان الذوقى . ومما يلاحظه الشيوخ أنه مَن جاءهم كائناً مَن كان قبلوه على أمل أنه إذا عاش فى أجواء الإيمان أن ينتقل من طور إلى طور . هذه هى المرحلة الأولى فى السير وهى بمثابة حرث الأرض وبذرها بالنسبة للسالك ، وعبَّر عن هذه المرحلة بعضهم بقوله :

فإن أتى القوم أخو فتون	وقال يا قوم أتقبلون ؟
تقبلوه صادقاً أو كاذباً	إذ كان محتوماً عليهم واجباً
وحذّروه من ركوب الإثم	وأمروه باقتباس العلم
وأمروه بلزوم الطاعة	والماء والقبلة والجماعة
وقرروا فيه شروط التوبة	وأمروه بلزوم الصحبة
ثم أمدوه بعلم ظاهر	حتى استقامت عنده السرائر

وهكذا تنتهى هذه المرحلة بظهور علامات الصلاح عند المريد لتبدأ المرحلة الثانية ، وهى مطالبة المريد بالمجاهدة المنظمة لنفسه ، من تعويد لها على صمت حكيم وجوع معتدل هادف وعُزلة مربية وسهر مليء بالخير مما مَرَّ معنا من قبل ، وذلك بمثابة تطييب للأرض المبذورة ، وههنا تبدأ تظهر للمريد نتيجة للمجاهدة وللأوراد وللعلم صفات نفسه وأمراضها ، وعندئذ يبدأ الشيخ تنبيهه على ذلك . وهذه المرحلة بمثابة قلع الحشائش الضارة من الأرض وإبقاء النبات الطيب فيها أو بمثابة تقليم الشجر وتخليصه من شوكه وأعواده غير المهذبة . فهى بالنسبة للإنسان تهذيب وتشذيب .

وما أقل العارفين فى هذا العلم الذين يعرفون الصحة من المرض ، ويعرفون ما ينبغى تشذيبه وما ينبغى إبقاؤه فى هذه المرحلة ، بل ما أكثر الذين يميتون الطيب ويبقون الخبيث . ولنا عودة إلى هذا الموضوع . وفى تبيان هاتين المرحلتين من السير قال بعضهم :

إذ للمـــريد عنـــدهم حدود	لأجلها قيـــل له مـــريد
فعنـــدها رد إلـــى الأوراد	كالصمت والصوم مع السهاد
وعـــاملـــوه بالمعـــامـــلات	إذ علمـــوا مختلف العلأت
لكـــن أحـــالوه على الأعمال	لأجـــل ما فيهـــا من النوال
إذ الطـــريق العلم ثم العمل	ثم هبـــات بعـــدها تؤمـــل
حتـــى إذا أحكم علم الظاهر	وأبصـــروا القبـــول فيه ظاهر
ألقوا إليه من صفات النفس	ما كـــان فيها قبل ذا من لبس
وهـــى إذ أنكرتها فلتعرف	إحـــدى وتسعيـــن وقيل نيف

وفى هذه المراحل كلها ، بل وفى كل المراحل ، يبقى السير العلمى موجوداً ، وتبقى المجاهدة قائمة على تفاوت فى الشدة ، وتبقى الأذكار والأوراد والأعمال مطلوبة وهكذا ، يقول ابن عطاء : « لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين ،

لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك ، ولا قطيعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك » .

ثم تأتى المرحلة الرابعة وهى ظهور ثمرات البذور ، بذرة الفطرة وبذرة التعليم، بذور التوحيد وبذور معرفة اللّه عَزَّ وجَلَّ ، وبقدر ما تكون المعرفة باللّه كاملة ، تكون الثمار مرجوة ، ومن ثَمَّ فإنَّ التركيز فى هذه المرحلة يكون على شيئين : على تعميق المعانى الذوقية ، وعلى أن تظهر ثمرات التوحيد فى سلوك الإنسان . « فالتصوف خُلُق ، فمَن زاد عليك فى الخُلُق فقد زاد عليك فى التصوف » . ففى مجال معرفة اللّه يؤكدون على الوصول إلى الفناء بالأفعال والصفات والذات . وفى مجال ثمرات ذلك يؤكدون على التخلق بأسماء اللّه مع العبودية الكاملة للّه ، وفى هذه المقامات تقع أغلاط وتقع انحرافات وتكون شطحات . ويستمر السير ليكمل الإنسان فى مقام التعامل الأرقى مع الحق ومع الخلق بآن واحد على مقتضى الشريعة ، فإذا ما اجتمع له مع هذا كله علم بالكتاب والسُنَّة ، وعلم بتزكية النفس وتربيتها ، وعلم بكل ما يلزم المسلم من علوم لنفسه ولغيره وأشياء أخرى كثيرة فإنَّ هذا الإنسان استحق أن يجاز بمرتبة الإرشاد .

والسائرون بعد ذلك درجات ، فمنهم مَن يستأهل أن يصل إلى درجة نقيب يكون بمثابة الواسطة بين الشيخ وبقية المريدين ، ومنهم مَن تكون مهمته التلقى والتنفيذ ، ومنهم مَن يبقى فى فلك الجميع سائراً . التزامه قليل ومحبته كثيرة ، ولكل محله فى السير .

ولنفرض فرضاً أنَّ المرشد الكامل لم يوجد - وهو الغالب فى عصرنا - إذ أننى لا أعلم أنَّ أحداً فى هذا العصر توافرت فيه شروط المرشد الكامل إلا حسن البنا رحمه اللّه .

ففى هذه الحالة يكون أدب السائر إلى اللّه الإلحاح على العلم ، والإكثار من الصلاة على رسول اللّه ﷺ ، والمذاكرة مع كل مَن يمكن أن يأخذ عنه شيئاً ، وحسن التأدب مع جميع المتصدرين للإرشاد مع تمحيص كل ما يسمعه على ضوء

العلم والفقه وعدم الالتزام بشخص بعينه بأن يعطيه بيعة إلا بعد معرفته بحدود البيعة المتعارَف عليها عند الصوفية . وأنه فى النهاية واصل بإذن الله إلى كل خير ولا يسمع لدعاوى جهلة الصوفية الذين يدّعى كل واحد منهم أنه إذا لم يسلك الخلق على يد شيخهم فإنهم لا يعرفون الله ولا يصلون إليه . فهذه جهالة مركّبة فكبار العارفين بالله - كالشيخ الرفاعى رحمه الله - يقولون : نهاية العلماء والصوفية واحدة ، فما يصل إليه الصوفيون بكثير العبادة مع قليل العلم يصل إليه العالِم بكثير العلم مع قليل العمل . ويقول ابن عطاء : « وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به » ..

وفى هذه الأمور كلها توجد أخطاء وأغلاط ومغالطات ومسالك خاطئة . ومن خلال عرض الخطأ والصواب سندرك بإذن الله موضوع السير إلى الله بشكله الصحيح :

١ - إنّ فكرة المريد واسمه عند الصوفية أُخذَت من قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِّى يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ (١) . فالإرادة إذن لله ، والمريد مريد الله ، وعلامة مريد الله أنه يعبد الله صباح مساء - أى فى كل الأوقات - ورسول الله ﷺ نفسه مأمور بأن يلزم هؤلاء وأن يصبر نفسه معهم ولا يسمح لعينه أن تتطلع إلى سواهم رغبة فى زينة الحياة الدنيا ، ومأمور بألا يطيع الغافل عن وحى الله ، وألا يطيع المتبعين أهواءهم والسائرين وراءها . وقد رأينا شيوخاً يعتبرون المريدين عبيداً لهم ويعمقون معنى الإرادة للشيخ دون أن ينبهوا تلاميذهم إلى جوهر الإرادة ولمن هى . كما رأينا بعضهم بقدر ما يتعالى على تلاميذه يتواضع لأصحاب الدنيا ، وبعضهم يطيع الكافرين فى المؤمنين المسلمين ويتقرب إلى الكافرين بحرب أهل الإسلام .

---

(١) الكهف : ٢٨

٢ - إنه لا سير إلى الله إلا بسحب الولاء من أهل الكفر والنفاق والفسوق ، وإعطائه لأهل الإيمان وجماعة المسلمين . يقول عليه الصلاة والسلام : « أن تلزم جماعة المسلمين وإمامهم » [١] ، وقال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [٢] . ولقد رأينا شيوخاً لا يهمهم أن يكون مريدهم معطياً ولاءه للكفر وأهله ما دام ملتزماً به ، بل رأينا شيوخاً إذا أعطى المريد ولاءه للعاملين للإسلام هجروه بل طردوه ، وإذا أعطى ولاءه لغير الاتجاهات الإسلامية سكتوا عنه بل حبّذوا له ذلك .

٣ - إنه لا سير إلى الله بلا علم وذكر ، ولقد رأينا شيوخاً لا يعطون المريد علماً أو ذكراً طوال حياته بل يُعلّقونه بأشخاصهم وكأن ذلك وحده هو الإسلام .

٤ - وفى موضوع المجاهدة إما أنك تجد تفريطاً أو إفراطاً ، فإما مجاهدة غالية على غير سُنّة وإما إعطاء للنفس هواها حتى رأينا من مدّعى السلوك إلى الله من الفسوق ما تضج منه الأرض . نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا .

٥ - وفى موضوع الشيوخ والإرشاد ما أكثر الدعاوى وأكثر الأخطاء وأكثر العصبية المظلمة ، وهذا موضوع سنراه تفصيلاً ، وكم من شيخ يطالب مريده بالتسليم المطلق وهو لا يصلح أن يسلم عقلاً أو قلباً فى زمن مضى . فكيف فى عصر لا يصلح للتصدر فيه للإرشاد إلا مَن اجتمع له من العلم والتربية والوعى ما يسع العصر وأهله وأنّى ذلك إلا ...

٦ - وفى موضوع معالجة الأمراض ما أندر مَن يذاكر فى هذا ، بل ما أندر مَن يفطن لأمهات الأمراض ، بل ما أكثر مَن يعتبر الصحة مرضاً والمرض صحة ، وما أندر مَن يركّز على أمراض العصر وأمراض المسلمين . وعند هؤلاء يصبح التطلع للجهاد مرضاً . والعمل لتكون كلمة الله هى العليا رجساً ، بل الكلام فى ذلك يحتاج إلى غُسل كالجنابة . ألا قاتل الله الجهل . وعند الكثيرون من هؤلاء لا قواعد ولا ضوابط ولا سير نحو حياة إسلامية كاملة .. ثم وثم ...

---

(١) من حديث رواه البخارى .   (٢) التوبة : ٧١

٧ - وفى موضوع السير إلى الله أصلاً ما أكثر الجهل وما أكثر الغلط ، فالسير إلى الله ملخصه كلمتان :

انتقال فى النفس من حالة دنيا إلى حالة أرقى ، وعلم صحيح بالله ، يقول ابن عطاء : « لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين ، وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به ، وإلا فجَلَّ ربنا أن يتصل به شىء أو يتصل هو بشىء ، قربك منه أن تكون مشاهداً لقُربه » .

وكثيرون من الناس يظنون الكفر وصولاً إلى الله وتغلب عليهم أوهام ما أكثرها .

٨ - ويرافق السير إلى الله عند الكثيرين غرور يحتقرون به الناس جميعاً من زُهّاد لعُبّاد لعلماء ، كما يرافقه تحذلق وتشدق ورغبة فى فلسفة الأمور مما يذكرنا بقول معاذ رضى الله عنه : « وإن وراءكم فتناً يكثر فيها المال ويُفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن والمنافق والرجل والمرأة والعبد والحر والصغير والكبير . فيوشك قائل أن يقول : ما للناس لا يتبعونى وقد قرأتُ القرآن وما هم بمتبعى حتى أبتدع لهم غيره ، فإياكم وما ابتدع فإنما ابتدع ضلالة » [١] .

٩ - ومعرفة الله ينبثق عنها أخلاقية معيَّنة والتزام معيَّن وكل ذلك مفصَّل بالسُنَّة ، وما أكثر ما تفقد هذه الأخلاقية وهذا الالتزام .. هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ قضوا حياتهم فى الجهاد حتى دُفنوا فى كل أرض وتحت كل سماء ، وعند الكثيرين من هؤلاء يصبح التفكير فى الجهاد جريمة ، وأخلاقية الصحابة معروفة ، وعند الكثير من هؤلاء نجد اهتمامات الصحابة تكاد تكون معدومة .

١٠ - وما أكثر ما يتصدر لمقامات إرشاد الخلق أكثر الناس جهلاً ، وهذا مقام لا يصح أن يتصدر فيه مَن لم يرث عن رسول الله ﷺ العلم والعمل والحال .

١١ - ويرافق السير إلى الله اجتماع وإنشاد ، وتصحبه أمور ويتطلب آداباً ، وفى كل واحدة من هذه نجد طامات عند الكثير ممن لهم صلة بهذه الشئون . فليكن الباب اللاحق فى مساعدات السير ومنشطاته والأغلاط فيها ...

* * *

---

(١) أخرجه أبو داود وإسناده صحيح .

الباب الثانى عشر

مساعدات السير ومنشطاته

يلاحَظ بشكل واضح أنَّ إقبال الناس على الله وعلى السير إليه يزداد فى حالات ، كما أنَّ السالك إلى الله عَزَّ وجَلَّ تمر عليه فترات من الكسل وذلك شيء عادى ، هذه الحالات التى تزيد من إقبال الإنسان على الله تعالى أو تجدِّد همته إن فترت كثيرة ، منها الاجتماع على علم أو على قراءة قرآن أو على ذكر أو على مذاكرة ، ومنها الإنشاد ، ومنها المطالعة فى كتب السير إلى الله وقصص الصالحين . وعلينا أن نلاحظ أنَّ بعض هذه الأمور قد يحقق من ناحية فرضاً ، ويكون بنفس الوقت منشطاً على السير أو مجدداً للهمة كالاجتماع على علم مفروض مثلاً . وفى قضايا الاجتماع أو قضايا الإنشاد أو قضايا المطالعة فى كتب السير إلى الله ، وقصص الصالحين - وكلها مساعدة على السير - توجد أمور لا بد من ملاحظتها ، وهناك أخطاء يجب التنبيه عليها .. وقبل أن نبدأ عرض هذه الأمور نحب أن نشير إلى قضيتيين :

الأولى : يقول عليه الصلاة والسلام : « لكل عامل شرة ، ولكل شرة فترة ، فإن سدَّد وقاربَ فارجوه ، وإن أشير إليه بالأصابع فلا تعدوه » [1] .

والشرة : النشاط . والفترة : الكسل .

فالسائر إلى الله عليه أن يلاحظ نفسه بشكل دائم ، وعليه أن يحسن سياستها ، فإذا وجد من نفسه فترة حاول أن يحتفظ بحد أدنى من العمل ، وإن فاته هذا الحد حاول أن يقضيه ، ومن جملة ما يسوس به نفسه فى حالة الفترة ،

---

(١) أخرجه الترمذى وقال عنه : حسن صحيح .

الاستفادة من منشطات السير التى سنذكرها ، وإذن فمنشطات السير هى جزء فى الحقيقة من سياسة النفس فى أمر السير إلى الله ، وليست كل هذه السياسة .

الثانية : لكل قلب طاقة معيَّنة على تحمل ثقل الأعمال ، فإذا حُمِّل القلب فوق طاقته فربما حدثت فيه انتكاسة . وكذلك النفس إذا حُمِّلت فوق طاقتها أو لم تُعْطَ حاجاتها الضرورية أو بعض مطالبها المباحة فإنها تغلب الإنسان عندئذ . ولذلك فعلينا دائماً أن ننتبه إن كنا آخذين أو معطين إلى هذا الموضوع ، وفى الحديث : « خذوا من العمل ما تطيقون ، فوالله لا يسأم الله حتى تسأموا » [(١)] .

وفى الحديث الآخر : « سدِّدوا وقاربوا واعلموا أنه لن يُدخل أحدكم عمله الجنة » ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بمغفرة ورحمة » [(٢)] .

وعلينا أن نلاحظ فى موضوع منشطات السير ألا ينقلب بعضها إلى خلاف المقصود عندما يثقل كثيراً على النفس ، أو يتجاوز ببعضها أكثر مما وُضِعَ له . ولا بد أن نعرف الحكمة فى كل منها أصلاً ، ولكون قضية الاجتماع بالذات تترتب عليها مصالح كثيرة ، فسنتحدث بشىء من التفصيل المعتدل عنها مبتدئين بها :

أولاً - الاجتماع :

للاجتماع فى الإسلام أهمية كبيرة لما يترتب عليه من آثار حميدة ، بل هو لا بد منه فى حالات كثيرة لإقامة فرائض أو واجبات أو سُنَن فضلاً عن تحصيل خيرات كثيرة ، فهناك اجتماعات الصلوات وخاصة صلاة الجمعة وصلاة العيدين ، وهناك الاجتماع لأمر جامع يهم المسلمين ، وهناك الاجتماع على علم أو ذكر أو مذاكرة . ويدخل فى الاجتماع على العلم : الاجتماع على القرآن أو السُنَّة

---

(١) أخرجه مالك والشيخان والنسائى واللفظ لمسلم .

(٢) أخرجه الستة .

أو علوم الكتاب والسُنّة ، أو الاجتماع على اللغة العربية ، أو الاجتماع على الفقه أو التوحيد أو التصوف المحرر ، أو علم أصول الفقه أو علم السيرة والتاريخ الإسلامى ، أو الدراسات الإسلامية الحديثة ، أو التعرف على التآمر على الإسلام ، أو دراسات فقه الدعوة . كما يدخل فى الاجتماع على العلم الاجتماع على دراسة أمر يحتاجه الإسلام والمسلمون . كل ذلك يدخل فى الاجتماع على العلم سواء أخذ ذلك طابع اجتماع فى حلقة عامة أو خاصة منتظمة أو طارئة ، والأصل فى ذلك قوله عليه الصلاة والسلام فى الحديث الذى رواه الإمام مسلم : « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفّتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده » .

لاحظ ماذا يترتب على الاجتماع على كتاب الله من تنزل سكينة وغشيان رحمة وحف ملائكة وذكر الله عَزَّ وجَلَّ لأهل ذلك ، وماذا يترتب على ذلك من خيرات ، فمثلاً غشيان الرحمة يترتب عليه تأليف القلوب واجتماعها . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ [1] ، فالمرحومون هم الذين لا يختلفون . ومن التعرض لرحمة الله الاجتماع على كتاب الله ، وتنزل السكينة يترتب عليه زيادة الإيمان . قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [2] ، والاجتماع على ما ذكرناه كله له صلة مباشرة بالقرآن ، أو له صلة بخدمة القرآن ، أو له صلة بتحقيق أهداف القرآن ، أو له صلة بتحقيق ما يعصم عن البُعد عن القرآن ، وكله يدخل فى الاجتماع على العلم ، وفى الحديث : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » . قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : « حلق الذكر » [3] .

حمل بعضهم هذا الحديث على العلم ، وبعضهم على الذكر ، وفى الحديث الآخر ما يشير إلى أن الانخراط فى حلقة العلم إيواء لله عَزَّ وجَلَّ : « بينما

---

(1) هود : ١١٨ - ١١٩ (2) الفتح : ٤

(3) أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن غريب .

رسول الله ﷺ جالس فى المسجد إذ أقبل ثلاثة نفر ، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ فوقفا عليه ، فأما أحدهما فرأى فُرجة فى الحلقة فجلس ، وأما الآخر فجلس خلفهم ، وأما الثالث فأدبر ذاهباً ، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال : « ألا أخبركم عن النفر الثلاثة ؟ أما أحدهم فآوى إلى الله فآواه الله ، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه » (١) .

والاجتماع على العلم تترتب عليه مصالح كثيرة من انبعاث همة أو تعرف على حكم جديد ، أو تذكر لقضية ينبغى تذكرها ، وكل ذلك إذا كان العلم علماً صحيحاً ، والنيِّة نيَّة مخلصة ، والقائم به أهل لذلك . إذ تجتمع فى ذلك الصحبة والتلقى وامتصاص الحال القلبى الصالح ، وكل ذلك يساعد على السير إلى الله وقد قالوا :

قد يرتجى الشفاء للسقيم مهما يكن ملازم الحكيم

والشيخ الحكيم يعرف كيف يرتب أمر الاجتماعات على العلم بحيث يسير كل فرد فيما يناسبه من سير علمى من خلال حلقات عامة وخاصة ، ويلاحظ دائماً استعداد السائرين كما يلاحظ أن يرتب جلسات واعظة مهذبة ، وليلاحظ فى السُنَّة وسيرة الصحابة .

أخرج الشيخان والترمذى عن شقيق قال : « كان عبد الله يذكِّر الناس فى كل خميس ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن ، لوددتُ أنك تذكِّرنا كل يوم ، قال : أما إنه يمنعنى من ذلك أنى أكره أن أملكم ، وأنى أتخولكم بموعظة كما كان رسول الله ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا » .

وأخرج البخارى عن عكرمة أنَّ ابن عباس قال : « حدِّث الناس مرة فى الجمعة ، فإن أبيتَ فمرتين ، فإن أكثرت فثلاثاً ولا تمل الناس هذا القرآن . ولا ألفينك تأتى القوم وهم فى حديث من حديثهم فتقص عليهم فتقطع عليهم حديثهم فتملهم ، ولكن أنصت ، فإذا أمروك فحدِّثهم وهم يشتهونه وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه ، فإنى عهدتُ رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون ذلك » .

---

(١) أخرجه الشيخان ومالك والترمذى .

ومما ينبغى أن يلاحظه الشيخ أن يسيِّر فى الحلقات الخاصة كل مجموعة على قدر استعدادها وهمتها .

وهناك الاجتماع على الذكر ، والأصل فيه ما أخرجه الشيخان عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إنّ لله ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإن وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى تنادوا : هلموا إلى حاجتكم ، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم : ما يقول عبادى ؟ قالوا : يقولون : يسبِّحونك ويكبِّرونك ويحمدونك ويمجدونك . فيقول : هل رأونى ؟ فيقولون : لا والله ما رأوك . فيقول : كيف لو رأونى ؟ فيقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تحميداً وأكثر تسبيحاً . فيقول : فما يسألون ؟ فيقولون : يسألونك الجنة . فيقول : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا والله يارب ما رأوها ، فيقول : كيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها كانوا أشد عليها حرصاً وأشد لها طلباً وأعظم فيها رغبة . قال : فمم يتعوذون ؟ فيقولون : يتعوذون من النار . فيقول : هل رأوها ؟ فيقولون : لا والله ما رأوها . فيقول : فكيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فراراً وأشد لها مخافة . فيقول : أشهدكم أنى غفرت لهم . قال : يقول م+لك من الملائكة : فلان فيهم ليس منهم إنما جاء لحاجة . قال : هم الجلساء لا يشقى جليسهم » .

من هذا الحديث ندرك أنّ رسول الله ﷺ حض على الاجتماع على الذكر ورسم لنا الأصل الجامع الذى تقوم عليه حلقة الذكر من تسبيح وتهليل وتكبير وتحميد ودعاء ، فلو أنّ مجموعة اجتمعت على « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاَّ الله والله أكبر » وختمت جلساتها بدعاء واستعاذة فإنها تكون قد حققت سُنَّة الاجتماع على الذكر كما وردت فى الحديث ، والذى يناقش فى سُنِّية ذلك ، أى فى ثبوته فى السُنَّة ، يخالف الفهم البديهى لهذا الحديث الذى مَرَّ معنا ، وإذا كانت سُنَّة الاجتماع على الذكر واردة فى مثل هذا الحديث الصحيح فهناك نصوص أخرى تشير إلى مثل هذا ، من ذلك ما أخرجه مسلم والترمذى والنسائى عن أبى سعيد عن معاوية رضى الله عنه :

« خرج رسول الله ﷺ على حلقة من أصحابه فقال : « ما أجلسكم » ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومَنَّ به علينا » .

ومن ذلك ما أخرج الطبرانى فى الكبير بإسناد حسن عن رسول الله ﷺ قال : « ليبعثن الله أقواماً يوم القيامة فى وجوههم النور على منابر اللؤلؤ يغبطهم الناس ، ليسوا بأنبياء ولا شهداء » . قال : فجثا أعرابى على ركبتيه ، فقال : يا رسول الله ، صفهم لنا نعرفهم . قال : « هم المتحابون فى الله من قبائل شتَّى وبلاد شتَّى يجتمعون على ذكر الله يذكرونه » .

من مثل هذه النصوص ، انطلق الصوفية فى الإلحاح على حلقات الذكر ، فقاسوا على هذه الأصول ثم توسعوا فى ذلك توسعات فى اعتماد أنواع الأذكار على طرائق شتَّى ، نظموا من أجلها أنواعاً من حلقات الذكر حتى أصبح لكل شيخ طريقة ، طريقته الخاصة به فى الذكر الذى يجتمع عليه اخوانه ، ودمج بعضهم مع الذكر الإنشاد وتفننوا فى أنماط الذكر الإنشادى على جلوس وقيام وحركات وتحركات ، وحدث نتيجة لذلك إنكار كثير وخلافات كثيرة ومناقشات طويلة . وهذا كله سببه عدم التقيد فى الحدود الواضحة الدليل . وقد جعل الأستاذ البنا رحمه الله الاجتماع اليومى على الذكر جزءاً من أدب المسلم . وجمع لذلك ورد الوظيفة الكبرى واختصره بالوظيفة الصغرى ، ومع أنه ورد مسنون إلا أنَّ بعضهم أنكر عليه الجمع والاجتماع وهو إنكار جاهل . ولقد قلت مرة لأحدهم : افرض أنَّ صحابياً كان يلازم رسول الله ﷺ وكان يسمع منه ما يندب إليه عليه الصلاة والسلام من أوراد الصباح والمساء . ثم إنَّ هذا الصحابى التزم بها جميعاً جامعاً إياها بعضها إلى بعض ، فهل يكون بذلك آثماً ؟

وأضيف : لو أنَّ مجموعة من الصحابة دعا لهم أحدهم بمثل هذا كله ، أو طلبوا منه مثل ذلك ، فهل يكونون آثمين بعد أن حض رسول الله ﷺ على أصل الذكر وعلى أصل الاجتماع ؟

وعلى كل حال فأن يرتب الشيخ جلسة ذكر فى الأسبوع مرة أو أكثر من ذلك أو جلسة يومية على حسب الاستعداد واحتياج السائرين ، فإنَّ فى ذلك كله خيراً كثيراً . ولذلك دليله الأصيل من قول رسول الله ﷺ خاصة ونحن فى عصر طغت المادة فيه على الروح وأصبح ظمأ القلب كبيراً .

ونحن موقفنا من حلقات الذكر التى اعتادها بعض الصوفية بكل ما فيها موقف الفقهاء . ويبدو أنَّ الفقهاء لم يرتاحوا للكثير مما حدث فى هذه الدوائر واختلفت عباراتهم فى الشدة واللين . ولن نسمح لأنفسنا أن ندخل معركة مع أحد لفعله وجه فقهى ، إلا أننا فى الوقت نفسه نحب أن يكون منطلقنا فى شأننا كله : السُنَّة .

وعلى هذا .. فنحن نعمل لتأسيس حلقات الذكر التى لا يعترض عليها فقيه ، وندعو الناس إليها ، ولا ندخل فى معركة مع أحد لتصرفه وجه فقهى ، ولكن نشرح له وجهة نظرنا دون الدخول معه فى نقاش نصل به معه إلى المراء المذموم ، ولقد ارتاح الكثيرون من علماء بلادنا لنوع من حلقات الذكر سموها مجالس الصلاة على رسول الله ﷺ يجتمع الناس فيها وهم ساكتون ، يصلى كل منهم على رسول الله ﷺ بشكل منفرد ، ثم بعد ذلك يقرأون شيئاً من القرآن ، ثم يذكرون الله عَزَّ وجَلَّ بصيغة : «لا إلٰه إلَّا الله»، ثم يختمون بدعاء ، وبعضهم يفعل ذلك صبيحة يوم الجمعة ، وبعضهم يفعله فى غير ذلك ، وبعضهم زاد على ذلك ، وبعضهم أدخل معانى جعلته محل الإنكار . وعلى كل الأحوال فنحن بحاجة إلى حلقات ذكر مقبولة فقهاً وعلماً لها أدلتها الواضحة أو أنها سائرة على أصول واضحة ...

وهناك الاجتماع على مذاكرة بين اثنين أو أكثر يتذاكرون فيها فيما يقرِّبهم إلى الله ، والأصل فى ذلك حديث ابن رواحة أنه كان إذا لقى الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال : تعال نؤمن بربنا ساعة . وفى ذلك يقول عليه الصلاة والسلام : « يرحم الله ابن رواحة ، إنه يحب المجالس التى تتباهى فيها الملائكة » [١] .

والمذاكرة تكون بين أخوين فى الله ، وتكون بين الشيخ وسالك إلى الله ، ومواضيعها لا يمكن إحصاؤها ، والاجتماع الإسلامى كله سواء أكان اجتماع

---

(١) رواه أحمد .

صلاة أو اجتماع خطبة وعظة أو اجتماعاً على العلم أو الذكر أو المذاكرة كله ينشّط الإنسان نحو السير إلى الله إذا كان الأمر مستقيماً فيه .

ولذلك كره الصحابة أن يعتزل الإنسان الناس إلى صحراء وما يشبهها إلا فى حالات خاصة جداً لما يترتب على ذلك من بُعد عن خير أو غلظة فى طبع . وفى الحديث : « من بدا جفا ... » [(١)] .

وعلى الشيخ أن يلاحظ فى ترتيبه أمر الاجتماعات وضع الناس وأحوال السائرين وتأثير ذلك على واجباتهم الدينية وأعمالهم الدنيوية ، وأن يلاحظ الرفق فى الشأن كله فذلك أدب المسلم : « إنّ الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله » [(٢)] ، « إنّ الله رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف وما لا يعطى على سواه » [(٣)] ، « إنّ الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه ولا ينُزع من شىء إلا شانه » [(٤)] . « ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً » [(٥)] .

قبل أن ننتقل عن هذا فلنذكر شيئين :

الأول : أنّ من علامة صلاح جلسة العلم أو الذكر أو المذاكرة أن يخرج الإنسان منها وهو أحسن حالاً وأرقى إيماناً ، ولكن هذا لا يحس به إلا ذو قلب سليم ، أما القلب المريض فلا عبرة لمشاعره ما دام مريضاً .

الثانى : ذكرنا الاجتماع فى هذا الباب كمنشّط للسير وهو أمر محسوس فليجرِّب الواحد منا مثلاً نفسه وهى على فترة وغفلة ، أى إذا كانت أوراده القرآنية وغيرها غير منتظمة أو أنّ نفسه عازفة عنها ، ليجرب مثل هذا الإنسان أن يحضر جلسة ذِكر أو علم أو مذاكرة مع صالح ، ثم ليلاحظ بعد ذلك إقبال نفسه على الله ، إنه من المجرَّب أنّ إقباله يكون أكثر ، بل إنّ كثيرين يكاد

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وحسنه والنسائى . (٢) متفق عليه .
(٣) رواه مسلم . (٤) رواه مسلم . (٥) متفق عليه .

يكون الاجتماع فى حقهم نقطة انطلاق جديدة - ولعل هذا أحد أسرار فريضة صلاة الجمعة وخطبتها - ولذلك فإنه من الأهمية بمكان للمسلم فى الأوضاع العادية أن يكون له صلة بحلقات علم وذكر ، وصلة بجلسات مذاكرة مع صالحين، وعلى شيوخ المسلمين أن يلاحظوا ذلك .

*　*

ثانياً - الإنشاد :

عُرف الحداء فى حياة رسول الله ﷺ ، فقد حدا بعض الصحابة أثناء العمل وحدا بعضهم أثناء السير . وشارك رسول الله ﷺ أحياناً فى الحداء . وقال الصحابة الشعر وكان قسم من هذا الشعر يُنشد ، تنشده الجوارى أو ينشده الرجال أثناء سير أو عمل . ومن المألوف عند العرب أن يتغنوا بالشعر ومن قولهم : « تغن بالشعر إما أنت قائله »

إلا أنَّ السماع الأغلب للصحابة رضوان الله عنهم - إن لم يكن الدائم - هو القرآن الكريم ، وسماع الشعر إلقاءً أو إنشاداً كان موجوداً ولكن إما فى مناسبة أو فى وقت راحة أو فى وقت فرح أو عرس . وفى الحديث الذى ذكره ابن كثير عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ألفيَنّ أحدكم يضع إحدى رجليه على الأخرى يتغنى ويدع سورة البقرة يقرأها ، فإنَّ الشيطان ينفر من البيت تُقرأ فيه سورة البقرة ، وإن أصفر البيوت الجوف الصفر من كتاب الله » [1] .

إنَّ هذا يؤكد أنَّ الأصل فى السماع فى حياة الصحابة هو القرآن .

والشعر له محله ولكن هو كالملح فى الطعام فى حياتهم ، أما الإنشاد فإنه له محله كذلك عندهم ولكنه قليل فى هذه الحياة الحافلة بجلائل الأمور .

وهذه أول نقطة تؤخذ على بعض الصوفية هى أن الإنشاد والتمتع بالصوت الميل أخذ حظاً كبيراً من حياتهم أكثر بما لا يقاس عما كان فى حياة الصحابة رضوان الله عليهم .

---

(١) أخرجه ابن مردوديه والنسائى فى « عمل اليوم والليلة » .

وفى حياة الصحابة نجد شعرهم يملأ حياتهم اليومية سواء فى ذلك صراعهم مع الكفر أو فى تعبيرهم عن أشواقهم ، فهو يغطى الحياة الإسلامية كلها فهو يحرك مجموعة المشاعر الإسلامية ، فهو تارة يحرك مشاعر جهاد ، وتارة يعبّر عن مشاعر حنين لوطن ، وتارة هو تعبير عن عزة مسلم ، وتارة هو رثاء حار ، وتارة هو توجه إلى الله .

وكثير من الصوفية حصروا دوائر الإنشاد بنوع من المعانى التى تحرك بعض العواطف الصالحة ولكن لا تحرك كل العواطف التى ينبغى أن تتحرك عند المسلم . والحركة الإسلامية عوّضت هذا النقص ولكنها أهملت تحريك عواطف الحب الإلهى والوجد الروحى وغير ذلك ، مع أنَّ هذا كله كان للأستاذ البنا فيه دور، وكان يفعله الأستاذ أحياناً كما حدّثنا بذلك مَن سمعه من الأستاذ رحمه الله، وهذه نقطة تسجل على كل حال .

وفى شعر العرب وغير العرب إجمالاً للرمز ، وللمجاز والكناية محل ، فقد يعبرون عن المعنى بأسلوب حسى ، وقد يستشهدون ببيت وُضِعَ فى الأصل لخطاب جهة فيخاطبون به جهة أخرى . وعند العرب أساليب كثيرة فى الخطاب والتخيل، فقد يخاطبون الميت وكأنهم يتصورونه حياً ، ويخاطبون الجماد وكأنه يعقل ، وكل ذلك موجود فى شعرهم . ومن شعر العصر النبوى قول زيد الخير وهو على فراش الموت بعيداً عن رسول الله ﷺ وهو يتشوق إلى رسول الله ﷺ :

فليت اللواتى عدننى لم يعدننى　　　وليت اللواتى غبن عنى عُوَّدى

وقال كعب بن زهير لأخيه بجير :

سقاك بها المأمون كأساً روية　　　فأنهلك المأمون منها وعلّكا

فههنا شبه الهداية التى أخذها بجير بخمرة تُشرب ، وشبه رسول الله ﷺ بالساقى ، وهذا كله جزء من طريقة العرب فى الخطاب .

والصوفية انطلاقاً من هذه المعانى انطلقوا بالتعبير عن المعنويات بشكل

حسى فاستعملوا لفظ الخمرة للتعبير عن معان ، واستعملوا لفظ السُكر عن معان ، ثم توسعوا وتوسعوا حتى كثر الإنكار عليهم من جاهل وعليم ، واتُهموا نتيجة للتوسعات بالشرك وبالكفر . وحدثت نتيجة لذلك مناقشات طويلة فى شئون كثيرة.

ولا شك أنَّ سعة اللغة العربية وطرق الأداء فيها تساعد الكثيرين على أن يتملصوا من أى ممسك يأخذه الحرفيون ، ولا شك أنَّ الحرفية فى قضايا الأدب والعاطفة ليست هى الطريقة المثلى فى الفهم . وهناك الحد الذى يقبله العليم ولا ينكره الحرفى ولا يؤدى بالعامى إلى أن يفهم مفاهيم خاطئة . هذا الحد هو الذى ينبغى البحث عنه وتبنيه ونشره واعتماده ...

وقد لحظ الصوفية ملحظاً وهم يعتمدون النشيد وهو أنَّ النفس إذا عرضت عليها الحق من حيث تستروح فإن قبولها للحق يكون أجود ، ومن ثَمَّ اعتبروا الإنشاد فى حق المبتدىء بمثابة مراعاة له ، إذ من خلال ألفة نفسه للصوت الحسن يمكن أن يتشرب بعض المعانى من الحق . كما لحظوا أنَّ النشيد بمثابة الميزان الذى يزن به الإنسان مقدار ما عنده من معان كالحب لله ورسوله وغير ذلك من معان عليا ، وقد حاولوا أن يصوغوا السير إلى الله كله شعراً ، ومن خلال السماع لهذا الشعر يعرف الإنسان مقامه ، وتتحرك همته لما هو أعلى . ولا شك أنَّ للغناء وللشعر آثاراً فى تشكيل عواطف الإنسان . وقد نجح الصوفية فى تقوية كثير من العواطف من خلال النشيد وفاتهم بعض ...

وكان للصوفية دور كبير فى أن استطاعوا أن يوجدوا نوعاً من البديل لأمور فاسقة ، ولذلك فمما استقر عليه أمر الناس فى العصور المتأخرة أنَّ أهل الفسوق يجتمعون فى أفراحهم وأنسهم ومتعهم على غناء وموسيقى ، وأن أهل الخير « الإنشاد » و « السماع » عندهم هو البديل من ذلك كله ، وقد شجع رسول الله ﷺ الإنشاد فى الأعراس مراعاة لنفسية الأنصار مما يصلح أن يكون أصلاً فى هذا الموضوع .

وعبر مسيرة التاريخ الإسلامى علق بالإنشاد أمور كثيرة ، واعتمد الكثيرون فيه معانى ، وصار لأهل كل طريق ولأهل كل بلد أسلوب نشيد أو عادات

مرتبطة بالنشيد ، بل أصبح لكل طريق نوع من النشيد هو عَلَمٌ عليهم ، وحدث خلال ذلك صراع طويل بين الفقهاء وأهل هذه الدوائر حول معان تقال أو عادات توجد . وورث أهل عصرنا هذا كله ، وككثير من الخير الذى ورثناه فإنَّ الدَخَن يخالطه ، وارتبط بموضوع الإنشاد قضية الاحتفال بمولد رسول الله ﷺ ووقف الناس فى هذا الموضوع موقفين : موقفاً متشدداً منكراً على الناس اجتماعهم من أجل الأحتفال بمثل هذا ، وموقفاً محبِّذاً ، وقامت معركة طويلة ولا زالت تقوم حتى الآن بسبب من ذلك .

ولو أنك حللْت قضية المولد فإنك تجدها ترجع إما إلى سرد فقرات من السيرة أو إنشاد بيت من الشعر فى شأن رسول الله ﷺ ، وهذا إن سلم مما يُنكر عليه لأسباب علمية فلا حرج فيه ، وحتى ابن تيمية رحمه الله فطن إلى ما يترتب على الاجتماع على المولد من معان طيبة يستحق الناس بسببها أجراً ، وحتى ابن الحاج فى المدخل وهو من أشد الناس على البدع اعتبر أنَّ للمسلمين عيداً ثالثاً لمحت له النصوص هو عيد المولد أخذاً من قوله عليه الصلاة والسلام : « ذلك يوم فيه ولدتُ » [(١)] . والواقع العملى يشهد أنَّ لاحتفال المسلمين بمولد الرسول ﷺ من البركات فى التذكير وفى التوبة وفى التعليم ما لا تحصى آثاره ، والأستاذ البنا يعتبر من مهمات الحركة الإسلامية إحياء المناسبات الإسلامية وتذكير الناس بها ، ومن ثَمَّ فإنه يكاد يكون من البديهيات فى فقه الدعوة الإسلامية المعاصرة أن تعطى قضية المولد النبوى والاحتفال به على طريقة مدروسة علمية مقبولة فقهاً أهمية خاصة ...

بعد هذا كله أصبح بإمكاننا أن نقول :

(أ) إنَّ الإنشاد فى فقه الدعوة الإسلامية المعاصرة شىء له محله ، على أنه يبقى كالدواء وفى حدود ضيقة كالملح للطعام .

(ب) إنه لا بد من اختيار دقيق لما يُنشد فى حلقاتنا ودوائرنا بحيث يغطى مجموعة العواطف الإسلامية ولا يخرج عن الكلام المرضى عند الفقيه ، وهذا

---

(١) من حديث رواه مسلم .

يقتضى أن يتدخل الفقيه فى اختيار الشعر للمنشد وألا نسمح للمنشد أن يقول ما شاء فى دوائرنا .

(جـ) أن الإنشاد إذا روعى فيه هذه المعانى ولم يؤثر وجوده على واجب وقت أو أدبه فإنه يكون مهيجاً على السير إلى الله بكل لوازم السير من رغبة فى الكمال إلى حض على الجهاد إلى تثبيت على الطريق إلى تهييج على العمل إلى تأكيد للصراع مع الكفر وهى قضايا محسة لا ينكرها إلا إنسان ضيق الأفق .

(د) أن نتخير للمناسبات الإسلامية أنواعاً من الشعر يلاحَظ فيه المعنى والأداء على أن يكون جزءاً من برنامج كلى يحقق أهدافاً قريبة أو بعيدة ...

ضمن هذا الإطار كله نفهم قضية الإنشاد ، وعلى ضوء ذلك اعتبرناه من منشطات السير إلى الله .

أما ما سوى ذلك فإنّ لنا عليه ملاحظات : فمثلاً إن الإكثار من السماع والاسترواح للصوت الحسن - وإن كان نشيداً - يوجد عند أصحابه استرخاء نفسى ، هذا الاسترخاء النفسى قد يتسبب عنه إهمال للواجبات أو استعداد للوقوع فى الشهوات . فالسماع أحياناً يكون غذاءً للقلب وأحياناً يكون غذاءً للنفس ولذلك قال صاحب المباحث الأصلية :

وإنما أبيــح للزهّــاد	وندبه إلى الشـــيوخ باد
وهو على العوام كالحرام	عند الشيوخ الجلّة الأعلام

وكان بعض الشيوخ لا يرى فى السماع بأساً ، ولكنه يخشى أن يؤثر على نفوس سامعيه من حيث يوجد عندهم استرخاءً عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وكان بعض الشيوخ يخشى من زلّة الإنسان فى السماع كأن يحمل معنى يليق بالشيوخ ولا يليق برسول الله ﷺ على رسول الله ، أو كأن يحمل معنى لا يليق بالله على الله ، وهذا كله لا بد أن يُلاحَظ . ولنا أكثر من عودة على موضوع الإنشاد فلنكتف ههنا بذلك ولنذكر المنشط الثالث من منشطات السير وهو المطالعة فى كتب السير إلى الله وقصص السائرين .

* *

ثالثاً – المطالعة فى كتب السير إلى الله وقصص الصالحين :

هناك بعض أئمة الصوفية أجمعت الأمة على قبولهم مثل الجنيد رحمه الله ومثل الشيخ عبد القادر الجيلانى رحمه الله . إنَّ الشيخ الجيلانى رحمه الله أجمعت الأمة على قبوله حتى ابن تيمية رحمه الله يقول : إنَّ كراماته منقولة إلينا تواتراً .

أمثال هؤلاء الأئمة إذا قرأ الإنسان لهم يفطن لقضايا فى السير فتتحرك بذلك همته ، وهناك أئمة قبلتهم أكثرية الأمة وناقشهم بعضها فى بعض الأمور كحجة الإسلام الغزالى رحمه الله الذى يقول عنه العقاد : إنَّ العالم كله شرقه وغربه لم يعرف مثله مفكراً ، وكابن القيم رحمه الله وكل من هذين الاثنين كتب فى الذروة فى بعض أمور السير إلى الله ، والعليم البصير فى دين الله لا يفوته أن يدرك مواطن النقد الصحيح ، وليس من أحد معصوماً إلا رسول الله ﷺ ، إنَّ المطالعة فى كتب هؤلاء العلماء الفقهاء الذين تكلموا فى أمر السير إلى الله تحرِّك الهمة نحو الله بشكل عجيب ، وهذا شىء محس واضح يستطيع كل إنسان أن يدركه من خلال التجربة . ليحاول أحدنا أن يمسك الجزء الأول من الإحياء مثلاً وليقرأ كتاب تلاوة القرآن فيه ثم ليجرب أن يقرأ القرآن بعد ذلك . إنه لا شك سيجد أن حضور قلبه مع القرآن قد اختلف عما كان قبل ذلك ، وقُلْ مثل ذلك فى كل بحث بحثه الغزالى رحمه الله فإنك عندما تقرأه تجد نفسك قد انتقلت إلى وضع أكمل .

إن المطالعة فى كتب السير إلى الله تهيج على السير إلى الله وتساعد على الكمال فيه ، ومن ثَمَّ فإنَّ السائر إلى الله ينبغى أن يكون له حظ من ذلك ، ولا شك أنَّ من أمهات كتب السير إلى الله « الرسالة القشيرية » ، و « إحياء علوم الدين » ، فليحاول المسلم أن يكون لهذين الكتابين حظ من دراسته ، مع ملاحظة أنه لا عصمة إلا لله ولكتابه ولرسوله ﷺ ، وكما يساعد على السير وينشط له ويهيج عليه ويبعث إليه مطالعة كتب السير إلى الله ، فكذلك قراءة قصص السائرين إلى الله فإنَّ فعلها فى رفع الهمة يكاد يكون منقطع النظير ، وإنَّ كتاب « صفة الصفوة » أو « حلية الأولياء » من ذلك لزاداً كبيراً للسالك ، ولنا ههنا ملاحظات :

١ - أنَّ أكثر كتب التصوف لا يرتاح لكثير من عباراتها الفقيه ، ومن ثَمَّ فلا بد أن يكون الإنسان دقيقاً فيتخيَّر إذ يقرأ وإذا قرأ أن يدقق .

٢ - أنَّ بعض الكتب التى عرضت قصص الصالحين دخل فيها من الانحراف ما لا يستقيم مع عقل ولا شرع مما ننزه القلم عن ذكره وننزه العلماء المنسوبة إليهم هذه الكتب أن يكونوا ذكروا مثل هذا الكلام فعلينا أن ننتبه لذلك .

٣ - أنَّ كثيرين أوغلوا فى دراسة كتب السير إلى الله وقراءة كتب الصالحين حتى نسوا الكتاب والسُّنَّة وسيرة رسول الله ﷺ ، وحياة الصحابة . ولذلك فلا بد أن نعطى هذا الموضوع محله إذ لا يجوز أن تكون أى دراسة على حساب الإهمال للكتاب والسُّنَّة والسيرة وحياة الصحابة ، ولنكتف بهذا القدر ..

عرضنا فى هذه الفقرات الثلاث الماضية لثلاثة منشطات فى موضوع السير إلى الله ، وعرضنا بعض ما يؤخذ على الموجود من بعضها ليكون المسلم على بصيرة فى الأخذ ، وقد يكون من المناسب أن نختم هذا الباب بمقترحات عملية فى هذا الشأن تكون بين يدى الدعاة إلى الله والشيوخ والمسلمين لها صلة بموضوع هذا الباب :

١ - إننى أتمنى أن تقام فى كل مسجد الحلقات المتعددة - حلقات الذكر وحلقات العلم - وأن يكون للإنشاد دوره فى ذيل بعض الحلقات .

٢ - إن هناك حلقات تحتاج إقامتها إلى شروط كثيرة ، وهناك حلقات لا يتطلب إنشاؤها مثل هذه الشروط ، فعلينا أن نبذل أقصى جهد لإنشاء الحلقات على ضوء ما يتوافر لدينا .

٣ - بالإمكان إنشاء الجلسات التالية فى كل مسجد :

(أ) جلسة ذِكر ، جلسة صلاة على رسول الله ﷺ - ويمكن أن تدمج الجلستان فتكون الجلسة على الشكل التالى : تبدأ الجلسة مثلاً بعد صلاة الصبح يوم الجمعة أو بعد صلاة الظهر أو بعد صلاة العصر من يوم الجمعة أو فى يوم

آخر ، يبدأ الحاضرون بشكل منفرد وسرِّى يُصلُّون على رسول الله ﷺ بالصيغة التى يرتاحون لها ، والصيغة التى تحقق تنفيذ الحد الأدنى من الأمر بالصلاة عليه هى قولنا : « اللّهم صَلِّ على محمد وآله وسلّم » ويمكن اعتماد زمن بعينه كثلث ساعة مثلاً أو عدد بعينه بحيث لا يرهق الحاضرين ، ثم بعد ذلك يبدأ ذكر ونحن جلوس كقولنا : « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر » حوالى مائة مرة ، ثم يمكن أن يكون بعد ذلك شىء من الإنشاد المنتقى شعره ، ثم نختم الجلسة بشىء من قراءة القرآن . ويمكن حذف فقرة الإنشاد إذا لم تتوافر شروطها ، والمهم فى الجلسة ألا تكون طويلة وألا يكون فيها ما يمكن أن يُشكِّل مأخذاً لفقيه .

(ب) جلسة قرآنية : كأن يجلس الناس فى المسجد بعد صلاة ما ، ثم توزع عليهم أجزاء القرآن بحيث يقرأ كل منهم جزءاً بما يغطى ختمة أو ختمتين أو أكثر أو أقل على حسب العدد ، وبعد أن يقرأ كل منهم جزأه - والأحسن ملاحظة زمن محدَّد - يقرأ بعضهم قراءة جهرية مرتَّلة ، ثم يكون درس خفيف بعد ذلك كقراءة بعض الأحاديث النبوية من كتاب ككتاب « رياض الصالحين » أو قراءة فقرة من السيرة ، ثم يكون دعاء وانصراف .

(جـ) ويمكن أن تُرتَّب بعض الجلسات بحيث يجتمع فيها ذكر وعلم وإنشاد ، كأن تبدأ الجلسة بذكر : « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاَّ الله والله أكبر » مائة مرة ، ثم يكون درس وعظ ، ثم يكون شىء من الإنشاد ، ثم يكون شىء من تلاوة القرآن ودعاء وانصراف ، ويمكن أن تقدَّم بعض الفقرات على بعض .

(د) تتولى لجنة فى كل مسجد أمر متابعة قضية الحلقات العلمية العامة والخاصة بحيث يكون فى كل مسجد سير نحو التحقق بفروض العين ، وإيجاد مختصين بما يغطى فروض الكفايات الدينية فى المنطقة ، وإذا لم تتوافر فى مسجد بعض المعانى من وجود شيخ يدير أمر بعض الحلقات أو وجود مَن يعطى

بعض العلوم فإنّ أهل المسجد عليهم أن يبحثوا عمن يساعدهم فى ذلك وعلى الآخرين أن يفعلوا . إنك ترى المسلمين يحرصون على تأليف اللجان لإصلاح بناء المسجد أو إنشاء مساجد دون أن يفعلوا الشيء نفسه لعمارة المسجد بما من أجله وُجِدَ المسجد وهو وضع ينبغى أن يكمل نفسه . إنه ينبغى أن يقوم تنافس بين المساجد وأهلها على ترتيب عمارة المساجد حساً ومعنى .

(هـ) تتولى لجنة فى المسجد - متبرعة أو منتخبة أو مختارة - أمر إحياء المناسبات الإسلامية كإحياء مناسبة المولد والترتيب لها بحيث تعطى مردوداً كبيراً فى تفهم سيرة رسول الله ﷺ وفى تذكير المسلمين بإسلامهم وفى ربطهم بالمسجد ، وكإحياء مناسبات الهجرة ومناسبات إنقاذ القدس من الصليبيين فى (٢٧ رجب) وهو اليوم الذى يحتفل فيه المسلمون بحادثة الإسراء والمعراج ، وكتذكير المسلمين فى المواسم : موسم رمضان وموسم الحج ، والتذكير بحق العشر الأوائل من ذى الحجة .

(و) وإنّ كثيراً من هذه الأشياء يمكن ترتيبها وإقامتها فى البيوت زيادة على المسجد ، كما أنّ التحضير لشئون إحياء المساجد يمكن أن يتم فى البيوت . إننا لو استطعنا أن تُوجِد مثل هذه الأجواء فى المساجد والبيوت نكون قد هيأنا الفرص لكل مسلم من أجل أن يسير إلى الله نوع سير بتوفير كل الشروط الجاذبة إلى السير أو الحاضة عليه أو المنشطة له ، وهذا يقتضى من كل مسلم مهما كان وضعه وكانت مشاغله أن يبذل جهداً فى هذا السبيل بالمشاركة والدعوة والحضور والتشجيع على ذلك بنفسه وماله ولسانه .

* * *

الباب الثالث عشر

في الصحة القلبية والنفسية
ومحلها من دوائر التكليف

يقول ابن عطاء في قضية الوصول إلى الله عَزَّ وجَلَّ : « وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به » هذا هو الوصول : أن تعرف الله عَزَّ وجَلَّ حق المعرفة ، معرفة يأخذ العقل حظه منها والقلب حظه منها والروح حظها منها دون أن يرافق ذلك تجسيم أو تشبيه أو ممارسة أو اتصال أو حلول أو اتحاد ، معرفة يشهد فيها الإنسان قُربه من الله عَزَّ وجَلَّ وقُرب الله منه . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [1] ، فإذا عرفتَ الله عَزَّ وجَلَّ حق المعرفة ، معرفة يجتمع لك فيها التسليم العقلى والذوق القلبى ، فقد وصلت وذلك لا يتم بلا سلوك طريق ذلك .

وإذا تم ذلك فلذلك ثمراته الكثيرة إذ كل خير إنما هو انبثاق عن هذه المعرفة ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ * تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [2] . فثمرات المعرفة الحقيقية لله عز وجل شىء لا يُستطاع إحصاؤه ومن أول ذلك التحقق بمقام العبودية لله وذلك أعلى المقامات على الإطلاق . والعبودية كاسمها تقتضى طاعة ظاهرة وباطنة لله فى كل شىء ..

إنَّ الوصول إلى الله يعنى معرفته جَلَّ جلاله ، معرفة أنه موجود ، ومعرفة صفاته ، صفات الجلال والجمال ، وصفات الوجود من علم وقُدرة وإرادة وحياة

---

(١) البقرة : ١٨٦ (٢) إبراهيم : ٢٤ - ٢٥

وسمع وبصر وكلام . وصفات السلب التى تنفى بها عن الله عَزَّ وجَلَّ ما لا يليق بذاته ومعرفة أسمائه ومعرفة أفعاله ، وأن يتملى القلب ذلك كله وأن يستشعره ذوقاً وذلك معنى زائد على مجرد المعرفة العقلية ولكن المعرفة العقلية هى المقدمة العادية لذلك ، ومما يدخل فى المعرفة لله عَزَّ وجَلَّ معرفة معانى النصوص المتشابهة وحملها على محاملها الصحيحة وتذوق ذلك ، فالسالكون لهم أذواقهم لهذه النصوص مع التنزيه بما لا يتحسس جزءاً منه غيرهم . وفى هذه المقامات ضَلَّ كثير وغوى كثير وضاقت عبارات الكثيرين وفُهمت عبارات الكثيرين على غير مرادهم . ومَن فتح الله له فى هذه الشئون باب الفهم والذوق على مقتضى العلم استطاع أن يفهم الخطأ من الصواب واستطاع أن يميِّز بين ما يجب رده من هذه العبارات وبين المحامل الصحيحة لهذه العبارات ، وكثيراً ما يحدث أن نجد إنساناً يحمل على كلمة بأنها كفر مع أن لها محملاً صحيحاً ، وكثيراً ما نجد إنساناً يدافع عن كلمة وليس لها وجه.وإنما هى البدعة أو الكفر أو الضلال ، والقليل القليل من خلق الله هم الذين يضعون الأمور فى مواضعها ويصلون إلى حالة تكون معرفتهم بها فى الله كاملة حتى إذا تكلموا فى ذلك تكلموا عن حق وعلم . قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (١) .

إنَّ تذوق السالكين لمعنى اسم الله «الأول» ولمعنى اسم الله «الظاهر» واسمه «الباطن» ولمعنى اسمه «الصمد» ولمعنى اسمه «القريب» ، ولغير ذلك من أسماء الله عَزَّ وجَلَّ تذوق أعمق بكثير من أى تذوق عقلى ، والذين يتكلمون فى هذه المعانى يفطنون لأمور لا يفطن لها غيرهم ويعبِّرون عنها تعبيراً لا يستطيعه غيرهم ، وأقصد بذلك المحققين من هؤلاء والمدققين ومَن عبارته مقيَّدة بالعلم والنصوص . أما الذين حرَّفوا وبدَّلوا فهؤلاء ليسوا هم المقصودين فى هذا المقام ، ولعل من أول ثمرات المعرفة التمكن من التعبير العالى

---

(١) الصافات : ١٥٩ - ١٦٠.

والصافى . وفى ذلك يقول ابن عطاء : « تسبق أنوار الحكماء أقوالهم ، فحيث صار التنوير وصل التعبير ، كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذى منه برز ، من أُذِنَ له فى التعبير فُهِمت فى مسامع الخلق عبارته ، وجليت لهم إشارته ، ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار إذا لم يؤذن لك فيها بالإظهار ، عباراتهم إما لفيضان وجد أو لقصد هداية مريد . فالأول حال السالكين والثانى حال أرباب المكنة والتحقيق ، والعبارة قوت لعائلة المستمعين » .

فأول ثمرات الوصول الكاملة إلى الله القُدرة على التعبير الصحيح عن الذات الإلهية والدلالة الصحيحة عليها . وانظر مثل هذه العبارات لترى بوضوح حقيقة هذه الثمرة . قال ابن عطاء : « أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكوِّن فإذا شهدته كانت الأكوان معك » .

لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البَشرية ، إنما مثل الخصوصية كإشراق شمس النهار ظهرت فى الأفق وليست منه ، تارة تشرق شموس أوصافه على ليل وجودك ، وتارة يقبض ذلك عنك فيردك إلى حدودك ، فالنهار ليس منك إليك ولكنه وارد عليك . دَلَّ بوجود آثاره على وجود أسمائه ، وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه ، وبوجود أوصافه على وجود ذاته ، إذ محال أن يقوم الوصف بذاته » .

إنَّ الوصول إلى الله هو المظهر الأعلى للصحة القلبية والنفسية فى الإسلام وهى العلامة الرئيسية على هذه الصحة . ولكن هذا الوصول يتفرع عنه أمور كثيرة هى كلها علامات على صحة القلب والنفس ، ولذلك فنحن سنعرض قضية علامات الصحة القلبية والنفسية بحيث نتفهم هذه العلامات بشكل أوضح وأعمق فنقول :

شرحنا من قبل كيف أنَّ لكل عبادة حكمتها وأنوارها ، وأنَّ المسلم عليه أن يعمل كما أمر وأن يحقق الحكمة التى من أجلها كان الأمر . وههنا نحب أن نكمل تسلسل هذا الشأن . إنَّ تنفيذ الأمر وتحقيق الحكمة من الأمر يترتب عليه آثار فى القلب والنفس . هذه الآثار مهمتها تكميل الذات والارتقاء بالتحقق بالكمالات العليا لها ، فالحكمة فى الأمر فى النهاية هى تكميل الذات

وتحقيقها بأرقى المقامات . وأرقى المقامات التحقق بأسماء الله عَزّ وجَلّ مع العبودية الكاملة له ، فالله عَزّ وجَلّ متصف بالصفات العليا وله الأسماء الحسنى مع الربوبية . ونحن كمالنا أن نأخذ من كل اسم من أسماء الله تعالى التى كلفنا بالتحقق بها ولكن مع العبودية . وحجة الإسلام الغزالى حاول فى كتابه : « المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » أن يبيّن ما يمكن أن يأخذه العبد من كل اسم من هذه الأسماء . فاسم الله «المؤمن» واسمه «الكريم» واسمه «التواب» واسمه «الشكور» واسمه «الصبور» .. كل ذلك يمكن أن يأخذ المؤمن حظه منه وهكذا ...

فالمسلم كما أنّ عليه أن يعمل عليه أن يلاحظ الحكمة من العمل ، وعليه أن يتابع تكميل ذاته كهدف للعمل ، وكثيرون من الناس يبقون في الدائرة الأولى على ضعف فيها دون أن ينتقلوا إلى الدائرتين الأخيرتين . وبعضهم قد قفز إلى الدائرة الثانية ولكن لا ينتقل إلى الدائرة الثالثة فضلاً عن دائرة أخرى رابعة سنراها .

وهذه نقطة : الغموض فيها علّة عدم التطلع إليها ولذلك فإنها تحتاج إلى وضوح تام فلنقف أكثر من وقفة حول بعض المعانى حتى يتضح هذا المقام ...

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا المُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ العَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَٰئِكَ فِى جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ [١].

---

(١) المعارج : ١٩ - ٣٥

لاحِظ أنَّ خلق الهلع الذى مظهره الجزع عند المصيبة والمنع عند النعمة لا يتخلص منه إنسان إلا إذا اجتمعت فيه مجموعة أمور ، الصلاة والإنفاق والتصديق باليوم الآخر والإشفاق من عذاب الله وحفظ الفروج والقيام بالشهادة صدقاً وعدلاً ، فمن اجتمعت له مجموعة الأمور هذه تخلص من مرض وتحقق بصحة ، ومن ثَمَّ فبشكل تلقائى متى تحقق إنسان بمجموع هذه المعانى انتفت عنده صفة الهلع ووجد عنده خلقا الصبر والكرم . فالتحقق بالصبر والكرم علامة إقامة هذه المعانى كلها ونحن مكلَّفون بمجموع هذا ، مكلَّفون بهذه الأعمال ومكلَّفون بالصبر وبالكرم ، وكما أن علىَّ كمسلم أن أبذل جهداً فى العمل لإقامة الصلاة فإنَّ علىَّ كذلك أن أحقق نفسى بالصبر والكرم من خلال مجاهدة النفس ومعرفة حدود الصبر والكرم . وتحقيقى بالصبر والكرم مظهر من مظاهر صحة القلب والنفس وعلامة على صحة طريقى ، ولكن الصبر والكرم يحتاجان إلى بذل جهد خاص فيهما ، فالله عَزَّ وجَلَّ قال : ﴿ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ ﴾ [1] ، فما من حالة إلا والشُّح حاضر عندها وعلى صاحبها أن يتغلب على شحه بمجاهدة نفسه وبسلوك الطريق الموصل إلى ذلك ، ولكن كم من الناس يبدأ تلك البداية وينتهى هذه النهاية .

لاحِظ الآن كم يترتب على الفشل فى الوصول إلى مقامى الصبر والكرم من آثار سيئة إنه ما لم يصبر الإنسان فإنه يكفر ، فالصبر إذن بدونه لا يكون إيمان وإذا لم يكن إيمان فلا شىء أبداً ، والشُّح متى وُجِد لم يعد بالإمكان إطلاقاً أن يكون هناك تعاون بين المسلمين على أمر ، بل تنعدم إمكانية العمل الجماعى أصلاً ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام : « إذا رأيتم شُحاً مطاعاً وهوىً متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بنفسك ودع عنك العوام ، من ورائكم أياماً الصبر فيهن مثل القبض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم ». قيل : يا رسول الله ، أجر خمسين منا أو منهم ؟ قال : « بل أجر خمسين منكم » [2] .

---

(١) النساء : ١٢٨

(٢) رواه أبو داود والترمذى ، وقال : حسن غريب .

لاحظ أنَّ الشُّح المطاع هو الحلقة الأولى التى إذا وُجِدَت فقد حَلَّ للإنسان أن يعتزل الناس لأنه لا فائدة من عمل جماعى أصلاً .

لاحظ من المثال المذكور كيف أنَّ هناك أمراً ، وحكمة من هذا الأمر ، وآثاراً نفسية تترتب على ذلك ، وكيف أننا مكلَّفون بهذا كله . فالدائرة الثالثة من هذه الدوائر هى التى نسميها الصحة النفسية والقلبية ، ولنضرب مثالاً آخر ..

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [1]

لاحظ من الآيتين أن اجتماع خصال الإيمان والتوبة والعبادة والحمد والسياحة التى هى الصوم أو الرحلة فى الله والركوع والسجود والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هى التى ينبثق عنها وجود بيع نفس ومال لله ، فلا جهاد كاملاً إلا إذا توافرت هذه المعانى كلها . وأنا كمسلم مطالَب بالتحقق بهذه الخصال ، ومطالَب بأن أبيع نفسى لله ، فلو أن إنساناً عمل بهذه ثم لم يبع نفسه وماله لله فإنه يكون قد قصَّر فى التكليف .

إنَّ هناك أعمالاً ينبثق عنها حال نفسى ، وعن هذه الحالة النفسية تنبثق أعمال وتصرفات ، فهذه دائرة رابعة تنبثق عن الصحة القلبية .

من المثالين السابقين ندرك أنَّ هناك أعمالاً تستتبع وجود حالة نفسية وقلبية ، وهذه الحالة نحن مطالَبون بها ، كما أننا مطالَبون بالطريق الموصلة لها ، كما أننا مطالَبون بالأعمال التى تنبثق عنها . هذه الحالة النفسية والقلبية التى نحن مطالَبون بها هى الوضع الصحى للنفس وللقلب . ووجودها هى علامة الصحة وعلامة على استقامة السير ، وكثير من المسلمين تغيب عنهم قضية الصحة

---

(١) التوبة ١١١ - ١١٢

النفسية والقلبية بكل أبعادها كما تغيب عنهم كثير من الأعمال الموصلة إليها أو التى تنبثق عنها وهى نقطة خطر . وحتى الآن لم يتضح الشىء الذى نريده فلنضرب أمثلة أخرى ..

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ (١) ، وقال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِيَ ﴾ (٢) ، فالصلاة من آثارها ترك الفحشاء والمنكر ، والهدف من إقامة الصلاة هو ذكر الله عزّ وجلّ على الطريقة التى اختارها الله لنا ، والذكر من آثاره فى القلب أن يعطيه اطمئناناً . قال تعالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (٣) ، فطمأنينة القلب هى الحالة الصحية له ونحن مطالَبون بالوصول إليها والطريق إلى ذلك هو الذكر ، ومن الذكر الصلاة ، ونحن مطالَبون بذلك . ومن آثار الصلاة العملية الانتهاء عن الفحشاء والمنكر ، ونحن مطالَبون بذلك . فالدوائر الثلاث بل الأربع إذن من جملتها الصحة القلبية والنفسية كلها مطالَبون بها وعلينا أن نحصلها علماً وعملاً ...

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٤) .

فالصيام فريضة ، وحكمة هذه الفريضة الوصول إلى التقوى . والتقى مَلَكة فى القلب ينبثق عنها سلوك معيَّن ، ونحن مطالَبون بالجميع ، وأحد أجزاء هذا الجميع هو الصحة القلبية والنفسية والروحية والعقلية التى ينبثق عنها سلوك معيَّن والتى تكون كأثر عن عمل معيَّن ، وفى دائرة من هذه الدوائر يقع أحياناً نوع القصور أو التقصير .

إذا اتضحت هذه الأمور فلنحاول أن نتحدث الآن عن معان من خلالها ندرك المراد من الصحة القلبية والنفسية والروحية بعد أن عرفنا محلها فى دوائر التكليف ...

---

(١) العنكبوت : ٤٥
(٢) طه : ١٤
(٣) الرعد : ٢٨
(٤) البقرة : ١٨٣

يلاحَظ أن القرآن قال عن النفس مرة : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ (١) وهي حالة مرضية للنفس ، وقال مرة : ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ (٢) وهي حالة أرقى للنفس إذ تلوم صاحبها على الشر إذا واقعه . وقال : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ (٣) ، فههنا حالة أرقى للنفس إذ أخذت حظها من الاطمئنان واليقين ، والملاحظ أن النفس المطمئنة هي التي يقال لها : ﴿ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ (٤) . فدل ذلك على أن النفس المطمئنة هي التي رضي الله عنها وسيرضيها . فالنفس المطمئنة إذن هي الحالة الصحية العليا للنفس . والطريق إلى هذه النفس المطمئنة هي ما قاله الله عزَّ وجَلَّ : ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ، أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (٥) . ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ (٦) . فالطريق إلى النفس المطمئنة الإنابة إلى الله والإيمان وكثرة الذكر ، ونحن مكلَّفون بذلك كله . فهذا نموذج على الصحة النفسية والقلبية وعلى الطريق الموصلة إليها ، ولنا الآن أن نسيح سياحة ثم نرجع إلى الموضوع الأصلي .

يتحدث الصوفية عن شيء اسمه حال ، وعن شيء اسمه مقام . ويعتبرون الحال هو مقدمة المقام ، فمثلاً أول ما يبدأ الإنسان يشتغل بالذكر يصل إلى طمأنينة مؤقتة للقلب لا تلبث أن تزول . فهذا حال ، فإذا تابع الإنسان الذكر وصل إلى طمأنينة دائمة للقلب فهذا مقام . ونحن مطالَبون في كل مظهر من مظاهر الصحة القلبية والنفسية أن نصل إلى المقام لنتمكن فيه ، ولكن كثيرين تغيب عنهم ماهية مقامات الصحة كما يغيب عنهم العمل من أجلها .

إننا مطالَبون بالحلم إلا إذا انتُهِكت حُرمات الله ، فعندئذ نحن مطالَبون بألا يقوم لغضبنا شيء حتى نقيم أمر الله . هكذا شأن رسول الله ﷺ ، كان

---

(١) يوسف : ٥٣ — (٢) القيامة : ٢ — (٣) الفجر : ٢٧

(٤) الفجر : ٢٨ — (٥) الرعد : ٢٧ - ٢٨ — (٦) الرعد : ٢٩

لا يغضب لشخصه وإنما يغضب إذا انتُهكت حُرمات الله . فإذا انتُهكت حُرمات الله لا يقوم لغضبه شيء ، فههنا مقامان : مقام الحلم ومقام الغضب لله ، والحلم لا يأتى دفعة واحدة وإنما الحلم بالتحلم ، فعندما يبدأ الإنسان يجاهد غضبه يفشل مرة وينجح مرة . فالحلم ههنا حال حتى يتمكن الإنسان من مقام الحلم فلا يغضب إلا حيث يجب عليه شرعاً أن يغضب . عندئذ يتمكن الإنسان من مقام الحلم ويكون فى حالة صحية قلبية ونفسية . كم هى مجموع الأخلاق القلبية والنفسية التى نحن مطالبون بها ؟ إنَّ مجموع هذه الأخلاق إذا أصبحت لدينا كمقامات وتمكنا منها فعندئذ نكون قد ملكنا الصحة القلبية والنفسية وهى إحدى دوائر التكليف الأربع التى نحن مطالبون بها .

قلنا من قبل : إنَّ فى دين الله مقامات هى : الإسلام والإيمان والإحسان والتقوى والشكر . والشكر له جانب قلبى وآخر عملى وكذلك الإسلام والإيمان، فأن يحصِّل الإنسان الجانب القلبى فى هذه المقامات فذلك علامة صحة القلب والعقل والنفس ولكنها دائرة من دوائر التكليف ...

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ من بَنِيَ آدَمَ من ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ، قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ [1] . فالروح مقرة لله بالعبودية ، فبقدر تحقق الإنسان بالعبودية لله ظاهراً وباطناً تكون صحة . والله عَزَّ وجَلَّ خلق آدم على صورته - أى على صفته ، كما عليه جماهير العلماء- وإذن فبقدر ما يأخذ الإنسان حظه من أسماء الله مع التحقق بالعبودية وعدم منازعة الله جَلَّ جلاله فيما هو من شأنه وحده جَلَّ جلاله فذلك علامة على الصحة .

الرأفة فى محلها ، والرحمة فى محلها ، والكرم فى محله ، والعفو فى محله .. وإذلال مَن يستحق الإذلال وإعزاز مَن يستحق الإعزاز كل ذلك فى حقنا مطلوب وهو تحقق بأسماء الله مع العبودية ، ولكن الكبرياء والعظمة من شأن الله وحده

---

(١) الأعراف : ١٧٢

لأنهما من خصائص الربوبية ، فأن ينازع الإنسان رب العزّة خصائصه فذلك مرض . قال عليه الصلاة والسلام فى الحديث القدسى : « العز إزارى والكبرياء ردائى ، فمَن نازعنى شيئاً منهما عذّبته » (١) .

والتحقق بما ينبغى التحقق فيه وترك ما لا ينبغى أن يكون ، من مظاهر الصحة القلبية والنفسية والروحية للإنسان ، فرض الله عَزّ وجَلّ عليك أن يتحقق قلبك بمعان وحرّم عليك أن يكون فيه معان ، فأن يكون قلبك كذلك سلباً وإيجاباً فذلك علامة الصحة . فرض عليك ألا يكون فى قلبك مودّة للكافرين ، وفرض عليك أن تحبه وتحب رسوله وأن تحب أهل الإيمان ، فرض عليك ألا تخاف غيره، وفرض عليك أن تخافه وتخشاه وحده . فرض عليك أن ترجوه وفرض عليك ألا تقنط من رحمته ، وفرض عليك أن لا تأمن من مكره ، وفرض عليك ألا تتكبر وألا تبطر . فكل ما فرض عليك من أعمال القلوب وما حرّمه عليك من أعمالها أن يصبح قلبك مطابقاً لما يحبه الله عَزّ وجَلّ فى شأنه فذلك علامة الصحة . فرض عليك الصبر والتسليم والرضا والتوكل ، فأن تتحقق بذلك كله فذلك علامة الصحة . فرض عليك أن تجلو مرآة قلبك وأن تجلو عين بصيرتك، وطالبك بأن يتأمل قلبك آياته وأن ترى أفعاله وأن تستشعر صفاته ، وكل ذلك إن تحققتَ به فذلك من علامات الصحة ، وكل ذلك لن يتم إلا بذكر كثير وعلم غزير ومجاهدة شاملة ومذاكرة دائمة مع أهل ذلك ...

وأصل الأصول الذى عنه ينبثق كل شىء هو تعميق التوحيد فى القلب . قال تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ (٢) .

لاحظ أنّ الوحى إنما يتنزل للإنذار بوحدانية الله ليترتب على ذلك الالتزام بتقواه ، فكلما تعمق التوحيد فى القلب ترتب على ذلك كل خير ، ولا يتعمق

(١) رواه البرقانى فى مستخرجه ، ورواه غيره والحديث صحيح .

(٢) النحل : ٢

التوحيد إلا بذكر . وإنَّ الأذكار كلها إن هى إلا تعميق لقضية التوحيد . فـ « سبحان الله » تنزيه له ، و « الحمد لله » اعتراف بأنه المنعم وحده ، و« الله أكبر » نفى لتعظيم غيره فى القلب ، و « لا حول ولا قوَّة إلا بالله » نفى أن يكون هناك فاعل سواه . فهل اتضحت بعد هذا كله معالم الصحة القلبية والنفسية عند المسلم ومحلها فى دوائر التكليف ؟ لا أجدنى حتى الآن مطمئناً إلى أننى أفلحتُ فى التعبير عما أريد فلأبذل محاولة أخيرة ..

هناك فى الإسلام أوامر ونواه ، ولكل أمر حكمته ولكل نهى حكمته ، وتنفيذ الأوامر واجتناب النواهى مع تحقيق حكمة الأمر وتحقيق حكمة اجتناب النهى يترتب عليه حال قلبى ونفسى ، هذه الحالة هى مظهر الصحة القلبية والنفسية ، فإذا صح القلب والنفس انبثق كأثر عن ذلك سلوك جديد هو ماء صاف وثمر طيب ، هو نبع الفِطرة وثمار الإيمان . يظهر ذلك فى معاملة الحق والخلق فهذه أربعة دوائر . دائرة تنفيذ الأمر واجتناب النهى ، ودائرة تحقيق الحكمة فى ذلك ، ودائرة ما يترتب على ذلك من صحة قلب ونفس ، ودائرة ما ينبثق عن هذه الصحة من آثار .. ونحن مكلَّفون بهذه الدوائر كلها على تفاوت درجات التكليف فى كل مرحلة ، وكثيرون من الناس يغلطون أو يقصِّرون فى فهم هذه الدوائر والتحقق بها . وعلامة الصحة الكاملة هى التحقق بهذه الدوائر كلها ، والصحة القلبية والنفسية هى محور الصحة العامة ، والصحة القلبية والنفسية محورها معرفة الله والتحقق بأسمائه مع العبودية الكاملة له جَلَّ جلاله ، وليكن هذا خاتمة هذا الباب ولعله قد وضح المراد .

* * *

الباب الرابع عشر

فى الرؤى والكشف والإلهام والكرامة

ومحلها فى دين الله والأخطاء الشائعة عنها

وفيها فى بعض الدوائر

الشىء الجوهرى فى السير إلى الله هو التحقق والشعور والذوق لقضايا الإسلام والإيمان والتقوى والإحسان والشكر ، وأن ينسجم السلوك مع ذلك وأن تصبح النفس مزكاة والقلب منوراً والروح عارفة بالله مستسلمة له والعقل شرعياً . وبكلمة واحدة : العبودية الخالصة لله ، فإنها غاية مطلب الصدّيقين ، وهى أشرف المقامات على الإطلاق، وهى الوصف اللازم الأرقى لرسول الله ﷺ : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا ﴾ (١) . ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ (٢) .

إنّ السالك إلى الله عزّ وجلّ هذه همومه أو هذا همه ، وما سوى ذلك يفرحه إذا كان علامة على فضل الله عزّ وجلّ فهو يفرح به لأنه علامة على ذلك وبشارة على القبول ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٣) . فقد يجد السالك إلى الله الرؤيا الصالحة أو الكشف ، وقد يحس بالإلهام ، وقد تظهر على يده كرامة ، وكل ذلك كما قلنا ليس هدفاً للسالك بحد ذاته ، وإنما هو محل فرحه لأنه علامة على القبول أو بشارة للسالك بأمر ، فإذا اتضح هذا نكون قد عرفنا ما هو الهدف بالنسبة للسالك ، وههنا

---

(١) الإسراء : ١ (٢) الكهف : ١ (٣) يونس : ٥٨

أول خطأ يقع فيه بعض الصوفية إذ يجعل بعضهم الهدف هو الوصول إلى الكشف أو إلى الكرامة أو غير ذلك من معان هي علامات على صحة السير وليست هدفاً في السير إذ المراد هو وجه الله عزّ وجلّ . قال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ (١) . على أنه إذا كان بعض الصوفية يغلطون في جعل ما ليس هدفاً هدفاً فإنه من الملاحظ من التتبع التاريخي أن هذه المعاني من كشف أو إلهام أو رؤيا صالحة أو كرامة - وهي أمور نجدها بكثرة في النصوص وفي حياة أصحاب رسول الله ﷺ - هذه المعاني نادراً ما نجدها إلا في دوائر الصوفية ، ونادراً ما نجد حديثاً عنها يشبه الحديث عنها في النصوص كما نجده عند الصوفية ، وهذا دليل على أنّ التصوف الصحيح سير صحيح في طريق القدوة الصالحة بدليل ظهور ثمرات الاقتداء كاملة .

هذا ابن تيمية رحمه الله يذكر أنّ كرامات الشيخ عبد القادر الجيلاني منقولة تواتراً ، وللشيخ ابن تيمية على الشيخ الجيلاني من الثناء ما لم يظفر به أحد إلا قليلاً . وفي ذلك كله دليل على أنّ السير إلى الله على طريقة الصوفية المحققين له فضله وثمراته الطيبة ولكن - كما سنرى - فإنّ بعض الصوفية يغلوا في بعض هذه الأمور أو يخطىء فيها وههنا كذلك مأخذ آخر . ولنبدأ عرض الموضوع من بدايته ...

أولاً - الكشف :

وصف الله عزّ وجلّ سيدتنا مريم عليها السلام بأنها صدّيقة قال تعالى : ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ (٢) . ومن المعروف في علم العقائد أن الله عزّ وجلّ لم يبعث رسولاً إلا رجلاً . قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِيَ إِلَيْهِم ﴾ (٣) . فمريم إذن صدّيقة فليست نبية ولا رسولاً ومع ذلك ذكر القرآن أن الملائكة خاطبتها : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤) . ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا

---

(١) الكهف : ٢٨
(٢) المائدة : ٧٥
(٣) يوسف : ١٠٩
(٤) آل عمران : ٤٢

﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً * قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ منكَ إن كُنتَ تَقِيّاً * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً ﴾ [1] .

وإذن فمن الممكن شرعاً أن يكشف الله عَزَّ وجَلَّ لغير الأنبياء والرسل عن الملائكة بحيث يسمع إنسان – من غير الرسل – أو يرى مَلَكاً ، هذه الحالة لو حدثت لمسلم يسميها الصوفية كشفاً ، هذا الكشف نجد نصوص السُنَّة ذاكرة إمكانيته ، ونجد نماذج له فى حياة الصحابة ، ونجد تاريخ التصوف الإسلامى المحقق زاخراً بمثل هذه المعانى ، ومَن قرأ سيرة الغزالى وما كتبه – وهو إنسان موثوق – رأى الكثير من هذا ، إنَّ ما وقع للغزالى نفسه أو فيما نقله عن أمثاله وذلك حُجَّة كافية فى حق المنصف ، إذ أنَّ الغزالى رجل صدق عند جماهير هذه الأمة ، ولنر ما يدل على إمكانية الكشف ووقوعه فى جيل الصحابة وطُرق الوصول إليه من النصوص :

(أ) فى الحديث رقم (٢٦٢) من كتاب « الترغيب والترهيب » ما يلى : « عن أبى أُمامة رضى الله عنه قال : مَرَّ رسول الله ﷺ فى يوم شديد الحر نحو بقيع الغرقد قال : وكان الناس يمشون خلفه . قال : فلما سمع صوت النعال وقر ذلك فى نفسه فجلس حتى قدَّمهم أمامه ، فلما مَرَّ ببقيع الغرقد إذا بقبرين قد دفنوا فيهما رجلين . قال : توقف النبى عليه الصلاة والسلام فقال : « مَن دفنتم ههنا اليوم »؟ قالوا : فلاناً وفلاناً . قالوا : يا نبى الله ، وما ذاك ؟ قال: « أما أحدهما فكان لا يتنزه من البول ، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة »، وأخذ جريدة رطبة فشقها ثم جعلها على القبرين . فقالوا : يا نبى الله ، لِمَ فعلت هذا ؟ قال :« ليخفف عنهما ». قالوا : يا رسول الله ، حتى متى يعذبان؟ قال : غيب لا يعلمه إلا الله ، ولولا تمرغ قلوبكم ، وتزيدكم فى الحديث لسمعتم ما أسمع » [2] .

---

(١) مريم : ١٧ – ١٩

(٢) رواه أحمد واللفظ له .

لاحِظ قوله عليه الصلاة والسلام : « لولا تمرغ قلوبكم وتزيدكم فى الحديث لسمعتم ما أسمع » فهذا يدل على ماهية المانع من الكشف ، ويدل على إمكانية الكشف ، ويدل على الطريق إلى الكشف وهو عدم التزيد فى الحديث وتصفية القلب ، ولتصفية القلب طرقها المذكورة فى النصوص كما سنرى .

(ب) فى الحديث رقم (٩٦٦٢) من كتاب « جمع الفوائد » ما يلى : حنظلة ابن الربيع الأسيدى أحد كُتّاب النبى ﷺ قال : « لقينى أبو بكر فقال : كيف أنت يا حنظلة ؟ قلت : نافق حنظلة . قال : سبحان الله ، ما تقول ؟ قلت: نكون عند النبى ﷺ يذكّرنا بالنار والجنة كأنّا رأى عين ، وإذا خرجنا من عنده عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيراً . قال أبو بكر : فوالله إنّا لنلقى مثل ذلك . فانطلقتُ أنا وأبو بكر حتى دخلنا على النبى ﷺ فقلت : نافق حنظلة يا رسول الله . فقال : « وما ذاك » ؟ قلت : نكون عندك تذكّرنا بالنار والجنة كأنّا رأى عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيراً . فقال ﷺ : « والذى نفسى بيده لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذِكر لصافحتكم الملائكة على فُرشكم وفى طُرقكم ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة - ثلاث مرات » [١] .

لاحِظ قوله عليه الصلاة والسلام : « والذى نفسى بيده لو تدومون على ما تكونون عليه عندى وفى الذِكر لصافحتكم الملائكة على فُرشكم وفى طُرقكم ... » إنّ هذا الحديث يدل على أنه يمكن لكل صحابى إذا حافظ على الحال الذى يحصّله حال جلوسه مع رسول الله ﷺ وإذا داوم مع ذلك على الذكر أنّ يصير إلى حالة تصافحه فيها الملائكة . ولعله من هذين الحديثين ندرك أنّ الصمت إلا فيما لا ينبغى والذِكر من الأسباب التى يصل بها الإنسان إلى الكشف ...

---

(١) للترمذى ومسلم بلفظه .

(جـ) فى الحديث رقم (٦٧٣١) من كتاب « جمع الفوائد » ما يلى : روى البخارى عن أسيد بن حضير : بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده إذ جالت الفرس فسكت فسكنت ، فقرأ فجالت فسكت فسكنت ، ثم قرأ فجالت فانصرف ، وكان ابنه يحيى قريباً منها فأشفق أن تصيبه ، ولما أخَّره رفع رأسه إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح ، فلما أصبح حدَّث النبى ﷺ فقال : « اقرأ يا ابن حضير ، اقرأ يا ابن حضير » ، قال: أشفقت يارسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريباً فانصرفتُ إليه ورفعتُ رأسى إلى السماء فإذا مثل الظُلة فيها أمثال المصابيح فخرجتُ حتى لا أراها . قال : « وتدرى ما ذاك » ؟ قال : لا والله . قال : « تلك الملائكة دنت لصوتك» ولو قرأتَ لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى عنهم » .

لاحظ أنَّ أسيداً رأى ، ثم لاحظ قوله عليه السلام : « تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو قرأتَ لأصبحت ينظرِ الناس إليها لا تتوارى عنهم » .

من هذا النص نرى إمكانية الكشف ووقوعه لصاحبه وكيف أنَّ قراءة القرآن طريق الكشف . ونجد فى حياة الصحابة أكثر من نص يتحدث عن رؤية بعض الصحابة للجن مع أنَّ الجن من عالَم الغيب ، وسنرى فى سلسلة « الأساس فى المنهج » أدلة كثيرة عليه ونصوصاً كثيرة فيه ونماذج كثيرة منه فى حياة أصحاب رسول الله ﷺ ، من هذه النصوص ندرك إمكانية الكشف وندرك وقوعه للصحابة ، فإذا ما وجدنا ناساً ساروا فى التصوف المحرر إلى منتهاه وحدَّثونا مع كونهم عدولاً عن مثل ذلك فلا نستغرب أصل وقوعه ، كما نستدل بذلك على صحة الطريق ، ولكن ههنا أكثر من غلط يقع فيه بعض الصوفية :

١ - إنَّ بعضهم يعتبر الكشف أصلاً زائداً عن الكتاب والسُنَّة يمكن أن تثبت به حقائق غيبية زائدة على ما ذُكِرَ فى الكتاب والسُنَّة ، وبعضهم يعتبر أنَّ كل ما قاله صوفى فى هذا المجال واجب التصديق كأنها نبوَّة جديدة ، أو كأن غير رسول الله يمكن أن يكون معصوماً ، وفى ذلك من الضلال ما فيه .

٢ - يربط بعض الصوفية بين تصديق بعض الناس فى أمر الكشف وبين التسليم لهم فى كل أمر دون التحقق من الحكم الشرعى فى هذه الشئون ، وبالتالى نجد كثيرين من أتباع الشيوخ يتابعون شيوخهم وكأن شيوخهم معصومون . هذا مع أن الكشف قد يؤتاه إنسان إستدراجاً ثم يُختم له بسوء والعياذ بالله ، وفى قصة « بلعم » التى تحدثت عنها آيات الأعراف وما يقوله المفسرون فى ذلك وما تشير إليه الروايات الإسرائيلية ما يشير إلى ذلك .

٣ - يربط بعض الصوفية بين الكشف وترك التكليف فيرون أنّ الإنسان متى كُشف له شىء من أمر الغيب - وما أكثر ما يتوهمون فى هذا الشأن - سقط عنه التكليف فلا صلاة ولا صيام ولا غير ذلك ، ويستشهدون على ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ (١) . وهؤلاء كفار بإجماع الأمة إذ اليقين فى الآية هو الموت بدليل أنّ رسول الله ﷺ بقى يعبد ربه حتى مات . ترى رسول الله ﷺ يعبد ربه حتى الموت وهم لا يعبدون ؟ أبلغوا من اليقين أكثر منه عليه الصلاة والسلام - ألا لعنة الله عليهم - وفى أمثال هؤلاء يقول الجنيد : « وصلوا ولكن إلى سقر » .

وأخيراً نقول : إنّ الكشف ممكن ، وهو مما يمكن أن يصادفه السالك إلى الله، وهو من مظاهر فضل الله وإبتلائه ، ولكنّا جميعاً مقيدون بالنصوص لا بالكشف . والكشف لا تثبت به عقيدة جديدة ولا يزاد به على النصوص ولا تتعبد به الأمة ولا تكلّف الأمة بتصديق أصحابه ، ولكن لا حَرَجَ على مَن صدّق العدول فيه إذا كان تصديقاً لنصوص الكتاب والسُنّة ، وإنما قلنا بأنّ الأمة لا تكلّف بتصديق أصحابه حتى ولو كانوا صادقين لأن قلوبهم ليست معصومة فى أمر الغيب واحتمال التوهم قائم ، ولأن الكشف قد يكون امتحاناً لإنسان أو للناس فيزل به صاحبه أو غيره . بهذه القيود كلها ندرك محل الكشف فى شريعة الله عَزّ وجَلّ ونستطيع على ضوئها أن نقرأ فى كتب الصوفية ، وإذا ما صادفنا كلام عن كشف

---

(١) الحجر : ٩٩

عرفنا حدود الأخذ والرد ، ولنتذكر ما قلناه فى الابتداء من كون السالك ليس همه الكشف وغيره مما يمكن أن يصادف السالك أثناء سيره الذى لا نهاية له ، وإنما همه الآخرة ومراده وجه الله .

أخرج الترمذى عن أنس رفعه إلى رسول الله ﷺ قال : « مَن كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومَن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرّق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له » . وزاد فى رواية : « فلا يمسى إلا فقيراً ولا يصبح إلا فقيراً »، وما أقبل عبد على الله بقلبه إلا جعل الله قلوب المؤمنين تنقاد إليه بالود والرحمة وكان الله بكل خير إليه أسرع ، وبمناسبة الكلام عن الكشف نقول : إن أدب السالك إلى الله ألا يتطلع إلى الكشف ، وفى ذلك يقول ابن عطاء : «تشوفك إلى ما بُطِنَ فيك من العيوب خير من تشوفك إلى ما حُجِبَ عنك من الغيوب » ، ثم من آداب السالكين إلى الله ومن آداب الشيوخ - بل من آداب كل إنسان - أنه إذا كُشِفَ له من عيوب الناس شيئاً أن يسترها وألا يتكلم بها وأن يكون خُلُقه الرحمة فى هذا المقام مع محاولة التطبيب والعلاج مع وجود الحذر ، فالمكاشف لا تثبت بكشفه حُجَّة فى حق الغير من الناحية الشرعية ، وحتى كشفه فى حق نفسه يبقى محل تهمة لأنه يخشى أن يكون فتنة له من الله عَزَّ وجَلَّ . يقول ابن عطاء : « ربما أطلعك على غيب ملكوته وحجب عنك الاستشراف على أسرار العباد . مَن اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلهية كان اطلاعه فتنة عليه وسبباً لجر الوبال إليه » .

ولننتقل إلى شىء آخر يمكن أن يصادفه السالك وهو الإلهام .

* *

ثانياً - الإلهام :

لندرس بعض ما قاله رسول الله ﷺ فى عمر بن الخطاب وما قاله بعض الناس فى شأن عمر رضى الله عنه لنرى من خلال ذلك ظاهرة يمكن أن توجد عند الرجل المسلم . يقول عليه الصلاة والسلام فى الحديث الذى رواه الشيخان :

« لقد كان فيمن كان قبلكم ناس محدَّثون من غير أن يكونوا أنبياء ، فإن يكن فى أمتى أحد فإنه عمر » ، قال السيوطى فى تفسير : « مُحدَّثون » : أى مُلْهَمون .

وأخرج أحمد والبزار عن أبى هريرة قال : قال النبى ﷺ : « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » .

وأخرج ابن عساكر عن طارق بن شهاب قال : « إن كان الرجل ليحدِّث عمر بالحديث فيكذبه الكذبة فيقول : احبس هذه ، ثم يحدِّث بالحديث فيقول : احبس هذه ، فيقول له : كل حديثى حق إلا ما أمرتنى أن أحبسه » .

من هذه النقول ندرك أن شيئاً ما يمكن أن يقع فى قلب الرجل المسلم ، هذا الشئ غيبي المصدر ولكنه معلّم وموّجه ومذكّر وله حكم الحقيقة بآن واحد . هذا الشئ يمكن أن يتحقق فيه أفراد فى هذه الأمة بلا شك وأن يناله من فضل الله أفراد .

إن ظاهرة الإلهام فى المجتمع الإسلامى وفى القلب المسلم ظاهرة ممكنة الوقوع شرعاً ، ووقوعها كحقيقة خلال التاريخ شئ لاشك فيه ولاشُبهة ، بل كثيراً مايصادفها الإنسان فى نفسه أو فيمن حوله إن كان له شئ من سير قلبى إلى الله عزّ وجَلّ . إذا اتضح هذا الأصل بشكل مبدئى نقول : إنّ القلب الإيمانى يشبه فى أحد جوانبه جهاز الاستقبال لأنواع من الموجات فهو يستقبل خواطر شيطانية ، كما أنه يستقبل واردات ربانية أو هواجس نفسية ، وهى قضية أدلتها من النصوص موجودة وأدلتها من الإحساسات البَشرية الراقية موجودة وتختلط على أكثر الخلق ولا يدرك أسرارها إلا القليل ، إنك تجد حتى الكافرين تحدَّثوا عن عالَم النفس فتحدَّثوا عن شعور ولا شعور ، وتحدَّثوا كيف تطفو قضايا من اللاشعور إلى الشعور ، وتحدَّثوا عن تداعى أفكار وتحدَّثوا عن حدس وعن ظن وعن إلهام ، وكل ذلك تحدَّثوا عنه كأثر من آثار التأمل الباطنى ومحاولة استكشاف عالَم النفس . وتحدَّث حتى الكافرون عن ضمير وتأنيب ضمير وأمثال هذه المعانى . وهى قضية ما خرجوا عن كونهم وهم يتحدثون عنها مسجلين لإحساسات معينة لدى أنفسهم أو أنفس آخرين ، ونحن المسلمين كأصل

عام نقبل الملاحظة ونشترك مع الناس فى تسجيلها ، ولكن شتّان بين كثير من تعليلاتنا وتعليلات الآخرين ، فتعليلاتنا علم خالص وتعليل الآخرين ظن خالص ، ثم إنَّ غير المسلمين يقفون دائماً عند حدود لا يتجاوزونها ، فمثلاً : الكافر لا يستطيع أن يسجل شيئاً عن ظاهرة القلب الإيمانى والإحساسات القلبية التى توجد فى حالة وجوده ، ولكن المسلم يحس بذلك ويستطيع تسجيله ، ومن ثَمَّ فآفاق الإحساس القلبى والروحى عند المسلم آفاق لا يتطاول إليها أحد ، يضاف إلى ذلك أنَّ المسلم وهو يسجل الإحساس القلبى الغيبى عنده النصوص القطعية التى بها يستطيع أن يطمئن إلى أنَّ إحساساته صحيحة إذ أنَّ النصوص الربانية تبيِّن له حقائق عالم النفس والقلب والعقل وما يمكن أن يحدث فيها ولها ، فإذا ما أحس بمعنى ووجد النص يتحدث عنه أدرك المطابقة بين الحقيقتين الكبيرتين : حقيقة الصدق فى النص وحقيقة حاله الذى هو فيه وأنه حال صالح ، وبشكل عام فالقلب يستقبل أربعة أنواع من الإيحاءات :

(أ) الإيحاء الشيطانى : قال تعالى : ﴿ شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾ [1] ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ [2] ، وقال تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ﴾ [3] .

(ب) الإيحاء النفسى : قال تعالى : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [4] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ [5] .

(جـ) الخاطر الملكى : يقول عليه الصلاة والسلام : « فى القلب لَمَّتان ، لَمَّة من الملك إيعاد بالخير وتصديق للحق ، فمَن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله ، ولَمَّة من العدو إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهى عن الخير ، فمَن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم » [6] .

---

(١) الأنعام : ١١٢ (٢) مريم : ٨٣ (٣) البقرة : ٢٦٨

(٤) يوسف : ٥٣ (٥) القيامة : ٢

(٦) أخرجه الترمذى وحسنه النسائى فى الكبرى عن ابن مسعود .

(د) الإلهام الربانى : قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (٢) . ويسمى العلماء الإيحاء الشيطانى وسوسة ، والإيحاء النفسى هاجساً ، ويسمون إلقاء المَلك فى القلب خاطراً ، ويسمون الإلقاء الربانى وارداً أو إلهاماً ، وهذه قضايا مُحسَّة مُذَاقة عند مَن كان له قلب ، وأن يكون للإنسان قلب يحس به وقلب لا يحس به هذه قضية تحدَّث عنها القرآن . قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ .. ﴾ (٣) ، وحدد الله مكان هذا القلب فى الصدر حتى لا يشتط بالإنسان فكره فقال : ﴿ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٤) .

قلنا : إنَّ مَن كان له قلب يحس بالإلقاءات المتنوعة ويعرفها ويميِّز فيما بينها ، وقد جعل بعضهم علامات لكل نوع من أنواع الإلقاءات ليجتمع العلم والذوق للإنسان فيميِّز بين أنواع هذه الإلقاءات .. ولقد فصَّل فى ذلك الشيخ أحمد الزروق فى كتابه « قواعد التصوف » فذكر أنَّ من علامات الخاطر الشيطانى السرعة وضيق القلب ، وزواله بالذكر ، وأنَّ الهاجس النفسى كثير الإلحاح . وأنَّ الخاطر الملكى يتمكن بالذكر وتصحبه برودة فى القلب ، وأنَّ الوارد الربانى يكون فى شأن التوحيد . وذكر دقائق فى هذا المقام يحسن أن تراجَع .

إذا اتضح هذا كله ندرك كيف أنَّ المسلم الحى القلب وحده من بين بنى البشر يحس بشىء اسمه القلب ، ويحس بمجموعة التيارات التى تهب على هذا القلب ، فبينما يحس الكافر بقضية النفس وخواطرها فقط ، نجد المسلم يشترك مع الكافر بهذه الإحساسات مع تصفية لها وارتقاء فيها ويحس بأشياء كثيرة ، وله آلة استقبال غير معطلة ، هذه الآلة فيها حياة ولها خصائص . ومن ثَمَّ فالتركيب العام للجانب الآخر للإنسان المسلم يختلف اختلافاً جوهرياً عن كل إنسان فى هذا العالم . ومن ثَمَّ ندرك أنَّ كثيراً من الأمور الغيبية هى فى حق المسلم مُحسَّة

---

(١) العنكبوت : ٦٩ — (٢) محمد : ١٧

(٣) سورة ق : ٣٧ — (٤) الحج : ٤٦

مُذَاقة ولكنه إحساس بآلة أخرى غير الحواس الظاهرة وذوق بآلة أخرى غير الآلات الظاهرة ، وكذلك ندرك أنّ المسلم بشكل دائم يتلقى توجيهاً مباشراً من عالَم الغيب بواسطة الإلهام والخواطر الملكية كما يتلقى التوجيه عن طريق النبوّة والوحى والمتمثل بالكتاب والسُنّة . فالمسلم العليم بالكتاب والسُنّة يتحرك فى كل أمر على ضوئهما ويسدده مع ذلك إلقاءات غيبية فى قلبه ولكن : ذكرنا من قبل أنّ أنواع الإلقاءات التى تُقذَف فى قلب العبد المؤمن ليست فقط الإلقاءات الربانية والإلقاءات الملكية ، بل هناك إلقاءات نفسانية وإلقاءات شيطانية . والقلوب - ما عدا قلوب الأنبياء - غير معصومة ولا تستطيع دائماً التمييز ، ولذلك فإنّ المسلم مكلّف بالنص المعصوم ، وعليه أن يزن كل ما ورد إلى قلبه بميزان النص المعصوم ، ولذلك قال أبو سليمان الدارانى : « ربما وقعت النكتة من كلام القوم فى قلبى فلا أقبلها إلا بشاهدى عدل من الكتاب والسُنّة ، لأن الله عزّ وجَلّ ضمن لى العصمة فى الكتاب والسُنّة ، ولم يضمنها لى فيما سوى ذلك » . ولنفرض أن المسلم وصل إلى حالة أصبح بإمكان قلبه أن يميّز بين الإلقاءات لكن احتمال الغلط يبقى وارداً واحتمال الفتنة الربانية للقلب يبقى وارداً من باب الابتلاء والامتحان ليبقى المؤمن ملتزماً بالنص ومتحركاً على ضوء العلم ، ومن ثَمّ نجد الكتاب والسُنّة يحدثاننا عن قضية امتحان القلب ، فكما أن الجسد يُمتحن فكذلك القلب يُمتحن . قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (1) . وقال عليه الصلاة والسلام : « تُعرَض الفتن على القوب عوداً عوداً فأى قلب أنكرها .. » ، ومن هذا كله ندرك أنه لا بد من قلب من نوع معيَّن ولا بد من قلب يرفض الفتن ولا بد من ميزان ، والميزان هو الكتاب والسُنّة ، والقلب المعيَّن هو القلب السليم الذى يرفض الفتن ولا يقبلها والذى وُعدَ بعد الوصول أن يُحفظ من الفتن ولكن لا يعنى أنه لا يُفتن، بل يُفتن ولكن الفتنة لا تضره . وبعد هذا الكلام كله أصبح بإمكاننا أن نعرف مواطن الغلط عند بعض الصوفية ..

(1) الحجرات : 3

١ - لقد تصوَّر بعض الصوفية أنَّ بإمكانهم أن يستغنوا من خلال الخاطر والكشف والإلهام عن دراسة الكتاب والسُّنَّة وعن العلم بالعقائد والفقه والسير البصير إلى الله وقواعد ذلك ، وبهذا يكونون قد أفقدوا أنفسهم الميزان ، وحيث لا ميزان فالتقدير خاطىء . قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (١) . إنه متى أضعنا الميزان وُجِدَ الضلال ، قال عليه الصلاة والسلام : « إنى تارك فيكم شيئين لن تضلوا ما أن تمسكتم بهما : كتاب الله وسُنَّتى » (٢) .

٢ - لقد تصوَّر بعض الصوفية أنه يمكن أن تصل بعض القلوب إلى العصمة فاعتبروا كل ما يُلقى فيها وكأنه وحى منزَّل وبذلك جعلوا قلوب الأولياء كقلوب الأنبياء وهذا كفر وضلال ، فالله عَزَّ وجَلَّ تعبَّد الخلق برسالة محمد ﷺ فكيف نجعل على قدم المساواة ما يلقى به فى بعض القلوب بما ألقى فى قلب محمد ﷺ ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ (٣) . فأين ذلك القلب وذلك الوحى من قلوب أخرى وإلقاءات أخرى مختلطة ؟ ومهما ادَّعى المدَّعون أنَّ قلباً يرقى إلى حيث يدرك ما يُلقى فيه فإن أحداً لا يجوز أن يدَّعى عصمة القلب وإلا فإنه يكفر ..

٣ - انطلق كثير من الصوفية بلا ميزان وبتصور أنَّ قلوب الشيوخ معصومة فضَلّوا وأضلوا ، قال لى بعضهم على لسان كبير من الصوفية : « بقرآنى بآياتى لو أمرنى الشيخ أن أسجد للأت لسجدتُ » فياويلاه من مثل هذا ، هل هذا يجوز لمسلم أن يعتقد أن ما أمره الشيخ به يجوز له تنفيذه ولو كان كفراً ؟ أليس هذا هو عين ما فعله النصارى ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ (٤) ؟ وذلك كما فسَّرها رسول الله ﷺ بأن أحلوا لهم الحرام وحرَّموا عليهم الحلال فأطاعوهم ، ويدافع بعض الناس عن أمثال هؤلاء بأن هذا يريد كذا ،

---

(١) الحديد : ٢٥ (٢) رواه الحاكم بلفظ : « تركت ... » ، ورواه غيره .
(٣) الشعراء : ١٩٢ - ١٩٤ (٤) التوبة : ٣١

وأنَّ الشيخ يستحيل أن يأمره إلا بخير . ونقول : هل هناك شك بأن السجود للأت والعُزَّى شرك ؟ فكيف يعلن عن استعداده للطاعة حتى فى مثل هذا ؟ إن مجرد الإعلان عن الاستعداد للطاعة فى مثل هذا كفر ، فلا يضلنك يا أخى عن الطريق المبصر تأويلات الجاهلين .. وكما كان شيخنا محمد الحامد رحمه الله يتمثل بقول :

خل عنكِ الأوهام يا أم عمرو ودعينا من طيشك المعهود

وهكذا وباختصار رأينا ما يمكن أن يصادفه السالك من إلهامات وخواطر ، ورأينا حدود ذلك وجوانب الخطأ التى وقع فيها بعض الصوفية فى هذا المقام .

وبمناسبة الكلام عن الخواطر والإلهامات نقول : إنه لا شئ يساعد السالك على التمييز بين الخواطر والهواجس وغيرها مثل أكل الحلال والورع فيه ، فقد قالوا : « مَن عرف ما يدخل فى جوفه عرف ما يهجس فى نفسه » ، وقضية أكل الحلال والورع فى شأن الكسب تعتبر من بديهيات الإسلام فى حق كل مسلم فضلاً عن سائر فى طريق الولاية العظمى ، ولذلك لم نتكلم عنها كثيراً فى هذا الكتاب لأن البحث المفصَّل فيها والطريق للتدقيق فى شأنها محله كتب الفقه . على أن الغزالى فى المجلد الثانى من الإحياء عقد لذلك بحثاً هو من أحلى وأعذب وأجود ما يُقرأ فى هذا المقام .

ولننتقل إلى قضية أخرى تعرض للسالكين وهى قضية المنامات والرؤى .

* *

ثالثاً - الرؤى والمنامات :

للرؤى والمنامات فى الحياة البَشرية دور كبير ، وقد كان هذا الدور كبيراً فى كل العصور ، وفى عصرنا بالذات أصبح للرؤيا تفسيرات متعددة ، وأصحاب هذه التفسيرات لهم اتجاهات شتَّى ، والماديون بشكل عام يعتبرون الأحلام والرؤى المنامية من باب هواجس النفس وتداعى الأفكار ، ولكن هذا لا يفسِّر كل أنواع الرؤى التى يراها أصناف من الناس ، ومن ثَمَّ كان كلامهم يدور حول

نوع واحد من أنواع الرؤى ، وقد كان المسلمون هم السباقين بفضل الوحى إلى تصنيف الرؤى إلى أنواع ثلاثة : الرؤى التى هى أثر عن هواجس النفس وتداعى الأفكار وهى التى تسمى الرؤى النفسية ، والرؤى التى يتدخل فيها الشيطان بأن يتسلط فى نوم الإنسان على محل تداعى الفكر منه فيلقى إليه ما يلقى، فتتوجه رؤياه نتيجة لتلك بهذه الإلقاءات وهى الرؤيا الشيطانية ، ثم يأتى النوع الثالث من الرؤى وهى الرؤى الروحية الربانية ، وهذا النوع من الرؤى شئ مهم جداً لأنه يكون مبشراً أو منذراً أو مخبراً أو محذراً إلى غير ذلك من معان هى فى الذروة من توجيه الإنسان والتأثير فى سلوكه أو فى توجيهاته ، ولقد استطاع علماء المسلمين من خلال ما قصّه الله عَزّ وجَلّ علينا فى القرآن من رؤى وتفسيراتها - كرؤيا يوسف ورؤيا العزيز ورؤيا إبراهيم - ومن خلال الرؤى التى رآها رسول الله ﷺ وفسّرها أو رآها أصحابه وفسّرها لهم عليه الصلاة والسلام، أو من خلال القواعد المستنبطة والاستقراءات الواسعة أن يكتبوا فى موضوع الرؤى أدق الكتب العلمية وأن يضعوا القواعد التى بها تعرف ما إذا كانت الرؤيا شيطانية أو نفسانية أو ربانية ، ثم ماذا تعنى رموز الرؤى الربانية لأن الغالب فى الرؤى أن تكون رمزية كما نرى هذا واضحاً فى سورة يوسف سواءً فى ذلك رؤيا يوسف نفسه عليه السلام أو رؤيا العزيز . والسالكون إلى الله عَزّ وجَلّ والسائرون إليه والمقبلون عليه حظهم من الرؤى المبشرة كبير ، وفى الحديث الذى أخرجه مالك والبخارى وأبو داود : « لم يبق بعدى من النبوّة إلا المبشرات» قالوا : وما المبشرات ؟ قال :« الرؤيا الصالحة »، فالروح كلما شفّت انطبع فيها أثناء النوم معان من عالم الغيب ، هذه المعانى ذات مغزى كبير ولها دورها الكبير فى توجيه الإنسان ، ولو أننا تأملنا الحديث الصحيح : « رؤيا المسلم جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة » [1] . لو تأملنا هذا الحديث لأدركنا أهمية الرؤيا بالنسبة للقلب المسلم ، وإذا عرفنا أنّ الرسولﷺ كان يسأل أصحابه يومياً تقريباً عما إذا كان أحدهم رأى رؤيا ، إذا عرفنا هذا أدركنا جهل الذين

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى .

لا يعطون للرؤيا أهمية ، ولكن إذا كان للرؤيا مثل هذه الأهمية فلا شك أنّ التمييز بين أنواع الرؤى مهم ، وأنّ الهجوم على تعبير الرؤى ممن لا يتقن ذلك خطأ كبير لما يترتب عليه من مفاسد كثيرة ، إذ أكثر الرؤى تأتى بثوب رمزى فظاهرها شىء وتأويلها شىء آخر ، وأحياناً يكون ظاهرياً مخيفاً وتأويلها مبشراً ، والتأويل الخاطئ فى غاية الخطورة ، وكل ذلك يقتضى علماً فى تعبير الرؤى وتأنياً فى التعبير ، إذ تفسير الرؤيا فى كثير من الأحوال يشبه الفتوى فى كون المسألة قد تكون مرتبطة بعدة أبواب ولكل رؤيا مفاتيحها ، وقد يكون مفتاحها فى اسم أو إشارة خفية ، ومن القواعد الرئيسية أنّ الرؤيا فى حق الأنبياء وحى ولذلك يبنون عليها الأحكام،فهذا سيدنا إبراهيم بنى على رؤياه أنه قرر ذبح إسماعيل عليه السلام ، ولكنها فى حق غير الأنبياء ليست وحياً ، فالرؤى فى حق غير الأنبياء يمكن أن تكون نفسية أو شيطانية أو ربانية فهى مختلطة ، وحتى الرؤيا الربانية تأتى فى كثير من الأحيان بشكل رموز وقد يخطئ المعبِّر ، ولأمر ما استعمل القرآن لفظة « الظن » قال تعالى على لسان يوسف : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا ﴾ (1) . فمع أنّ يوسف عليه السلام كان يعبِّر بإلهام ربانى ومع ذلك أشعرتنا الآية أن التعبير يبقى للظن فيه نصيب ، هذا مع ملاحظة أن « ظن » فى اللغة تأتى أحياناً بمعنى « تيقن » وعليها تُحمل الآية ، ومن ثَمَّ فإجماع المسلمين متفق على أنّ الرؤيا فى حق غير الأنبياء لا يجوز أن تكون مصدر تشريع وحتى قالوا : لو أنّ الإنسان رأى رسول الله ﷺ فى المنام – وهو الذى لا يمكن أن يتمثل الشيطان بصورته – فأمره أمراً يخالف الشريعة فإننا نقول له : إنك واهم ، ويحرم عليه أن يبنى على رؤياه ، فكيف فيما سوى ذلك من الرؤى ؟

والذى حدث فى شأن الرؤيا عند بعض الصوفية أنهم :

١ – يبنون على الرؤى مواقف تناقض شريعة الله عَزَّ وجَلَّ وتناقض أحكام الله ، فما أكثر ما بنى صوفى على رؤيا فاتخذ موقفاً كأن يعطى ولاءه لكافر بناءً على رؤيا ، فأين النصوص .. !

---

(1) يوسف : ٤٢

٢ – ربما يوجه الشيخ رؤيا المريد فى اتجاه لا يخدم حتى مصلحة المريد الأخروية وبما لا يتفق مع أصول تعبير الرؤيا .

٣ – كثيراً ما حدث أن أقام بعض الشيوخ بناءً على رؤى أعمالاً هى من باب البدع عند الفقهاء .

٤ – كثيراً ما كانت الرؤى سبباً فى إعطاء حجم لأمور أو إعطاء صفة لم يعطها الشارع كأن نجد شيخاً يعتبر العمل الفلانى أعظم عند الله من عمل آخر، بينما النصوص على خلاف ذلك ، وهكذا نجد أن الرؤى التى يصادفها السالكون إلى الله كما يصادفها غيرهم كانت فى كثير من الأحيان سبباً فى خطأ شرعى، فأبدلت النعمة بذلك فصارت بسبب الجهل إما طريقا للكفر أو معبراً لخطأ شرعى أو لضلال .

هذه نماذج ثلاثة ذكرناها فى هذا الباب مما يمكن أن يصادفه السالك إلى الله وكيف يمكن أن تؤدى بسبب الجهل أو الخطأ أو غير ذلك إلى انحرافات ، ولذلك أردنا أن نبيِّن حدود هذه الأمور .

ولننتقل إلى قضية أخرى تصادف السالك إلى الله أو يسمع عنها وللناس فى شأنها أغلاط كثيرة وتقوم بسببها توهمات كثيرة وهى قضية الكرامات .

* *

رابعاً – الكرامات :

عقد الشيخ النووى رحمه الله فى كتاب « رياض الصالحين » باباً ذكر فيه بعض الكرامات فلنر ما ذكره الشيخ قال : .

« باب كرامات الأولياء وفضلهم »

قال الله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ ، لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١) .

---

(١) يونس : ٦٢ – ٦٤

وقال تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً ، قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ، قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً * وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليَمِينِ ، وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ (٢) . الآية ...

– وعن أبى محمد عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنهما أنّ أصحاب الصُفّة كانوا أناساً فقراء ، وأن النبى ﷺ قال مرة : « مَن كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومَن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس ، .. بسادس » ... أو كما قال ، وأنّ أبا بكر رضى الله عنه جاء بثلاثة ، وانطلق النبى ﷺ بعشرة ، وأنّ أبا بكر تعشى عند النبى ﷺ ثم لبث حتى صلى العشاء، ثم رجع فجاء بعد ما مضى من الليل ما شاء الله ، قالت امرأته : ما حبسك عن أضيافك ؟ قال : أو ما عشيتهم ؟ قالت : أبوا حتى تجئ وقد عرضوا عليهم . قال : فذهبتُ أنا فاختبأت ، فقال : يا غنثر ، فجدع وسَبَّ، وقال : كلوا لا هنيئاً ، والله لا أطعمه أبداً .قال : وإيم الله ما كنا نأخذ من لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها حتى شبعوا وصارت أكثر مما كانت قبل ذلك ، فنظر إليها أبو بكر فقال لامرأته : يا أخت بنى فراس ، ما هذا ؟ قالت : لا وقُرّة عينى لهى الآن أكثر منها قبل ذلك بثلاث مرات ! فأكل منها أبو بكر وقال : إنما كان ذلك من الشيطان (يعنى يمينه) ثم أكل منها لقمة ثم حملها إلى النبى ﷺ فأصبحت عنده ، وكان بيننا وبين قوم عهد فمضى الأجل فتفرقنا اثنى عشر رجلاً مع كل رجل منهم أناس ، الله أعلم كم مع كل رجل ، فأكلوا منها أجمعون .

---

(١) آل عمران : ٣٧ (٢) الكهف : ١٦ – ١٧

وفى رواية : فحلف أبو بكر لا يطعمه ، فحلفت المرأة لا تطعمه ، فحلف الضيف - أو الأضياف - أن لا يطعمه - أو يطعموه - حتى يطعمه ، فقال أبو بكر : هذه من الشيطان ! فدعا بالطعام فأكل وأكلوا ، فجعلوا لا يرفعون لقمة إلا ربت من أسفلها أكثر منها ، فقال : يا أخت بنى فراس ، ما هذا ؟ قالت : وقُرَّة عينى إنها الآن لأكثر منها قبل أن نأكل ، فأكلوا وبعث بها إلى النبى ﷺ، فذكر أنه أكل منها .

وفى رواية : أنّ أبا بكر قال لعبد الرحمن : دونك أضيافك فإنى منطلق إلى النبى ﷺ فافرغ من قراهم قبل أن أجئ ، فانطلق عبد الرحمن فأتاهم بما عنده ، فقال : اطعموا . فقالوا : أين رب منزلنا ؟ قال : اطعموا . قالوا : ما نحن بآكلين حتى يجئ رب منزلنا ، قال : اقبلوا عنا قراكم فإنه إن جاء ولم تطعموا لنلقين منه ، فأبوا فعرفت أنه يجد علىّ ، فلما جاء تنحيتُ عنه ، فقال : ما صنعتم ؟ فأخبروه ، فقال : يا عبد الرحمن ، فسكتُ ، ثم قال : يا عبد الرحمن ، فسكت ، فقال : يا غنثر ، أقسمت عليك إن كنت تسمع صوتى لما جئت ، فخرجت فقلت : سل أضيافك ، فقالوا : صدق ، أتانا به ، فقال : إنما انتظرتمونى، والله لا أطعمه الليلة ، فقال الآخرون : والله لا نطعمه حتى تطعمه ، قال : ويلكم ، ما لكم لا تقبلون عنا قراكم ؟ هات طعامك ، فجاء به فوضع يده فقال : بسم الله ، الأولى من الشيطان ، فأكل وأكلوا [1] .

قوله : « غُنْثر » - بغين معجمة مضمومة ثم نون ساكنة ثم ثاء مثلثة - وهو: الغبى الجاهل . وقوله : « فجدع » أى شتمه ، والجدع : القطع . قوله : « يجِد علىّ » - هو بكسر الجيم : أى يغضب .

- وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس مُحَدَّثون ، فإن يكن فى أمتى أحد فإنه عمر » ، رواه البخارى ، ورواه مسلم من رواية عائشة ، وفى روايتهما : قال ابن وهب : «محدَّثون » أى مُلْهَمُون .

---

(١) متفق عليه .

– وعن جابر بن سمرة رضى الله عنهما قال : شكا أهل الكوفة سعداً (يعنى ابن أبى وقاص) رضى الله عنه إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فاستعمل عليهم عماراً ، فشكوا حتى ذكروا أنه لا يُحسن يُصلّى ، فأرسل إليه فقال : يا أبا إسحاق ، إنّ هؤلاء يزعمون أنك لا تُحسن تُصلّى ، فقال : أما أنا والله فإنى كنت أصلّى بهم صلاة رسول الله ﷺ لا أخرم عنها ، أصلى صلاتى العشاء فأركد فى الأولين وأخف فى الأخريين ، قال : ذلك الظن بك يا أبا إسحاق ، وأرسل معه رجلاً أو رجالاً إلى الكوفة يسأل عنه أهل الكوفة ، فلم يدع مسجداً إلا سأل عنه ويثنون معروفاً ، حتى دخل مسجداً لبنى عبس فقام رجل منهم يقال له « أسامة بن قتادة » يكنى « أبا سعدة » ، فقال : أما إذ نشدتنا فإن سعداً كان لا يسير بالسرية ، ولا يقسم بالسوية ، ولا يعدل فى القضية . قال سعد : أما والله لأدعون بثلاث : اللّهم إن كان عبدك هذا كاذباً ، قام رياءً وسمعة ، فأطل عمره ، وأطل فقره ، وعرِّضه للفتن ! وكان بعد ذلك إذا سئل يقول : شيخ كبير مفتون أصابتنى دعوة سعد . قال عبد الله بن عمير – الراوى عن جابر بن سمرة –:فأنا رأيته بعد قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر ، وإنه ليتعرض للجوارى فى الطرق فيغمزهن [1] .

– وعن عروة بن الزبير أن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل رضى الله عنه خاصمته أروى بنت أوس إلى مروان بن الحكم وادعت أنه أخذ شيئاً من أرضها ، فقال سعيد : أنا كنت آخذ من أرضها شيئاً بعد الذى سمعت من رسول الله ﷺ ! قال : ماذا سمعت من رسول الله ﷺ ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَن أخذ شبراً من الأرض ظلماً طوقه إلى سبع أرضين » فقال له مروان : لا أسألك بيِّنة بعد هذا ، فقال سعيد : اللّهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها ، واقتلها فى أرضها ، قال : فما ماتت حتى ذهب بصرها ، وبينما هى تمشى فى أرضها إذ وقعت فى حفرة فماتت [2] .

(١) متفق عليه .　　(٢) متفق عليه .

وفى رواية لمسلم عن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بمعناه ، وأنه رآها تلتمس الجُدُر تقول : أصابتنى دعوة سعيد ، وأنها مرت على بئر فى الدار التى خاصمته فيها فوقعت فيها فكانت قبرها .

– وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : لما حضرت « أحد » دعانى أبى من الليل فقال : ما أرانى إلا مقتولاً فى أول مَن يُقتل من أصحاب النبى ﷺ ، وإنى لا أترك بعدى أعز علىّ منك غير نفس رسول الله ﷺ ، وإن علىّ دَيْناً فاقض واستوص بأخواتك خيراً ، فأصبحنا فكان أول قتيل ، ودفنت معه آخر فى قبره ، ثم لم تطب نفسى أن أتركه مع آخر فاستخرجته بعد ستة أشهر فإذا هو كيوم وضعته ، غير أذنه ، فجعلته فى قبر على حدة [١] .

– وعن أنس رضى الله عنه أنّ رجلين من أصحاب النبى ﷺ خرجا من عند النبى ﷺ فى ليلة مظلمة ومعهما مثل المصباحين بين أيديهما ، فلما افترقا صار مع كل واحد منهما واحد حتى أتى أهله ، رواه البخارى من طرق ، وفى بعضها : أنّ الرجلين أُسيد بن حضير ، وعباد بن بشر ، رضى الله عنهما .

– وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : بعث رسول الله ﷺ عشرة رهط عيناً ، وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصارى رضى الله عنه ، فانطلقوا حتى إذا كانوا بـ « الهداة » بين عسفان ومكة ، ذكروا لحى من هذيل يقال لهم بنو لحيان فنفروا لهم بقريب من مائة رجل رام ، فاقتصوا آثارهم ، فلما أحس بهم عاصم وأصحابه لجأوا إلى موضع فأحاط بهم القوم ، فقالوا : انزلوا فأعطوا بأيديكم ولكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم أحداً . فقال عاصم بن ثابت : أيها القوم، أما أنا فلا أنزل على ذمة كافر ، اللّهم أخبر عنا نبيك ﷺ . فرموهم بالنبل فقتلوا عاصماً ، ونزل إليهم ثلاثة نفر على العهد والميثاق ، منهم خبيب ، وزيد بن الدثنة ، ورجل آخر ، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فربطوهم ، قال الرجل الثالث : هذا أول الغدر ، والله لا أصحبكم ، إنّ لى بهؤلاء أُسوة

(١) رواه البخارى .

(يريد القتلى) فجروه وعالجوه فأبى أن يصحبهم فقتلوه ، وانطلقوا بخبيب وزيد بن الدثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر ، فابتاع بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف خبيباً ، وكان خبيب هو قتل الحارث يوم بدر ، فلبث خبيب عندهم أسيراً حتى أجمعوا على قتله ، فاستعار من بعض بنات الحارث موسى يستحد بها فأعارته ، فدرج بُنَيٌّ لها وهى غافلة حتى أتاه فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده ففزعت فزعة عرفها خبيب ، فقال : أتخشين أن أقتله ؟ ما كنت لأفعل ذلك . قالت : والله ما رأيت أسيراً خيراً من خبيب ، فوالله لقد وجدته يوماً يأكل من عنب فى يده الموثق بالحديد وما بمكة من ثمرة ، وكانت تقول : إنه لرزق رزقه الله خبيباً ، فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه فى الحل قال لهم خبيب : دعونى أصلى ركعتين ، فتركوه فركع ركعتين فقال : والله لولا أن تحسبوا أنَّ ما بى جزع لزدت ، اللَّهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تُبق منهم أحداً ، وقال :

فلستُ أبالـى حيـن أُقتل مسلماً ... على أى جنب كان فى الله مصرعى

وذلك فى ذات الإلٰـه وإن يشـأ ... يبارك علـى أوصـال شلو ممزع

وكان خبيب هو سَنَّ لكل مسلم قُتِلَ صبراً الصلاة ، وأخبر (يعنى النبى ﷺ) أصحابه يوم أصيبوا خبرهم ، وبعث ناس من قريش إلى عاصم بن ثابت حين حدثوا أنه قُتِل أن يؤتوا بشئ منه يُعرف ، وكان قتل رجلاً من عظمائهم ، فبعث الله لعاصم مثل الظلة من الدبر فحمته من رسلهم فلم يقدروا أن يقطعوا منه شيئا [(١)] .

قوله : « الهداة » موضع . و « الظلة » : السحاب . و « الدبر » : النحل . وقوله : « اقتلهم بدداً » - بكسر الباء وفتحها - فمن كسر قال : هو جمع بِدة بكسر الباء وهى : النصيب ومعناه : متفرقين فى القتل واحداً بعد واحد ، من التبديد .

---

(١) رواه البخارى .

وفى الباب أحاديث كثيرة صحيحة سبقت فى مواضعها من هذا الكتاب . منها حديث الغلام [١] الذى كان يأتى الراهب والساحر . ومنها حديث جريج [٢]، وحديث أصحاب الغار [٣] الذين أطبقت عليهم الصخرة ، وحديث الرجل الذى سمع صوتاً فى السحاب [٤] يقول : اسق حديقة فلان ، وغير ذلك . والدلائل فى الباب كثيرة مشهورة ، وبالله التوفيق .

– وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : ما سمعتُ عمر رضى الله عنه يقول لشىء قط لأظنه كذا ، إلا كان كما يظن [٥] .

* * *

هذا ما ذكره الشيخ النووى فى كتابه « رياض الصالحين » عن كرامات الأولياء وفضلهم ، وبه تعرف وجود الكرامة ووجوب الإيمان الشرعى بها . وفى كتب التوحيد عادة تبحث قضية الكرامات والخوارق للعادات بشكل عام فيذكرون هناك المعجزة والإرهاص والكرامة والإهانة والاستدارج ، ومن المعلوم أنّ السحر لا يدخل فى باب الخوارق لأنه جزء من عالم الأسباب . والكرامة على نوعين : منها ما هو خرق لعادة ، ومنها ما كان على مقتضى عالم الأسباب ، ولكنه من مظاهر التوفيق الإلهى ويسميه العلماء : « معونة » ، والتفريق بين أنواع الخوارق للعادات ومعرفة كل منها – كل ذلك – من مباحث علم التوحيد فلتراجع هناك ، والذى نحب أن نقف عنده هنا هو : أنّ الكرامة ثابتة شرعاً ، وأنّ هذا يكاد يكون من المعلوم من الدين بالضرورة ولكن التمييز بينها وبين أنواع الخوارق الأخرى دقيق جداً ، كما أن التمييز بين الخوارق وبين السحر أصلاً يحتاج إلى دقة كثيرة . وكل ذلك ليس محل بحثنا هنا ، وإنما محل بحثنا هنا نقطتان ، النقطة الأولى : أنّ الكرامة وقعت وتقع فى دوائر التصوف ، وأنّ أعداء

---

(١) انظر الحديث رقم ٣٠ ص ١٧
(٢) انظر الحديث رقم ٢٥٩ ص ٨٨
(٣) انظر الحديث رقم ١٢ ص ٦
(٤) انظر الحديث رقم ٥٦٠ ص ١٦٩
(٥) رواه البخارى .

التصوف بشكل عام يحاولون أن ينكروا أن تكون هناك كرامة أصلاً تقع للمنتسبين للتصوف ، بل هم يحاولون أن يعطوا هذه الكرامات أسماء أخرى وهذا خطأ وغلو . لقد ذكرنا من قبل أن ابن تيمية رحمه الله ذكر أن كرامات الشيخ عبد القادر الجيلانى منقولة تواتراً ، بل كان الشيخ ابن تيمية لا يذكر الشيخ الجيلانى إلا ويعقب على ذلك بقوله : « قدّس الله سره » ، فإنكار أصل الكرامة لطبقات الصوفية إنكار غير علمى وليس فى محله ، وأهم ما ينصب عليه الإنكار ما يحدث لأهل الطريقة الرفاعية من كون النار لا تؤثر فيهم ، ومن كونهم يضربون أنفسهم بالرصاص أو بالسيوف ولا يؤثر ذلك فيهم ، وهذه قضية منتشرة ومشتهرة مُحسّة وقد تتبعها الكثير من المنكرين فرجعوا عن الإنكار ، والواقع المشاهَد أنّ ما يحدث لهؤلاء لا يمكن أن يكون سحراً ، لأن السحر جزء من عالَم الأسباب وهنا لا تجد لعالَم الأسباب محلاً، كما أنه لا يمكن أن يكون من باب الرياضات الروحية لأن هؤلاء قد تحدث للواحد منهم هذه الخوارق من دون رياضة روحية أصلاً بل بمجرد أن يأخذ البيعة عن الشيخ ، بل أحيانا بدون بيعة ، وقد حدثنى مرة نصرانى عن حادثة وقعت له شخصياً وهى حادثة مشهورة معلومة جمعنى الله بصاحبها شخصياً بعد أن بلغتنى الحادثة من غيره ، وحدثنى كيف أنه حضر حلقة ذكر فضربه أحد الذاكرين بالشيش فى ظهره فخرج الشيش من صدره حتى قبض عليه بيده ثم سحب الشيش منه ولم يكن لذلك أثر أو ضرر .

إن هذا الشئ الذى يجرى فى طبقات أبناء الطريقة الرفاعية ويستمر فيهم هو من أعظم فضل الله على هذه الأمة إذ مَن رأى ذلك تقوم عليه الحُجّة بشكل واضح على معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء . إن مَن يرى فرداً من أفراد الأمة الإسلامية يمسك النار ولا تؤثر فيه ، كيف يستغرب أنّ يُقذف إبراهيم فى النار ولا تؤثر فيه ؟ وإنّ مَن يرى فرداً من أفراد أمة محمد عليه الصلاة والسلام يخرج السيف من ظهره بعد أن يُضرب به فى صدره ثم يُسحب السيف ولا أثر ولا ضرر ، هل يستغرب مثل هذا حادثة شق صدره عليه الصلاة والسلام ؟

إنّ هذا الموضوع مهم جداً ولا يجوز أن نقف منه موقفاً ظالماً ومحله فى إقامة الحُجّة فى دين الله على مثل هذه الشاكلة ، إنّ الحُجّة الرئيسية لمنكرى هذا الموضوع هى أنّ هذه الخوارق تظهر على يد فُسّاق من هؤلاء ، كما تظهر على يد صالحين وهذا صحيح . والتعليل لذلك هو أنّ الكرامة ليست لهؤلاء بل هى للشيخ الأول الذى أكرمه الله عَزّ وجَلّ بهذه الكرامة وجعلها مستمرة فى أتباعه من باب المعجزة لرسولنا عليه الصلاة والسلام ، فهى كرامة للشيخ الذى هو الشيخ أحمد الرفاعى رحمه الله ، وقد تكون استدراجاً فى حق بعض أتباعه الفُسّاق وإنى لأطمع أن يوجد مَن يتتبع هذا الأمر من طلاّب العلم النشطين ويكتب فى هذه الطريقة وشيخها وأتباعه من يوم وجودها حتى عصرنا ، وأن يتتبع ما يجرى عند هؤلاء ، وأن يأخذ شهادات مَن شهده من أصناف شتّى .

ولقد استطردتُ فى هذا الموضوع لأنه ذروة ما ينصب عليه الإنكار ، وعلى كل حال فتسجيلى هنا لهذا الموضوع إنما هو لفت نظر وليس تحقيقاً فى كل حيثياته وخاصة حول متى يجوز أن يلمس الإنسان النار أو يضرب نفسه بمؤذ ومتى لا يجوز . مثل هذه الأمور لها أجوبتها الفقهية ورأيى فيها هو رأى الفقهاء كائناً ما كان ، وأهم شيء عندى - وهو الذى سجلتُ من أجله هذه النقطة- هو ألا نقف من الكرامات أصلاً موقف المنكر ، وألا نتعامل مع أهلها بحساسية ، بل أن نعطى للتحقيق مداه ، هذا هو الأصل .. فمن نقلت لنا كراماته نقلاً صحيحاً ولم يكن هناك مأخذ شرعى على صاحبها فما هو المانع أن نعتبر ذلك كرامة من الله عَزّ وجَلّ ؟ ولقد كان لبعض شيوخنا من الكرامات ما هو الظاهر والواضح ، وأكرر أننى أتمنى أن يُتابَع موضوع الكرامات مع غيره إلى نهاياته ، وأننى أعتبر الخدمة فى هذا الموضوع من أعظم الخدمات التى تقدّم لدين الله فى هذا العصر إذ أنّ الكرامات امتداد للمعجزات وهى من مظاهر حجج الله على خلقه بأن محمداً رسول الله ﷺ .

النقطة الثانية : يقول ابن عطاء فى حكمه : « ليس كل مَن ثبت تخصيصه كمل تخليصه » . وقال : « ربما رُزِق الكرامة مَن لم تكمل له الاستقامة » .

قدّمنا بهاتين العبارتين لهذه النقطة للتدليل عليها من كلام الصوفية أنفسهم .
إن بعض الصوفية يعتبرون الكرامة دليل الولاية ، ويعتبرون الولاية مظنة العصمة ، فمتى ظهرت كرامة على يد شيخ اعتبروا ذلك علامة على العصمة - وإن أعطوا العصمة هنا اسم الحفظ - ثم بنوا على ذلك وجوب الالتزام بالشيخ ووجوب استشارته فى كل شىء ووجوب الالتزام بكل ما قاله ، ويأخذون عنه الفتوى والسلوك فى كل أمر ، وهو موضوع يترتب عليه ما يترتب من فساد أحياناً .. يقول الإمام مالك : « إن من شيوخى مَن أستسقى به ولا أقبل حديثه » .. تأمل هذه العبارة العظيمة لتدرك ما نريده . إن أولياء هذه الأمة كثيرون ، وإنهم بفضل الله ليتكاثرون ، فإذا أعطت كل مجموعة من المسلمين شيخها صفة الإمامة المطلقة المحوطة بهالة الولاية فكم سيترتب على ذلك من انقسامات وتشتتات وأخطاء ؟ إنّ مَن ظهرت كرامته وكان مستقيماً فتلك مظنة ولايته وهو أهل لأن يُتبرك به وتُطلب دعواته ، ولكن إن لم يكن فقيهاً لا تؤخذ الفتوى عنه ، وإن لم يكن خبيراً باصطلاحات العلوم لا تؤخذ العلوم عنه ، وإذا لم يكن ذا وعى على ما يجرى حولنا فلا نسلمه قيادتنا فى أمور السياسة ، فالكرامة شىء وأن يكون لإنسان دور الإمامة شىء آخر .

هذا موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام.. لقد أعطى الخضر بعض الميزات ولكن مَن الأفضل هو أو موسى ؟ إنه موسى عليه السلام ، ومَن الذى أعطاه الله منصب الإمامة والقدوة ؟ إنه موسى عليه السلام . إنّ الفهم العميق للأمور ووضع كل شىء فى محله ومعرفة ما نأخذ من كل إنسان وما هو المحل الذى نضع فيه كل إنسان فى جسم هذه الأمة الإسلامية الكريم . إنّ هذا من أهم ملامح المسلم الواعى الحكيم .. إذا استوعبت كل ما مر فى هذا الباب من الكلام عن الكشف والرؤى والإلهام والكرامات فقد آن لك أن تستوعب بدقة كلام الأستاذ البنا رحمه الله حين قال فى « رسالة التعاليم » عند بند الفهم :

« ٣ - وللإيمان الصادق والعبادة الصحيحة والمجاهدة نور وحلاوة يقذفها الله فى قلب مَن يشاء من عباده ، ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية ولا تعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه .

٤ - والتمائم والرقى والودع والرمل والمعرفة والكهانة وادعاء معرفة الغيب، وكل ما كان من هذا الباب ، منكر تجب محاربته إلا ما كان آية من قرآن أو رقية مأثورة .

٥ - وكل أحد يُؤخذ من كلامه ويُترك إلا المعصوم ﷺ ، وكل ما جاء عن السَلَف رضى الله عنهم موافقاً للكتاب والسُنّة قبلناه وإلا فكتاب الله وسُنّة رسوله أولى بالاتباع ، ولكننا لا نعرض للأشخاص فيما اخْتُلِف فيه بطعن أو تجريح ونكلهم إلى نيّاتهم وقد أفضوا إلى ما قدّموا .

٦ - ومحبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عُرِف من طيب أعمالهم قُربة إلى الله تبارك وتعالى ، والأولياء هم المذكورون فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ (١) . والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية مع اعتقاد أنهم رضوان الله عليهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً فى حياتهم أو بعد مماتهم فضلاً عن أن يهبوا شيئاً من ذلك لغيرهم » .

والجزء الأخير من الفقرة الأخيرة من كلامه عليه الرحمة لنا عودة عليه فإلى باب آخر عن الشيخ والبيعة لما لأهمية ذلك فى قضية التصوف ولكثرة الأغلاط التى تحيط بهذا الموضوع .

* * *

---

(١) يونس : ٦٣

الباب الخامس عشر

قضية الشيخ والبيعة

قال تعالى : ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً ﴾ [1] . دلت هذه الآية على أنّ الغاية فى القُدرة على الهداية هو الولى المرشد ، إذ الآية تبيّن أنّ الولى المرشد نفسه لا يخرق مراد الله إذا أراد الله إضلال إنسان ، ومن ثَمّ نعلم أن الدعوة إلى الله عَزّ وجَلّ تكون أكمل ما تكون إذا وُجِدَ الولى المرشد ، وعندما يضع الإنسان يده بيد الولى المرشد يكون ذلك أجود ما يكون فى باب الهداية إلى الله وإلى طريقه ، وإذا كان الرسل عليهم السلام فى الأصل هم الهداة الحقيقيين إلى الله عَزّ وجَلّ فالأولياء المرشدون هم الوُرّاث الكاملون للأنبياء فى باب الدعوة إلى الله عَزّ وجَلّ ، ومن هذا المعنى الذى ذكرناه ندرك أهمية وجود الولى المرشد لصلاح الدعوة إلى الله عَزّ وجَلّ ، وإذ أحاط بهذا الأمر كثير من الخطأ والغلط والدعاوى الكاذبة والأوهام المضللة فلا بد أن نذكر الكثير الكثير حوله ، وسنعرض معانى متناثرة فى فقرات متوالية يضمها أنّ لها صلة بعنوان الفصل كل منها يوضح جانباً من جوانب هذا الموضوع .

١ - قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [2] يستشهد كثير من الصوفية بهذه الآية على أنّ الله عَزّ وجَلّ أمر بالكَون مع الصادقين ، ويعتبرون من حيث المبدأ أنهم هم الصادقون ، والذى

---

(١) الكهف : ١٧ — (٢) التوبة : ١١٩

نقوله إنّ الله عزّ وجل قد حدّد صفات الصادقين تحديداً دقيقاً ، فمن اتصف بهذه الصفات فهو الصادق، ومَن لم يتصف بذلك فليس كذلك ، فلنر هذه الصفات ..

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾[1].

وقال تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾[3] ، وقال تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾[4] . فالصادقون مؤمنون موقنون مصلون مزكون ، متقون صابرون، وافون بالعهود ، منتظرون أن يُقتلوا فى سبيل الله ، فالشيخ المربى ينبغى أن يكون متصفاً بهذه الصفات جميعاً ويربى عليها وإلا فلا يصح للكون معه ولا يكون ممن يستأهل مقام الإرشاد .

٢ – قال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾[5] . هذا تعريف لمجرد الولى . وهو مَن اجتمعت له صفتا الإيمان والتقوى ، والشيخ ينبغى أن يكون ولياً مرشداً أى له صفة الإرشاد فوق صفة الولى ، فمَن لم يكن مؤمناً تقياً كيف يسمى ولياً فضلاً عن أن يسمى ولياً

---

(١) الحجرات : ١٥ (٢) البقرة : ١٧٧ (٣) الأحزاب : ٢٣

(٤) الحشر : ٨ (٥) يونس : ٦٢ – ٦٤

مرشداً ؟ ومن ثَمَّ فينبغى أن يلاحظ الكثيرون هذا : أنّ الولاية جزء المشيخة ، وأنّ الولاية ركناها : إيمان وتقوى ، ولا إيمان ولا تقوى بلا التزام بكتاب الله وسُنّة رسول الله ﷺ .

من الفقرتين السابقتين ندرك بعض أمهات الصفات التى ينبغى أن يتصف بها الشيخ ، وإذا كان الشيخ مرشداً فلا شك أنّ إرشاده ينبغى أن يكون ضمن توجيهات الآية القرآنية : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ من كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١) .

من هذه الآية نفهم أنّ الإرشاد يقتضى فقهاً فى دين الله ، ثم إنذاراً. فمَن لم يكن فقيهاً لا يصلح لمقام الإنذار ، ومَن لم يقم بمهمة الإنذار لا يؤدى حق الله فى فقهه ، وذلك مظهر من مظاهر الوراثة الكاملة لرسل الله عليهم السلام : ﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (٢) والتفقه فى دين الله يقتضى فقهاً فى الكتاب والسُنّة وفقهاً فى الإيمان والإسلام والإحسان والتقوى والشكر ، ومَن لم يجتمع له الفقه فى هذا كله وتفصيلاته وما يلزم له لا يكون فقيهاً فى دين الله عزّ وجلّ ، ومَن لم يحسن التربية على هذا كله لا يصلح لمقام الإرشاد ، ومَن لا يحسن تعليم هذا كله وغيره لا يصلح لمقام الإرشاد الكامل – أى مقام الشيخ الذى يخدم خدمة كاملة فى موضوع السير إلى الله عزّ وجلّ .

٣ – قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (٣) . هذه الآية تحدد بعضاً من وجبات النبوّة وبالتالى بعضاً من صفات الوارث – أى الشيخ فى الاصطلاح الصوفى ، أى الولى المرشد فى الاصطلاح القرآنى ، فلا بد للشيخ أن يكون حكيماً يدعو إلى طريق الله بالحكمة ، والحكمة معنى زائد على مجرد العلم . قال تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْراً كَثِيراً ﴾ (٤) . فالحكمة عطاء من الله

(١) التوبة : ١٢٢
(٢) النساء : ١٦٥
(٣) النحل : ١٢٥
(٤) البقرة : ٢٦٩

عزّ وجلّ ، فقد يكون الإنسان عالماً بالكتاب والسُنّة ولكن لا يقول الكلمة المناسبة فى محلها ولا يتصرف التصرف المناسب . إنّ الحكيم هو الذى يقول الكلمة المناسبة ويتصرف التصرف المناسب ضمن حدود الشريعة ومن ذلك قضية الدعوة . والحكمة عطاء ربانى وتحتاج إلى توفيق ربانى فى الأنفاس والحركات، وكما أنّ الشيخ لا بد أن يكون حكيماً ، لا بد أن يكون قادراً على الموعظة الحسنة ، وما أكثر الذين يعظون ولا يحسنون ، وما أكثر الذين لا يعظون أصلاً ، كما أنّ الشيخ ينبغى أن يكون قادراً على النقاش وإقامة الحجة لا بالطريقة الحسنة فقط بل بالطريقة الحسنى ، وذلك كله من أدب الشيخ وينبغى أن يكون جزءاً من تكوينه ، ولا يتم هذا للشيخ إلا بعلم وتربية ومجالسة وذكر كثير . قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ (١) .. إن رجاء الله واليوم والآخر والذكر الكثير يوصلان إلى التأسى الكامل برسول الله ﷺ ويأتى تبعاً لذلك الكمال كله .

٤ - قال تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) . فالوارث - أى الشيخ - ينبغى أن يرث عن رسول الله ﷺ هذا فيذكّر الناس بآيات الله فى الكون والتاريخ ، ويربى النفس البشرية ويطهرها من عيوبها ويخلصها من أمراضها ، ويعلّم الناس كتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ إذ هى عين الحكمة ، ويعلّم الناس كل ما يلزمهم فى أمر دينهم من فقه إلى غيره .. وهذا لا يتأتى للشيخ إذا لم يكن عالماً فى الكتاب والسُنّة وقادراً على تربية النفس البَشرية محيطاً بعلوم الإسلام والثقافة الإسلامية عارفاً بعصره وبالتاريخ . وههنا يطرح الناس فكرة هى أنه لا يشترط فى الشيخ ذلك لأن كثيراً من كبار الأولياء تتلمذ عليهم كبار العلماء .

---

(١) الأحزاب : ٢١ (٢) البقرة : ١٥١

نقول : إننا لا ننفى أن يكون ولياً قادراً على التربية والهداية مع قصور باع فى علوم الكتاب والسُّنَّة والفقه وغير ذلك . ولا ننكر أن يستطيع مثل هذا أن يفيد كبار العلماء فى هذا الجانب ، ولكن هذا شىء والوارث الكامل شئ آخر، والشيخ الكامل والمرشد الكامل هوالذى نتحدث عنه ، والمشكلة الكبيرة أن كثيرين يعتبرون شيوخهم هم الورّاث الكاملين مع أنهم لم يرثوا عن رسول الله ﷺ إلا بعض الأمر ، والشيوخ أنفسهم يسكتون عن غلو تلاميذهم بهم بحجة أن المريد يستفيد بقدر ثقته بالشيخ ، إلا أنّ هذا يترك آثاراً سيئة فى المجتمع الإسلامى إذ لا يعرف مريد أمثال هؤلاء الشيوخ مَن الذين يشكلون القيادات الحقيقية للمسلمين ، ولقصور شيوخهم فى باب العلم فإنهم يفتونهم الفتاوى القاصرة فى الشئون العامة أو الخاصة وفى ذلك ما فيه من خلل ..

٥ - روى الإمام مسلم عن حنظلة بن الربيع الأسيدى - أحد كُتَّاب النبى ﷺ - قال : لقينى أبو بكر فقال : كيف أنت يا حنظلة ؟ قلت : نافق حنظلة . قال : سبحان الله ، ما تقول ؟ قلت : نكون عند رسول الله ﷺ يذكّرنا بالنار والجنة كأنّا رأى عين . وإذا خرجنا من عنده عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيراً . قال أبو بكر : فوالله إنّا لنلقى مثل ذلك . فانطلقتُ أنا وأبو بكر حتى دخلنا على النبى ﷺ فقلت : نافق حنظلة يا رسول الله . فقال : « وما ذاك »؟ قلت : نكون عندك تذكّرنا بالنار والجنة كأنّا رأى عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيراً . فقال صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده : لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فُرُشكم وفى طرقكم ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة - ثلاث مرات » .

من هذا الحديث نفهم أنّ لرسول الله ﷺ حالاً يترقى به أصحابه حتى إنه ليعدل الذِكر فى كون ملازم الجلوس عند رسول الله ﷺ يصل إلى ما يصل إليه الذاكر الدائم إلى حالة يمكن أن تصافحه بها الملائكة . وقد ذكر أصحاب رسول الله ﷺ فى روايات صحيحة عنهم كيف أنهم أنكروا قلوبهم بعد أن فرغوا من

دفن رسول الله ﷺ . كل هذا يدل على أنّ الأحوال القلبية كانت محسوسة من خلال مجالسة رسول الله ﷺ ووجوده بين الصحابة ، وأنّ من مظاهر هذا الحال أن يستشعر الصحابى وكأنه يرى الجنة والنار رأى عين ، من هذا كله ندرك أنّ الشيخ الوارث ما لم يكن عنده شىء من هذا الحال فإنه لا يكون وارثاً نبوياً كاملاً ، ومن خلال الواقع نجد أنّ الذين ليس لهم سير صوفى لا يستطيعون أن ينقلوا هذه الإحساسات إلى غيرهم،كما أنهم هم أنفسهم لا يستشعرون بها ، ومن ثَمّ فإننا نقول : إنّ كل طالب علم ينبغى أن يتحقق بهذه المعانى بسلوك الطريقة الموصلة إلى ذلك ، وإننا لنرجو أن يكون هذا الكتاب موضحاً لكل حيثيات هذا السلوك .

من خلال النصوص التى ذكرناها ندرك بعض صفات الولى المرشد أو الوارث الكامل أو المرشد الكامل أو الشيخ . فهو ولى مرشد حكيم داعية إلى الله معلّم لآيات الله معلّم للكتاب والسُنّة . قادر على تزكية النفس ، قادر على نقل القلب البشرى إلى آفاق الاستشعار لكثير من أمور الغيب ، قادراً على النقل إلى مقامات الإسلام ، وهذا كله يقتضى أن يتجمع فيه علم معيَّن وعمل معيَّن وحال معيَّن ليكون معلّماً مربياً من خلال القدوة والتعليم بآن واحد ، وعليه أن يتحقق بصفات الصادقين التى من جملتها الجهاد بالنفس والمال وقد رأينا أدلتها من قبل . هذه قضايا لها حكم البديهيات لنعطى إنساناً صفة الوارث الكامل لظهورها فى النصوص ووضوحها ، والآن لنر بعض ما يقوله الصوفية أنفسهم فى قضية الشيخ ننقلها مع شئ من التعليق مستأنسين بشرح بعض الشارحين :

« عار لمن لم يرض العلوما » أى لم يعانها ويمهر فيها حتى تصير طوع يده ليكون على بيِّنة من ربه ، « ويعلم الموجود والمعدوما » أى يعلم الوجود الواجب والوجود العارض والعدم الواجب والعدم العارض . « ولم يكن فى بدنه فقيهاً » أى ينبغى أن يكون الفقه هو السابق على كل شىء إذ لا ينبغى لإنسان أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه . « وسائر الأحكام ما يدريها » أى لا يعرف حكم الله فى الأمور التى تواجهه أو تصادفه أو يمكن أن يبتلى فيها .

« والحد والأصول واللسانا » المراد بالحد علم المنطق ، وبالأصول علم أصول الفقه ، وباللسان علوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة وغير ذلك . « والذكر والحديث والبرهانا » المراد بالذكر القرآن وبالحديث السُنَّة وبالبرهان علم العقائد التوحيدية . « ولم يكن أحكم علم الحال » المراد بعلم الحال علم التصوف ، أى ينبغى على الشيخ كذلك أن يتقن علم الحال والمقام بحيث يكون سلك طريق الأحوال ثم سكن فى المقامات . « ولا درى مقاصد الرجال » أى لا يستطيع أن يفهم عبارات العلماء فى تصريحهم وتوضيحهم وإشاراتهم ورموزهم وألغازهم ومقاصدهم فى ذلك كله . « ولم ينزه صفة العبود » بأن يعرف الله حق المعرفة منزهاً إياه عن الحدوث أو الحلول أو الاتحاد أو المشابهة أو المشاكلة أو غير ذلك مما لا يجوز عليه جَلَّ جلاله . « ولا درى مراتب الوجود » أى من وجود عارض ووجود واجب ووجود مشاهد ووجود مغيب . « والنفس والعقل معاً والروحا » أى لا يعلم على ماذا تُطلق كلمة النفس وعلى ماذا تُطلق كلمة العقل وعلى ماذا تطلق كلمة الروح ، ومتى يكون المحل واحداً ومتى يكون المراد مختلفاً وليس المراد معرفة الكنة كما مر معنا من قبل . « ويدرى منه صدره المشروحا » أى ولم يدر أيضاً معنى الصدر المشروح بالإسلام وما علامة شرحه من تجاف عن دار الغرور وإنابة إلى دار الخلود وغير ذلك . « وعلم سر النسخ والمنسوخ » أى ولم يعرف قضية الناسخ والمنسوخ فى الكتاب والسُنَّة لأنه بدون هذا العلم يَضل (بفتح الياء) ويُضِل (بضمها) . ثم قال الشيخ : « أن يتعاطى رتبة الشيوخ » أى مَن لم يجتمع له كل ما مَرَّ فعار عليه أن يتصدر للمشيخة ، وطبعاً المراد بها هنا الإرشاد الكامل ، أما ما سوى ذلك من نصيحة ومذاكرة وتعليم وإفادة بالمقال أو بالحال فهذا بابه مفتوح لأفراد الأمة . ففى الحديث : « بَلّغوا عنى ولو آية » .

وقال صاحب المباحث فى مكان آخر من قصيدته فى شأن الشيخ ما سنذكره مع شىء من التعليق الخفيف عليه : « وإنما القوم مسافرونا » السفر هنا عبارة عن الانتقال من مقام إلى مقام كالانتقال من مقام الإسلام إلى مقام الإيمان ثم إلى

مقام الإحسان ثم إلى مقام التقوى ثم إلى مقام الشكر ، ومن رؤية أفعال اللّه عَزَّ وجَلَّ إلى استشعار صفاته وأسمائه ، ومن عالم الحس إلى عالم المعنى ، ومن أمراض النفس إلى صحتها .. وكل ذلك قد مر من قبل . « لحضرة الحق وظاعنونا » أى مسافرون إلى اللّه عَزَّ وجَلَّ ومنتقلون فى سيرهم إليه من مقام إلى مقام : من مقام الغفلة إلى مقام اليقظة ، ومن مقام اليقظة إلى مقام الحضور .. إلى غير ذلك . « فافتقروا فيه إلى دليل » أى فافتقروا فى سفرهم هذا إلى دليل يدلهم على الطريق وهو الشيخ الذى من صفاته ما سيأتى بعد هذا الشطر . « ذى بصر بالسير والمقيل » أى لا بد أن يكون الشيخ بصيراً بأحوال السير ومنازله فيسيِّر كل مريد بحسب طاقته وجهده ويراعى احتياجات السالك إلى الراحة . « قد سلك الطريق ثم عادا » أى لا بد أن يكون الشيخ قد سلك طريق السلوك من بدايته إلى نهايته ثم عاد بعد أن عرف ليدل غيره ولذلك قال : « ليخبر القوم بما استفادا » أى ليخبر المريدين بما استفاده من علوم الأذواق وأنورا الشهود ولذلك قالوا : لا بد للشيخ أن يكون له علم صحيح وذوق صريح وهمة عالية وحالة مرضية . « وجاب منها الوهد والآكاما » الوهد : المكانُ المنخفض . والآكام جمع أكمة : وهى المكان المرتفع ، وجاب بمعنى نقب وقطع وههنا بمعنى : دخل وسلك ، والمراد أنَّ الشيخ ينبغى أن يكون ذاق طعم الخمول والذلة على المؤمنين والعزلة الهادفة وأمثال ذلك مما هى بمثابة المنخفضات فى الطريق إلى اللّه ، كما ذاق طعم المشقات فى الطريق من آمر بمعروف ونهى عن منكر وجهاد ومجاهدة . « وراض منها الرمل والرغاما » راض المكان : اختبره ، والرغام : التراب ، والمراد أنَّ الشيخ ينبغى أن يكون عارفاً بالطريق لينها الذى يشبه الرمل وصعبها الذى يشبه التراب الصلب ، وبالتالى فإنه يسيِّر كل مريد على حسب همته وعلى حسب الطريقة المناسبة له من طول وقصر وصعوبة وسهولة . « وجال فيها رائحا وغاديا » أى يُشترط فى الشيخ أن يكون ماهراً فى الطريق سار فيه صباح مساء إشارة إلى علم البدايات والنهايات . « وسار كل فدفد وواديا » . الفدفد : الموضع الذى فيه غلظ وارتفاع ، والوادى : المسيل ، وأشار

بالفدفد والوادى إلى ما يلقاه المريد من الامتحانات والتسهيلات والتوفيقات والعطاءات . « وعلم المخوف والمأمونا » أى يعلم الأمور التى يخاف على المريد منها فيأمره بالبعد عنها كالركون إلى التعظيم والتبجيل والدعة والكسل والدنيا، ويعلم الأمور التى ينال بها المريد الرضا من الله عَزَّ وجَلَّ حتى يكون من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون من إقامة الفرائض والإكثار من النوافل ومن صحبة الصالحين وموالاة أهل الحق . « وعرف الأنهار والعيونا » . الأنهار هنا : علوم الشريعة . والعيون هنا : منابع الفطرة ، فالشيخ يعرف علوم الشريعة ويعرف كيف تتفجر ينابيع الفطرة وكيف يفجِّرها . « قد قطع البيداء والمفاوز » البيداء : الصحراء . والمفاوز : جمع مفازة وهى الصحراء الشاسعة الأطراف ، والمراد بالبيداء هنا: أرض النفس حال شهوانيتها ورعوناتها ، والمراد بالمفاوز: المسافات البعيدة عن رضوان الله عَزَّ وجَلَّ . « وارتاد كل حابس وحاجز » الارتياد : هو التقدم أمام القوم لاختبار الأمكنة وما فيها ، والحابس : هو الذى يحبسك عن بلوغ المراد ، والحاجز: هو الذى يحجز بينك وبين مرادك ، فلا بد للشيخ أن يعرف ما يحبس السير من وقوف عند مظهر الكون مثلاً ، وأن يعرف ما يحجز من الوصول إلى الله من ملل من المجاهدة وركون إلى الراحة وغير ذلك. « وحَلَّ فى منازل المناهل » المنهل : هو الموضع الذى ينزله الركب بشرط أن يكون فيه ماء ، والمعنى أنه يُشترط فى الشيخ أن يكون حَلَّ فى منازل السائرين من يقين وورع وزهد وخوف ورجاء وتوكل وصبر ورضا وتسليم ومشاهدة وتزكية وفناء عما سوى الله وبقاء فى الله . « وكل شرب كان منه ناهل» الناهل : الشارب ، أى يُشترط فى الشيخ أن يكون قد شرب من مياه هذه المقامات بأن ذاقها وتحقق بها . « فعندما قام بهذا الخطب » الخطب : هو الشأن الجسيم ، أى عندما تحقق بهذه الأمور كلها التى مرت معنا من بداية هذه الأبيات . « قالوا جميعاً أنت شيخ الركب » قال له إخوانه وشيوخه وعارفوه : لقد وصلت إلى رتبة المشيخة وآن لك أن تجاز بالتسليك إلى ملك الملوك . «والسفر المذكور بالقلوب » أى السفر الذى مر معنا فيما مضى هو سفر القلوب إلى حضرة علاَّم

الغيوب ، وهو بالتفصيل من أربعة مواطن إلى أربعة مواطن : من موطن الذنب والغفلة إلى موطن التوبة واليقظة ، ومن موطن الحرص على الدنيا إلى موطن الزهد فيها وطلب الآخرة ، ومن موطن مساوىء النفوس وعيوب القلوب إلى موطن التخلية منها والتحلية بأضدادها ، ومن شهود الكون إلى شهود رب الكون : « اعبد اللّٰه كأنك تراه » ، ثم يكون بعد ذلك سير . « والشيخ بمنزلة الطبيب » فكما أنّ الشيخ بمثابة شيخ الركب فى معرفة الطريق فهو أيضاً بمثابة الطبيب للقلوب . « يعلم منها الغث والسمينا » الغث : اللحم الذى ليس سميناً . والمراد بالغث هنا : القلب الضعيف من العلم والعمل والحال والضعيف اليقين والخافت النور ، والمراد بالسمين:القلب الملئ بالعلم والعمل والنور والحال والمعرفة ، فالشيخ ينبغى أن يكون بصيراً بهذا وهذا ويسير بهذا وهذا على مقتضى ما يناسب كلا منهما . « ويدرك الصلب معا واللينا » الصلب : الشديد اليبوسة . واللين : ما قابل ذلك ، والمراد بالقلب هنا : القلب القاسى من كثرة الذنوب والغفلة أو القلب الشديد على أعداء اللّٰه ، والمراد باللين هنا : القلب الخاشع أو القلب الرحيم بخلق اللّٰه ، فالشيخ يعرف طبيعة هذا وهذا ويسيِّر كل إنسان بما هو مؤهل له أو بما يناسب حاله نحو الأرقى فى حقه بما يحقق الحكمة التى جعل اللّٰه عَزَّ وجَلَّ بها قلوب عباده متفاوتة . « قد أحكم التشريح والمفاصل » المراد بالتشريح هنا : المعرفة بعلاج الأمراض القلبية والنفسية والروحية ، والمراد بالمفاصل هنا : معرفة علاج الجوارح ، والمراد أنّ الشيخ يعرف واجبات القلب وواجبات الجسد ويعرف كيف يداوى انحراف القلب وانحراف الجسد . « وصار علم الطب فيه حاصل » أى حصل أمر الطب الدينى كله حتى أصبح علم الطب كله فيه – أى عنده ، فهو قادر على أن يعالج كل حالة تواجهه على أى مستوى فى قلب الإنسان أو فى جسده ليكون على مقتضى الشرع . وفى محل هذا الإنسان مع غيره من المسلمين ، وفى موقف المسلمين من غيرهم بالفتوى والإرشاد والنصيحة والتربية والتأديب والجهاد وغير ذلك . « وكان عشّاباً وصيدلانى » . العشّاب : هو الذى يعرف أعيان

الأعشاب ومنافعها وخواصها ، والصيدلانى : هو الذى يعرف أنواع الأدوية والعقاقير ، والمراد أنَّ الشيخ كما أنه طبيب يصف الداء ويصف الدواء فإنه فى الوقت نفسه يعرف الأدوية وخواصها ويعرف كيف يركبها فهو طبيب وصيدلى بآن واحد فى قضايا أمراض القلوب . « قدحاً وكحّالاً ومارستانى » . القدح فى اصطلاح الأطباء قديماً : هو جراحة العيون ، وجراح العيون قديماً كان يسمى القدّاح ، والكحّال : هو الذى يعرف أدوية العين ويعالجها بالكحل ، والمارستانى : هو المدير العام للمستشفى العام للأمراض المتعددة ، والمراد أنَّ الشيخ ينبغى أن يكون خبيراً بجراحة عين البصيرة ومداواتها عارفاً بمجموع الأمراض قادراً على مداواة أصحابها جميعاً . « أمهر فى الأعراض والأخلاط » الأعراض : ما يطرأ على الجسم من حالات ، والأخلاط : ما اجتمع فى المعدة من العلل الناشئة عن اختلاط الأغذية المختلفة . « من أسقلا جالينوس أو بقراط » جالينوس وبقراط طبيبان . والأسقل كما يبدو : كتابهما الطبى ، ومراد المؤلف أنَّ الشيخ ينبغى أن يكون أمهر فى علم القلوب ومداواتها من هذين الطبيبين فى تطبيب الأجساد ، ومراده بالأعراض ما يعرض للمريد من القواطع والشواغل كميله للرئاسة والجاه وتقدمه للتصدر فى شأن قبل الكمال فيه وأمثال ذلك ، وأراد بالأخلاط : الخواطر الرديئة والمقاصد الدنيئة التى يمكن أن تشوش حال بعض المريدين . « ويعلم البسيط والمركبا » البسيط : هو ههنا : القلب غير المعقد والمركّب هنا : هو القلب المعقد ، أو البسيط هو ما كان أقرب إلى الفِطرة، والمركّبِ هو الذى خالط الفِطرة فيه ما عكرها ، فالشيخ ينبغى أن يكون عارفاً بهذا وهذا وما يصلح لكل ، وكيف يسيِّر كلا من أصحاب هذين القلبين.

« وما بدا منها عليه واختبا » بعض أخلاق القلوب تظهر بشكل واضح فى سلوك الإنسان وبالتالى يسهل على الإنسان اكتشافها ، وبعض قضايا القلوب تكون غامضة وتحتاج إلى فراسة دقيقة لإدراكها ، والشيخ ينبغى أن يكون ذا بصيرة وفراسة يدرك فيها حال مريده الظاهر والخفى . « والطبع والمزاج والتركيبا » الطبع : ما جُبِلَ عليه الإنسان من خوف أو شجاعة أو كرم أو بخل ،

والمزاج هنا : التركيب النفسى للإنسان من كونه بارد الطبع أو حاره ، أو حاد المزاج أو هادئة . والتركيب هنا : اختلاط الشىء بغيره كاختلاط الأصيل بالدخيل والعليل بالسليم . فالشيخ ينبغى أن يكون عارفاً بالطباع والسجايا والأمزجة والاختلاطات النفسية والقلبية ، وعلى ضوء هذه المعرفة يسيِّر أصحابها بما يصلحهم ويقربهم إلى الله بما يحقق الحكمة على ضوء الشريعة ، وكما ينبغى أن يكون عارفاً ذلك كله ينبغى أن يعلم . « والكون والتحليل والترطيبا » المراد بالكون هنا : واقع الإنسان من صحة أو مرض ، والمراد بالتحليل هنا : تذويب ما تعقد فى قلب الإنسان من علل ، والمراد بالترطيب هنا : المعرفة بطرق تليين ما صلب ويبس من القلوب ، والمعنى أنَّ الشيخ ينبغى أن يكون ماهراً بأحوال القلوب عارفاً بعللها عالماً بعلاجها مهما كان شأنها وواقعها ، فالأمراض القلبية بإرشاداته تتحلل ، وجفوة القلوب بمجالسته ومذاكرته تزول . « فعندما صَحَّ له التحصيل » أى بعدما حصل هذه المقامات التى مرت معنا كلها على التمام والكمال . « يمه السقيم والعليل » أى قصده المرضى على اختلاف أنواع أمراضهم . « فكان يبريهم من الأمراض » أى يشفيهم بإذن الله من الأمراض القلبية والنفسية مما مَرَّ معنا بعضها . « والساخط القلب يعود راضى » أى مَن كان قلبه ساخطاً أصبح بعد الشفاء راضياً ، فمن علامات الشفاء الرضا عن الله فى كل حال ولذلك كان من دعاء المسلم : « والحمد لله على كل حال ، ونعوذ بالله من حال أهل النار » .

« وليس هذا طب جالينوس وإنما يختص بالنفوس »

هذا تنبيه من المؤلف على أنَّ الطب المذكور فى الأبيات ليس هو طب الأبدان ، بل طب النفوس لتستقيم على أمر الله ، وطب القلوب لتصح من الأمراض والعيوب فتنخرط فى سلك مَن أتى الله بقلب سليم .

« فهكذا الشيوخ قدماً كانوا يا حسرتى إذ سلفوا وبانوا »

كأن الشيخ يريد أن يقول إنه لم يبق من هذا النوع من الشيوخ أحد ، وهى كلمة تقال للتحسر ولرفع الهمة للوصول إلى رتبة المشيخة بحق وإلا فإنَّ الأمة لم

تخل من الوُرّاث الكاملين فى كل عصر والحمد لله . ومَن عرف شيخنا محمداً الحامد رحمه الله عرف ما قلناه .....

فى المجموعة الثانية من الأبيات التى نقلناها ذكر صاحب المباحث ثلاث نقاط رئيسية فى قضية الشيخ ، وعرف كل خفاياه حتى أصبح قادراً على أن يدل أصناف الخلق جميعاً .

أولاً : أن يكون الشيخ قد سار فى الطريق من مبداه إلى منتهاه على هذا الطريق .

ثانياً : أن يكون الشيخ بصيراً بأنواع القلوب وأنواع أمراضها قادراً بإذن الله على تطبيبها .

ثالثاً : أن يكون عارفاً بأنوآع الأدوية القلبية وما يناسب منها للأدواء .

والآن لنر بعض عبارات ابن عطاء فى الشيخ ، قال ابن عطاء :

« لا تصحب مَن لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله ، ربما كنتَ مسيئاً فأراك الإحسان منك صحبتك إلى مَن هو أسوأ حالاً منك » . « ولأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه ، فأى علم لعالم يرضى عن نفسه ، وأى جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه » . « مَن رأيته مجيباً على ما سئل ومعبراً عن كل ما شهد وذاكراً كل ما عَلِم فاستدل بذلك على وجود جهله » . « تسبق أنوار الحكماء أقوالهم فحيث صار التنوير وصل التعبير ، كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذى منه برز ، مَن أُذِنَ له فى التعبير فُهِمت فى مسامع الخلق عبارته وجليت إليهم إشارته . ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار إذا لم يؤذن لك فيها بالإظهار ، عباراتهم إما لفيضان وجد أو لقصد هداية مريد . فالأول حال السالكين ، والثانى حال أرباب المكنة وَالمحققين ، والعبارة قوت لعائلة المستمعين . وليس لك إلا ما أنت له آكل ، ربما عبَّر عن المقام مَن استشرف عليه ، وربما عبَّر عنه مَن وصل إليه ، وذلك يلتبس إلا على صاحب البصيرة » .

بعد أن رأينا نموذجاً من النصوص ونموذجاً من كلام الصوفية مما ندرك به قضية الشيخ لنتساءل الآن : إذا كانت هذه مهمة الشيخ فى تربيته للمريد من جانب علمى وروحى ، يبقى أن نتبين ما هى مهمة الشيخ فى عصرنا الذى استشرت فيه الردّة وسيطر فيه الكفر ؟ وما تأثيرات ذلك وانعكاساته على تربية المريدين ؟ ثم ما هى مهمة الشيخ فى عصر لم يعد للمسلمين فيه دولة ؟ وكيف تكون الصلة بينه وبين غيره ؟ وهكذا ... ليكون المسلمون صفاً واحداً ويداً واحدة وجماعة واحدة .

لأشرح تصورى عن هذا الموضوع وبعد ذلك نقف وقفات ، تبدأ رحلة الأمة المريضة إلى الصحة بوجود المجدِّد ونوّابه الذين ينقلون الإنسان إلى صحته فى جوانب ثلاثة : الالتزام ، والخصائص ، والثقافة .

فى رسالتنا التى عنوانها « من أجل خطوة إلى الأمام على طريق الجهاد المبارك » ذكرنا بعض مظاهر المرض فى الأمة الإسلامية أو فى بعض منها ، وقلنا هناك باختصار إنّ الطريق إلى الصحة يبدأ بوجود نموذج الصحة الأول المتمثل بالنسبة للأمة الإسلامية فى كل عصر أو قرن أو جيل بالمجدِّد ثم بالوُرّاث الكاملين الذين ينطلقون فى عملية التجديد حتى نهاياتها ، مبتدئين بإيجاد المسلم الكامل ، ومنتهين بإعلاء كلمة الله حيث وصلت إلى ذلك قدراتهم .

وهناك فى رسائل أخرى من هذه السلسلة تحدثنا كثيراً عن الدواعى التى تجعل نقطة البداية فى الصحة هى المجدِّد ، وكيف أنّ الأستاذ البنا رحمه الله هو نقطة البداية هذه ، وعلى ضوء نظريات المجدِّد فى العمل التجديدى لحياة الإسلام والمسلمين لا بد أن ينطلق الوُرّاث ليصوغوا المسلم صياغة كاملة ويرتقوا بكل مسلم إلى قمته التى تستأهلها طاقاته وهمته واستعداداته . وهذا يعنى بشكل مبدئى أن توجد طبقة من الوُرّاث تغطى احتياجات هذه الأمة .

وذكرنا فى أكثر من رسالة من هذه السلسلة أنّ اصطلاح النائب فى كلام الأستاذ البنا رحمه الله هو الذى يقابل كلمة الوارث الكامل أو الشيخ أو غير ذلك مما اصطلح عليه الناس كرمز إلى عالِم عامل مرب .

وتكلمنا كثيراً فى هذه السلسلة عن العمل الإسلامى والتربية الإسلامية . وههنا نحب أن نبرز نقطة فقط وهى : ما هى مهمة الوارث الأولى فى تكوين الإنسان المسلم فى عصرنا ؟ لا شك أنَّ هناك ثلاث دوائر يحتاجها المسلم المعاصر وهى التى تحتوى كل ما يمكن أن يتصوره أحد فى باب تكوين المسلم سواء أكان المتصور صوفياً أو فقيهاً أو مجاهداً . هذه الدوائر الثلاث هى : العلم ، والأخلاق الأساسية وما يتفرع عنها ، ولزوم جماعة المسلمين وإمامهم وما يلزم لذلك من تربية ووعى وسلوك والتزام . وعلّة العلل أنَّ المسلم المعاصر تفوته واحدة من هذه أو اثنتين أو الثلاثة أو يأخذ بعض هذه الثلاثة بضعف .

تصور أنَّ مسلماً عنده علم ولكن الأخلاق الأساسية تفوته أو واحداً منها . إنَّ الأمر لا يستقيم على ذلك . وتصور أنَّ ما يقتضيه الالتزام بجماعة المسلمين من تربية ووعى وغير ذلك ليس موجوداً فإنَّ الأمر كذلك لا يستقيم . إنَّ علّة العلل تكمن فى ضياع واحدة من هذه الثلاثة أو أخذها بشكل قاصر ، ويدخل فى العلم فى رأينا : الثقافة الإسلامية بأصولها وفروعها التى أحصيناها فى كتاب « جند الله ثقافة وأخلاقاً » ، ويدخل فى العلم تحصيل الثقافة المعاصرة حتى لا يكون الإنسان غريباً عن عصره وعما يجرى فيه ، ويدخل فى العلم الثقافة التأهيلية إما لاختصاص حياتى أو لاختصاص داخل العمل الإسلامى المعاصر .

وأما الأخلاق الأساسية ، فهى التى تحدثت عنها آيات الردَّة فى سورة المائدة وقد فصّلنا الكلام فى شأنها فى كتاب « جند الله ثقافة وأخلاقاً » وهى محبة الله والذلة على المؤمنين – كل المؤمنين ، والعزة على الكافرين – كل الكافرين ، والجهاد فى سبيل الله ، وتحرير الولاء لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين .

وأما لزوم جماعة المسلمين فيقتضى معرفة بماهية جماعة المسلمين والشروط التى يجب أن تتوافر فيها حتى تكون جماعة المسلمين ، كما يقتضى معرفة بالقواعد التى يقوم عليها العمل الإسلامى وتسير عليها الجماعة ، كما يقتضى عقلية شورية تقبل الشورى وتنزل على مقتضياتها على ضوء قواعد الشورى الإسلامية .

إذا اتضح هذا كله وكان هذا كله ضرورياً فماذا يحدث الآن ؟

تجد شيخاً يزعم أنه يسيِّر المريد فى طريق الجنة وتفوته التربية على الذلة للمؤمنين والعزة على الكافرين والجهاد وتحرير الولاء ، وتجد شيخاً يعلِّم بعض مسائل الفقه أو التوحيد وينسى تعليم الكتاب أو السُنَّة أو السيرة وحياة الصحابة أو تاريخ الأمة الإسلامية أو غير ذلك مما يلزم لثقافة إسلامية متكاملة ، وتجد مَن يدعو إلى دعوة الأستاذ البنا بنفسه وتفوته أمور كثيرة فى الثقافة أو الأخلاق أو التربية الجَماعية الإسلامية ، وفى إحدى هذه الدوائر يكمن الخلل ويبقى الحال كما نرى .

إنَّ مهمة الشيخ هذا كله ، ولا شك أنَّ استعدادات الناس متفاوتة ، ولكن حداً أدنى مما يلزم لكل إنسان لا بد من تواجده ، ومهمتنا أن نرتفع بالناس لا أن ينزلنا الناس إلى ما يريدون . إذا أدركنا هذه السطور القليلة أصبح بإمكاننا أن ندرك نقاط الخلل فى رتبة المشيخة المعاصرة وعرفنا ما يلزم للارتفاع بهذه الرتبة . وأتمنى لكل مسلم كان دون هذه القمة التى ذكرت أن يسير على يد مَن يستطيع أن يصل به إلى هذه القمة أو يضع لنفسه برنامجاً يستكمل به نقصه . وقديماً كانت الإجازة التى يعطيها الشيوخ شهادة لإنسان بالتحصيل والقُدرة على التكميل ، وحبذا لو وُجِدَ هذا بشكله المفصَّل فى عصرنا خاصة لرتبة الوراثة الكاملة أو المشيخة المربيَة أو لرتبة النائب فى اصطلاح الأستاذ البنا . وإننى أعتبر أنَّ المهمة الأولى لجماعة المسلمين هى أن توجد طبقة من النواب أو الشيوخ الكُمَّل تستوعب احتياجات المسلمين التعليمية التربوية السلوكية . وبمناسبة المرور على كلمة « الإجازة » نقول باختصار فى شأنها : إنَّ الإجازة شهادة على أهلية إنسان ما لنوع من العلم ، فالإجازة فى علم شهادة من أهله على أنَّ إنساناً يملك النضج أو حده الأدنى فى هذا العلم . والإجازة فى التربية شهادة على أنَّ إنساناً ما يملك النضج أو حده الأدنى الذى يؤهله للتربية . ولا شك أنَّ الشهادة من أهلها تبعث على الاطمئنان . ومن ثَمَّ تُشترط الإجازة للاستقلال بالعلم والتربية ، أما للتعاون والمساعدة على العلم والتربية فهذه فيها سعة إذا

وُجِدَ الأساس الصالح ، إذا استوعبنا ما مَرَّ نكون قد أدركنا رتبة المشيخة كما يحتاجها عصرنا وأدركنا حال المشيخة فى وضعها الحاضر .

تصور الآن إنساناً يتصدر لرتبة المشيخة ، وهو لا يعرف عصره وليس قادراً على الفتوى المستوعبة للزمان والمكان والأشخاص .. جاءه مريد يستفتيه فى شئونه العامة أو الخاصة أو يستفتيه فى شئون الإسلام والمسلمين ، إلى أين يمكن أن تصل فتاواه ؟ ولذلك حذَّرنا فى هذا البحث من الالتزام المطلق بشيخ بل نصحناه وننصحه بما يلى :

أولاً - أن يكون الالتزام المطلق لجماعة المسلمين وإمامهم حيثما وجدت جماعة المسلمين ، وإذا لم تكن موجودة فعليه إيجادها والعمل من أجل ذلك .

ثانياً - أخذ الخير أنَّى وجده وتحرير كل ما يسمعه على ضوء العلم الصحيح ، فإذا استوعب المسلم هاتين القضيتين وكان بيده الميزان الصحيح - وهو العلم الصحيح - فلا عليه بعد ذلك أن يجالس كل أحد ويستفيد من كل أحد ، ولا شك أنه سيجد كاملاً وأكمل ، وعالماً وأعلم ، وذا حال طيب وذا حال أطيب ، فيأخذ من هذا أكثر من هذا ، وكل ذلك طيب ولكن إياه والالتزام المطلق إلا لجماعة المسلمين وإمامهم ، لأنه إذا أعطينا لأنفسنا أن يلتزم كل منا بشيخ التزاماً مطلقاً فكيف يكون للمسلمين جماعة واحدة ؟ ولذلك قال السيوطى : « رجل أعطى العهد لشيخ ثم أعطاه لآخر ، أى العهدين يلزمه ؟ قال : لا هذا ولا ذاك ولا أصل لذلك » . (إذ الأصل الوحيد هو لزوم جماعة المسلمين وإمامهم) فإذا كان الشيخ هو إمام المسلمين المنبثق عن شوراهم أو كان من جماعة المسلمين وأنا وإياه ملتزمان بالجماعة وأُمِرتُ أن ألتزم به على ضوء قواعد الجماعة فالالتزام به التزام بجماعة المسلمين ولا تناقض ، وذكرنا من قبل أنَّ الصوفية بحثوا حالة لا يجد فيها الإنسان مرشداً كاملاً فقالوا بأنَّ العلم مع الصلاة على رسول الله ﷺ كافيان للإنسان ، لأنَّ الله عَزَّ وجَلَّ وعد مَن يُصلّى على رسول الله ﷺ أن يُصلّى هو عليه ، ففى الحديث : « مَن صلّى علىَّ صلاة صلّى الله بها عليه عشراً » . وإذا صلى الله على الإنسان أخرجه من كل ظلمة إلى كل نور :

﴿ هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (١) .

إنَّ التسليم لغير المرشد الكامل والالتزام المطلق بغير جماعة المسلمين وإمامهم خطآن كبيران . وأكثر الصوفية الآن تغيب عنهم هاتان القضيتان ، فعلى كل مسلم أن يراجع نفسه فى هذا الشأن فيترك العصبية العمياء لشيخه إذ يعطيه مقاماً غير مقامه ويترك هذه السيوية عن جماعة المسلمين ، فإنَّ الالتزام بجماعة المسلمين هو واجب شرعى ، وقد ذكرنا فى رسالة « المدخل » - من هذه السلسلة - شروط اعتبار مجموعة ما جماعة المسلمين فلتراجع . فإذا كانت هذه الجماعة موجودة فلنلتزم بها وإلا فلنوجدها . ومن العبارات الشائعة عند الصوفية عبارة تقول : « مَن لا شيخ له فشيخه الشيطان » ، وهى عبارة تُنقل عن واحد من كبار الصوفية ، ونحب أن نكون واضحين ونحن نناقش هذا الأمر .

إنَّ علماء الأصول لم يعتبروا رأى الصحابى نفسه ملزماً للأمة فكيف برأى غيره ؟ وإنما يكسب قول أى إنسان قوة بقدر ما تؤيده النصوص ، فعلينا أن نتذكر دائماً هذا الأصل فإذا اتضح هذا الأصل نقول : إنَّ هذه العبارة صحيحة فى صورة واحدة وهى : أنه لو وُجدَ إنسان جاهل وليس عنده قُدرة على أن يتعلم لنفسه العلوم الشرعية فهذا إنسان يسير فى عباداته ومعاملاته وتصرفاته على غير علم ، فهذا لا شك شيخه الشيطان ، أما الإنسان القادر على أن يتعلم بنفسه وهو يسير على ضوء العلم الصحيح فهذا شيخه العلم الصحيح وشيخه الكتاب . أما الإنسان الذى يأخذ العلم عن أهله فهذا له شيوخه . فإذا أدركنا هذا عرفنا محل هذه العبارة وعرفنا الخطأ المتعمد أو الجهل الذى به يحاول بعض الناس أن يحملوا هذه العبارة على مَن لا شيخ صوفياً له وبالتالى فهم يتكئون عليها للدعوة إلى شيوخهم ، وقد يكون شيوخهم جُهّالاً يحتاجون إلى شيوخ . ومن المفاهيم الشائعة عند بعض الصوفية أنه مستحيل وصول إلى الله إلا عن طريق شيخ صوفى وهذا وهم كبير وقد رأينا عبارة ابن عطاء : « وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به » . فمعرفة الله عَزَّ وجَلَّ بابها مفتوح لمن سلك طريق

(١) الأحزاب : ٤٣

سواء أكانت المعرفة الذوقية أو المعرفة العلمية ، وإنّ تعليق المعرفة بالله على وجود شيخ من طراز خاص وتأثيم مَن لا يسلكون على يد أمثال هذا الشيخ ، إنّ هذا يعنى أنّ ملايين المسلمين ماتوا وهم جُهَّال بالله وبعضهم المفسِّر وبعضهم المحدِّث . والحق إنّ الاصطلاح على المشيخة الصوفية جاء متأخراً فى العصور الإسلامية ، فهل كان الناس قبل ذلك لا يعرفون الله وهم أفضل الأجيال على الإطلاق ؟ والمناقشات الفارغة فى هذا المقام لا تغنى عن الحق شيئاً . أدبنا كمسلمين أن نأتى البيوت من أبوابها ، ولكل شىء بابه الذى نلج إلى البيت من خلاله ، ولكل إنسان أحواله ، ولكل إنسان أوضاعه .

والفتوى تقدَّر زماناً ومكاناً وشخصاً ، فهذا إنسان فى حقه أن يذهب إلى شيخ فقيه ، الأمر فرض . هذا إنسان فى حقه أن يذهب إلى عالم بالتوحيد ، الأمر فرض . وهذا إنسان فى حقه أن يذهب إلى شيخ صوفى ، الأمر فرض . والفتوى تقدَّر زماناً ومكاناً وشخصاً . يقول الشيخ أحمد الزروق فى موضوع الشيوخ : « وقد تشاجر فقراء الأندلس من المتأخرين فى الاكتفاء بالكتب عن المشايخ فكتبوا للبلاد فكل أجاب على حسب فتحه ، وجملة الأجوبة دائرة على ثلاثة :

أولها : النظر للمشايخ : فشيخ التعليم تكفى عنه الكتب للبيب حاذق يعرف موارد العلم ، وشيخ التربية تكفى عنه الصحبة لذى دين عاقل ناصح ، قال شارح بداية السلوك : وقَلّ أن يوجد لغلبة الهوى ، وشيخ الترقية يكفى عنه اللقاء والتبرك ، وأخذ كل ذلك من وجه واحد يعنى أنّ أخذ ذلك عن الشيخ فى الأوجه الثلاثة أتم للنجح وأبلغ للمراد .

ثانيها : النظر لحال الطالب : فالبليد لا بد من شيخ يربيه ، واللبيب تكفى الكتب فى ترقيه ، لكنه لا يسلم من رعونة نفسه وإن وصل لابتلاء العبد برؤية نفسه .

ثالثها : النظر للمجاهدات : فمجاهدة التقوى لا تحتاج إلى شيخ لبيانها وعمومها . والاستقامة تحتاج للشيخ فى بيان الأصلح منها ، وقد يكتفى عنه اللبيب بالكتب ومجاهدة الكشف . والترقية لا بد فيها من شيخ يرجع إليه فى

فتوحها كرجوعه عليه السلام فى عرضه على ورقة بن نوفل لعلمه بأخبار النبوة ومبادى ظهورها حين فأجاه الحق ، وهذه الطريقة قريبة من الأولى ، والسُنّة معها ، والله تعالى أعلم » (انتهى) .

لاحظ قوله : « فالتقوى لا تحتاج إلى شيخ » . والتقوى كما عرفناها تفصيلاً فى كتاب « جند الله ثقافة وأخلاقاً » هى مطلب الله عَزَّ وجَلَّ من عباده لأنها تحتوى ما قبلها ، وتضع قدم الإنسان فيما هو أرقى منها كمقام الشكر ، ولا تقوى أصلاً إلا بمعرفة الله عَزَّ وجَلَّ .

وقد آن الأوان بعد الذى ذكرناه فى هذا الباب أن نتبين ضرورة الشيخ فى العلم والتربية ، فقد استجرنا التوضيح ومناقشة الأخطاء إلى كلام عن موضوع الشيخ قد يفهم منه فاهم أنّ الشيخ لا محل له أصلاً ، لذلك أحببنا أن نوضح هذه النقطة ..

١ - أنّ الشيخ البصير فى الأمور يختصر لك الطريق فبدلاً من أن تنصب فى الطريق - أى طريق سواء أكان طريق تحصيل علم ما ، أو طريق الاستدلال على صلاح القلب ، أو طريق التخلص من مرض - فإنه يختصره لك .

٢ - أنّ الشيخ الكامل يجنبك الخطأ فى الفهم أو الخطأ فى السلوك أو الخطأ فى التصورات التى يمكن أن تنشأ عن سير الإنسان نفسه .

٣ - أنّ الشيخ من خلال صحبته تأخذ منه حالاً وتأخذ منه سمت العلماء وأدبهم .

٤ - أنّ مجرد قبول الإنسان أن يأخذ العلم أو التربية عن أهلها يحرره من كثير من الأمراض كمرض الغرور أو العنجهية أو الكبر .

٥ - وكل حالة يُفترض على إنسان تحصيل شىء ولا يستطيع تحصيله إلا من جهة ما ، فإن الأخذ عن هذه الجهة فى حقه يصبح فرضاً من باب : « ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب » .

٦ – وإذا كان الشيخ صالحاً وداعياً إلى هدى فإنّ الانتفاع به فى الدنيا والآخرة تدل عليه النصوص .

٧ – والتجمع حول شيخ والمشاركة فى حلقات العلم والذِكر والتآخى الخاص فى هذه الأجواء تترتب عليه مصالح كثيرة فى الدنيا والآخرة وكل ذلك غيض من فيض فى محل الشيخ ومكانه . ونحن بقدر ما نركز على أن تزول الأخطاء من التصورات والسلوكيات فى باب الشيخ فإننا نركز على نقطة الانطلاق الصحيحة وهى وجود الولى المرشد ...

* * *

فصل : فى البيعة

فى حياة رسول الله ﷺ كان رسول الله يأخذ البيعة على الدخول فى الإسلام وعلى أعمال من الإسلام ، وكانت البيعة فى أحد أوجهها بيعة لشخص رسول الله ﷺ على السمع والطاعة ، ثم بعد وفاة رسول الله ﷺ وُجدت صيغة وحيدة للبيعات هى البيعة السياسية بمعنى أنه لا توجد إلا بيعة واحدة هى البيعة التى تعطى لأمير المؤمنين ، ولما اختلفت الاتجاهات فى الأمة الإسلامية بقيت البيعة تعطى على أساس الولاء الشخصى لجهة فى إطار سياسى مرتبطاً بالحكم والسلطان .. وبقى الأمر على ذلك حتى القرن الخامس للهجرة حيث وُجدت البيعة للشيخ فى بعض الهيئات على أساس التزام بأعمال أو شىء من ذلك ، وفُصِلَ هذا النوع من البيعات للشيوخ عن الإطار السياسى فأصبح بعض الناس لهم بيعتان : بيعة للسلطان على الطاعة فى الأحوال العامة ، وبيعة للشيخ على الالتزام بالتقوى ، وأصبح كل شيخ يأخذ البيعة على مريديه فى هذا الإطار .

واستمر الأمر على ذلك حتى سقوط الدولة الإسلامية وانتهاء الحكم الإسلامى فى كثير من الجهات . وغلب الجهل على الناس فغابت عنهم قضية الخلافة وضرورة العمل من أجلها ، وغاب عن كثير من الناس ضرورة العمل لإقامة الحكم الإسلامى فى أقطارهم ، وضاع فى خضم ذلك فكرة البيعة

السياسية وبقيت فى بعض الدوائر فكرة البيعة الصوفية . فخلط بعض الصوفية بين البيعة للإمام وبين البيعة للشيخ ، واعتبروا أنَّ البيعة للشيخ لها نفس شروط البيعة تلك وأنَّ لها أحكامها وأنها تغنى عنها ، ولذلك صحح الفقهاء هذا الموضوع فقالوا - كما فى « تنقيح الفتاوى الحامدية » عن السيوطى - : « رجل أعطى العهد لشيخ ثم أعطاه لآخر ، أى العهدين يلزمه ؟ فقالوا : لا هذا ولا ذاك ولا أصل لذلك » .

وواضح أنَّ البيعة الصوفية ذات صفة غير ملزمة من هذا الحديث الذى رواه مسلم وهو فيما يسمى فى اصطلاحنا اليوم بالبيعة السياسية « إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما » . فلو أنَّ هذه البيعات التى تُعطَى للشيوخ لها حكم البيعة المعروفة لجاز لنا أن نقتل كل الشيوخ ما عدا شيخاً واحداً ما داموا جميعاً يأخذون البيعات ، وهذا لا يقول به أحد ، ثم إنَّ كثيراً من المجموعات الإسلامية صارت تأخذ عهوداً وبيعات على المنتسبين لها ، وهذه البيعات كلها إن كانت على عمل بعينه فإنَّ لها حكم النذر أو اليمين ، أو كانت لأخذ ولاء شخص لجهة معيَّنة فإنها تكون بيعة غير ملزمة بل أحياناً تكون واجبة الفسخ إلا فى حالة واحدة وهى البيعة لإمام المسلمين وجماعتهم ، ولكن حتى تتوافر فى جهة ما شروط كونها هى الجماعة الإسلامية وحتى يوجد مَن له أحكام الإمام هذا موضوع له مواصفاته الكثيرة . والعاملون للإسلام الآن إما أنهم مجموعات ليست مرشحة لأن تكون جماعة المسلمين أو أنَّ بعضهم يعمل لتوفير شروط الجماعة فى ذاته وهو مرشح لذلك ، أو أنَّ بعضهم توافرت فيه وفى قياداته شروط الجماعة المسلمة ، والبيعة فى كل حالة من هذه الحالات لها أحكامها ودرجة إلزامها .. وبشكل عام نقول :

١ - إنَّ شيوخنا كانوا يرون أنَّ البيعة التى تُعطَى للشيخ عند الصوفية هى بيعة على التقوى ، ولذلك فإنهم يكتفون فيها بوضع اليد وقراءة قوله تعالى :

﴿ إنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [1] دون أن يَضيفوا شيئاً آخر ، إنَّ البيعة فى هذا الإطار - أى بأن يُلحظ فيها ألا تكون أحكام البيعة العامة وبحيث لا تحول دون الالتزام بجماعة المسلمين وإمامهم - إنَّ البيعة بهذا الشكل لا حَرَج فيها .

٢ - إنَّ البيعة الملزمة الوحيدة هى التى تُعطَى لجماعة المسلمين وإمامهم ، ولكن على الإنسان قبل أن يعطى هذه البيعة أن يتأكد من أنَّ هذه الجماعة وإمامها متوافرة بها الشروط اللازمة ، وعلى فرض أن أعطاها وتبيَّن له أنَّ الأمر ليس كذلك فإنه يكون فى حِلٍّ من هذه البيعة ، ولكن يبحث : هل عليه كفَّارة يمين أو لا ؟ هذا يختلف باختلاف الصيغة التى أُديت بها البيعة .

٣ - يمكن أن تأخذ جهة مأذونة بيعة ما على أعمال إسلامية بعينها ، والالتزام فى هذه الحالة التزام بالعمل ، وإذا عجز الإنسان عن هذا العمل فينظر هل عليه كفَّارة يمين أو لا ؟

وبشكل عام .. أنا أدعو كل مسلم إلى التريث فى أمور النذور والأيمان والعهود والبيعات إلا إذا اقتضاه واجب شرعى أن يفعل شيئاً من ذلك ، وأقترح على الحركة الإسلامية بعد أن تضع كل القواعد التى بها تصبح هى جماعة المسلمين بحق وإمامها إمامهم أن تأخذ البيعة للقيادة المنبثقة عن هذه القواعد .

ويطيب لى فى هذا المقام أن أسجل نقطة هى : أنَّ كثيرين من المسلمين أنفسهم يصيبهم اليأس وهم يرون المآسى التى رافقت سلسلة الخلافة حتى سقوطها . ويصيبهم اليأس وهم يرون كيف أنَّ الانحراف عن الحكم الإسلامى بدأ مبكراً جداً فى تاريخ الأمة الإسلامية ، ويصيبهم اليأس وهم يرون الحال والواقع الذى عليه المسلمون أنفسهم ، ويصيبهم اليأس وهم يرون واقع القوى العالَمية ،

---

(١) الفتح : ١٠ .

ويتعجبون أن يتكلم أمثالنا فى الأسس الصحيحة للانطلاق ويتصورون أنّ هذا أشبه بالأحلام ، ونقول لهؤلاء جميعاً : هل نحن مكلّفون أو لا ؟ فإذا كنا مكلّفين من الله بعمل فعلينا أن نفعل ولا علينا بعد ذلك إذا فرّط غيرنا بالتكليف فنحن طلاّب جنة عرضها السموٰات والأرض ، وماذا يضيرنا إذا ربحناها وخسرها غيرنا . إنّ أهل كل عصر مكلّفون بإقامة الإسلام كله فهم لا يُسا ءلون عن تقصير السابقين ولا تفريط اللاحقين . إنّ هذه هى نقطة التفكير السليم فيما نحن فيه إذا كنا مسلمين حقاً ، على أننا مع هذا نقول : إنّ ما حدث من انحرافات أعطانا دروساً ، وإن ما كان من مآس فإنّ علينا أن نعمل كى لا يتكرر مرة ثانية ، وإنّ واقع المسلمين الحالى ليس صعب التغيير إذا سرنا فى الطريق الصحيح . وإنّ القوى العالمية لا تساوى شيئاً مع وعد الله لنا ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ منكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ﴾ (١).

ولحكم كثيرة قال ربنا بعد هاتين الآيتين : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى الأَرْضِ ، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ، وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (٢) .

إننا نملك بفضل الله نقطة البداية الصحيحة وهى الانطلاق عن اجتهاد إنسان مجدد لا يشك عارفوه أنه من أولياء الله عزّ وجلّ وهو الأستاذ البنا رحمه الله ، وعلينا أن ننطلق بدفعة التجديد فى هذه الأمة مهما كلّفنا ذلك ، وإنا لنرجو ثمرات ذلك فى الدنيا والآخرة ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٣) .

* * *

---

(١) النور : ٥٥ (٢) النور : ٥٧ (٣) البقرة : ٢٠١

الباب السادس عشر

فى الأخلاق والآداب

الأدب هو الباب الذى انعكاساته على كل موضوعات السير إلى الله عميقة وبعيدة ، فسوء الأدب يفسد السلوك كله فهو يفسد العمل ويفسد القلب ويفسد آثار الذكر وآثار الصمت وآثار الخلوة والعزلة ، ويستحيل معه الأخذ من الشيوخ ، ومن ثَمَّ فلا سير بلا أدب مع الحق والخلق ومن ثَمَّ قالوا : « والله ما فاز مَن فاز إلا بحسن الأدب ولا سقط مَن سقط إلا بسوء الأدب ».

إنَّ حسن الأدب أصلاً تعبير عن كمالات النفس وعن انضباطها وعن التحكم فى نزواتها وذلك وحده علامة خير ، بينما سوء الأدب دلالة على أنَّ النفس لا تزال متلطخة برعوناتها عاجزة عن الانضباط ضمن المسار الصحيح .

ولا شك أنَّ الأدب له مظهران : مظهر علمى ومظهر التزامى وسلوكى ، وككل شىء فالمظهر العلمى يسبق السلوك والالتزام عادة . ومن ثَمَّ فلا بد من تحديد صحيح لموضوع الآداب ، ولكن موضوع الآداب أوسع من أن يحيط به باب ، إذ العادة أنَّ كل باب من أبواب الفقه فى الغالب أو من أبواب التصوف لا بد أن تدخل فيه قضايا هى من باب الآداب ، ومن ثَمَّ فنحن لا نطمع هنا أن نذكر كل شىء بقدر ما نطمع أن نذكر أمهات فى الباب لا تغنى عن معرفة أخواتها فى أبواب أخرى . وهذه كلها لا تغنى عن التأدب بالكتاب والسُنَّة .

إنَّ الكتاب والسُنَّة هما مظهر البناء الأخلاقى والسلوكى ، واجتهادات الأئمة المنبثقة عن ذلك لا تغنى عن دراسة الأساس ، بل هى استنباط دقيق لما ورد

فيهما . ومن ثَمَّ فنحن نعتبر دراسة سلسلة « الأساس فى المنهج » هى التغطية الكاملة لكل ما يلزم المسلم لانطلاق صحيح شامل ، وإذن فكلامنا فى هذا الباب ذو حدود ضيقة جداً فليلاحَظ ذلك ...

لقد كان بعض شيوخنا يُنبِّه على ضرورة الأدب مع الله ومع الإنسان ومع الحيوان ومع الأشياء ، ويضرب لنا مثلاً على أنَّ الأشياء إذا أحسنتَ التعامل معها خدمتك وإذا لم تُحسن لم تخدمك . يضرب لنا مثلاً على ذلك باستعمالنا لإبريق الوضوء ، فلو أنك استعملته بلطف أخذاً ووضعاً خدمك كثيراً وإلا لم يخدمك ، فإذا كان هذا محل حسن الأدب مع الأشياء فما بالك بالأحياء .

لا بد أن نتعامل مع كل شىء بالأصول الصحيحة للتعامل على ضوء شريعة الله ، وقبل كل شىء - وبعد كل شىء - لا بد من الأدب الرفيع مع الله عَزَّ وجَلَّ شكراً وعبودية خالصة ورغبة ورهبة ، فدوائر الآداب إذن واسعة جداً وعلينا أن نأخذ منها حظوظنا .

إنه من الملاحَظ أنَّ بعض البيئات بشكل عام لم تستطع أن تصل عملياً حتى الآن إلى آداب عامة تصبح بمثابة ألف باء فى التعامل اليومى ولهذا تأثيراته الكبيرة على الحياة بشكل عام ، بينما استطاعت بعض البيئات أن تصل إلى اعتماد كثير من الآداب المتعارف عليها فى كل جانب من جوانب الحياة : فى طريقة كلامها ، وفى طبيعة لباسها المناسب لكل مناسبة ، وفى طريقة التعامل مع الآخرين فى كل وضع ، وفى طريقة التقديم والتأخير ... إلى آخر ما يدخل فى باب التعامل العام ، ونحن المسلمين أغنى الخلق بعلم الآداب على الإطلاق - وليس الأمر هكذا فقط بل أدبنا فى كل حالة هو الأدب الأرقى - ولكن هذه الآداب نجدها متناثرة ههنا وههنا فى كتب الفقه وفى كتب شروح الحديث وكتب التصوف المختلفة وكتب التفسير . وأولاً وقبل كل شىء فإنَّ الكتاب والسُّنَّة ما تركا أدباً ولا خُلُقاً طيباً إلا بيَّناه ، ولكن كتاباً جامعاً للسُّنَّة كلها بشكل عملى لا نجده فى كل بيت ، وفهماً صحيحاً للقرآن لا يسعى إليه كل مسلم ، ثم قراءة مستوعبة لكتب الفقه والتصوف نادراً ما يحصِّلها إنسان بشكلها الكامل ..

وكل ذلك أدى إلى انحسار قضية الآداب أو وجودها فى بيئات محدودة وبشكل جزئى ، وأحياناً فإنّ هناك مفاهيم خاطئة وسلوكاً خطراً يأخذ طابع الأدب . هذا كله يحتاج إلى علاج ، وبداية العلاج وجود كتاب التفسير المناسب ووجود كتاب السُنّة الجامع والمتوافرة فى جمعه وخدمته شروط متعددة ، وكذلك التأليف المناسب فى الفقه والتصوف . ولذلك - وكما ذكرنا - فإننا سنذكر شيئاً ما فى هذا الباب لأن الأمر أوسع من أن يُذكر فى باب من كتاب صغير ، وعلينا أن نلاحظ أنّ قضية الآداب فى اصطلاح الصوفية أوسع منها فى اصطلاح الفقهاء ، فالفقيه يتحدث عن الأدب كمكمل للفرائض والواجبات والسُنَن ، ولكن الصوفى يذكر أشياء هى من باب الفرائض فى بحث للآداب لأن الأدب عنده هو السلوك والتعامل مع الله عَزّ وجَلّ ومع خلقه ، وهذه قضية ينبغى أن يتنبه إليها الإنسان، ونحن فى هذا الباب سنجرى على ذكر بعض الآداب على طريقة الصوفية ، وعلى هذا فما نذكره هنا تحت عنوان هذا الباب قد يكون فرضاً وقد يكون واجباً وقد يكون سُنّة أو هو مباح فليلاحَظ ذلك . ومجموع ما سنذكره فى هذا الباب إنما هو فصول متفرقة يجمعها كلها أنها آداب وأخلاق إما مع الحق أو مع الخلق أو هى من باب الخصائص ، وكما قلنا من قبل : إنه بدون إحاطة بالكتاب والسُنّة فإننا لا نطمع أن نتعرف على مجموع الأخلاق والآداب السامية. إنّ رسول الله ﷺ كان خُلُقه القرآن فما نذكره هنا وما يذكره غيرنا إنما هو تنبيه على بعض الأمور ولا يطمع أحد فى الإحاطة . إنه للوصول إلى كمال النفس الذى هو العبودية الخالصة لله ، لا بد أن نحقق شروط السير ، وبقدر ما يكون تفريط فى هذه الشروط يكون الوصول عسيراً أو ناقصاً أو مستحيلاً ، وإذن فالمسألة تحتاج إلى معرفة بالشروط ، وكل شرط يحتاج إلى آداب . وما من خُلُق ينفصل عن أدب فلن نتحقق بكمال إذا لم يرافق ذلك أدب ، فالتواضع كصفة للنفس يحتاج إلى مظهر هو أدب ، والحلم كصفة للنفس يحتاج إلى مظهر هو أدب ، واحترام المسلم وإكرامه كصفة للنفس يحتاج إلى مظهر هو أدب ، وبقدر ما يكون السير صحيحاً وبقدر ما تتحقق شروط السير وبقدر ما تتوافر الآداب يكون الوصول إلى

مظهر الكمال أكيداً ، وبقدر ما يكون الكمال تكون القُدرة على التكميل لمن أقامه الله هذا المقام . فقضية الآداب والأخلاق إذن قضية واسعة ، والصوفى من أولى سماته التتبع لمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب والتحقق بها ، ومن ثَمَّ قالوا : « التصوف خُلُق ، فمَن زاد عليك فى الخُلُق فقد زاد عليك فى التصوف » ، فإذا اتضحت هذه المعانى كلها فلنبدأ عرض بعض الفصول فى موضوع هذا الباب .

* * *

فصل جامع
فى موضوع الأخلاق والآداب

عقد صاحب « المباحث الأصلية » فقرة لقضية الأخلاق والآداب فى الطريق ننقله ههنا مع تعليقات خفيفة على كلمات فيه : « وللطريق ظاهر وباطن » أى للطريق إلى الله ظاهر وباطن سيفسرها فى بيتين آتيين ، وباختصار : ظاهرها ما يتعلق بإصلاح الجوارح الظاهرة ، وباطنها ما يتعلق بإصلاح العوالم الباطنة. « تُعرف منه صحة البواطن » أى أنَّ ظاهر الطريق تُعرف منه صحة بواطن السالكين . أخبر أنَّ استقامة الظواهر دليل تعرف استقامة البواطن وعبَّر عن الاستقامة بالصحة ، فصحة الظاهر عنوان صحة الباطن ، ثم فسَّر ظاهر الطريق بقوله : « ظاهره الآداب والأخلاق » . « مع كل خلق ما له خلاق » الخلاق : النصيب . فظاهر الطريق : الأدب مع خلق الله حتى مع مَن ليس لهم نصيب فى الآداب فضلاً عن غيرهم . والأدب هو الموقف الأفضل من كل وضع نواجهه على مقتضى شريعة الله . فهناك حالات يكون الأدب فيها هو الغضب ، وحالات الأدب الأرقى فيها هو الإحسان وكظم الغيظ ، وهو معنى دقيق لا يفطن له إلا موفق ، ولا يعرف أن يضع كل شىء فى محله إلا عالم وحكيم .

كان من خُلُق رسول الله ﷺ أنه لا يغضب لنفسه ولكن إذا انتُهكت حرمات الله فإنه لا يقوم لغضبه شىء ، وإذا وجد منكر فإنه لا ينهى سخطه إلا بانتهاء هذا المنكر ، ثم فسَّر باطن الطريق بقوله : « باطنه منازل الأحوال » الوارد

الإلهى إذا نزل فى القلب أحدث أثراً ، هذا الأثر يسمى حالاً ، ومنازل الأحوال هى القلوب ، ولكنه فى البيت أراد الأحوال القلبية الصالحة نفسها بدليل أنه ذكر المقامات بعد ذلك مصاحبة للأحوال فقال : « مع المقامات لذى الجلال » الفارق بين الحال والمقام أن الحال يتحول فيذهب ويجىء بخلاف المقام فإنه رسوخ وتمكين ، فباطن الطريق إذن الأحوال والمقامات فى السير لذى الجلال الله رب العالمين ، فكأنه قال : باطن السائر إلى الله بين حال ومقام وهو فى انتقال دائم من حال إلى مقام ومن مقام إلى مقام . وهذا كله هو باطن الطريق . ولنا عودة على هذا الموضوع .

ثم بدأ المؤلف يتكلم عن الأدب فقال :

« والأدب الظاهر للعيان دلالة الباطن فى الإنسان »

هذا داخل فيما تقدم من أنَّ صحة الظواهر تدل على صحة البواطن . « وهو أيضاً للفقير سند » أى يستند إليه الفقير حالاً فيرتفع إلى المقامات العلى ديناً ودنياً لأن القلوب مجبولة على حب أهل الأدب . « وللغنى زينة وسؤدد » فالأدب يزين الغنى ويشرفه ويرفع قدره ، ومراده بهذا البيت أن الأدب لا يستغنى عنه غنى أو فقير « وقيل مَن يُحرم سلطان الأدب » أى يُمنع منه ولم يُوجد فيه شىء منه . « فهو بعيد ما تدانى واقترب » التدانى والقرب بمعنى واحد ، والمعنى أنَّ مَن لا أدب عنده فهو بعيد عن الله وعن خلقه مهما تصور دنوه فى زعمه واقترابه فى وهمه ، قال أبو حفص : التصوف كله أدب ، لكل وقت أدب ولكل حال أدب ولكل مقام أدب ، فمَن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيَّع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ، مردود من حيث يظن القبول . « وقيل : مَن تحبسه الأنساب فإنما تطلقه الآداب » أى قال بعضهم : مَن تحبسه الأنساب عن الارتقاء فى المراتب تطلقه الآداب المرضية إلى أرفع المراتب .

وبعد أن بيَّن محل الأدب فى الحياة بشكل عام رجع إلى التصوف فقال :

« فالقـــوم بالآداب حقاً ســـادوا منه استفاد القوم ما استفادوا »

القوم هنا هم الصوفية ، أى ما ساد الصوفية وشرفوا إلا بالآداب ، وما استفادوا من العلوم والمعارف والأنوار والأسرار والكرامات الحسية والمعنوية إلا بالأدب ،

ثم ذكر بعض آدابهم فقال : « إذ نصحوا الأحداث والأصاغر » الأحداث : جمع حَدَث وهم مَن لم تنبت لحيته ، والأصاغر : جمع صغير وهو هنا ما كان فى السن دون الحَدَث ، نبّه على أنّ من أهم أخلاق الصوفية نصحهم الخالص لصغار السن والمردان .

أقول : مع ملاحظة احتياط الصوفية من صحبة المردان ، وخوفهم على قلوبهم وحالهم من هذه الصحبة،فهم ينصحون مع احتياطهم لأنفسهم فى عدم النظر وعدم الخلوة وفى الاحتياط فى المصافحة وغيرها « وحفظوا السادات والأكابر » المراد بالسادات هنا : العُبّاد والزُهّاد والصالحون والعلماء العاملون والمريدون السالكون الذين لم يبلغوا رتبة المشيخة . والمراد بالأكابر ههنا : المشايخ . وحفظ السادات والأكابر إنما يكون بالتوقير والاحتشام وبإعطاء الرتبة حقها من كل وجه .

ثم ذكر آدابهم فى الكلام فقال : « واجتنبوا ما يؤلم القلوبا » هذا أدبهم مع كل مسلم فلا يتكلمون مع مسلم بما يوجعه فى قلبه ولو كان نصحاً ، فالوعظ إنما ينفع إذا كان على وجه الملاطفة والسياسة ، ويتأكد ترك ما يؤلم مع الزوجة والأهل وكذلك مع الإخوان ، ثم ذكر آدابهم فى العمل فقال : « وابتدروا الواجب والمندوبا » أشار بذلك إلى كمال عبوديتهم وأنهم يبادرون إلى القيام بحقوق مولاهم واجبة كانت أو مندوبة ، ثم ذكر آدابهم مع الشيوخ والإخوان فقال : «وخدموا الشيوخ والإخوانا » خدمة المسلمين أمر عظيم فى أصول السير إلى الله لما تخلفه فى نفوس أصحابها من تواضع ولما تعمقه من مفهوم الذلة على المؤمنين – وهو أصل من أصول الأخلاق فى الإسلام – ومَن لم يعتد على خدمة الإخوان فإن بينه وبين الذلة على المؤمنين حجاباً كثيفاً ، ولا شك أنّ خدمة الشيوخ لها فضلها الزائد لما فيها من توقير الكبار فضلاً وسناً ، واعتاد الناس أحياناً أن ينكروا أو يستكبروا مثل هذا وهو إنكار فى غير محله ، فقد كان ابن مسعود يخدم رسول الله ﷺ ، وكان أنس بن مالك متفرغاً لخدمته عليه السلام.

إنّ الاستكبار عن خدمة الإخوان والشيوخ مسألة مرتبطة بالكبر والعنجهية وغير ذلك من أمراض ينبغى أن يجاهد الإنسان نفسه فيها « وبذلوا النفوس والأبدانا » أى فى هذه الخدمة : خدمة الشيوخ والإخوان .

ثم بعد هذا ذكر آدابهم فى العلم وغيره فقال : « وأنصتوا عند المذاكرات » بمعنى أنَّ كلاً منهم يعطى أخاه فرصة أثناء المذاكرات العلمية حتى ينهى كلامه فإذا تم كلام المذاكر تكلم بما عنده من غير رفع صوت ولا خصام ولا خروج عن الأدب . « واحترموا الماضى معاً والآتى » المراد بالماضى : مَن تقدَّم من الصحابة والتابعين والأولياء والصالحين والعلماء العاملين ، فضلاً عن الأئمة المجتهدين واحترامهم ألا يذكروا إلا بإحسان وأن يعرف على ماذا يحمل كلامهم. والمراد بالآتى : احترامهم لأهل زمانهم ولو جاءوا بعدهم أو حتى مَن سيجيئون وهم فى كبر فى السن فلا ينظرون إلى الأجيال اللاحقة باحتقار بل يعرفون أنَّ فضل الله لا حد له . « وسألوا الشيوخ عما جهلوا » وذلك لأنَّ طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وهو معلوم من الدين بالضرورة ، وإنما يسألون عما يحتاجون إلى معرفته فى الحال من عمل أو حال أو مقام . « ووقفوا من دون ما لم يصلوا » أى أنهم لا يتحدثون عن مقام لم يصلوا إليه حديث الزاعم أو الموهم أنه وصل إليه ، أو أنهم لا يسألون إلا عما يلزمهم مما يناسب حالهم ابتعاداً بأنفسهم عن التكلف ، أو أنهم لا يتحدثون إلا عن علم فما لم يصل إليه علمهم يتوقفون فيه فهم يتوقفون عن الحديث فى شىء لم يصلوا إلى علمه . « وعملوا بكل ما قد علموا » فعلمهم عظيم وعملهم مكافىء لعلمهم ، إذ العمل هو نتيجة العلم ، فعلم بلا عمل وسيلة بلا غاية ، ومن كلامهم : العلم يهتف بالعمل فإن وجده وإلا ارتحل ، ومَن عمل بما عَلِمَ أورثه الله علم ما لا يعلم . «وآثروا واغتفروا واحتشموا » فهذه ثلاثة أخلاق من أخلاقهم فى العلم وغيره، فهم يؤثرون على أنفسهم فى الكلام ويؤثرون على أنفسهم فى صدور المجالس والمحافل وكل ما فيه تعظيم إلا إذا قدَّمهم غيرهم ، هذا فضلاً عن إيثارهم فى اللقمة والمال والمنصب وغير ذلك ، وهم يحتشمون عن الكلمة غير العفيفة أو غير المهذبة فى المذاكرة أو غيرها سواء هاجمهم غيرهم أو ترك الأدب ، فضلاً عن احتشامهم من أن يتصرفوا تصرفاً غير عفيف أو يقولون كلمة غير حميدة . والمراد بالاغتفار : المسامحة والعفو عن جفوة الإخوان الذين هم بعد فى طور التربية ، والصبر على الغلظة فى المذاكرة وغيرها ..

« واحتكموا بالعدل والإنصاف » فهم يحتكمون للعدل والإنصاف ، ويحكمون إن حكموا بالعدل والإنصاف ، فيحكمون بالعدل على بعضهم بعضاً وعلى أنفسهم .. ومَن توجّه عليه حق من الحقوق أنصف وأذعن وانقاد للحق ولا يتعصب ولا تستفزه حمية الجاهلية . والإنصاف هو الاعتراف بالحق متى ظهر من غير توقف وكانوا يقولون : الإنصاف من شيم الأشراف . « فوردوا كل معين صاف » الماء المعين : هو الماء الجارى الذى لا ينقطع ، والصافى : هو الذى لا تغيير فيه . والمراد أن الصوفية لما حكموا بالعدل واتصفوا بالإنصاف شربوا من العلوم أعذبها وأصفاها. « وبعضهم كان لبعض عوناً » تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾ (١) ، فيعين المسلم أخاه المسلم بنفسه وماله وجاهه وعلمه وهمته وحاله ومناصحته وموادته إلى غير ذلك . « يلقى لديه دعة وأمنا » الدعة : الراحة . والأمن : الأمان ، أى كل منهم يلقى عند أخيه راحة فى نفسه وأمناً على نفسه وعرضه وأمانته وسره ومقاصده . « ينصره فى الحق حيث كانا » تحقيقاً لقوله عليه السلام : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » ، قالوا : يا رسول الله ، ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً ؟ فقال : « تأخذ على يديه فترده عن ظلمه »(٢) . « فإن أساء فارضه إحساناً » أى فإن أساء صوفى إلى أخيه فى قول أو فعل سامحه وبذل له إحساناً فى مقابل إساءته فهو يبادله بالإساءة إحساناً تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (٣) .

ثم بعد أبيات يتحدث فيها عن قضية يظنها الناس أدباً وليست أدباً يقول :

« والقصد من هذا الطريق الأدب فــى كل حال منه هذا المذهب »

أشار فى هذا البيت إلى أن الطريق مبنية على الآداب ، بل هى الهدف فى الطريق ، فمَن لا أدب له لا طريق له ، وبالبيت الأخير تنتهى الفقرة التى عقدها صاحب « المباحث الأصلية » فى الأخلاق والآداب ، وقد نقلنا بعض التعليقات عليها مستأنسين بشرح ابن عجيبة لهذه القصيدة كعادتنا تقريباً حيث علّقنا على ما ننقله من هذه القصيدة .

---

(١) المائدة : ٢ (٢) رواه البخارى . (٣) المؤمنون : ٩٦

١ - وبمناسبة شرح البيت الأول من هذه الفقرة ذكر ابن عجيبة :

« إنَّ باطن الطريق هو محل تنزل الأحوال والمقامات وهى القلوب والأسرار لأنها باطنة لا يعلمها إلا الله ، والفرق بين الحال والمقام أنَّ الحال يتحول فيذهب ويجىء بخلاف المقام فإنه رسوخ وتمكين قال فى « العوارف » : كثر الاشتباه بين الحال والمقام واختلفت إشارات المشايخ فى ذلك ، ووجود الاشتباه لمكان تشابهما فى نفسهما وتداخلهما فترا ءى للبعض الشىء حالاً وترا ءى للبعض مقاماً ، وكلا الرأيين صحيح لوجود تداخلهما ، ولا بد من ذكر ضابط يفرق بينهما ، على أن اللفظ والعبارة عنهما تُشعِر بالفرق ، فالحال سمى حالاً لتحوله والمقام مقاماً لثبوته واستقراره ، وقد يكون الشىء بعينه حالاً ثم يصير مقاماً مثل أن ينبعث من باطن العبد داعية المحاسبة ثم تزول الداعية بغلبة صفات النفس ثم تعود ثم تزول ، فلا يزال العبد حال المحاسبة تعاهده الحال ثم يحول الحال بظهور صفات النفس إلى أن تتداركه المعونة من الله الكريم ، ويغلب حال المحاسبة فتنقهر النفس وتنضبط ، وتتملكها المحاسبة فتصير المحاسبة وطنه ومستقره و قامه ، ثم ينازله حال المراقبة فمَن كانت المحاسبة مقامه تصير له المراقبة حالاً ، يحول عنه حال المراقبة لتناوب السهو والغفلة فى باطن العبد إلى أن ينقشع ضباب السهو والغفلة ويتدارك الله عبده بالمعونة فتصير مقام المراقبة مقاماً بعد أن كانت حالاً ، ولا يستقر مقام المحاسبة قراره إلا بنازل حال المراقبة ، ولا يستقر مقام المراقبة إلا بنازل حال المشاهدة ، فإذا منح العبد نازل حال المشاهدة استقرت مراقبته وصارت مقامه ، ونازل المشاهدة أيضاً يكون حالاً ويحول الاستتار ويظهر بالتجلى ثم يصير مقاماً وتتخلص شمسه من كسوف الاستتار ، ثم فى مقام المشاهدة أحوال وزيادات وترقيات من حال إلى حال أعلى منه كالتحقق بالفناء والتخلص إلى البقاء والترقى من عين اليقين إلى حق اليقين ، يقين نازل يخرق شغاف القلب وذلك أعلى فروع المشاهدة » . (انتهى) .

وكذلك التوبة والورع والزهد والتوكل والرضا والتسليم تكون أحوالاً ثم تصير مقامات ، فما دامت مجاهدة فهى أحوال ، فإذا كانت ذوقاً فهى مقامات .. وقد

قالوا : الأحوال مواهب لأنها موهبة من الله جزاء على الأعمال ، والمقامات مكاسب لأن التمكين منها مكتسب بدوام الأعمال وفى التحقيق كلها مواهب .

٢ - قال السلمى : وعلى كل جارحة آداب تختص به قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ [1] . وقال بعض المشايخ : حسن الأدب مع الله تعالى أن لا تتحرك جارحة من جوارحك فى غير رضا الله عَزَّ وجَلَّ . فأدب اللسان أن يكون رطباً بذكر الله تعالى وبذكر الإخوان بخير والدعاء لهم وبذل النصيحة والوعظ ، ولا يكلمهم بما يكرهونه ولا يغتاب ولا ينم - يعنى لا يمشى بالنميمة - ولا يشتم ولا يخوض فيما لا يعنيه ، وإذا كان فى جماعة تكلم معهم ما داموا يتكلمون فيما يعنيهم فإذا أخذوا فيما لا يعنيهم تركهم وأمسك ، ويتكلم فى كل مكان بما يوافق الحال فقد قيل : « لكل مقام مقال » ، وقيل : « خلق الله اللسان ترجماناً للقلب ومفتاحاً للخير والشر » ، وقيل : « إذا طلبت صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك والزم الصمت فإنه ستر للجاهل وزين للعاقل » . قال صلى الله عليه وسلم : « وهل يكب الناس فى النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم » .

وآداب السمع ألا تسمع الفحش والخنا والغيبة والنميمة والمناكر . وأنشدوا :

أحب الفتى ينفى المناكر سمعه ... كأن به عن كل فاحشة وقرا

بل يسمع الذكر والوعظ والحكمة وما يعود عليه بالفائدة دينا ودنياً ، ويحسن الإصغاء إلى مكلميه ومخاطبيه ملتذاً بذلك . وآداب البصر الغض عن المحارم وعن عيوب الإخوان وعن المنكرات وعن المحرَّمات فإن الله تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وقيل : مَن طاوع طرفه تابع حتفه - أى موته - وفى رواية : مَن أرسل طرفه مات حتفه ، وأنشدوا :

وإنك مهما ترسل الطرف رائدا ... لقلبك يوماً أتعبتك المناظر

ترى ما الذى لا كله أنت قادر ... عليه ولا عن بعضه أنت صابر

---

(١) الإسراء : ٣٦

ثم قال السلمى : وقيل : مَن غَضَّ طرفه تم ظرفه ، وقيل : مَن كثرت لحظاته دامت حسراته . ويكون نظره بالاعتبار والاستدلال على قُدرة الله تعالى وعظمته وجميل صنعه عارياً عن حظوظ النفس الأمَّارة بالسوء ... وآداب القلب مراعاة الأحوال السنية المحمودة والتفكر فى آلاء الله ونعمائه وعجائب خلقه قال الله تعالى : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (١) .

ومن آداب القلب حُسن الظن بالله وبجميع المسلمين وتطهيره من الظن والحسد والخيانة وسوء الظن وسوء المعتقد فإنها من الخيانة قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (٢) ، وقال النبى ﷺ : « إنَّ فى الجسد مُضغة إذا صلَحت صلح بصلاحها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد سائر الجسد ، ألا وهى القلب » (٣) . وقال سرى السقطى : القلوب ثلاثة : قلب كالجبل لا يحركه شىء،وقلب كالنخلة أصلها ثابت والريح يميل بها يميناً وشمالاً ، وقلب كالريشة يذهب مع كل ريح ولا يثبت .

وآداب اليدين : « البسط بالبر والإحسان وخدمة الإخوان وألا يستعين بهما على معصية الله تعالى . وآداب الرِجلين السعى بهما فى صلاح نفسه وإخوانه ولا يمشى بهما مرحاً ولا يختال ولا يتبختر ولا يزهو فإنها مما يبغضه الله تعالى، وألا يستعين بهما على المعاصى » .

وأما الأخلاق فالمراد بها حسن الخُلُق مع كل مخلوق ، ومرجعها إلى الحلم والعفو والصبر ، أو تقول : مرجعها إلى أن تعامِل الخلق بما تحب أن تعامل به ، أو تقول : مرجعها إلى كف الأذى وبذل الفدا والإنصاف فيما ظهر وما بدا ، وحمل الجفا وشهود الصفا ورمى الدنيا بالقفا ، وقال الغزالى : هو ملك النفس عند الشهوة والغضب .. ويرجع إلى ما تقدم .

---

(١) آل عمران : ١٩١ . (٢) الإسراء : ٣٦ (٣) رواه البخارى .

٣ - بمناسبة قول المؤلف : « فالقوم بالآداب حقاً سادوا .... » قال ابن عجيبة : قلت : السؤدد : هو الشرف - أى ما ساد القوم وشرفوا إلا بالآداب مع الله ومع رسوله ﷺ ومع أشياخهم ومع سائر المسلمين . فالأدب مع الله بامتثال أمره واجتناب نهيه والاستسلام لقهره .. وقال الشيخ زروق رضى الله عنه فى شرح الحكم : هو حفظ الحدود والوفاء بالعهود والتعلق بالملك الودود والرضا بالموجود وبذل الطاقة والمجهود ، والأدب مع رسول الله ﷺ باتباع سُنَّته وإيثار محبته والاهتداء بهديه والتخلُّق بأخلاقه ، والأدب مع الأشياخ بحفظ الحُرمة وحسن الخدمة وصدق المحبة ، والأدب مع المسلمين بأن تحب لهم ما تحب لنفسك أو أكثر .

وتقدمت آداب الجوارح فلا بد منها ، وكذلك آداب الأوقات وهى تعميرها بالطاعات . فأوقات العبد أربعة كما قال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه : وقت الطاعة ووقت المعصية ووقت النعمة ووقت البلية ، فوقت الطاعة مقتضى الحق منك شهود المنة ، ووقت المعصية مقتضى الحق منك تحقيق التوبة ، ووقت النعمة مقتضى الحق منك الشكر ، ووقت البلية مقتضى الحق منك الصبر .. فإذا قام العبد بهذه الآداب كلها حصل له الشرف التام والمنزلة الكبرى عند الخاص والعام .

٤ - وبمناسبة قول المؤلف : « إذ نصحوا الأحداث والأصاغر ... » . قال ابن عجيبة : ونصحهم بغرس الخير فى قلوبهم كما قال ابن أبى زيد فى رسالته : وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشر إليها . وقال السلمى رضى الله عنه : والصحبة مع الأصاغر بالشفقة والإرشاد والتأديب والحمل على ما يوجبه حكم المذهب ، ويدلهم على ما فيه صلاحهم لا على ما فيه مرادهم وعلى ما يفيدهم لا على ما يحبونه ، ويزجرهم عما لا يعنيهم .

٥ - وبمناسبة قول المؤلف : « واجتنبوا ما يؤلم القلوبا ... » قال ابن عجيبة: ويرحم الله القائل :

إذا شئت أن تحيا ودينـــك سالم	وجاهـك موفـــور وعرضك صيِّن
لسانـــك لا تذكر به عورة امرىء	فعنـدك عــورات وللناس ألســن
وعينــك إن أبــدت إليــك معايبا	فصنها وقــل يا عيــن للناس أعين
وعاشر بمعروف وجانب من اعتدى	وفارق ولكن بالتى هى أحسن [1]

قال الشيخ زروق : فهذه الأبيات جامعة لجميع ما يؤلم القلوب بطريق الاجتناب ، فمن عمل عليها سلم من هذه الآفات التى أصلها كلها التجسس عن أخبار الناس وسوء الظن بهم . (انتهى) .

ونختم هذا الفصل بكلمة ابن عطاء فى الأدب . وبكلمة للجنيد ..

« خف من وجود إحسانه إليك ودوام إساءتك معه أن يكون ذلك إستدراجاً لك ﴿ سَنَسْتَدْرِجهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [2] من جهل المريد أن يسىء الأدب فتؤخر العقوبة عنه فيقول : لو كان هذا سوء أدب لقطع الإمداد وأوجب الإبعاد، فقد يُقطع المدد عنه من حيث لا يشعر ولو لم يكن إلا منع المزيد . وقد يقام مقام البعد وهو لا يدرى ولو لم يكن إلا أن يخليك وما تريد » .

ويقول الجنيد : « ما أخذنا التصوف عن القيل والقال والمراء والجدال ، وإنما أخذناه عن الجوع والسهر وكثرة الأعمال » .

* * *

فصل
فى بعض آداب الشيوخ

من أدب الشيوخ والمربين والدعاة أن يبدأوا مع الآخرين باللطف والإيناس والرفق قبل أى شىء ليصلوا إلى قلوبهم ويستكشفوا استعداداتهم ويزيلوا ما بينهم وبينهم من الحجب . فكثيراً ما يهجم المربى أو الشيخ أو الداعية على الآخرين بأنواع التكاليف وأنواع الطلبات فينفر الآخرون أو يفرون ، وفى ذلك من الخطأ فى الأسلوب ما فيه بل ذلك يجافى الحكمة . إن هناك فارقاً بين مريد جاء

---

(١) للإمام الشافعى .　　(٢) القلم : ٤٤

إلى شيخ وطلب منه أن يقرئه كتاباً ، إنَّ مثل هذا لو بدأ معه فى العلم مباشرة فذلك جيد ولكن أحياناً يأتى إنسان مسترشداً أو يبدأ إنسان مع مرب صلة جديدة ، ففى مثل هذه الحالة لو بدأت المسألة بالتعارف والسؤال والجواب والتعليق اللطيف ثم التكليف غير المرهق فإنَّ ذلك يكون أجود فى بعض الحالات وفى ذلك يقول الجنيد : « إذا لقيت الفقير فلا تبدأه بالعلم وابدأه بالرفق فإنَّ العلم يوحشه والرفق يؤنسه » . وعلّق الإمام الغزالى على هذا بقوله : « وبرفق الصوفية بالمتشبهين بهم ينتفع المبتدىء الطالب ، وكل مَن كان منهم أكمل حالاً وأوفر علماً كان أكثر رفقاً بالمبتدىء الطالب » .

ومن آداب الشيوخ والمربين والدعاة أن يحاولوا نقل الإنسان ولو نقلة بسيطة فى الخير فكل نقلة فى الخير مهما كانت قليلة فإنها تدفع بالإنسان إلى الله لأن الله عَزَّ وجَلَّ شأنه أنه مَن تقرَّب إليه شبراً تقرَّب إليه باعاً ، وعلى هذا فأى زحزحة للإنسان من حال إلى حال أعلى منه مع النيَّة الصالحة تدفع الإنسان نحو باب الله عَزَّ وجَلَّ . ولذلك فإن المشتغلين فى الدعوة والتربية عليهم أن يلاحظوا دائماً قضية نقل الإنسان نقلة ما - مهما كانت بسيطة - لأن هذه النقلة قد تكون مقدمة لما هو أعلى منها وأرقى .

ومن آداب الشيوخ : الإنصات الكثير لكل متكلم ومعرفة ما يصدق (بتشديد الدال) وما لا يُصدِّق ، والتمييز بين مَن يُصدِّق وبين من لا يُصدِّق ، ثم حدود الموافقة للآخرين وهذا كله نأخذه من قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ، قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [1] ، ومن قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ، لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ [2] . فكل ما فيه مشقة بالمسلمين وارهاق لهم لا يطيع فيه رسول الله ﷺ أحداً ، « وكان من أدبه عليه الصلاة والسلام أنه ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً » . ثم إن الأدب الرئيسى للشيخ بعد

---

(١) التوبة : ٦١

(٢) الحجرات : ٧

التعليم هو التزكية ، والتزكية تدور بين تخلية وتحلية ، ومهمة الشيخ أن يُبقى إخوانه دائماً فى حالة ترق دائم ، وفى باب التحلية والتخلية أنت بين أمرين : إما أن تتحلى بخُلُق وتتخلى عن خُلُق ثم تنتقل إلى آخر وثَمَّ حتى تصل إلى الذروة وإلى الكمال ، وهذا طريق . وإما أن تضرب بضربة واحدة أصل كل خُلُق ذميم وتتحقق بالأصل الذى ينبع عنه كل خُلُق حميد ثم يأتى كل شىء بعد ذلك ويكون الكمال ، وهذا طريق آخر . يقولون: إنَّ الإسكندر المقدونى قبل أن يبدأ فتح العالم مَرَّ على معبد وهناك قال له الكهنة : إنَّ العالم لا يفتحه إلا مَن استطاع أن يحل عقد هذه الكتلة من الخيوط المعقود بعضها ببعض، فما كان من الإسكندر إلا أن ضرب الكتلة بسيفه فانحلت عقدها كلها ، وكذلك الشيخ الكامل إذا جاءه المريد الصادق فإنه بضربة واحدة يستطيع أن يحل له عقده كلها ليجعله ينطلق من جديد . إنَّ أخصر طريق لتحقق النفس بكل كمال وتخليتها عن كل نقص أن توضع النفس فى ظرف تتخلص فيه دفعة واحدة من ربوبيتها وتتخلق بعبوديتها متحلية بصفات الكمال ، وأعظم المربين هو الذى يستطيع أن يعرف كيف يضع المريد فى نقطة البداية هذه ، وأصدق الطالبين مَن لا يبالى أن يفعل ما أُمِرَ به فى سبيل الوصول إلى هذا ...

ولنشرح المسألة .. حضيض الأخلاق السافلة : الكبر والعُجْب والرضا عن النفس ، إذ عن هذه الأخلاق تنبع كل رذيلة ، فمتى كان فى القلب شىء من هذا حُجِبَ عن الحق وعن قبوله وحُجِبَ عن الانتفاع وحُجِبَ عن الله وآياته ، وبدون أن يتخلص القلب من هذه الأمراض فلا فائدة تُرجَى منه ولا يتوقع أن يتفجر خيره ، بل كل خلق سىء يمكن أن يتراكم عنده : الحسد والحقد والعدوان والغل والبغى والصد عن سبيل الله ... وغير ذلك كثير ، ويكفى للتدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِىَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ .. ﴾ [1]. وإذن فالطريق الأخصر هو أن يتخلى الإنسان عن هذه المعانى كلها دفعة واحدة

---

(١) الإعراف : ١٤٦

وبداية ذلك أن يكون عنده استعداد للتلقى ، فمن رضى أن يكون تلميذاً وأن يضع نفسه فى حجر التربية فإنه يتخلى مباشرة عن قسم كبير من هذه المعانى ، فإذا كان المربى عارفاً بالله عالماً بالشريعة خبيراً بأمراض النفوس أشار عليه بأمر ما أو ألزمه إياه فحرره من البقية الباقية من هذه المعانى من نفسه كأن يأمره بخدمة إخوانه ، أو يأمره بالتواضع لخلق الله والجلوس حيث انتهى به المجلس ، أو يأمره بالتلمذة على مَن دونه ، أو يأمره بمخالفة نفسه ، فإذا فعل طالب الله مثل هذا فإنه مباشرة يتحرر من كل قيد ويصبح وقد أسقط الخلق من اعتباره ولم يعد يرى إلا الخالق لينطلق مباشرة بقلب جديد . إنّ هذه مهمة الشيخ الأولى ، ثم تأتى بعد ذلك مهماته الأخرى ولكن هذا الطريق لن يتم له إلا إذا وُجد صدق عند المريد ، إنّ أكثر الناس لا يجتمع لهم العلم والشعور والعمل أو العلم والحال ولا يعرفون الطريق لاستكمال كل من هذه . وهذا باب من الجهل عظيم ، ولا نقصد طبعا العلم بالدنيا .

إنّ هناك علماً بالله وعلماً بشريعته ، ومع وجود علم بالله وعلم بشريعته لا نجد تقوى أحياناً ، وإذا وجدت تقوى فلا نجد كمالاً فى الأخلاق فما السر فى ذلك ؟ السر يعود إلى أن العلم بالله لم ينتقل من إطاره الفكرى والعلمى إلى إطاره الذوقى والشعورى ، وإذا لم ينتقل إلى إطاره الفكرى والشعورى فإنه لا يكون موجهاً التوجيه الكامل ، وعجز المربين أحياناً يكمن فى كونهم لا يعرفون الطريق إلى نقل الإنسان من العلم الاستدلالى بالله إلى العلم الشعورى به جَلّ جلاله ، ومن ثَمّ يبقى فارق كبير بين العلم والشعور ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ [1] بين العلم والشعور والعمل المتناسب معهما ، وقد لا يكون السببَ عجزاً فى المربى وإنما زهد فى الناس لعدم المعرفة بالقيمة الحقيقية للأشياء ، فمَن كانت عنده أعلى قيمة فى هذا الوجود لمعرفة الله وكان يعلم أن ما يزيده معرفة فى الله يُشترى بالأرواح مثل هذا قريب أن يحصل ،

(١) الأنفال : ٢٤

أما مَن كانت قيمة هذه المعانى قليلة فأنَّى له أن يبذل لذلك جهداً أو أن يعمل فى ذلك عملاً .

ولننتقل من هذه التعميمات إلى الجواهر : أن تعرف أنَّ اللّه سميع وبصير وقدير فهذا فرض الفروض عليك ، ولكن أن تشعر بأنَّ اللّه يسمعك ويراك وأنَّ كل شىء فى هذا الكون فعل اللّه ، ثم أن يرى قلبك أنَّ أفعالك كلها فعل اللّه فهذا أثر صحيح للمعرفة الأولى .

إنَّ مشكلة كثير من الخلق أنَّ إحساساتهم القلبية تقف عند حد واحد لا تتعداه ، ومهمة المربى أنَّ ينقل الإنسان فى عالَم الإحساسات من مرحلة إلى التى تأتى بعدها بشكل تلقائى ، وألا يبقيه عند إحساسات أدنى مع وجود إحساسات أعلى منها ، إنَّ هذا هو طريق التربية الصحيح وهذا هو الطريق لاستكمال شرط العمل الصحيح ، فبقدر المعرفة الشعورية للّه يكون الالتزام بأمره ، بقدر ما تعرف أن كل شىء فعله تتحقق بالتوكل ، وبقدر ما تعرف أنَّ ما سواه فان يكون الإخلاص له ، وبقدر ما تعرف جلاله تخشى معصيته ، وبقدر ما تعرف من جماله تطيعه.. والشيخ مهماته تدور فى هذه الدوائر أولاً فإذا فشل فى هذه الدوائر فإنه على غيرها كذلك عاجز ...

إنَّ مهمتى الشيخ الأوليين : التعليم والتزكية ، وهذا يقتضى جهداً وترتيباً وتنظيماً لكثير من الأمور ، فالسير لا بد فيه من المذاكرة الدؤوب والحكمة الملهمة عند المربى ، وتمر على الطالب فترات من الفتور وفترات من النشاط وفترات من الجذب الروحى وفترات من غلبة الشهوة ، ومن ثَمَّ كان الاجتماع العام وحضور الاجتماع العام ضرورياً لتأخذ روحه من أرواح إخوانه ، ويمتص قلبه من أحوال إخوانه وليسمع ما يستجيش بواعث الطموح نحو الربانية فى قلبه فللاجتماع بركة خاصة وسكينة خاصة وتجليات خاصة ...

إذا اتضح هذا كله فهل للوصول إلى هذه المعانى طريق خاص وذكر خاص ؟ الذى عليه الرسول ﷺ وأصحابه ، والذى تؤيده السُنَّة ويشهد له حال الأمة أنه

ليس لذلك ذكر بعينه بدليل أنّ الرسول ﷺ ما كان يُلقّن ورداً بعينه لكل صحابى، وبدليل أنّ الطرق الصوفية لكل منها وردها مع أنها تقول إنّ النهاية واحدة ، فالمسألة إذن ترجع إلى حكمة المربى واستعداد الطالب وحاله ، فلكل ذكر آثاره فى النفس ، والأنفس مختلفة ، والمهم أن يكون المربى عارفاً بتأثير كل ذكر على حال الإنسان ، وأن يعطى لكل إنسان ما يناسب حاله الذى هو فيه، وأن يلفت نظره إلى أن يلاحظ ما تنبغى ملاحظته ...

فإذا أمره بـ « لا إله إلّا الله » مثلاً يلفت نظره إلى معنى من معانى « لا إله إلا الله » مرة وإلى معنى آخر مرة أخرى ، أو يأمره بملاحظة المعانى واحداً بعد واحد فى الجلسة الواحدة ، وإذا أمره بذكر اسم الله « الله » يأمره بملاحظة أن يقرأ الوجود الظاهر كله بهذا الاسم ، ثم يقرأ الوجود الغيبى كله بهذا الاسم ثم ، وثم ...

هذا كله من مهمات الشيخ الأولى ، ولكن له بجانب ذلك ومع ذلك وفوق ذلك مهمات : أن يربى المسلم على أنه جزء من أمة ، وأن يربيه على القدرة على الكون فى الصف الإسلامى الواحد ، ثم أن يكون هو وإياه فى هذا الصف سائرين فى الطريق لتحقيق الأهداف الإسلامية على كل مستوى وتحمل ما يقتضى ذلك من تضحيات ومحن وما يستلزم ذلك من صراعات وأدوات صراع وبصر دقيق فى مستلزمات ذلك . إنّ هذا كله أدب الشيخ بل واجبه ، وفى مقابل ذلك فإن المريد لا بد أن يتحقق بالصدق فى الطلب وأن يملك حسن الأدب وأول ذلك الاحترام الكامل الذى لا يمنع من قولة حق بل من النصيحة الخالصة يقدمها للشيخ . فنحن أمة يجمعها أدب احترام الصغير للكبير ورحمة الكبير للصغير فى إطار النصيحة الخالصة فيما بين الجميع ، والشورى الواسعة التى هى أدب الجميع مع ملاحظة أن لكل قضية دائرة من الشورى بحسب هذه القضية

* * *

فصل
فى الأخلاقية العامة للصوفى

قال صاحب المباحث : « ونسبوا الصوفى للكمال » وذلك لوراثته العلم والعمل والحال ، وأخذه الكمال من مقامات الإسلام والإيمان والإحسان والتقوى والشكر . أخذ من مقام الإسلام أعلى درجات العمل ، وأخذ من مقام الإيمان أعلى درجات اليقين والاطمئنان ، وأخذ من مقام الإحسان أعلى مراتب المراقبة والمشاهدة ، وأخذ من مقام التقوى كمال الاستقامة على أمر الله ، وأخذ من مقام الشكر خالص العبودية الظاهرة والباطنة . « وضربوا معناه فى المثال » وضربوا للصوفى أمثلة شبهوه بها تعبيراً عن تحصيله لهذا الكمال وهى ما سيأتى . « فهو كالهواء فى العلو » أى الصوفى كالهواء فى اللطف وفى احتياج الخلق له مع عدم شعورهم بوجوده تقريباً ، فتصرفاته فى غاية اللطف وفى غاية البساطة ، والناس فى غاية الاحتياج إليه ولا يكادون يحسون به إلا عند فقده لكثرة اللطف وعدم التكلف وانسجام الفعل مع العقل والفِطرة والسلوك القريب إلى النفس ، ثم هو كالهواء من حيث ارتفاعه عن الأرض مع مخالطته لها ، فهو من أبناء جنسه من بنى البَشر ولكنه فى علو الهمة وفى الإقبال على الله مباين للآخرين مرتفع عنهم لا مترفع ، وشتّان بين الحالين . « ثم كمثل الأرض فى الدنو » فهو كالأرض للمسلمين يطئونها وتتحملهم وتعطيهم من ثمارها الخيِّرة بل يطرح عليها كل قبيح وتعطى المليح ، فالصوفى فى غاية التواضع وفى غاية الحلم وفى غاية التحمل وفى غاية العطاء . « ثم كمثل النار فى الضياء » أى هو كالنار فى كونها تضىء من ناحية ومن ناحية أخرى تحرق ما يلقى فيها ، فالصوفى ينير للخلق الطريق ويحرق الأخلاق الرديئة فى نفسه ،كما أنه يحرق من خلال الكلمة والقدوة والتوجه الأخلاق الرديئة عند كل مَن يخالطه أو يصحبه أو يتتلمذ عليه . « ثم كمثل الماء فى الإرواء » فالصوفى يروى القلوب الظمأى إلى الخير المحتاجة إلى الرى بالإيمان واليقين،

ويروى الأرواح الظمأى إلى معرفة الله والعبودية له . ويروى العقول الظمأى إلى الحقائق الخالصة ، فالصوفى الكامل إذن هذا شأنه فى لطفه وتواضعه وإنارته للطريق لخلق الله وريه لمريدى وجه الله عَزّ وجَلّ .

* * *

فصل
فى طريقة حكيمة فى الدعوة إلى الله

كان بعض شيوخنا يرى أنه فى عصرنا ينبغى أن نلاحظ أمراً مهماً فى الدعوة إلى الله من أجل إرجاع المسلم إلى إسلامه . إن هناك كثيراً من الحالات يصادفك مسلم قد عقّدته أشياء كثيرة حتى كاد الكفر أن يسرقه أو سرقه فعلاً فلم يبق له من الإسلام إلا الاسم ، وفى كثير من الأحيان لا تجد فرصة لتقول لهذا الإنسان شيئاً ، ثم نحن الآن فى مرحلة ضعف فكان الشيخ ينصحنا أن نستعمل سلاح الإحسان ، فالإحسان هو الذى يستخرج الخير من قلب الإنسان إن كان فيه خير . ومن الإحسان التحمل والصبر ، ولقد كان من خُلُق رسولنا عليه الصلاة والسلام أنه لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً ، إنه من خلال الإحسان يمكن أن نصل إلى بعض القلوب ومن خلاله نستطيع أن نقول كلمة أو نخفف حقداً ويكون ذلك كله وسيلة هداية . ولا بد من الإخلاص فى هذا الشأن وغيره، ولا بد من ملاحظة أدب الوقت وحق الوقت وواجب الوقت ثم حكم الله فى موقفنا المناسب من كل حالة ، إذ ذكر علماؤنا أن الدعوة إلى الله بدايتها البيان ثم الوعظ ثم التعنيف ثم ... وثم ... وهذه النصيحة تصلح كمقدمة للبيان فى بعض الحالات وتصلح إذا كان حق الشرع يقتضى منا ذلك ، ولكن قد يكون حق الشرع فى بعض الحالات أن نهجر أو نعنِّف أو غير ذلك ، وكل ذلك ينبغى أن يراعى ، ولا يوفق إلى أن يضع الأمور فى مواضعها إلا حكيم ، ولا حكمة إلا بتوفيق الله عَزّ وجَلّ .

* * *

فصل

فى خُلُق عظيم يحرص عليه الصوفية

من العبارات الصوفية المشهورة : « الصوفية بخير ما تناكروا ». هذه العبارة من أشهر العبارات المتوارثة فى حلقات التصوف ، والمعنى أن الصوفية بخير ما أمر بعضهم بعضاً بالمعروف ونهى بعضهم بعضاً عن المنكر ، أى هم بخير ما لم يسكت أحدهم عن منكر أخيه فضلاً عن سكوته عن منكر الآخرين ، والحقيقة أن المسلمين جميعاً لا يكونون بخير إلا بهذا الخُلُق فالله عَزَّ وجَلَّ قال : ﴿ وَالعَصْرِ * إنَّ الإنسَانَ لَفِى خُسْرٍ * إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (١) فلا فلاح للإنسان إلا إذا اجتمع له إيمان مع عمل صالح وتواص بالحق وبالصبر . فالتواصى بالحق والتواصى بالصبر أحد أركان النجاة عند الله عَزَّ وجَلَّ ، ولقد استحق اليهود اللعنة من الله بتركهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيما بينهم ، وقد أنذرنا رسول الله ﷺ باستحقاقنا للعنة الله عَزَّ وجَلَّ وتشتيت قلوبنا كما حدث لليهود إذا لم يأمر بعضنا بعضاً بالمعروف ولم ينه بعضنا بعضاً عن المنكر ، إنَّ من سُنَّة الله عَزَّ وجَلَّ أنه لا يؤلف بين قلوب عباده إلا إذا كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر خُلُقاً من أخلاقهم ، قال الله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ (٢) . فمَن اجتمعت لهم هذه الصفات فقد وُعِدوا من الله عَزَّ وجَلَّ بالرحمة التى من آثارها وحدة القلوب على الله عَزَّ وجَلَّ . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة العصر . (٢) التوبة : ٧١ (٣) هود : ١١٨ - ١١٩

فالمرحومون هم الذين لا يختلفون ، ولا مرحومين هذه الرحمة الخالصة إلا من اجتمع له مجموعة أخلاق من جملتها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فأين هذا من حال الناس اليوم حتى فى دوائر العاملين للإسلام ؟ وهذا مظهر من مظاهر الخلل .

أما فى دوائر الصوفية فالأمر فى كثير من الأحيان يكون على عكس ذلك ، فبدلاً من أن يُربَى الإنسان على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والنصيحة ، يربى على التسليم لحال الشيخ حتى لو رآه المريد على المنكر ، وبدلاً من أن يعرف المريد على المعروف كله وعلى المنكر كله من خلال العلم الصحيح فإنك تجد الجهل بالمعروف والمنكر عاماً وطاماً فى بعض الدوائر لدرجة يصبح فيها المعروف منكراً أو المنكر معروفاً ، وما أصعب ذلك وما أبعده عن هدى دين الله عَزَّ وجَلَّ ، ولهذا كله فإنه لا بد من عودة كاملة إلى هذا الخُلُق حتى يأخذ طابع البديهة والعادة فى الفكر والسلوك فيصبح الواحد منا بكل بساطة يقول لأخيه : هذا خطأ يا أخى ، ويقول له الآخر : جزاك الله خيراً يا أخى ، وبكل أدب يقولها الصغير للكبير وبكل إخبات للحق يقبلها الكبير ولو جاءت على لسان الصغير ، وبكل رحمة يقولها الكبير للصغير ، وبكل فرح يقبلها الصغير من الكبير ، وأما الشيخ فينبغى أن يهش لذلك ويبش ليعوِّد المريدين على ذلك ، ولا بد للجميع أن يقفوا موقفاً حازماً من المنكر حتى ينتهى مهما كلَّفنا ذلك مع ملاحظة أنه ينبغى أن يُزال المنكر بالطريقة الحكيمة التى لا يترتب عليها منكر أكبر وألا يتجاوز فى الإنكار الحدود الشرعية ، ولحجة الإسلام الإمام الغزالى فى كتابه « إحياء علوم الدين » بحث عن المنكر ما أظن أنَّ الإنسان يعثر على مثله فى بابه فليُراجَع .

* * *

فصل

فى بعض آدابهم فى الطعام

من كلام صاحب « المباحث الأصلية » فى هذا الموضوع :

« وأدب القوم لدى الطعام   جـــم فمنـــه ترك الاهتمام »

أى آداب القوم عند تناول الطعام أو قبله كثيرة : فمنها عدم اهتمامهم به قبل الحاجة إليه إلا إذا كان على الإنسان مسئولية فى شأنه لغيره . « وقلة الذكر له إن غابا » أى من آدابهم قلة ذكر الطعام قبل حضوره لأنَّ ذِكره دليل تعلق النفس وتشوقها إليه . « لكونه عندهم حجابا » أى لأن ذكره حجاب عن أشياء كثيرة باشتغال النفس فيه لولوعها به طلباً وذكراً ، فأن يكثر الإنسان من ذكره فذلك انشغال وتضييع لأوقات كثيرة فى غير مهم ، هذا عدا عن كون ذلك من علامات ضمور الهمة وعدم المبالاة بالمروءات .

« بل أنزلوه منزل الدواء   عند العليل بغية الشفاء »

أى إنَّ الصوفية أنزلوا الطعام والشراب منزلة الدواء لقيام هذا البدن فلا يتناولون منه إلا قدر شفائه وهو ما به قوامه أخذاً من الحديث الصحيح : « بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه » . فلا يتناولون منه إلا قدر قوام البدن، ولا يذكرونه ولا يهتمون به إلا قليلاً أشتغالاً عنه بما هو أهم من ذكر أو فكر أو شهود أو معاملة ظاهرة ، وإذا تناولوه قصدوا به التقوِّى على طاعة الله .

« ولم يكن همهم بجمعه   وكسبـه وفضله ومنعـه »

إذ أن هم السائر إلى الله الوصول إلى الله والوصول إلى رضوانه ، كما أن من آدابه أن يلحظ فى كل عمل من أعماله أن يكون عمله كله طاعة لله وتنفيذاً لأمره جَلَّ جلاله ، فإذا أصبح تأمين الطعام فى حقهم أو فى حق عيالهم فرضاً أو واجباً أو سُنَّة فهم عندئذ يعملون ملاحظين ذلك . قال ابن عجيبة : « ومَن اشتغل منهم بشيء من الأسباب فإنَّ ذلك قياماً برسم العبودية ، وإن حصل منها شيء كانوا فيه أمناء على وجه أنهم خُزَّان المملكة يترصدون سد الخلل

فيمسكون ما أمِروا بإمساكه ويرسلون ما أمِروا بإرساله ، والمراد بالفضل فى البيت زيادات الطعام فليس همهم فى زياداته وليس همهم بمنع الطعام عن خلق الله بل فى غير ذلك مما ذكرناه » .

« ولا استقلوه ولا عابوه » أى من آداب القوم عند حصول الطعام ألا يستقلوه بأن يصغروه-ومن آدابهم ألا يعيبوا طعاماً تحققاً بسُنَّة رسول الله ﷺ ففى الحديث : « ما عاب رسول الله ﷺ طعاماً قَطْ ، كان إذا اشتهاه أكله وإلا تركه » [1] . فهم لا يحتقرون الطعام ولو كان قليلاً فى الحسن أو رديئاً ، فمن آدابهم أن يتلقوا القليل من صاحبه الذى أتى على يديه بالبسط والفرح والتعظيم والتكثير والتبريك ، ويبتدئون بأكله قبل غيره تطييباً لخاطر صاحبه ورفقاً بقلبه ، وكذلك يفعلون فى الطعام الخشن أو الردىء . « ولم يكن قصداً فيطلبوه » أى أن الطعام عند الصوفية لم يكن مقصوداً لعينه فإنهم لا يطلبونه على وجه يصبح هدفاً فى حد ذاته كحال الجشعين والشهوانيين .

« والقوم لم يدخروا طعاماً » وهذا ذروة الأدب فى شأن الطعام وغيره . قال تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العَفْوَ ﴾ [2] . فالصوفية المتقدمون فى شأن الطعام وغيره ، كانوا يأخذون قدر حاجتهم فى الوقت ويتصدقون بالزائد . وقد اختلف اجتهاد المتأخرين منهم بعد انتشار الحرام وشح الناس وتعطل الأحكام فى المجتمع الإسلامى حتى اعتبر بعضهم أنَّ استغناء الشيخ عن مريديه من أخلاقه وذلك لا يتأتى له إلا إذا كان ذا مال-وهم فى الأصل لا يحرِّمون الادخار فرسول الله ﷺ كان يدخر قوت سنة لعياله فى أخريات حياته عليه الصلاة والسلام ، فالموضوع إذن له أحواله المتعددة والفتوى تقدَّر زماناً ومكاناً وشخصاً. « بل تركوا الحلال والحراما » تركوا الحرام تقوى وتركهم التوسع فى الحلال ورعاً . قال ابن عجيبة : فتركوا الحلال زهداً وتركوا الحرام تقوى وتركوا المتشابه ورعاً . « إلا يسيراً قدر ما تيسرا » أى إلا قليلا من الحلال بالقدر المتيسر ،

---

(١) متفق عليه .　　　(٢) البقرة : ٢١٩

والذى دعاهم إلى التقلل حتى من الحلال تعذر الحلال المحض بسبب فساد المعاملات وضعف الفقه فى الحلال والحرام عند أكثر الخلائق وقلة الورع ولذلك قال : « إذ الحلال المحض قد تعذرا » الحلال المحض : هو الخالص الذى لا شوب فيه ولا اختلاف ، أو هو الحلال بالنسبة لعلم الله وذلك لم يكلفنا به الله عَزَّ وجَلَّ ، ولما كثر الفساد وأصبح هذا النوع من الحلال الخالص قليلاً فإنَّ الصوفية ألزموا أنفسهم بأن يأكلوا ضمن حدود الحاجة فيما لم يعلموا حرمته قطعاً وما أكثر هذا النوع .

قال ابن عجيبة : « وكثيراً ما يجرى على ألسنة المتدينين أنَّ الحلال ضالة مفقودة أو معدوم ، وهو أمر يجعلونه عكازاً للاسترسال وأخذ كل ما والاهم . بل الحلال موجود ، ولو لم يكن موجوداً فى كل زمان ما كُلِّفنا بطلبه ولا نقطع أولياء الله إذ هو قوتهم وذلك باطل ، وإذا حرِّمت الكل حلَّت الكل وكل مَن بيده شيء يستأنف فيه حكم الله » .

ومن كلام ابن عجيبة : « إذا فُقِدَ – أى الحلال – رأساً أقيم من عشر أشياء: تجارة بصدق ، وإجارة بنصح ، وإعشاب الأرض غير المملوكة ، وهدية من أخ صالح ، وصيد البر حيث يباح ، وصيد البحر ، ومهر النساء بطيب نفس ، وقسمة المغنم على وجه شرعى ، والميراث على أصل مجهول ، والسؤال عند الحاجة » .

أقول : وللغزالى فى إحيائه بحث نفيس فى قضايا الكسب فليراجَع .

ويمكن أن يتوصل إلى المال الحلال عن طرق أخرى غير التى ذكرها الشيخ، وبعض العلماء قالوا : إنَّ المال الحرام لا يتجاوز ذمتين ، فإذا وصل إنسان إلى مال حرام ولم أعرف عينه ثم انتقلت ملكية هذا المال إلىَّ بطريق مشروع – حتى بالهدية – فإنَّ هذا المال فى حقى حلال – على رأى هؤلاء – ولذلك فإن أكثر العلماء مذهبهم عدم التدقيق فى السؤال عن أصل الأشياء ولذلك ذهبوا إلى أنَّ الحلال ما جُهِلَ أصله .

« وجنبــوا طعــام أهل الظلم والبغى والفساد خوف الإثم »

قال ابن عجيبة : « أهل الظلم ملوك الجور والعمال المضروب على أيديهم ، وأهل البغى هم السُرّاق والمحاربون ، وأهل الفساد مَن يتعامل بالربا وبالمعاملة الفاسدة ولا يتحاشى من الحرام » .

وقال الشيخ زروق : « وأما تجنبهم طعام الظلَمة ونحوهم فلوجوه :

أحدها : ما فى إرضائهم من الموالاة التى لا تحل ، أى لأنهم يفرحون بأكل طعامهم من أهل الصلاح والخير مع ما هم عليه من الظلم ما لم يخش الضرر الواضح .

الثانى : ما فيه من تسلطهم على المنتسبين إما بسوء الظن بالجهل لاعتقادهم حُرمة ما بأيديهم ، وأنّ مَن يأكله لا خلاق له فيستهينون بهذا الشخص بل بكل أهل جنسه بجعله حُجّة على غيره - فمن لا يقدر أن يتوسع توسعه لورع أو ضيق حظيرة - أى ضيق دائرة معرفته - فيقول له : فلان أكبر منك أكل طعامى ، وما تكون أنت منه ؟ فيؤذى ذلك .

الثالث : ما فيه من إعانتهم على ما هم فيه إذ يرون أنفسهم حينئذ أنهم من أهل الخير .

الرابع : ما فى ذلك من ميل النفس لهم ومحبتهم ، حكى أبو نعيم فى حليته أنّ ابن المبارك دخل على الخليفة فوعظه وذكّره فأعطاه مالاً فاشترى به عبيداً فأعتقهم ، فقال له محمد بن واسع فى ذلك ، فقال له : ذكّرتهم بالله ووعظتهم وأخذتُ منهم مال الله وصرفته فى وجهه ، فقال محمد بن واسع : آلله هل قلبك الآن لهم كما كان ؟ قال : لا . فاستغفر ، رحمة الله على الجميع .

الخامس : ما فى ذلك من تناول الشُبهة من غير ضرورة فقد قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : مَن كان من فقراء هذا الزمان مؤثراً للسماع أكولاً لأموال الظلمة ففيه نزعه يهودية قال الله تعالى : ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ [1] (انتهى باختصار) .

---

(١) المائدة : ٤٢

السادس : ما يلحقه بسبب ذلك من الذلّة وتغيير الحال كما اتفق لكثير من الناس واتخذه بعضهم - أى بعض الكبراء - سياسة ، فإذا رأى فقيراً استظهر عليهم بالقوة وخافوا دعوته أو غيرها والوه واحتالوا عليه حتى يدخل فى أيديهم فلا يمكنه التعزز عليهم ، وقد كان بعض مشايخ المغرب يقول : الفقير لا يمشى باللّيل ولا يهرب بالنهار إن رأى ما خاف ولا يأكل طعام الظَلَمة .

قلت : لأن هذه كلها تورث الذل .

السابع : ما فى ذلك من فتح باب التشويش بإعقاد الناس أنّ له عندهم جاهاً فيتوجهون له بطلب الشفاعة ، وذلك أمر لا يمكنه استيفاؤه ، وقلّما تعلّق به رجل فسلم فى ديانته والله تعالى أعلم ، وهذا كله ما لم تكن ضرورة والمرء فقيه نفسه .

« بـــل أكلوا مما استبان حله　　　غير الذى لا يعرفون أصله »

قال ابن عجيبة : يعنى أنّ القوم لا يأكلون إلا ما ظهر حله وتحققت إباحته، ولا يأكلون مما لا يعرفون أصله هل هو حلال أو حرام ، ولعل ذلك مع قيام الريبة والشك .

أقول : وقد مرّ معنا هذا الموضوع من قبل فراجعه .

« ولم يكونوا كرهوا الكلاما　　　عليه لكن كرهوا الإرغاما »

قال ابن عجيبة : الكلام على الطعام حسن لأنّ السكوت على الطعام يدل على الشره والنهمة . ويُستحب أن يكون بعلم أو بحكايات الصالحين ، ويكون الكلام بعد بلع الطعام لا فى حال مضغه لأنه ربما يخرج شىء من فمه فيسقط فى الطعام فيقذّره على غيره ، فلا يتكلم الآكل ما دام الطعام فى فمه ، وقد ذكر بعض المشايخ أنه استحب أن يسمى عند كل لقمة ويحمد عند ابتلاعها ، قال ابن الحاج : وهذا أمر حسن لكن السنّة لم ترد به وهى أحسن من كل ما سواها ، فلم يكن القوم يكرهون الكلام فى حال الطعام ولكن كانوا يكرهون الإرغام -أى التحتيم على الإخوان - فى الأكل لما فى ذلك من التكلف المنهى عنه بل الأدب فى ذلك تركه يفعل ما يشاء ، وقد يكون قولك له : « كُلْ » سبباً فى رفع يده

حياءً ، وإذا شعر صاحب الطعام أنَّ ضيوفه يخجلون من الأكل عند حضوره فإنه يحاول أن يتغيب بحجة عمل أو غيره ليعطيهم فرصة يأخذون فيها حريتهم .

« ويكـــرهون الأكـــل مـــرتين فى اليوم والمرة فى اليومين »

المراد باليوم هنا النهار . قال ابن عجيبة : والمراد باليوم بياض النهار من الفجر إلى الغروب وقال : ويُفهم من كلام الناظم أنَّ الممدوح هو الأكل مرة فى اليوم – يعنى مرة فى النهار ومرة فى الليل وهو الوسط ، وأنَّ الأكل مرة فى اليومين تفريط كما أنَّ الثلاثة فى اليوم إفراط . قال الشيخ زروق : وهذا حكم مَن اعتدل مزاجه أو قارب ، فأما مَن انحرف إلى حد الإفراط أو التفريط فلا ينبغى أن يهمل حكمه بل يعمل بما يصلحه من غير إخلال ولا بُعد عن الحق ، فإنَّ الشبع المفرط الذى يفسد المعدة ويضيع الطعام من غير احتياج محرَّم ، والذى يثقل الأعضاء ولا يفسد شيئاً مكروه على خلاف فيه ، والأولى بالشخص ألا يأكل حتى يجوع متوسطاً وهو الذى يشتهى ما يقوم به أوده – أى قوامه – من معتاد طعامه ، ولا يفرط إلى أن يشتهى لكل خبز فإنه مضر بالفكرة مخل بالقوة ، ولا يفرط بحيث يأكل بالتشهى وهو طلب الطعام مقروناً بالشهوة.

أقول : يمكن أن يستأنس للأكل مرتين فى الأربع والعشرين ساعة بالقياس على الصيام ، فأكلة للسحور وأكلة للفطور ، ويقول تعالى فى وصف حال أهل الجنة : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ (١) . وعلينا أن نلاحظ أنه ليست العبرة فى أنَ يكون أكله بالليل أو النَهار – فإن بعض البلدان قد يكون نهارها ثلاث وعشرين ساعة – فالعبرة إذن أن يكون لنا فى الأربع والعشرين ساعة أكلتان وهذا من باب الأدب ، ونلاحظ فى حياة العرب بشكل عام قبل الإسلام وبعده أنَّ لهم شربتين : شربة الصباح ويسمونها صَبوحاً وشربة الليل أو المساء ويسمونها غَبوقاً . وكان شرابهم الحليب ، وقد وردت فى نصوص السُنَّة اشتقاقات الغَبوق ، وورد فى صحيح السُنَّة أنَّ رسول الله ﷺ كان يشرب

(١) مريم : ٦٢

آخر سهره وقد اعتاد الناس فى زماننا على شرب الشاى والقهوة بحليب أو غير حليب فى كثير من الأوقات ، فإذا استطاع الإنسان أن تكون له أكلتان رئيسيتان فى الأربع والعشرين ساعة ، وشربتان مساعدتان فى الأربع والعشرين ساعة مع الاعتدال فى كل ذلك فإننى أرجو ألا يكون بأس فى ذلك ، ولا شك أنّ أهل عصرنا توسعوا فى الطعام والشراب حتى ظهر فيهم السمن وأصابتهم الأمراض ، ولذلك لا بد من عودة إلى السُنَّة فى شأن الطعام ولا شك أنّ كثرة وجبات الطعام ليست من السُنَّة ، ولكن هناك حالات مرضية لا بد لأصحابها من تعدد الوجبات فليلاحَظ ذلك ، وليلاحظ مجموع آداب المسلم فى هذا الموضوع وغيره ، فإذا دعى المسلم فلذلك آدابه ، والوضع العادى له آدابه ، والوضع الاستثنائى له آدابه ، والإسراف دائماً حرام أو مكروه على حسب درجته .

« وفضّلوا الجمع على الإفراد   فيه لأجل كثرة الأيادى »

فهم إذن يفضّلون الأكل جماعة على الأكل فرادى لتحقيق سُنَّة تكثير الأيدى على الطعام ، وفى ذلك من إلتماس البركة الحسِّية والمعنوية ما فيه ، كما أنّ فيه مراناً على العفة وعدم الحرص والشره لأنّ أكل الإنسان منفرداً دليل على البخل أو الحرص أو النهمة - إلا لضرورة شرعية أو ضرورة عادية ، ويلاحظ الإنسان مَن يأكل معه فقد قال الجنيد : المؤاكلة مراضعة فأنظروا مَن تآكلونه . « ولم يلقم بعضهم لبعض » أى أن الصوفية لم يكن من عادتهم أن يلقم بعضهم لبعض على وجه الملاعبة لما فيه من قلة الاحتشام والتوقير ، أما إذا كان على وجه التبرك أو الإيناس فلا بأس به ، بل قد يكون أحياناً أدب الوقت . « ولم يجل بصره بل يغض » من آداب القوم ألا يمدوا أبصارهم إلى مَن يأكل معهم بل يغضون أبصارهم وينظرون أمامهم لما فى إجالة البصر من إخجال الآكلين خاصة ، وأن هيئة الإنسان أثناء الأكل نوع عورة لا سيما إذا كان كبير السن .

« ولم يسـروا فيه بالانتظار   فيذهب الوقت بلا تذكار »

أشار فى هذا البيت إلى أنَّ مذهب الصوفية إذا حضر الطعام بادروا إليه بالأكل ولم يكن رأيهم فيه انتظار مَن كان غائباً بل يعزلون حقه ويأكلون حتى لا يضيع الوقت سدى . أقول : وهذا حيث لا كلفة أو كان هناك موعد . « وكرهوا البطنة للإخوان » . البطنة : هى امتلاء البطن من الطعام ، أخبر المؤلف أن الصوفية كرهوا الشبع أو الزائد فوقه إلى حد لا يضر وإلا حرم ، وعلّل هذه الكراهية بقوله : « فالبطن كالوعاء للشيطان » . أشار بهذا إلى الحديث : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » [1] . ومراد المؤلف أن الشيطان من خلال ملء المعدة يصل بالإنسان إلى كثير من مراداته فكأن المعدة هى الوعاء الذى يضع فيه الشيطان أمنياته التى يريدها من الإنسان . « وأمروا فيه بفتح الباب » أى فتح باب المنزل الذى يأكلون فيه ليدخل عليهم كل مَن يحتاج إلى الأكل ، وذلك من كرمهم وغنى قلوبهم ، فهم لا يدفعون إلى مَن يأتيهم بل يقابلونه ويفرحون به وربما رأوا له المِنَّة عليهم فى أكله معهم بل يعتقدون أنه هدية من الله إليهم لا سيما إن كانَ من إخوانهم أو من ذوى الحاجة ، والمسألة على كل حال من باب الآداب ، وقد يوجد من الموانع من الأدب ما هو الأقوى من الأدب فيحول بين الإنسان وتطبيق الأدب ، والفتوى تقدَّر زماناً ومكاناً وشخصاً ، فمثلاً مَن كان مهيئاً طعاماً لعدد مخصوص ولا يسعه أن يؤمن لزائد عنهم فإن حقهم يتأكد على حقوق غيرهم . « وأكلوا بالقصد والآداب » الأكل بالقصد – أى من غير إفراط وتفريط – فلا يزيد على الشبع المعتاد بل يقصر عنه ولكن لا إلى الحد الذى يختل فيه بدنه ، ولا يكبِّر اللقمة جداً ولا يصغِّرها.. والأكل بالآداب : أى مراعاة كل أدب من التسمية جهراً بابتدائه ونية التقوِّى على طاعة الله ، وغسل اليدين وخاصة إن كانت اليد وسخة ، والأكل على الأرض إن أمكن لا على مائدة مرتفعة ، والجلوس على إحدى رجليه وهى اليسرى ورفع الأخرى وإلصاقها ببطنه إن أمكنه ذلك ، والأكل مما يليه إذا كان لا يختلف ، وتصغير اللقمة وتجويد المضغ وترك النظر إلى لقمة صاحبه ، وليس

---

(١) متفق عليه .

من الأدب أن يلعق أصابعه قبل تمام الطعام ثم يردها فى القصعة ، وليس من الأدب أن ينحنى على الطعام بحيث يسقط من فمه شىء ، وليس من الأدب أن ينفض يده فى القصعة ، ومن الآداب : الحمد سراً بعد انتهائه من الطعام ، ولعق الأصابع إن أكل بها وغسلها ، ومسح الأيدى والفم وغسل ذلك بعد الطعام ، ومنها : لقط ما سقط من الطعام ، ومنها : الأكل باليمين إلا إذا كان من باب مساعدة الشمال لليمين ، وعدم جولان يده إلا أن يكون مع أهله وولده وحيث يباح الجولان . « وفتحوا الباب لكل سار » هذا تأكيد ما مر معنا من قبل . « وأكلوا بالرفق والإيثار » المراد بالرفق: التأنى فى الأكل بحيث يصغّر اللقمة ولا يرفع أخرى حتى يبلغ ما فى فيه ويجيد المضغ ويلوك طعامه إلى أن يمضغه مضغاً ولا يظهر الشره والحرص ، بل يظهر القناعة والغنى عنه . والأكل بالإيثار هو أن يؤثر غيره على نفسه إن كان الطعام قليلاً أو كان كان فيه ما يشتهى فيقدِّمه لغيره .

ونختم هذا الفصل بالتذكير بأنّ من الأدب تشييع الضيف إلى باب الدار ، وبالتذكير بقول أبى عبد الرحمن السلمى قال : قال بعض مشايخ الصوفية : واجب على المضيف ثلاثة أشياء ، وعلى الضيف ثلاثة أشياء ، فأما على المضيف : بأن يطعمه من الحلال ، ويحفظ عليه مواقيت الصلاة ، ولا يحبس عنه ما قدر عليه من الطعام ، وعلى الضيف : أن يجلس حيث يُجلسه ، وأن يرضى بما قُدِّم إليه ، ولا يخرج إلا بعد استئذان .

* * *

فصل
فى آدابهم فى السماع

رأينا أنّ الإنشاد مهيج على السير ومساعد عليه ، كما رأينا أنه يخدم خدمات متعددة ، ومن ثَمّ اعتمده الصوفية وهو موضوع ذكرناه من قبل وبيّنا ما له وما عليه ، ورأينا كيف أنّ الأصل فى سماع أصحاب رسول الله ﷺ هو

استماع القرآن وما سوى ذلك كان عارضاً وضمن حدود ، فهو بالنسبة لمجموع قوت القلوب كالملح بالنسبة للطعام ، وعلى كل حال فكونه له أصله وكونه معتمداً فلا بد أن نلاحظ آدابه ، ومن ثَمَّ فقد تحدثوا فى كتبهم عن السماع وآدابه . ولذلك فقد خصص صاحب « المباحث الأصلية » لذلك فقرة وكان جزء من هذه الفقرة حول آدابهم فى السماع ولننقل بعض هذا الجزء من الفقرة مع شىء من التعليقات عليها مستأنسين بشرح ابن عجيبة .

قال صاحب « المباحث » : « ولا يجوز عنده التكلم » أى لا ينبغى التكلم أثناء السماع لأنَّ الكلام يُبعِد عن الغرض فى السماع ، فإذا كانت جلسة السماع لحكمة فإنَّ هذه الحكمة تنتفى بسبب وجود الكلام ، ثم قال : « ولا التلاهى لا ولا التبسم » .. وذلك لأن التلاهى عنه إشعار بعدم الأدب فيه وهذا يقتضى ألا يحضر أصلاً ، وأما التبسم أثناءه فلما يُشعر من الازدراء أو الاستهجان أو الاستهزاء أو غير ذلك ، ومن ثَمَّ فإنهم يعتبرونه إساءة أدب ، وبالجملة نقول : إن جلسات السماع إنما هى بمثابة الأدوية وبمثابة المساعدات على بعض المعانى ، فالإنسان بين أمرين : إما أن يحضرها ويعطيها حقها ، وإما ألا يحضرها أصلاً .

« والزعقات فيه والتمزيق   ضعف وهز الرأس والتصفيق »

أى إنَّ الصياح وتمزيق الثياب وتحريك الرأس وضرب الكف بالكف كل ذلك من مظاهر الضعف . قال ابن عجيبة بعد ذكره ما مَرَّ : إنما يصدر من ضعيف الحال الذى هو مغلوب للأحوال ، أما القوى المالك للأحوال فلا يصدر منه شىء من ذلك .

أقول : إذا كان مثل هذا يُعتبر ضعفاً فما بالك بمن يفعل أكثر من ذلك ، لقد آن الأوان أن يضبط السائرون إلى الله تصرفاتهم فلا يكونون محل الإنكار من العامة والخاصة بل محل الاستهجان . لقد آن الأوان لحياة روحية منضبطة بالحدود التى كان عليها الصحابة رضى الله عنهم ، وضمن هذه الحدود فإننا لا نبالى بقول قائل . أما ما زاد على هذه الحدود فقد آن الأوان لنقسر أنفسنا على تركه فنرحم بذلك أنفسنا ونرحم المسلمين .

« ولم يكن لأجله اجتماع ولا لدى غيبته انصداع »

وما ذلك إلا لأن السماع ليس ركناً فى الطريق ولا شرطاً فيه ، فهو إن وُجد كان وإذا لم يوجد لا يُفتقد فليس هو محور الاجتماع ، وللأسف فإنّ كثيرين من الصوفية أصبح السماع هو الذى يجمعهم ، فأصبح المنشد هو مركز الاجتماع لا الشيخ ولا السير إلى الله ، وهذا إخراج للأمور عن مواضعها .. ثم ذكر الشيخ بعد ذلك كيف أنّ سماع القوم لا ترافقه آلة لهو فقال : « ولم يكن فيه مراسنونا » أى مدندنون كعادة أهل اللهو إذا فرغ المغنى من غنائه دندنوا له إظهاراً لتجاوبهم وانسجامهم . « ولا طنابر ومسمعونا » الطنابر : جمع طنبور وهو شبيه بالعود فى صورته ، وقيل : هو نفسه ، والمسمعون : هم المرصدون للغناء فى الولائم يُسمعون الناس غناءهم ، فنشيدهم إذن نشيد غير متكلف ولا ترافقه ما يرافق الغناء من آلات وعادات . « وليس أيضاً كان فيه طار » الطار : هو ما يكون له صنجات . « ولا مزاهر ولا تنقار » المزاهر : جمع مزهر وهو المجلد من جهتين دون أن يكون له شراشر ،و « التنقار » - فى البيت: هو فعل النقر ، فكل ما يسمى نقراً ليس موجوداً فى حلقاتهم سواء أكان نقر طلبة أو نقر كوبة - وهى التى يسميها الناس الآن دربكة - أو نقر عود .

« والشمع والفرش والتكالف أحلف ما كانت يمين حالف »

يعنى أنهم لا يتكلفون بالسماع حتى يحضروا الشموع الموقدة والفُرُش الممهدة والوسائد المزوّقة ، وإنما يحضرون له على حالة الفاقة والابتذال على ما يصادف الوقت والحال ، وليس مراده أنها محرّمة ، بل مراده أن طريق القوم عدم التكلف . ثم ذكر صاحب المباحث أصل نشأة السماع عند القوم وأسباب وجوده ، وذكر بعد ذلك أن من آدابهم أن ينهوا جلسات السماع بالمذاكرة وشروح ما قيل فقال : « فإن تمادى وأتم الشعرا » أى إن استمر المنشد فى إنشاده حتى أتم قصيدته.« أبدوا من الشرح عليه سفرا » السِفر : هو الكتاب ، والمراد أنهم بعد الإنشاد يتذاكرون فيما قيل ، ويشرحونه ليوضع الإنشاد على مواضعه فى المعانى ليرتقى السامعون إلى أعلى درجات الإدراك لخفى المعانى فتنشط هممهم نحو تحصيل المقامات .

* * *

فصل

مختارات من توجيهات ابن عطاء

« من علامة الاعتماد علىٰ العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل » . « اجتهادك فيما ضُمن لك وتقصيرك فيما طُلِب منك دليل انطماس البصيرة منك » . « الأعمالَ صور قائمة وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها » . « تشوفك إلى ما بُطِن فيك من العيوب خير من تشوفك إلى ما حُجِبَ عنك من الغيوب » . « مَن لم يشكر النعَم فقد تعرَّض لزوالها ومَن شكرها فقد قيَّدها بعقالها » . « مَن رأيته مجيباً عن كل ما سُئِل ومعبِّراً عن كل ما شهد وذاكراً كل ما علم فاستدل بذلك على وجود جهله » . « الحزن على فقدان الطاعة مع عدم النهوض إليها من علامات الاغترار » . « لا يُخاف عليك أن تلتبس الطريق عليك وإنما يُخاف عليك من غلبة الهوى عليك » . « كن بأوصاف ربوبيته متعلقاً وبأوصاف عبوديتك متحققاً ، منعك أن تدَّعى ما ليس لك مما للمخلوقين ، أفيبيح لك أن تدَّعى وصفه وهو رب العالَمين » ؟ « الناس يمدحونك لما يظنون فيك فكن أنت ذاماً لنفسك لما تعلمه منها ، المؤمن إذا مُدِح استحيا من اللّه تعالى أن يثنى عليه بوصف لا يشهده من نفسه » . « أجهل الناس مَن ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس » . « إذا أُطلق الثناء عليك ولست بأهل فاثن عليه بما له أهل». « إذا وقع منك ذنب فلا يكن سبباً ليأسك من حصول الاستقامة مع ربك فقد يكون ذلك آخر ذنب قدَّره عليك » . « استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك فى عبوديتك » . « خير علم ما كانت الخشية معه ، العلم إن قارنته الخشية كان لك وإلا فعليك » . « مَن أثبت لنفسه تواضعاً فهو المتكبر حقاً إذ ليس التواضع إلا عن رِفعة ، فمتى أثبتَّ لنفسك تواضعاً فأنت المتكبر ، ليس المتواضع الذى إذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع ، ولكن المتواضع الذى إذا تواضع رأى أنه دون ما صنع ، التواضع الحقيقى هو ما كان ناشئاً عن شهود عظمته وتجلى صفته » .

* * *

فصل

فى الأخلاق الجامعة

فى كتابنا « جند الله ثقافة وأخلاقاً » ذكرنا أن الأخلاق الأساسية للمسلم التى إليها مرجع كل خلق هى ما ذكره الله عزّ وجلّ فى آيات الردّة من سورة المائدة فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (١) .

فهذه الآيات ذكرت أخلاقاً خمسة هى قوام أخلاقية حزب الله ، وأى تفريط فى واحدة من هذه الأخلاق يعنى انحرافاً ما عن هذه الأخلاقية الرفيعة وما أكثر الذين يفرّطون . ونحيل القارىء إلى ذلك الكتاب وهو أحد أجزاء هذه السلسلة،

وفى رسالة « من أجل خطوة إلى الأمام على طريق الجهاد المبارك » من هذه السلسلة أبرزنا كيف أنّ خصائص الجماعة المسلمة حدّدتها آيات سورة الشورى هذه : ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ * وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٢) .

---

(١) المائدة : ٥٤ - ٥٦ (٢) الشورى : ٣٦ - ٤٣

لاحظ أنّ الشورى كخصيصة من خصائص الجماعة الإسلامية جاءت بين الصلاة والإنفاق ، فما أكثر أهميتها إذن وما أشد تفريط المسلمين فيها ، ولاحظ أنّ الانتصار من الظلم والظالمين هو أحد خصائص الجماعة المسلمة ، قال النسفى : « وكانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترىء عليهم الفُسّاق ، ولاحظ أنّ الانتصار ينبغى أن يكون فى حدود العدل ، ولاحظ خطأ الناس إذ يلومون المظلوم إذا انتصر ولا يلومون الظالم على بغيه ، والله عزّ وجلّ يقول : ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ ﴾ (١) .

ثم لاحظ بعد ذلك كله تربية الكثير من صوفيى عصرنا ومحلها فى مجموع هذه الأخلاق الجامعة لترى الانحراف فى باب الأخلاق عند الكثيرين منهم بشكل واضح ولتعلم كيف أنّ تصوف الحركة الإسلامية المعاصرة هو التصوف الصحيح بإذن الله وتوفيقه .

هذه فصول متفرقة فى بعض مواقع مهمة فى كل منها لفتنا النظر إلى آداب أو أخلاق أو أحكام سلوكية ، ولم نرد إحاطة فى الأمر ، بل أردنا أن نلفت النظر إلى قضية الآداب والأخلاق فى التصوف بشكل أخص، وفى الإسلام بشكل أعم ، ليُعرف محل ذلك ، فإنه وإن كانت هذه الرسالة نقطة علام على الطريق فإنه من النقص فيها أن لا يكون بارزاً فيها بعض الأمور ، وفى الباب القادم سنذكر فصولاً متفرقات نعتبرها كذلك مما ينبغى أن يتعرض لها كتاب عن التصوف ولو كان مختصراً ، ومن ثَمّ كان الباب القادم « فى فصول شتّى » .

* * *

(١) الشورى : ٤١ - ٤٢

الباب السابع عشر

فى فصول شتى

هذا الباب فصوله شتّى ولكن يجمعها أنه لا بد من إشارة إليها فى رسالة تعرف على علم التصوف وتدل الإنسان على أن يأخذ حظه من هذا العلم سلوكاً وعملاً .

فصل
فى أنّ السير إلى الله لا يعنى قطع احتياجات النفس ولا يعنى شل الطاقات

كثيراً ما يقع السالكون - فضلاً عن غيرهم - فى خطأ كبير ، هذا الخطأ هو تصورهم أنّ السلوك هو قطع لاحتياجات النفس البَشرية وإنهاء لها أصلاً وتعطيل للطاقات ، بينما الحقيقة هى أنّ السلوك هو الوصول إلى حالة تعاد فيها الأمور كلها إلى حجمها وإلى أن تنبثق عن وضع صحيح . فمثلاً العلاقة الزوجية تنبثق فى حالة من الحالات عن وضع شهوانى بحت ، ولكن بعد الوصول تنبثق العلاقة الجسدية نفسها عن معان فى النفس نورانية الأصل كثيرة الإشعاعات العاطفية المتكاملة ، ومن ثَمّ فاللذات والمتع تزداد بعد الوصول بعد أن حدث إنقلاب جذرى فى التركيب العام للنفس البَشرية وللقلب البَشرى ، وما يقال فى هذا الجانب يقال فى جوانب أخرى . إنه بعد السير الكامل إلى الله عَزّ وجَلّ - أى عندما يصبح التركيب العام للإنسان كله سليماً - تنبثق الأشياء كلها على ضوء العلم وإذا بالتصرفات كلها فى غاية السلامة والاستقامة

والحكمة ، فالسير إلى الله منتهاه أن يصبح الإنسان حكيماً يضع الأمور فى مواضعها . الحزم فى محله والشجاعة فى محلها والتأنى فى محله والمخاطرة فى محلها وبذل النفس فى محله وبذل المال فى محله ، فالسير إلى الله يوصل إلى أن تنفجر الطاقات البَشرية كلها فى إطارها الصحيح : طاقة العقل وطاقة الروح وطاقة الجسم وطاقة القلب وطاقة النفس فى الحياة الاجتماعية وفى الحياة السياسية وفى الحياة الاقتصادية وفى دائرة الأسرة والحى والقُطر والأمة والإنسانية . إنّ مَن لم يفهم السير إلى الله على أنه كذلك يكون خاطئاً ، ومَن عرف حياة رسول الله ﷺ وأصحابه - وهم القدوة فى كل شىء - أدرك بداهة ما نقول .

* * *

فصل
فى الإرادة والنيّة وتصحيحهما

رأينا أنّ نقطة البداية فى السير إلى الله هى إنبعاث الهمة أو توجه الإرادة نحو السير إلى الله عزّ وجلّ ، ومن ثمّ فلا بد من تصحيح لقضية الإرادة من ناحية ، ولا بد من تحسين النيّة وإصلاحها كذلك ، فالإرادة لا بد أن تكون خالصة لوجه الله وأن تكون متحررة من أى أمر من أمور الدنيا ، قال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ (١) ، فإرادة وجه الله مع عبادته هى المقام الذى يجب أن نحرص عليه وألا نتخلى عنه وأن نصححه بشكل دائم ، فالصوارف دائماً كثيرة ، والقواطع كبيرة ، فالدنيا تحاول أن تصرفك عن إرادة وجه الله ، والشيطان يحاول أن يصرفك عن إرادة وجه الله ، والنفس لها تطلعاتها التى تنسيك بها إرادة التوجه إلى الله ، وأنت مكلّف بتصحيح الإرادة وتحديد التوجه ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢) ، ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي

(١) الكهف : ٢٨ (٢) الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣

حَرْثِه ، وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِه مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ (١) . وجرت سُنَّة اللّه عزّ وجَلّ أنه عندما يصدق إنسان بالتوجه إلى اللّه ويطلب ما يقربه إليه أن ينيله اللّه عزّ وجَلّ ذلك، يقول ﷺ : « لو كان الإيمان عند الثريا لتناوله رجال من أبناء فارس » (٢)، والسالكون على يد الشيوخ أنواع ، فمنهم مَن يسلك وهمه أن يكون مرشداً للخلق إلى الحق ، ومنهم مَن همه أن يصل فى نفسه إلى مرضاة اللّه وحسبه ذلك دون أن تكون عنده تطلعات أخرى ، ومنهم مَن تجذبهم حلقات السير إلى اللّه وليس لديهم وضوح لا فى الهدف ولا فى العمل ، ولكل من هؤلاء طريقه . وواجب الشيوخ أن يرتقوا دائماً من همة أدنى إلى همة أعلى ، وعلى الجميع أن يلاحظوا قضية الإخلاص للّه تعالى فى البدايات والنهايات ، ولابن عطاء كلام كثير فى قضية الإرادة وتصحيحها ، ومن كلماته : « ما أرادت همة سالك أن تقف عند ما كُشف لها إلا ونادته هواتف الحقيقة : الذى تطلب أمامك ، ولا تبرجت ظواهر المكونات لتصرفه عن السير إلى اللّه إلا ونادته حقائقها : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ » (٣) .

* * *

فصل
فى الخدمة ومحلها فى السير إلى اللّه

فى حياة رسول اللّه ﷺ وأصحابه كثير من مظاهر الخدمة فى اللّه خدمة الصغار للكبار وخدمة الكبار للصغار وخدمة الأصحاب لبعضهم بعضاً ، وحتى رسول اللّه ﷺ « كان إذا دخل بيته يعمل فى مهنة أهله » ، وخدم بعض الوفود بنفسه صلى اللّه عليه وسلم تكريماً لحالة خاصة ووفاءً لوضع معيَّن ، وكان يشارك أصحابه العمل - عليه الصلاة والسلام - وهذا أصل كبير فى الحياة الإسلامية يوجه المسلمين فى تواضعهم لبعضهم ورحمتهم لبعضهم وذلتهم لبعضهم فلا يأنف أحدهم من خدمة الآخر ، بل رحمة الكبير بالصغير تجعله يرعاه ، وتوقير الصغير للكبير

(١) الشورى : ٢٠ . (٢) متفق عليه . (٣) البقرة : ١٠٢ .

تجعله يخدمه ، وتواضع الإخوان لبعضهم ومحبتهم فى الله تزيل الأنفة والكبرياء فى التعامل فيما بينهم ، وهذا هو الجو الإسلامى الصافى ..

وقد فطن أهل السير إلى الله إلى أهمية الخدمة فى تهذيب النفس فلاحظوا أن الإنسان الذى لا يأنف من خدمة الكبار والصغار إنسان تحرر من أمراض كثيرة كالعجب والخيلاء والكبر وغير ذلك ، وتحقق بآن واحد بمجموعة من الأمور كالتواضع والرحمة والاحترام والإكرام للمسلمين والذلّة على المؤمنين وغير ذلك ، لذلك اعتبروا خدمة الإخوان والشيوخ فى الله من أقرب الطرق التى توصل إلى الله لما يتحقق به المتبرع بالخدمة من مشاعر مخلصة مخبتة لله عَزَّ وجَلَّ ، ومن ثَمَّ كانت الخدمة أدباً عاماً عندهم لا يأنف منه الكبير ويندفع فيه الصغير ، فتبقى أجواؤهم فى هذا المقام عذبة صافية خالية من الزخارف الكاذبة والبهارج الخادعة وبعيدة عن أجواء عنفوان النفوس وكبريائها ، « ولقد كان بعض شيوخنا وهو فى سن الثمانين يقدِّم لنا أحذيتنا ، ونحن فى أول طلبنا للعلم ، مما كان له فى أنفسنا أثر حميد فى تعويدنا الخدمة والتواضع لجميع الخلق » .

إنَّ طبيعة الخدمة فى الله لا تستطيعها نفس إلا إذا اجتمع فيها إيمان بالله واليوم الآخر وثقة بأن المُعِزّ المُذلّ هو الله ، وأنَّ مَن تواضع لله رفعه الله ، وإيمان بأن الإنسان مأجور عند الله على خدمته لإخوانه ، وهكذا نجد أن الخدمة فى الله دواء للنفس وغذاء للقلب من جهات متعددة .

* * *

فصل
فى الخلوة

قد يرغب المريد أن يقفز قفزة كبيرة فى تنوير قلبه ، وقد يرى الشيخ أنَّ مريداً ما يحتاج إلى وجبة روحية كبيرة للغذاء لقلبه أو كدواء لهذا القلب من وسوسة أو شكوك وريب أو غلبة نفس ، وهذا وغيره دعا بعض شيوخ الصوفية إلى اعتماد مبدأ الخلوة كاعتكاف مركَّز يحقق فيه المريد أكبر قدر من المردود ، ويختلف

الشيوخ فى نوع الأعمال المفضّلة فى الخلوة ومدتها المفضلة ، ولكن بشكل عام يكون الذكر والمذاكرة بعد القيام بفرائض الوقت هى محور الخلوة ، أما الزمن فالأصل أنه تابع لحال المريد ووقته وفراغه واحتياجات قلبه أو تحقيق الهدف الذى من أجله كانت الخلوة ، ونحن نُفرّق بين خلوة يعتمدها الإنسان لنفسه وبين خلوة تحت إشراف شيخ بصير فقيه ، فالخلوة التى تكون تحت إشراف شيخ يحدّد الشيخ ما ينبغى أن يكون فيها من أذكار ومذاكرات ومكان . وأما إذا اختار الإنسان لنفسه أن يقوم بخلوة ، فإننا نفضّل له أن يكون برنامجها : عشرات الآلاف من الاستغفار ، وعشرات الآلاف من الصلاة على رسول الله ﷺ ، وعشرات الآلاف من لا إله إلاّ الله ، ثم بعد ذلك يستغرق إما فى كلمة التوحيد أو فى الصلاة على رسول الله ﷺ حتى ينهى خلوته . وكثيرون من الناس يناقشون قضية الخلوة ، والأمر لو وجد الإنصاف لا يحتاج إلى هذا الاختلاف ، فلو أن إنساناً رأى أن يخلو بنفسه فى غرفة ليقوم بأعمال مباحة دون أن يؤثر ذلك على واجب لما كان للإنكار عليه محل ، فكيف إذا خلا الإنسان لنفسه ليقدّم لنفسه دواءً أو غذاءً ، إنّ الأمر واضح فى كونه جائزاً .. ولقد كانت حياة الصحابة فى غير أوقات الجهاد والعمل وإعطاء الحقوق خلوات على قراءة قرآن أو ذكر مع البُعد عن الغلو ، وفى اعتكاف رمضان وفى خلوة الرسول ﷺ فى غار حراء قبل النبوّة وبعدها ما يستأنس به لهذا الموضوع ، وإن كثيرين من مفكرى العالَم فطنوا لما للخلوة الطويلة من تأثير كبير على صفاء الفكر والنفس وجودة القرارات فاعتمدوها ، وإنّا لنتمنى للحركة الإسلامية أن تعتمد مبدأ الخلوات ذات العمل العبادى الروحى المركّز وخاصة للعناصر التى ترشحها لأمور التنفيذ ليكون اعتماد هذه العناصر للتنفيذ وقلوبهم منوَّرة وحالهم صالح واستعداداتهم للتضحية فى سبيل الله عالية وراقية ، بل إنى أرى أنّ اعتماد مبدأ الدورات الروحية والخلوات المكثفة هى البداية الصحيحة للتربية الإسلامية الجهادية ، وما الخلوة إلا دورة روحية مكثفة فى عصر غُلِبَ فيه الإنسان على أمره أمام طواحين الوقت والقلب والفكر والأعصاب .

* * *

فصل

فى أدوية مناسبة لأوضاع معيَّنة

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح كما فى « الترغيب والترهيب » عن أبى هريرة أنَّ رجلاً شكا إلى النبى ﷺ قسوة قلبه فقال : « إمسح رأس اليتيم وأطعم المسكين » .. تجد فى هذا الحديث كيف أن رسول الله ﷺ أعطى لهذا الإنسان الشاكى الدواء المناسب لحاله ، وفى حديث صحيح رواه مسلم : « أن عمر قال : يا رسول الله ، لأنت أحب إلىَّ من كل شئ إلا من نفسى ، فقال : « لا والذى نفسى بيده » حتى أكون أحب إليك من نفسك ، فقال عمر : فأنت الآن والله أحبُّ إلىَّ من نفسى ، فقال : « الآن يا عمر » ..

ههنا حالة ذكرها عمر لرسول الله ﷺ وهى حالة تنافى أحد مضامين ما يدخل فى الحديث : « لا يؤمن العبد حتى أكون أحبُّ إليه من أهله وماله والناس أجمعين » (١) . ولذلك أفهمه رسول الله ﷺ أنَّ هذه الحالة ليست هى الكمال ، وبمجرد التذكير بالوضع الكامل من رسول الله ﷺ انتقل عمر إلى هذا الحال ، فهنا حالة بسيطة اقتضت علاجاً سريعاً هو الكلمة المبينة .. ووافق العلاج استعداداً عالياً فانتهت الحالة مباشرة ، ولا ننسى أن لحال رسول الله ﷺ واستعداد عمر الدور الأعظم بعد البيان . وهناك ناس صاحبوا رسول الله ﷺ وهم منافقون وماتوا وهم منافقون ، وهناك ناس كانوا منافقين ثم تابوا إلى الله وأنابوا فأصبحوا من خيار هذه الأمة .

من هذه الأمثلة ندرك أنَّ أمراض القلوب والنفوس أحياناً تكون معقدة وأحياناً تكون بسيطة وأحياناً يكون الدواء كلمة وبياناً وأحياناً لا يكفى البيان وحده دون أن يبذل المريض جهداً خاصاً . فقد نجد إنساناً عاش فى بيئة معيَّنة اعتاد فيها العجرفة والكبر والعجب والإسراف والتطاول على الناس وغير ذلك .

فى مثل هذه الحالة لو جاء هذا الإنسان لشيخ - وكان صادقاً فى مجيئه - فقد يأمره الشيخ بأمر ما يكون علاجاً لكل هذه الأحوال دفعة واحدة ، ومن ثَمَّ لا بد

---

(١) متفق عليه .

أن يكون الشيخ خبيراً بأمراض النفوس وطرق علاجها ، وأن يعالج هذه الأمراض بالأدوية الشرعية . وفى هذه الرسالة نماذج يكون فيها السفر أو العزلة أو السؤال أو غير ذلك علاجاً لبعض الحالات ، ثم إنّ القلوب نفسها تختلف واستعداداتها تختلف ، ولا بد للشيخ أن يلاحظ أنواع القلوب وأنواع استعداداتها ويسير بكل إنسان بما يوافق حاله . فقد يكون إنسان مرشحاً للنجاح فى أمر فعليه أن يوجهه له ، ولذلك نلاحظ أنّ بعض فروض الكفايات يصبح فى حق بعض الناس فرض عين لأنهم وحدهم المرشحون لأدائها فالله عَزَّ وجَلَّ جعل المسلمين يكمل بعضهم بعضاً ، فما أجهل مَن يريد أن يقصر المسلمين كلهم على بعض المعانى معطلاً معانى أخرى . عند قوله تعالى : ﴿ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [1] ذكر ابن كثير الحَديث الذى أخَرجه الإمام أحمد وغيره والذى فيه قول رسول الله ﷺ : « إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة » ، من هذا النص ندرك أنّ القلوب نفسها تختلف وإن كانت جميعها فى الذروة من الكمال ، ومن ثَمَّ فلا بد أن يلاحظ الشيخ استعدادات القلوب وأنواعها فيوجه كل قلب فيما هو مناسب له . فقلب غلبت عليه الرحمة يوجهه نحو التفرغ لدعوة الخلق إلى الله ، وقلب غلب عليه حب التأديب للكفار يوجهه نحو التفرغ لقضية الجهاد .

وبمناسبة الكلام عن مداواة القلوب أقول : إن كثيرين حتى من علماء المسلمين والعاملين للإسلام لا تقبل ذوقيتهم العامة كثيراً من تصرفات الشيوخ فى معالجات بعض الأمراض ، كما أنّ بعضهم يشمئز أن يرى إنساناً ما يتصرف تصرفاً ما لا يتفق مع المألوف فى علاج نفسه . إلى هؤلاء أنقل هاتين الروايتين :

أخرج الترمذى بسند قال عنه : « حسن غريب » عن جبير بن مطعم قال : « يقولون فى التيه (أى العجب والاختيال والكبر) وقد ركبت الحمار ولبست

(١) الأنفال : ٦٨

الشملة وحلبت الشاة » . وقد قال النبى ﷺ : « مَن فعل هذا فليس فيه من الكبر شئ » .

وأخرج الشيخان ومالك : « وكان أبو هريرة يُستخلف على المدينة فيأتى بحزمة حطب على ظهره فيشق السوق ويقول : طرّقوا للأمير .. حتى ينظر الناس إليه » .

أقول : إنما كان يفعل ذلك أبو هريرة من باب مداواة نفسه ومعالجتها ، وهذا شئ نجد أمثلته كثيرة فى حياة الصحابة حتى إن عمر رضى الله عنه كان يتصرف التصرف فيعاتبه عليه ابنه فيذكر له كيف أنه فعل ذلك علاجاً . إنه لا بد من عودة كاملة لحياة إسلامية كاملة تظهر فيها بشكل كامل أخلاقية جيل الصحابة فى كل شئ .

* * *

فصل
فى اللباس

حاول بعض الصوفية أن يربطوا بين التصوف وبعض الأمور المرتبطة فى اللباس والذى يقال فى هذا المقام : إنّ المسألة إن كان لها أصلها فى السُنّة فالعبرة للسُنّة ، وإن كانت كعلاج مشروع لا يصل به الإنسان إلى ارتكاب مكروه أو محرّم فلذلك كذلك وجهه . فإذن نحن ههنا لا نقيّد أنفسنا بغير الأحكام المتعلقة باللباس ، ومما يمكن أن يقال فى هذا المقام :

١ - إنّ هناك نوعاً من اللباس محرّماً على الرجال كالحرير ، أو ما كان لباساً خاصا للنساء ، وهناك لباس محرّم على المرأة وهو ما كان لباساً خاصاً بالرجال إلا لمصلحة قتال ، وهناك تفصيلات فى مثل هذه المقامات يراها الإنسان فى كتب الفقه .

٢ - بشكل عام لباس المرأة المسلمة ينبغى أن يكون ساتراً سابغاً لا يصف ولا يشف ، وأن لباس الرجل لا ينبغى أن يصف عورة ، وهناك تفصيلات محلها كذلك كتب الفقه .

٣ - الإسراف فى اللباس لا ينبغى فى حق الرجال والنساء ، والإسراف قضية نسبية تختلف باختلاف أحوال الناس .

٤ - للزى العربى المتمثل بصور ، والمتمثل بمكملات أخرى ، فضل خاص لأنه به تتحقق مجموعة من المعانى لا تتحقق فى غيره من كونه لا يصف عورة ومن كونه يستطيع الإنسان بشكل مريح أن يحقق سُنَنًا كثيرة كالأكل جالساً وكالبول جالساً وغير ذلك .

٥ - يمكن أن يكون للإنسان لباس عمل يناسب عمله كالطيار والجندى ، وعلى هذا فلباس الراحة هو الذى نحرص أن يكون ذا وضع خاص ، فالقميص (الذى يسميه الناس الآن جلأبية فى بعض الأقطار) هو أحب اللباس إلى رسول الله ﷺ ، فأن يكون لباس راحتنا جلأبية وأن يكون هناك غطاء رأس كالقلنسوة أو العمامة أو الحطة فوق العمامة فذلك أكمل شئ ..

٦ - أن يعتاد الإنسان على ألا يستعبده اللباس فذلك من أخلاق المسلم ، ومن ثَمَّ قال رسول الله ﷺ : « تعس عبد الخميصة » (١) ، وقال عليه الصلاة والسلام : « البذاذة من الإيمان .. » (٢) ، ومن مظاهر البذاذة أن نستعمل الثوب ولو تقادم ، وألا نلقى به بمجرد أن يكون أصابه شئ ما ، ولذلك أُثِرَ عند بعض الصحابة أنهم كانوا يرقعون ثيابهم ، وهو موضوع ينبغى أن يعطى أهميته لما يترتب عليه من فساد فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية أن يلقى الإنسان ثوبه القديم ويلبس دائماً جديداً ، إنَّ هذا إرهاق والموضوع يقيده ما إذا تصدَّق الإنسان بالقديم أو كان القديم لا يذهب هدراً بل يُستفاد منه بشكل ما .

---

(١) رواه البخارى . (٢) رواه أحمد وابن ماجه .

٧ - إنَّ موضوع اللباس موضوع معقد يرتبط بأمور كثيرة ، فلكل أمة لباسها المرتبط بثقافتها وعادتها ، وكثيراً ما يكون لبس الإنسان لباس أمة أخرى هو أثر عن إعجاب بها وبحضارتها ونوع احتقار لأمته ، وهذا الموضوع ينبغى أن يُعالَج بمنتهى الحكمة فى عصرنا فلا نتشدد فيه التشدد الذى يجعلنا نضخِّم المكروه فنجعله حراماً ، ولا نتساهل فى التربية عليه حتى ننسى أنَّ لنا زياً خاصاً هو المفضَّل وهو الأفضل . إنه لا يوجد لباس يرتاح فيه جسم الإنسان وترتاح منه أعضاؤه كزينا الذى ورثناه عن رسول الله ﷺ ولذلك « كان عمر رضى الله عنه يرسل إلى الجيوش الإسلامية موصياً أن يميتوا زى العجم - الكافرين وقتذاك - ويحيوا زى العرب » . ولقد عرجنا على موضوع الزى والهيئة أكثر من مرة فى هذه السلسلة لأهميته فى موضوع ذاتية الأمة .

٨ - يقول عليه الصلاة و السلام : « مَن تشبَّه بقوم فهو منهم » (١) ، والعلماء حملوا هذا الحديث على مَن تشبَّه بقوم فى أمر هو من باب الخصوصيات الدينية عندهم ، أما ما كان مشتركاً بين بنى الإنسان أو كان من نوع التشبه فى أمر عادى لا يهدم شعيرة إسلامية أو يتعارض مع سُنَّة فالأمر واسع .

٩ - هناك حالة سنتحدث عنها فيما بعد وهى حالة يرى فيها الشيخ أن نوعاً من اللباس ضرورى فى حق إنسان ، إما لمقام أو كعلاج ، وهناك حالة يرى فيها الإمام أو الأمير أو جماعة المسلمين لإنسان أن يلبس لباساً ما كعملية تمويهية لتحقيق مصلحة ، فهاتان قضيتان لهما وضع خاص ، والفتوى تقدِّر زماناً ومكاناً وشخصاً ، والفتوى ههنا هى التى تحدِّد الحكم فى حق الإنسان .

* * *

فصل

فى العفة عن سؤال الناس

ربى رسول الله ﷺ أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئاً ، ففى الحديث الصحيح الذى أخرجه مسلم وأبو داود والنسائى عن عوف بن مالك الأشجعى

---

(١) رواه أحمد .

قال : « كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال : « ألا تبايعون رسول الله » ؟ - صلى الله عليه وسلم - وكنا حديثى عهد ببيعة فقلنا : قد بايعناك يا رسول الله ، فبسطنا أيدينا وقلنا : قد بايعناك يا رسول الله فعلى مانبايعك ؟ قال : « أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وتصلوا الصلوات الخمس ، وتسمعوا وتطيعوا » - وأسرَّ كلمة خفية - قال « : ولا تسألوا الناس شيئاً ». فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه » ، فهذه هى الحالة العليا فى التربية الإسلامية .

وقد سمح للإنسان فى بعض الحالات أن يسأل الناس حاجاته إما لوضع خاص أو لحالة اضطرارية وبقدر الحاجة . أخرج الإمام مسلم عن رسول الله ﷺ قال : « مَن سأل الناس تكثراً فإنما يسأل جمراً فليستقل أو ليستكثر » .

وفى كل الأحوال جعل العمل هو الحالة الأكمل للإنسان ، وسمح بالسؤال كعلاج لحالة إستثنائية « واليد العليا خير من اليد السفلى » .

هذا هو الأصل العام فى هذا الموضوع ومحل التفصيلات فى كتب التفسير والحديث والفقه ، وإنما عرجنا على هذا الموضوع هنا بسبب فهم خاطئ لتصرفات بعض الشيوخ ، فقد حدث مثلاً أن وُجدَت حالة معقَّدة لبعض أمراض القلوب عالجها بعض الشيوخ ، بأن طلب من صاحبها أن ينزل إلى السوق ويسأل الناس أن يعطوه . والواجب فى هذا المقام أن يسأل الناس وهو ينوى أن يوصل صدقتهم لمستحقيها ، وإنما يفعل ذلك من باب الدواء ، فتوسع بعضهم فى هذا الشأن وهو موضوع ينبغى أن يُطوَى بساطه فى عصرنا وأن يُرجع إلى المسألة فى أصلها الصحيح كما ذكرناه .

* * *

فصل
فى السفر

كان للرحلة فى الماضى وضع خاص ، إذ كانت أدب العالِم لتحصيل العلم ، وأدب الصوفى لتحصيل العلم ، والتربية عند أهل ذلك إذ يبدأ الإنسان فيأخذ ممن عنده علم أو حال فى محيطه ثم يرحل لاستكمال الأمر ، وأحياناً يكون

السفر علاجاً لبعض الأحوال النفسية والقلبية ، فمثلاً قد يقع الإنسان فى عشق أو فى إثم بسبب وجوده فى بيئة ، فيعالج الشيخ مثل هذه الحالات بأن يأمر المريد أن يسافر ليغيِّر بيئته أو ينسى . وفى الحديث الذى قصَّه علينا رسول الله ﷺ فى حادثة الرجل الذى قتل مائة شخص كيف أن العالِم أمره أن يترك أرضه إلى أرض أخرى [1] . فى هذا الحديث ما يمكن أن يُستأنَس به لهذا الموضوع ، فلصلة الرحلة بهذه القضايا التى ذكرناها وغيرها دأب علماء التربية أن يتحدثوا عن موضوع السفر فى كتبهم ، فلننقل بعض عباراتهم مع شئ من التعليق عليها ، يقول صاحب « المباحث الأصلية » :

« مذهبهم فى جولة البلدان زيــارة الشيوخ والإخوان »

أى هذا من مقاصدهم فى السفر : الزيارة فى الله للإخوان فى الله وللشيوخ العارفين بالله وذلك لنيل مقام ما أشار إليه الحديث الصحيح : « وجبت محبتى للمتحابين فىّ والمتزاورين فىّ والمتبادلين فىّ » [2] .

« ثم اقتباس العلم والآثار » أى هذا كذلك مقصد من مقاصدهم فى السفر وهو طلب العلم عامة وطلب علم الحديث خاصة وهو المراد هنا بكلمة الآثار .
« أو رد ظلم أو للاعتبار » أى ومن مقاصدهم فى السفر رد المظالم إن كانت على واحد منهم وتلك فرض كما إذا كان على الفقير دَيْن أو قصاص أو حق من حقوق العباد فيسافر إليه ليرده أو يتحلل منه ، وقد اعتبر الشيخ زروق أنَّ مما يدخل فى باب رد المظالم : رد ظلم العباد بعضهم على بعض ، وجعله من تغيير المنكر وقال : « هذا على مَن يمكنه ذلك من غير نقص فى دينه » وهذه لفتة كريمة من الشيخ زروق ، وما أجود أن يعتاد المسلمون على الخروج لمثل هذا ، ولجماعة الدعوة والتبليغ فى عصرنا باع طويل فى مثل هذا فجزاهم الله خيراً ، وأدخل الشيخ زروق فى هذا الباب السفر فراراً من ظلم يلحق بالإنسان أو فراراً

---

(1) الحديث رواه البخارى .

(2) رواه أحمد وابن حبان بلفظ متقارب أوله : « حقت محبتى ... » .

من أرض فيها ظلم وهو موضوع له صلة بقضية الهجرة ، ومن مقاصدهم فى السفر : السفر بقصد التأمل وأخذ العبرة ، قال ابن عجيبة فى شرح هذا المعنى : « الاعتبار بما يرى فى سفره من جبال وعيون وبحار وأشجار وثمار وأصناف المخلوقات وضروب الكائنات » .

« أو للخمول أو لنفى الجاه » أى من مقاصدهم فى السفر أن يسافروا فراراً من الشهرة أو فراراً من التعظيم ، وذلك ما يفعله المريد فى ابتداء أمره ليتسنى له الكمال ، وذلك لأن الشهرة والتعظيم فى ابتداء أمر المريد قد تمنعانه من الكمال فى العلم والسلوك فيكون السفر فى حقه من باب الدواء والأخذ بالأسباب للوصول إلى الكمال ليستطيع إفادة خلق الله بشكل أكمل وليتمكن الإخلاص فى قلبه بشكل أعمق ، قال ابن عجيبة : « والمراد (أى فى هذا المقام) بالجاه : المضر أو الجارى على غير وجه مستقيم أو الذى يخشى منه نقماً أو شغلاً أو الذى تميل إليه النفس وتركن إليه » .

« أو للرسول أو لبيت الله » أى من مقاصدهم فى السفر زيارة مسجد رسول الله ﷺ ثم زيارة قبره ﷺ ، وكذلك من مقاصدهم الحج والعُمرة وزيارة بيت الله الحرام .. فهذه مجموعة الوجوه التى من أجلها أو من أجل واحد منها يسافر السالك إلى الله ، قال الشيخ زروق : « كل هذه الوجوه تحتاج لتصحيح النيّة وتحقيق القصد ، فإنَّ النفس خادعة وللأمور آفات » ، وقال ابن عجيبة : « وبقى من فوائد السفر صحة البدن والقلب فقد قال عليه السلام : « سافروا تصحوا وتغنموا » [1] .

ولنرجع إلى كلام صاحب « المباحث » :

« ولـم تكـن أسفارهـم تنزها   بل كان لله فيها نحوه التوجها »

وذلك أنَّ الصوفى يحاول ألا يتصرف تصرفاً ولو كان مباحاً إلا بنيّة صالحة لأن النيّات تجعل العادات عبادات .

---

(١) رواه البيهقى والطبرانى فى الأوسط

« ولم تكن أيضاً بلا استئذان للشيــخ والآباء والإخـــوان »

لينال دعواتهم ويأخذ وصاياهم ويستفيد من ملاحظاتهم ، وربما كانت لهم حاجة فقضاها ، وربما ترتب على سفره مضرة فيفطنونه لها . « ولم يكن ذلك للفتوح » المراد بالفتوح فى اصطلاحهم : ما يعطيه الناس للإنسان من هدايا وصدقات فهذا مما لا ينبغى أن يفكر فيه الصوفى أصلاً . قال ابن عجيبة : « ولم تكن أسفارهم لقصد الدنيا فإنّ ذلك من الهمة الدنية » . « أو لامرئ مبتذل ممدوح » . أى أن الصوفى لا يسافر من أجل أن يمدح الناس كفعل الشعراء فى الماضى فهذا مما لا يخطر على بال سالك إلى الله .

وبعد ذلك ذكر صاحب المباحث بعض آداب السالك إلى الله إذا وصل بلداً :

« فحيث ما حلُّوا بلداً فبالحرا أن يقصدوا الشيخ وبعد الفقرا »

أى من آدابهم إذا حلُّوا بلداً أن يقصدوا شيوخها وصالحيها والفقراء إلى الله فيها ، والمراد بهم السالكون إلى الله فيها ، قال ابن عجيبة : « وقوله فبالحرا »: أى بالأحروية والأولوية أن يقدّموا الشيخ ثم بعد ذلك الفقراء » ، وقال: وهذا الترتيب الذى ذكرنا هو مع الاختيار ، فإن تعذر لقاء المشايخ أولاً قدّم الفقراء ، والفقراء كما قلنا اسم يطلقه الصوفية على أنفسهم أخذاً من قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾ (١) .

ثم ذكر صاحب المباحث آداب لقاء الأشياخ والجلوس معهم :

« وإنّ للقوم هنا آدابا إذ جعلوا كلامهم جوابا »

أى إنّ الأصل عندهم السكوت إلا إذا سئلوا فيجيبون .

« فإن تعاطى الشيخ منهم قولا قالوا وإلا فالسكوت أولى »

بمعنى إن طلب الشيخ منهم أن يتكلموا تكلموا ، وإلا فإن أدبهم السكوت .

ومن آدابهم انتظار خروج الشيخ من غير نداء عليه ولا رسول إليه ، وحسن

(١) فاطر : ١٥

الأدب فى المجالسة والمؤانسة ، ومن آدابهم المشاركة فى المذاكرات العلمية مع حسن الأدب وكماله وحسن انتقاء العبارات بين يدى الكلام وفى حالة المخالفة فى الرأى أو سماعه أو رؤيته خطأً شرعياً .

ثم ذكر صاحب المباحث أدب أهل البلد مع الوافد عليهم فقال : « وواجب على أولى الإقامة » أى على الذين وفد عليهم المسافر . « تفقد الوافد بالكرامة » قال ابن عجيبة فى تفسير التفقد بالكرامة : وهو الذهاب إلى لقائه وإظهار المسرّة فى وجهه والفرح به وإراحته من شئونه وتعلقاته وإنزاله فى محل ... « وهو يزور القوم فى الحرام » ، أى فى البلد الحرام - أى فى مكة - أى الوارد أحق أن يزار فى محله إلا أن يكون بمكة فإن عليه أن يزور المجاورين لبيت الله الحرام لحرمة بيت الله الحرام . « وإنما ذلك للاحترام » أى هو يبتدئ زيارة أهل الحرم احتراماً لهم لأنهم سكان بيت الله الحرام ، والمسألة ذات أوجه فالأصل أنّ العلم يُؤتَى . ثم ذكر الشيخ بعض آداب المضيف :

« ويبـدأ الوارد بالسلام وبالطعام ثـم بالإكرام »
« وكلموه بعدها تكليما تأسيـا بفعـل إبراهيم »

أى يبدأون بالسلام ثم الطعام والإكرام ، ثم بعد ذلك يكون الكلام كما فعل إبراهيم عليه السلام مع أضيافه : سلام فإطعام فكلام ، ويقدّم من الطعام ما لا كلفة فيه ، وإذا أمكن الإكرام فلا مانع من غير تكلف مفرط ولا تفريط ، لأن التكلف يقطع الكرم ويتعب الأهل والناس لدرجة أنّ الضيف بذلك يصبح ثقيلاً وهذا سبب كبير فى انقطاع كثير من الخير ، لذلك كان أدب الصوفية فى هذا المقام عدم التكلف وهو الكرم الإسلامى بعينه لأنه وحده الذى يسع الناس وبه يستمر خُلُق الكرم فى هذه الأمة ، أما إذا بدأ التكلف فقد وُجِدَ العنت فى المال وإعنات الأهل والإتعاب لهم ، والتكلف مسألة تختلف من إنسان لإنسان ، فمَن كان غنياً لا يعتبر ما يقدمه وإن كان كثيراً وغالى الثمن كُلفة فى حقه على عكس الفقير .

« وكـرهوا سؤال هذا الوارد إلا عن الشيخ أو التلامذ »

أى أنهم لا يسألونه عن أحوال الدنيا وأحاديثها فإنَّ ذلك مما لا يعنى ويقسى القلب ، بل يسألونه عن الشيخ والتلاميذ والسائرين إلى اللّه وحال الناس ليطمئن على صلاح أمر الإسلام والمسلمين ، فسؤالهم يلحظ فيه معنى شرعى وهو باب واسع إذا وُجِدَت النيَّة الصالحة إذ حتى السؤال عن الأمور الدنيوية إذا رافقته نيَّة صالحة فإن ذلك يؤجَر عليه الإنسان

« وكـرهـوا تضييعه أوراده كيف وقد جاء إلى الزياده »

أوراد الإنسان ما وظَّفه عليه شيخه أو وظَّفه على نفسه ، والمراد هنا ما كان يعمله فى إقامته ، فإذا سافر بقى على ما كان عليه إلا إذا شق عليه ، ومن رحمة اللّه عَزَّ وجَلَّ بالإنسان أنه إذا كان له عمل وشغله عنه مرض أو سفر فإنه يُكتب له أجر عمله ، فإذا لم يكن يشق عليه عمل الأوراد فإنه يداوم عليها أو على بعضها ولذلك قال فى البيت : « كيف يترك أوراده بالكلية ، وهو إنما سافر لطلب الزيادة » فى حاله القلبى أو غير ذلك » .

« ومن يسافر فى هوى النفوس فإنما يـؤمـر بالجلوس »

أى مَن لم يستحضر نيَّة صالحة لسفره بحيث يحقق سفره مقصداً شرعياً فإنَّ أهل التصوف لا يرون له السفر لأن من آدابهم ما ذكرناه سابقاً من أنهم يرغبون ألا يكون لهم عمل إلا إذا كانت لهم نيَّة صالحة فيه حتى ولو كان مباحاً لتصبح أعمالهم كلها عبادات .

هذا مجموع ما ذكره صاحب المباحث فى فقرة السفر وقد ذكر بعضهم جوانب أخرى فنذكر بعضها :

١ - يُفضَّل أن ينزل المسافر على أهل مشربه ، وألا يشق عليهم بأن يطيل المكث إلا إذا كان قد نزل فى مكان أُعدَ لذلك وأصروا عليه ، أما إذا كان هدفه الإقامة فعليه أن يسارع إلى محل استقراره .

٢ - ينبغى لمن أراد السفر أن يتعلم أحكامه كأحكام القصر للصلاة والتيمم والقبلة وغيرها .

٣ - إذا كانوا جماعة فينبغى أن يؤمِّروا أحدهم ومن أدبه أن يستشيرهم .

٤ - قال ابن عجيبة ناقلاً : « ومن آدابهم ألا يجرى بينهم فى حديثهم : هذا لى وهذا لك ، ولوكان كذا لم يكن كذا ، ولعل وعسى ، ولِمَ فعلت ولِمَ لم تفعل ... وما يجرى مجراها ، فذلك من أخلاق العوام ، ولا تجرى بينهم المخاصمة ولا المجادلة ولا الاستهزاء ولا الازدراء ولا المراجعة ولا المغالبة ولا الغلبية ، والنقيصة لا تكون بينهم بل يكون كل واحد منهم للكبير كالابن ، وللصغير كالأب ، وللنظير كالأخ ... » . وهذا ليس خاصاً بالسفر وإنما هو من أدبهم فى الصحبة على الدوام ، وفى السفر يكون أكبر همهم فيلاحظونه بشكل أوسع لأن السفر يُسفر عن كل المعايب ولا يبقى على حاله فى حال السفر إلا الصدِّيق .

٥ - ومن آدابهم أن يدعوا بأدعية السفر ذهاباً وإياباً وأدعية الركوب، ويكثروا من التكبير والتهليل والتسبيح وغير ذلك من الأذكار .

٦ - إن تيسر له أن يستصحب فى عوده هدية لأهله وأقاربه وجيرانه فإنه طيب .

٧ - إذا استطاع أن يدخل بلده فى النهار فذلك هو السُّنّة ، والأدب ألا يطرق أهله ليلاً إلا إذا كان على موعد معهم أو أعلمهم بذلك لما فى ذلك من مشقة عليهم أو لما يحتمل أن يحدثه لهم من إرباكات من وجل التساؤل عن سبب طرق الباب ومَن الطارق ، وقد يكونون مستغرقين فى النوم استغراقاً يتعبهم أو يتعبه .

* * *

فصل

فى مقام الإحسان

ذروة السير إلى الله أن يصل السائر فى سيره إلى مقام الإحسان الذى عبَّر عنه الحديث الشريف : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » [١] ، فهذان مقامان كل منهما يسمى إحساناً ، ويختلف الصوفية فى أى المقامين أرقى ، وظاهر الحديث أنَّ العبادة وأنت فى مقام : « أن تعبد الله كأنك تراه » هو الأرقى ، وكل طريقة من الطرق اعتمدت بعض المعانى لتوصيل السالك على يد شيوخها إلى هذا المقام . والعلم والذكر هما الركنان ولكن هناك نوع من العلم له صلة بهذا المقام وهناك معان لا بد أن يلحظها السائر إلى الله أثناء ذكره ليصل إلى هذا المقام .

وبشكل عام : فإنَّ السائر إلى الله ليصل إلى مقام الإحسان فإنه يمر على ما يسميه الصوفية الفناءات : الفناء فى الأفعال بأن يحس الإنسان أنَّ كل شىء فعل الله ، والفناء فى الصفات بأن يستشعر الإنسان صفات الله عزَّ وجَلَّ ، والفناء فى الذات وهو أن يستشعر الإنسان أولية الذات الإلهية وصمدانيتها . ومتى استقر فى هذا المقام أحس بمقام الإحسان ، ويحاولون فى هذه الحالة أن ينقلوه إلى مقام المشاهدة مع رؤيته الخلق ، وهذا الذى يسمونه مقام البقاء ، وقد تكون النقلة سريعة إلى الفناء فى الصفات مباشرة ، أو قد تكون إلى الفناء فى الذات مباشرة ، ثم يبدأ السائر يستشعر ما سوى ذلك ، وكما قلنا فلكل طريقة ما تعتمده من ملاحظات أثناء الذكر أو أثناء السير لتصل بالمريد إلى هذه النتيجة ، ومجموع الملاحظات هذه إما أنها ملاحظات تجريبية دلت عليها التجربة ، وإما أنها نوع تطبيق لبعض الآيات القرآنية ، وبإجماع الصوفية أنَّ ذكر اسم الله « الله » هو أقوى أنواع الذكر تأثيراً فى الإيصال إلى مقام الإحسان . يقول ابن عابدين : لا ذكر عند العلماء لصاحب مقام فوق الذكر بالاسم المفرد ، وأقول

---

(١) من حديث رواه مسلم .

- وبإجماع العلماء كذلك - : إنه لا يشترط الاسم المفرد للوصول إلى الله ، ومَن ظن غير ذلك فقد أخطأ وخالف الإجماع ، ولنا عودة على ذكر اسم الله المفرد فى فصل مستقل ، غير أنَّا ههنا نحب أن نذكر نموذجين على الوصول إلى مقام الإحسان عند الشيوخ :

(أ) من الأشياء التى يذكرها الشيخ الغزالى أنها موصلة إلى المراقبة أن يجتمع للإنسان المحاسبة الدائمة لنفسه مع الاستغفار ، فإنَّ ذلك طريق كاملة للوصول إلى الإحسان ، ومما يذكره الغزالى كذلك أن يلازم الإنسان ذِكراً واحداً كـ « سبحان الله » أو « الله » ، ويستمر فى الذِكر حتى يستقر الاسم فى القلب ثم يستقر الشعور بمعناه فى القلب .

(ب) بعض الصوفية يدخلون المريد فى مرحلة الخلوة ويطالبونه بذكر اسم الله المفرد « الله » ويلفتون نظره فى المرحلة الأولى أن يقرأ الكون الظاهر كله باسم الله تحقيقاً لقوله تعالى - فى رأيهم -: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ [1]. ثم فى مرحلة لاحقة يطالبونه بقراءة الكون المغيب كذلك بهذا الاسم ، ثم فى مرحلة لاحقة يطالبونه وهو يذكر اسم الله « الله » أن يلاحظ أولية الله وصمدانيته من خلال بعض المعانى ، وبذلك يكونون قد أعطوه بذور مقام الإحسان ، ويطالبونه بعد ذلك بالاستمرار على الذِكر والأوراد حتى تفرخ هذه البذور فتملأ القلب وتخرج عنها بعد ذلك ثمارها . وعلى كل فإن الوصول إلى الله ليس مرتبطاً بصيغة بعينها ، ولله طرائق على عدد الخلائق ، وقد يصل الإنسان إلى مقام الإحسان بصيغة أو بأخرى ما دامت الفرائض مؤداة والإقبال على الله موجوداً والعلم إمام والشيخ الكامل يختصر الطريق .

* * *

---

(١) العلق : ١

فصل

فى ذكر الاسم المفرد

الاسم العَلَم على الذات الإلهية هو لفظ الجلالة « الله » ، ولذلك أسموه الاسم المفرد لأنه الاسم الوحيد الذى يدل على الله ذاتاً وصفاتاً وأسماءً وأفعالاً ، بينما غيره يدل على ذات وصفة ، ثم هو لا يسمى به غير الله فهو مفرد من بين الأسماء كلها . ومَن قال : « الله » لا شك أنه ذكر الله عَزّ وجَلّ وحقق الأمر القرآنى: ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ ﴾ [(١)] . فاسم ربنا هو الله فمن قال : « الله » فقد ذكر الله عَزّ وجَلّ بلا شك ولا ريب ، ومن نازع فى ذلك فإنه مخطىء كائناً مَن كان ، إنه عندما نقول : « سبحان الله » نكون قد سبَّحنا الله ونزّهناه وبالتالى كذلك ذكرناه ، وعندما نقول : « الحمد لله » نكون قد حمدنا الله وشكرناه وبالتالى ذكرناه . ولكن عندما نقول : « الله » نكون قد ذكرناه ، وكما أنّ التنزيه فى حد ذاته مطلوب ، وكما أن الشكر فى حد ذاته مطلوب ، فذكر الله كذلك مطلوب ، ومَن ذكر أى اسم لله عَزّ وجَلّ فقد ذكر الله . إن بعضهم يغالط فى هذا المقام فيقول : لو أنك بدأت تذكر اسم إنسان : « فلان فلان فلان» أو : « يا فلان يا فلان يا فلان » فإنه يتضايق من ذلك ولا يكون لفعلك معنى ، وهذا قياس خاطىء فإنّ مجرد ذكر الله نحن مطالبون به ونفع ذلك لنا كبير وكثير ، إذ أنّ ذكر الله هو الذى يوقظ قلوبنا ويحييها ، فأن نقول : « الله الله الله » فذلك ذكر الله وذلك نافع لقلوبنا لتبقى متذكرة ربها ، إنّ ذكر الله بذكر أسمائه كلها هو ذكر ، والإنسان مأجور عليه ، قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائِه ﴾ [(٢)] ، وقد رأينا فى القرآن كيف أن الله عَزّ وجَلّ يذكّرنا بأسمائه مرات ومرات ، وكل ذلك لتبقى أسماؤه على ذكر منا وأن يدخل مع ذكر اسم الله صيغة من صيغ الدعاء أو معنى مرافقاً كالاستغفار والتسبيح والتوحيد والحمد والتكبير والتعظيم ، فذلك ذكر وزيادة ،

---

(١) المزمل : ٨ ، الإنسان : ٢٥ (٢) الأعراف : ١٨٠.

ومَن خالف فى جواز هذا أو هذا أو قطع الطريق على هذا أو هذا فإنه خاطىء ، فمعرفة الله تتعمق فى قلوبنا من خلال كل الأذكار ومن خلال كل الدعوات المأثورة ومن خلال ذكر أسماء الله عَزَّ وجَلَّ كلها . تُرى لو قال القائل : « الله رحيم » وكررها ليُعمِّق فى قلبه الشعور برحمة الله ، ولو قال قائل : « الله بصير » وكررها ليُعمِّق فى قلبه الشعور بأنَّ الله يراه - وهكذا فى كل اسم لله عَزَّ وجَلَّ ليُعمِّق فى قلبه الشعور بالأسماء كلها - هل يكون مأجوراً أو مأزورا ؟ إن مَن يخالف فى مثل هذا من الأفضل ألا يدخل الإنسان معه فى نقاش ، فإذا استقر هذا فإنَّ اسم الله المفرد هو الذى تنطوى فيه كل الأسماء ، فلو أن إنساناً كرره ليستقر فى قلبه الشعور بالذات الإلٰهية وصفاتها وأسمائها فمن أين يكون الإثم ؟ إنَّ الأجر لا شك حاصل بإذن الله ، والأثر فى القلب موجود بإذن الله .

قد يقول قائل : نحن لا نجد فى السُنَّة تركيزاً على ذكر اسم الله عَزَّ وجَلَّ المفرد . ونقول : إنَّ فى الكتاب والسُنَّة حضاً عاماً على الذكر ، وفى حياة رسول الله ﷺ كثيراً ما ذكر الصحابة بصيغ لم يتلقوها من رسول الله ﷺ حبَّذها رسول الله ﷺ وسكرها ، فأى ذكر لله عَزَّ وجَلَّ سواء من خلال ذكر اسم أو تسبيح أو من خلال دعاء أو صلاة على رسول الله ﷺ أو غير ذلك فإنه داخل تحت العموميات العامة ، وصاحبه منفِّذ للأمر ومأجور ومشكور . قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ [1] . لماذا يعتبر أئمة السير إلى الله ذكر اسم الله المفرد أقرب طريق للوصول إلى المعرفة الذوقية لله وللوصول إلى مقام الإحسان ؟ إنهم يقولون : إنك عندما تسبِّح الله تتعمق فى قلبك قضية التنزيه ، وعندما تحمد الله تتعمق فى قلبك قضية الشكر ، وعندما تقول : « لا إله إلَّا الله » تتعمق فى قلبك قضية التوحيد ، وهى قضايا كلها متفرعة عن استقرار معرفة الله فى القلب ، فإذا قلت : « الله » وكررت ذلك حتى استقرت معرفة الله فى القلب فإن تسبيحك وشكرك وتوحيدك يكون أكمل بكثير من تسبيح وتحميد دون أن يكون قلبك مستيقظاً على اسم الله ، ونحن مطالبون بأن نعمق فى قلوبنا

---

(١) المزمل : ٨

معرفة الله وتنزيهه وشكره وتوحيده ، وهذا كله يؤدى بشكل كامل إذا ذكرنا لفظ الجلالة « الله » مع ذكرنا لبقية الأذكار الواردة فى السُنَّة ، بل بعضهم يعتبر أنَّ ذِكر اسم الله المفرد إنما هو ذكر مرحلة لنصل إلى المعرفة الذوقية التى نصل فيها إلى أن نؤدى العبادات والأذكار والدعوات على كمالها . دعنا الآن ننظر إلى حكمة صيغ الذِكر : لقد حضَّنا رسول الله ﷺ على ملازمة الاستغفار وعلى ملازمة الصلاة عليه وعلى الإكثار من صيغ بعينها . إنك لو تأملت فى حكمة تكرار صيغة من هذه الصيغ فإنك تجد إحدى جوانب ذلك أن يستقر فى القلب معنى معيَّن ، فهذا القلب تحتاج المعانى لكى تتعمق فيه إلى تكرار كثير .

إن القلب الذى لم تستقر فيه معرفة الله : يحتاج إلى أنَّ يذكر أسماء الله حتى تتعمق هذه المعرفة . ويقول أئمة السير إلى الله : إنَّ الجلوس مع رسول الله ﷺ يعطى الإنسان من نورانيته ما لا يمكن أن يأخذه هذا الإنسان من أحد ، ومن ثَمَّ فنحن لإيصال القلب إلى قريب من هذه النورانية نطالَب بمثل هذا النوع من الذكر على أنَّ مَن لم يرتح قلبه إلى هذا النوع من السير فأى نوع من الذكر سواء أكان قراءة قرآن أو أذكار بأى صيغة يوصله فى النهاية إلى معرفة الله الذوقية وإلى مقام الإحسان ، وإنما فى هذا اختصار طريق وإنى بفضل الله عَزَّ وجَلَّ مع أنى مأذون على طريقة الصوفية بتلقين الأوراد عامة وبتلقين الاسم المفرد أقول : إن الشيخ لا ينبغى أن يقيِّد نفسه إلا بالسُنَّة ، وأنه ينبغى أن يبقى المريد دائماً مرتاحاً إلى العمل الذى يكلِّفه به . وأنا إذ عرضت قضية الاسم المفرد هذا العرض المختصر لم أرد أن ألزم المسلمين به ، بل أردت أن أبيِّن وجهات النظر فى شأنه ، فإذا وُجِدَ قلب لا يرتاح لاعتماد إلا ما ورد فيه ندب خاص عن رسولنا عليه الصلاة والسلام فى العمل فإنى أجله وأحترمه بل وأدفع به فى هذا الطريق ، ولكنى لا أرى له ولا لنفسى الإنكار على ما ينبغى اعتباره معروفاً ، إنَّ ذكر اسم الله المفرد للوصول فى القلب إلى حالة معينة ثم للاستمرار بهذا القلب على هذه الحالة هو بمثابة الدواء والغذاء المركزين للقلب لا أكثر ولا أقل ، على أنه فى غير الذكر بهذا الاسم يوجد الغذاء والدواء كذلك . فإذا

اتضحت وجهة النظر فى أصل ذكر الاسم المفرد بقى أن نذكر أنَّ هناك مَن يذهب إلى مندوبية ذكر الاسم المفرد ، ولكنه لا يرى جواز القصر فى نطقه بأن يحذف حرف المد فلا يقال : « الله » بدون مد ، وبعضهم لا يرى جواز مده أكثر من ست حركات فى الوقف ، ونقول : إنَّ نطق لفظ الجلالة بالقصر فى تكبيرة الإحرام خاصة يبطل الصلاة على رأى أكثر العلماء ، فهم لا يكتفون باعتبار ذلك لحناً فى هذا المقام بل يجعلونه لحناً مبطلاً للصلاة ، لكن فى حاشية الشهاب على البيضاوى ما يلى :

« وقال الأسنوى رحمه الله : إنه لغة حكاها ابن الصلاح عن الزجاج فلا لحن فيه حينئذ ، وفى التيسير : إنه لغة جائز فى الوقف دون الوصل والأفصح إثباتها وإنما تَلَّحن به المولدون فى أشعارهم كثيراً ... إلخ » .

وأما مد لفظ الجلالة فقد توسَّع فيه الفقهاء حتى إن بعض فقهاء الشافعية أجازوا مدها فى تكبيرة الإحرام حتى الأربع عشرة حركة ، وبعضهم أجاز مدها أكثر من ذلك .. ولنكتف بهذا القدر من الكلام عن ذكر الاسم المفرد وقد ذكرنا من قبل كثيراً عن الذكر بشكل عام ... وزيادة فى التأكيد فإنَّ الفصل القادم سنخصصه للذكر عامة ومحل الصلاة خاصة فى قضية الذكر .

* * *

فصل
فى الذكر

قال تعالى عن الصلاة : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى ﴾ (١) ، وقال أثناء الكلام عن عبادة الصوم : ﴿ وَلِتُكَبِّرُواْ اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ﴾ (٢) ، وقال تعالى أثناء الكلام عن الحج : ﴿ وَيَذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ فِى أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾ (٣) ، وقال تعالى فى معرض الكلام عن رمى الجمار : ﴿ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ فِى أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ﴾ (٤) ، وهكذا نرى أنَّ العبادات إما ذكر وإما معنى لإقامة الذكر

---

(١) طه : ١٤
(٢) البقرة : ١٨٥
(٣) الحج : ٢٨
(٤) البقرة : ٢٠٣

وإما معنى يساعدنا على الوصول إلى الذكر ، ولذلك قلنا من قبل : إنّ ركنى السير إلى الله إنما هما الذكر والعلم ، وإذا أردنا أن نتبين ذلك بدقة نقول : إنّ المطلب الأعلى من الإنسان هو التقوى ، والتقوى لا تُنال إلا بعلم وعبادة لأنّ العبادة تابعة للعلم وقد قالوا :

وكل من بغير علم يعمل   أعماله مردودة لا تُقبل

والعبادة هى الطريق إلى التقوى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [1] ، والتقوى هى التى بها ننال رضوان الله ، قال تعالى : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ ﴾ [2] والعبادة - كما قلنا - إما ذكر أو معنى يُقام به الذكر ، ومن ههنا ندرك أهمية الذكر فى دين الله ...

ثم إن التأسى برسول الله ﷺ طريقه الذكر ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ [3] ، ورسول الله ﷺ سيد العارفين والواصلين ، على أنّ سيره ووصوله غير سير السائرين وغير وصول الواصلين وإن كان للسائرين حظ من السير والوصول ، ولئن كان جزء السير التحقق بأسماء الله ، ولئن كانت مراحل السير تتم بالانتقال من فناء إلى فناء ، فإنّ الذكر هو وسيلة ذلك كله .

وقد رأينا أن الله عَزّ وجَلّ عندما ذكر الحكمة فى الأمر بالصلاة قال : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِى ﴾ [4] ، فالحكمة فى الأمر بالصلاة هى ذكر الله عَزّ وجَلّ ، وعندما ذكر فريضة الصوم ذكر أثناء عرضها قوله تعالى : ﴿ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [5] ، فمن الحكم التى يحققها الصوم أن يعظم الإنسان الله عَزّ وجَلّ على هدايته وذلك ذكر فهو من

---

(١) البقرة : ٢١   (٢) الحج : ٣٧   (٣) الأحزاب : ٢١
(٤) طه : ١٤   (٥) البقرة : ١٨٥

حكم عبادة الصوم ... وعندما ذكر الله عزّ وجلّ الحج قال : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ ﴾ (١) فالذكر مراد من فريضة الحج على الإنسان ، ثم إن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ (٢) ، وقال واصفاً المنافقين : ﴿ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (٣) ، وقال عليه الصلاة والسلام فى الحديث الصحيح : « مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر ربه كمثل الحى والميت » (٤) ، وإذا كان هذا شأن الذكر فى السير إلى الله وفى العبادة فلا بد من مسح شامل لقضية الذكر وحديث شامل عنها :

١ - نلاحظ ملاحظة أولية أنّ كل أمر لله عزّ وجلّ فى نوع من الذكر قد تضمنته الصلاة ، ومن ثمّ فإنّ الصلاة هى أكمل مظهر من مظاهر تنفيذ الأوامر القرآنية بالذكر فهى المظهر الأعلى والأكمل لذكر الله عزّ وجلّ ، عدا عن كونها المظهر الأعلى للعبادة العملية بما تضمنته من ركوع وسجود وقنوت ، ومن ثمّ فالكلام عن الصلاة فى موطن الكلام عن الذكر يعتبر البداية الصحيحة لكل كلام ، لقد أمر الله عزّ وجلّ المسلم بالتسبيح والتكبير وقراءة القرآن والصلاة على رسول الله ﷺ والسلام عليه والحمد والاستغفار والدعاء ، وكل ذلك ذكر ، ولكل ذلك أثره على النفس البَشرية وتزكيتها وتعرفها على الله عزّ وجلّ ، وكل ذلك فى الصلاة أو فى الأذكار المحيطة بها ، ومن ثمّ فإنّ الصلاة هى أداء كامل للذكر ، ومن ثمّ جعل الله عزّ وجلّ الصلوات الخمس فريضة وسَنّ لنا رسول الله ﷺ من السُنَن والنوافل للراغب فى مزيد الخير ما يكمل ...

---

(١) الحج : ٢٧ - ٢٨
(٢) العنكبوت : ٤٥
(٣) النساء : ١٤٢
(٤) رواه البخارى .

من الأوامر القرآنية فى الذكر قوله تعالى : ﴿ وكَبِّرْهُ تَكْبِيراً ﴾ (١) ، وقد جعل اللّه تكبيرة الإحرام فى الصلاة فريضة ، وتكبيرات الانتقال إلى الركوع ومن القيام إلى السجود ومن السجود إلى الجلوس سُنَناً ، وسَنَّ لنا رسول اللّه ﷺ أن نكبِّر اللّه عزَّ وجلَّ ثلاثاً وثلاثين بعد كل فريضة ، وفى ذلك كله تعليم وتأكيد للنفس وللعالَم أن اللّه أعظم من كل شىء ، ومن الأوامر القرآنية قوله تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعْلَىٰ ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ ﴾ (٣) . ومن التقريرات القرآنية : ﴿ فَسُبْحَانَ اللّه حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الحَمْدُ فِى السَّمَٰوَاتِ وَالأرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَىِّ وَيُحْيِى الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ (٤) .

وتبدأ الصلاة بدعاء الثناء : « سبحانك اللّهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جَدُّك ولا إله غيرك » ، وفى الركوع نقول : « سبحان ربى العظيم » ، وفى السجود نقول : « سبحان ربى الأعلى » ، ونسبِّح بعد كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة .. ولما كانت الصلوات الخمس والنوافل المطلقة تسع ساعات كثيرة من الليل والنهار فإنك تجد كيف أن الصلاة تحقيق عملى لهذه الأوامر، ومن خلالها يتعمق فى النفس البَشرية وفى العالَم تنزه اللّه سبحانه وعلوه وعظمته واستحقاقه الحمد لأنه هو المنعم ..

ومن الأوامر القرآنية قوله تعالى : ﴿ فَاقْرَأُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ (٥) - أى من القرآن - ومن المعلوم أنَّ القرآن ذكر قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٦) ، والصلاة ركن من أركانها قراءة القرآن ، واللّه عزَّ وجلَّ أمرنا أَن نحمده قال تعالى : ﴿ وَقُلِ الحَمْدُ للّه ﴾ (٧) ، ومن أذكار الصلاة : « سمع اللّه لمن حمده ، ربنا ولك الحمد » ، واللّه عزَّ وجلَّ أمرنا أن نُصلّى ونُسلِّم على رسول اللّه ﷺ ، وفى الصلاة : « السلام عليك أيها النبى

---

(١) الإسراء : ١١١ (٢) الأعلى : ١
(٣) الواقعة : ٧٤ ، ٩٦ ، والحاقة : ٥٢ (٤) الروم : ١٧ - ١٩
(٥) المزمل : ٢٠ (٦) الحجر : ٩ (٧) الإسراء : ١١١

ورحمة الله وبركاته » ، « اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد » ، والله عزّ وجلّ أمرنا بالاستغفار : ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [1] ، وقد سَنّ لنا رسول الله ﷺ أن نقول بعد كل فريضة : أستغفر الله ، أستغفر الله ، أستغفر الله ، وهكذا نجد أن الصلاة وأذكارها قد كانت استيعاباً لأمهات الآيات القرآنية فى باب الذكر ، فهى فريضة تحقق أوامر فى الذكر ، وهى تحقيق لأوامر أخرى لله عزّ وجلّ كالأمر بالركوع والسجود والقنوت وغير ذلك ، ومن ثَمّ كانت الصلاة عمود هذا الدين الذى لا يقوم إلا به كما قال عليه الصلاة والسلام : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد ... »[2] ، ومن ثَمّ لا يكون الإنسان ذاكراً إلا بالصلاة ، وبالصلاة يُكتب الإنسان من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات . فالصلاة تنزيه لله عزّ وجلّ وشكر له وعبودية له وخضوع له وتذلل له والمظهر الأول للقيام بالتكليف ، وبمجرد أن تفعلها النفس البَشرية فإنها مباشرة تنتقل من طور إلى طور ، من طور الكبر والعجب والعنجهية والغرور إلى أضدادها من الصفات المجيدة ، فهى نقلة للنفس البَشرية من إطار إلى إطار ومن وضع إلى وضع ، وإذا كان هذا مقام الصلاة فى الإسلام ومقامها من الأمر بالذكر فلا بد من أن نأخذ صورة عنها كركن ركين فى قضية الذكر .

الصلاة منها الفرائض ومنها النوافل ومنها الذى يتكرر يومياً ومنها الذى يأتى أسبوعياً ومنها الذى يتكرر سنوياً ومنها الذى يكون بمناسبة ، وللصلاة أذكارها التى هى جزء منها وأذكارها التى تتبعها أو تأتى بعدها ، وكل ذلك يصب فى موضوع معرفة الله عزّ وجلّ وتزكية النفس البشرية مما يعمق موضوع القيام بالتكاليف الربانية كلها : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [3] ، وفى كتاب « الأساس فى السُنّة وفقهها » عرض شامل للصلاة وأذكارها والأذكار عامة ، وإذا عرفنا محل الصلاة فى قضية الذكر فلنعرف أنّ الذكر

---

(1) هود : ٣ (2) من حديث رواه أبو داود . (3) العنكبوت : ٤٥

خارج الصلاة مكمل للصلاة ولمقاصدها ، وفى الوقت نفسه هو عامل تنعكس آثاره على القيام الحق فى الصلاة .

ومن خلال الحالة القلبية فى الصلاة يعرف الإنسان حاله الحقيقى مع الله عَزَّ وجَلَّ ، وبقدر ما يرتقى قلبه وتتعرف روحه على الله تكون صلاته مؤداة حقاً ، ومن ثَمَّ كانت الصلاة فى حق رسول الله ﷺ قُرَّة عين : « وجُعِلت قُرَّة عينى فى الصلاة » [1] ، فبين الصلاة والأذكار تكامل ، فلا ذكر بدون صلاة ، والصلاة بدون أذكار يحيا بها القلب وترتقى بها الروح لا تكون خاشعة ، والأذكار إذا لم تكن جزءاً من سير صحيح إلى الله عَزَّ وجَلَّ لا تؤدى الحكمة الكاملة منها ، ومن ثَمَّ ولقلة السير الحق إلى الله عَزَّ وجَلَّ ضاع علم الخشوع الذى ذكر رسول الله ﷺ أنه أول علم يُرفع من الأرض ، ومن ثَمَّ ندرك أهمية علم التصوف فى الحياة الإسلامية عامة .. ولنتم الكلام عن الذكر :

بعد أن عرفنا أن الصلاة ذكر ، وعرفنا أنَّ للصلاة أذكارها الداخلة فيها أو التابعة لها كالأذان والإقامة والدعاء بين الأذان والإقامة ، ينبغى أن نعرف أنَّ رسول الله ﷺ كان يذكر الله على كل أحواله ، ومن ثَمَّ سَنَّ لنا رسول الله ﷺ أذكاراً تسع أحوال الحياة كلها ، فمنها الأذكار المرتبطة بزمان ، ومنها الأذكار المرتبطة بمكان ، ومنها الأذكار المرتبطة بفعل ، ومنها الأذكار المرتبطة بحوادث، ومنها الأذكار اليومية ، ومنها الأذكار السنوية ، ومنها الأذكار الشهرية ، ومنها الأذكار العمرية ، ومنها الأذكار المطلقة عن العدد والزمان والمكان ، ومنها الأذكار المقيَّدة بعدد .. وأدب المسلم أن يعرف هذا كله وأن يحفظه وأن يأخذ حظه منه ، وقد أُلِّفت فى هذا كتب خاصة ، وفى كتاب « الأساس فى السُنَّة وفقهها » عرض شامل لهذا كله .

والملاحَظ أنَّ الذكر والدعاء يندمجان فى بعض الحالات ، وكل ذكر دعاء عملى ، وكل دعاء ذِكر لله لأنه يجمع مع الاعتراف المعرفة والافتقار إلى الله

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط وغيره من حديث .

عَزّ وجَلّ ، ومن ثَمّ كان الدعاء كما ورد فى الحديث : « مخ العبادة » [١] ، ولفظ أبى داود والترمذى : « الدعاء هو العبادة » [٢] ، ولما كان الهم الأول للسالك إلى الله عَزّ وجَلّ هو المداومة على الذكر ، ولما كان لا يسهل على كل إنسان أن يحفظ الكثير من الابتداء ، درج أهل السير إلى الله عَزّ وجَلّ على اعتماد أذكار بعينها يأمرون بها المبتدىء لتكون ورده اليومى ومحل دأبه الدائم، ومن ثَمّ تعددت الطرق ...

فطريقة اعتمدت أذكاراً بعينها ، وأخرى أذكاراً أخرى ، ولكل طريقة قولها : إن أذكارها لها ميزاتها فى موضوع السلوك ، والحقيقة أن المرشد الكامل وارث لرسول الله ﷺ ، وهذا الإرث يقتضيه أن يحيى سُنّة رسول الله ﷺ فى باب الذكر كما يحييها فى غير ذلك ، والتركيز على ذكر بعينه ليس عليه مأخذ ، ولكن ما يشيع فى بعض الدوائر :« أنّ فعل ذكر آخر غير الذكر المعتمَد فى الطريق يكاد يكون من الخطايا » غلو فى دين الله مهمة الوارث الإخراج منه ، ونحب أن نقول : إنّ نقدنا ليس منصباً على حالات خاصة تعتبر ملازمة ذكر واحد من باب الدواء أو من باب الإيصال إلى معنى معيّن ، إلا أن هذه مرحلة قليلة بالنسبة إلى مجموع الزمن ، أما أن يُعتبر ذلك هو الأصل الذى يكاد يحرم أن يرافقه غيره فهذا الذى نعنيه بكلمة « الغلو » ، والذى نحب أن نؤكده هو أن الوارث مهمته الإحياء ، وطريقته يجب أن تكون طريقة رسول الله ﷺ،فكما أنّ رسول الله ﷺ أعطى كل إنسان ما يناسبه ، وكما أن رسول الله ﷺ علّم المسلمين أنواع الأذكار بمناسباتها ، وكما أن رسول الله ﷺ أبقى لنا تراثنا فى كل شىء ... فعلى الوارث أن يلاحظ ذلك ، إن مجموع العبادات المفروضة والمسنونة ومجموع الأدعية والأذكار تعمّق معرفة الله عَزّ وجَلّ فى القلب ، كما أنها تؤدى واجبات الشكر له جَلّ جلاله ، وإنّ القرآن هو المذكّر بالله عَزّ وجَلّ وهو المعرّف عليه وهو المعلّم لنا فى كل شىء ، ومن ثَمّ كان ذكراً خالصاً ، وعلينا أن نعطى أرواحنا حقوقها من هذا كله لكى نكون ذاكرين لله حقاً ، عارفين حقاً ، عبيداً له حقاً .

* * *

---

(١) رواه الترمذى وهو ضعيف .

(٢) وهو حديث حسن صحيح .

فصل
فى التوسل

عقد المنذرى فى كتابه « الترغيب والترهيب » فصلاً عنوانه « الترغيب فى صلاة الحاجة ودعائها »، وكان أول حديث ذكره فى هذا الفصل هذا الحديث:

« عن عثمان بن حنيف رضى الله عنه أنّ أعمى أتى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ، ادع الله أن يكشف لى بصرى قال : « أو أدعك » ؟ قال : يا رسول الله ، إنه قد شق علىّ ذهاب بصرى ، قال : « فانطلق فتوضأ ثم صَلِّ ركعتين ثم قل : اللّهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد - صلى الله عليه وسلم - نبى الرحمة ، يا محمد ، إنى أتوجه إلى ربى بك أن يكشف لى عن بصرى ، اللّهم شفِّعه فى وشفعنى فى نفسى » فرجع وقد كشف الله عن بصره »[1].

ورواه الطبرانى وذكر فى أوله قصة : « وهو أنّ رجلاً كان يختلف إلى عثمان ابن عفان رضى الله عنه فى حاجة له ، وكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر فى حاجته ، فلقى عثمان بن حنيف فشكا ذلك إليه فقال له عثمان بن حنيف : ائت الميضأة فتوضأ ثم ائت المسجد فصلِّ فيه ركعتين ثم قل : « اللّهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد ﷺ نبى الرحمة ، يا محمد ، إنى أتوجه بك إلى ربى ليقضى حاجتى » وتذكر حاجتك ، ورح إلىّ حتى أروح معك ، فانطلق الرجل فصنع ما قال له ، ثم أتى باب عثمان فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان فأجلسه معه على طنفسة وقال : ما حاجتك ؟ فذكر حاجته فقضاها له ثم قال : ما ذكرتُ حاجتك حتى كانت هذه الساعة ، وقال : ما كانت لك من حاجة فأتنا ، ثم إنّ الرجل خرج من عنده فلقى عثمان بن حنيف ، فقال له : جزاك الله خيراً ما كان ينظر فى حاجتى ولا يلتفت إلىّ حتى كلمته فى ،

---

(١) رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح غريب ، والنسائى واللفظ له ، وابن ماجه وابن خزيمة فى صحيحه والحاكم وقال : صحيح على شرط البخارى ومسلم ، وليس عند الترمذى : « ثم صَلِّ ركعتين » .

فقال عثمان بن حنيف : والله ما كلمته ولكن شهدتُ رسول الله ﷺ وأتاه رجل ضرير فشكا إليه ذهاب بصره فقال له النبي ﷺ : «أو تصبر» ؟ فقال : يا رسول الله إنه ليس لي قائد وقد شق عليّ ؟ فقال له النبي ﷺ : « ائت الميضأة فتوضأ ثم صَلِّ ركعتين ، ثم ادع بهذه الدعوات » ، فقال عثمان بن حنيف : فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط » [1] .

يلاحَظ من هذه النقول أنّ عثمان بن حنيف في زمن خلافة عثمان علّم إنساناً أن يتوجه إلى الله برسول الله ﷺ ، وذلك بعد وفاة رسول الله ﷺ ، مما يدل على أن الصحابة كانوا يرون جواز التوسل برسول الله ﷺ إلى الله بعد وفاته ، وقد رأينا قول الطبراني أنّ الحديث صحيح ، وهو حُجّة في باب جواز التوسل إلى الله برسله بعد وفاتهم .

وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [2] أي فسموه بها ونادوه بها ، حاول بعضهم أن يفهم من هذه الآية أن الله عَزَّ وجَلَّ لا يُدعى إلا بأسمائه ولا يُتوسل إليه إلا بها ، وحرّم أن يُتوسل إلى الله عَزَّ وجَلَّ بأحد من خلقه كائناً مَن كان إلا إذا كان المتوسل به صالحاً وكان حياً ، وفهموا التوسل في هذا المقام على أنه هو الدعاء ، وبناءً عليه فقد حرّموا التوسل بالأنبياء والرسل والصالحين ما داموا متوفين ، وقام جدل في هذا الشأن كثير ، وحاول بعضهم أن يعطي هذا الجدل مضموناً اعتقادياً فاعتبر التوسل بغير الأحياء شركاً ، واعتبر بعضهم أنّ عدم رؤية التوسل برسول الله ﷺ وبالأنبياء والصالحين أمواتاً أو أحياءً زيغاً وضلالاً ، والرواية الصحيحة التي مرت معنا تدل على أن فكرة التوسل إلى الله برسوله عليه الصلاة والسلام كانت موجودة في جيل الصحابة بعد وفاة رسول الله ﷺ وهي إحدى صيغ متعددة في كيفية الدعاء ، فأن يستعمل أحد الصحابة صيغة من الصيغ فذلك لا يدل على حرمة غيرها ،

---

(١) قال الطبراني بعد ذكر طرقه : والحديث صحيح ، والطنفسة : اسم للبساط وتطلق على حصير من سعف يكون عرضه ذراعاً .

(٢) الأعراف : ١٨

وبالتالى فإنّ مجموع هذه الصيغ جائزة شرعاً ، ولكن إذا ارتاح إنسان لصيغة من هذه الصيغ فلا عليه أن يلتزمها ، وإذا رأى أنّ الدليل لا يجيزها فلا عليه لو ناقش فى ذلك كما يناقش فى أى قضية فقهية ليست إلا ، ولذلك فإن الأستاذ البنا رحمه الله فى هذا الموضوع اعتبر الخلاف من باب الاختلافات الفقهية وليس من باب الخلافات الاعتقادية ، فهى إذن فى رأيه مسألة فقهية تتسع فيها وجهات النظر ، ويطالَب بها الإنسان بما تطمئن إليه نفسه إن كان من أصحاب الدليل ، وإن كان من غير أهل الدليل فإنه يستطيع أن يقلد فيها أى مجتهد .

يقول الأستاذ البنا رحمه الله فى رسالة التعاليم فى الفقرة (١٥) من بند الفهم : « والدعاء إذا قُرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه خلاف فرعى فى كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة » . وقد اشتدت الأطراف المتنازعة فى هذا المقام على الأستاذ البنا بسبب موقفه هذا وهو موقف ظالم من الجميع ، ولو أنّ الجميع أنصفوا لاعتبروا كلام الأستاذ البنا هو النهائى فى هذا الموضوع،إذ أنّ هذا الموضوع ليس من باب الأمور المعلومة من الدين بالضرورة ، والأدلة فيها تبقى من نوع الظنيات ، ظنيات الدلالة أو ظنيات الثبوت ، وإذن للاجتهاد فى هذا المقام نصيب ، ولكل مجتهد أجره ، وما اطمأنت إليه نفس الإنسان فى هذا الشأن فلا عليه لو سار عليه وله أن يناقش غيره ، ولكن التكفير والتضليل فى هذا الشأن خطأ وغلو ، وفى هذا المقام أكرر ما قلته أكثر من مرة فى هذه السلسلة : من أنه من توفيق الله عَزّ وجَلّ للأستاذ البنا رحمه الله أن استطاع أن يطرح صيغة للفهم ببنود قليلة ، هذه الصيغة هى الوحيدة التى يمكن أن تشكل القاسم المشترك الذى يمكن أن يلتقى عليه المنصفون فى هذه الأمة ، وكل صيغة غير هذه الصيغة لا يمكن أن تكون المنطلق الصحيح لعمل إسلامى مشترك نحو أمة إسلامية واحدة ودولة إسلامية واحدة وجماعة للمسلمين واحدة ، وإن إنساناً لم يدرك هذه النقطة وأهميتها ، ولم يعرف حتى الآن إيجابيات دعوة الأستاذ البنا - بينه وبين الوعى الإسلامى المعاصر وبينه وبين احتياجات العمل الإسلامى المعاصر هوة كبيرة ، وإنه لجدير به أن يبكى على نفسه بدلاً من أن يحمل على هذا الإنسان أو يسفه اتجاهاً له ، تالله لم أجد - ولا أتصور أن أجد - أنه يمكن

أن تكون انطلاقة صحيحة إلى الله وإلى خدمة دينه وإلى تصحيح أوضاع المسلمين المعاصرة ووضع قدمهم على طريق المستقبل بشكل سليم مراعى فيه كل ما تلزم مراعاته من أوضاع معاصرة ومن دروس مستقاة من تاريخ أمتنا ، وكل ذلك على ضوء فهم مستقيم ، إلا باعتماد اجتهاد الأستاذ البنا رحمه الله مجدِّد هذا العصر بلا نزاع عند العارفين وأهل الفضل .

* * *

فصل
فى استغاثات الصوفية

ألف فى بعض دوائر الصوفية وغيرهم أن ينادى بعض الناس الصالحين من أحياء وأموات مستغيثاً بهم فى تفريج كرب أو إزالة مكروه أو استجلاب نفع أو دفع ضرر . نرى مظاهر ذلك فى الحياة العادية ، ونراه بشكل واضح أثناء الأزمات ، ونراه بشكل دائم فى بعض حلقات الذكر . ويستعملون فى حلقات الذكر كلمة : « مدد » ، فتجد هذه الكلمة تتكرر مرات كثيرة فى حلقة الذكر أثناء النشيد وأثناء الذكر والنشيد وفيما بين فقرات النشيد : « مدد يا سيدى فلان » ، « مدد يا سيدى فلان » ، ومن مظاهر هذا الاتجاه ما نجده فى بعض الدوائر عند العامة إذ ينادون الخضر عليه السلام : « يا خضر » ، « الخضر الحى يرعاك » تقولها المرأة لطفلها أو لغيره ، وبعض الشيعة يتوسعون فى هذا الموضوع حتى ليكاد يكون خطابهم لبعض الأئمة له مظهر الدعاء الخالص ، ولعل ما وُجدَ فى دوائر الشيعة هو الذى منه تسللت هذه الأمور إلى دوائر من الناس بعد أَن أعطوها مضموناً آخر وفسَّروها تفسيرات أخرى ، وإنى أفرِّق فى هذا الموضوع بين النداء الذى فيه طابع التوسل إلى الله فذلك له صلة فى المسألة السابقة التى عرضناها فى الفصل السابق فقد رأينا الحديث يقول : « يا محمد، إنى أتوجه بك إلى ربى فى حاجتى » ؛ فهذا دعاء ثابت علَّمه رسول الله ﷺ للأعمى وقد خاطب الأعمى فيه رسول الله ﷺ على البُعد بعد أن توضأ وصلَّى ، ثم علَّمه عثمان بن حنيف لصاحب الحاجة إلى عثمان ، فما كان من هذا القبيل

فالخلاف فيه هو الخلاف فى المسألة السابقة ، ومن ثَمَّ فإننى أفرِّق بين قول القائل : « يا محمد اشفع لى إلى ربك » وبين قوله : « يا محمد اشفنى » ، فالصورة الأولى جزء من موضوع التوسل ، وهذه صورة داخلة فى موضوع فصلنا هذا ، وجزء من هذا الموضوع ما نجده عند بعض مَن يزورون قبور الصالحين إذ نجدهم يطلبون منهم طلبات مباشرة : « يا فلان زوِّجنى » ، « يا فلان اشفنى » ، « يا فلان بع لى غرضى » وأمثال ذلك مما تتعدد صوره وتكثر مسائله ، والأستاذ البنا كان حازماً فى هذا الموضوع فقال فى الفقرة (١٣) و (١٤) من بند الفهم :

« ١٣ - والأولياء هم المذكورون فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ (١) ، والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية مع اعتقاد أنهم - رضوان الله عليهم - لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً فى حياتهم أو بعد مماتهم ، فضلاً عن أن يهبوا شيئاً من ذلك لغيرهم » .

« ١٤ - وزيارة القبور أياً كانت سُنَّة مشروعة بالكيفية المأثورة ، ولكن الاستعانة بالمقبورين أياً كانوا ونداؤهم لذلك ، وطلب قضاء الحاجات منهم عن قُرب أو بُعد،والنذر لهم ، وتشييد القبور وسترها وإضاءتها والتمسح بها ، والحلف بغير الله وما يلحق بذلك من المبتدعات : كبائر تجب محاربتها ولا نتأول لهذه الأعمال سداً للذرائع » .

إنَّ مَن يدرس حياة رسول الله ﷺ يرى فيها أنَّ حماية جناب التوحيد هى أهم قضية على الإطلاق ، ولا شك أنه حتى فى حالة وجود نوع من التأويلات لمثل هذه النداءات فإنها على الأقل باب من أبواب الشرك فى حق بعض الناس ، أنا أعلم أنَّ بعضهم يعتبر أنَّ مثل هذه النداءات التى يستعملها الصوفية هى من باب التبرك بذكر أسماء الصالحين ، وأنَّ بعضهم يستند على إمكانية أن يكون للأرواح صلة بعالَم الشهادة ، ولكن هذا وهذا ليسا كافيين لتبرير مثل هذه

(١) يونس : ٦٣

الأعمال التى يمكن أن تؤثر على أصل التوحيد ، إن الله عَزّ وجَلّ أمرنا أن ندعو لمن سَلَف لا أن ندعوهم ، فوصف المؤمنين بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ﴾ (١) ، وعلّمنا رسول الله ﷺ فى صلاتنا أن نقول : « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » ، فعندما تصبح المسألة معكوسة ، فبدلاً من أن ندعو لهم ندعوهم ، فذلك هو الخطأ الذى لا شك فيه ، وإننا نقول : « الخطأ » دون أن نتوسع أكثر من ذلك لما سنراه فيما بعد ، وفى رأيى أنّ : الذى جعل هذا الخطأ ينتشر فى بعض الدوائر شيئان :

الأول : أنّ بعض البلدان حكمتها الدولة العبيدية ، وبعض الناس تأثروا بالدعوة الباطنية بشكل عام ، وعند هؤلاء تصور عام حول الإمام من معرفته للغيب وسماعه لنداءات الخلق ، وإنك لتجد فى كلام هؤلاء الكثير من مثل هذا ، وللأسف فإنّ كثيرين من تلاميذ شيوخ الصوفية يعتبرون شيوخهم كذلك ، نحن لا ننكر الكشف ولكن أن يُعتَبر الشيخ عالماً بكل شىء،وأنه فى كل الحالات مستشرف على شئون العالم ... إنّ مثل هذه الاتجاهات لو ادعاها إنسان فإنه يكون قد ادّعى مقاماً فوق مقام النبوّة والرسالة أصلاً ، ومَن درس حياة الرسول ﷺ ومجموعة أقواله ومجموع ما قاله القرآن فى رسولنا عليه الصلاة والسلام أدرك أنّ ما ذكرناه هو من باب البديهيات ، نحن لا نستعظم على قُدرة الله شيئاً ، ولكن من باب الواجبات الشرعية ألا نعطى مخلوقاً أكثر مما أعطاه الله عَزّ وجَلّ ، فأن يدّعى إنسان من المقامات ما لا يُعطاه الأنبياء والمرسلون فهذا هو الضلال بعينه ، إنّ تصورى العام أنّ حلقات الصوفية تسلل لها موضوع النداءات للأولياء والشيوخ من بعض دوائر التشيع بدليل أن لفظة : « مدد » التى يستعملها الصوفية هى لفظه شيعية فى الأصل ، والعجيب أنّ تجد بعضهم إذا قال الشيعى : « مدد يا علىّ » كفّره وهو يقولها بكل راحة زاعماً أنّ تصوراته غير تصورات ذلك ، وصحيح قد تكون التصورات مختلفة ، ولكن جناب

---

(١) الحشر : ١٠ .

التوحيد مخدوش فى الحالتين ، ومما تعجب منه الشيخ أبو الحسن الندوى وسجله فى كتاب « مذكرات سائح فى الشرق العربى » أنه رأى على باب أحد شيوخ الطرق فى السودان حلقة ذِكر يقول أهلها : « مدد ياسيدى حسن ، أنت سلطان الزمن » فعجب كيف يسكت الشيوخ على مثل هذا الذى يخدش جناب التوحيد.

فى رأيى أن التأثر ببعض دوائر التشيع هو السبب الأول فى انتشار هذه العادة فى دوائر الصوفية ، وأن البديل عن ذلك كله هو : « مدد يارب » ، « مدد يا الله » إلى « اللهم مدد » ... وهكذا .

وأما السبب الثانى فى وجود هذه الأمور فى دوائر الصوفية ، فهو وجود روايات قيس عليها حيث لا ينبغى القياس فلنر هذه الروايات :

١ - أخرج الطبرانى فى « الكبير » بإسناد قال عنه صاحب « مجمع الزوائد » : « ورجاله وثقوا على ضعف فى بعضهم إلا أنَّ يزيد بن على لم يدرك عتبة » : عن عتبة بن غزوان رفعه إلى رسول الله ﷺ قال : « إذا أضل أحدكم شيئاً أو أراد أحدكم عوناً وهو بأرض وليس بها أنيس فليقل : يا عباد الله أعينونى ، يا عباد الله أعينونى ، يا عباد الله احبسوا،فإنَّ لله عباداً لا نراهم » وقد جُرِّب ذلك .

٢ - وأخرج الطبرانى والبزار بإسناد قال عنه صاحب « مجمع الزوائد » : « ورجاله ثقات » : عن ابن عباس رفعه إلى رسول الله ﷺ : « إنَّ لله ملائكة فى الأرض سوى الحفظة يكتبون ما يسقط من ورق الشجر ، فإذا أصاب أحدكم عرجة بأرض فلاة فليناد : أعينونى عباد الله » .

٣ - وأخرج أبو يعلى والطبرانى فى « الكبير » بإسناد قال عنه صاحب « مجمع الزوائد » : « فيه معروف بن حسان وهو ضعيف » : عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ : « إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد : يا عباد الله احبسوا ، فإنَّ لله حاضراً فى الأرض سيحبسه » .

هذه مجموعة الروايات التى استند إليها الصوفية فى توسعاتهم فى قضية نداءات الشيوخ والأولياء والطلب منهم ، وهى روايات إذا حققتها لا تصلح لهم حجة فى شىء ، فالحديث الأول منقطع ولا يصلح للاحتجاج به خاصة فى قضية مرتبطة بالعقائد ، والحديث الثالث ضعيف لا تقوم به حُجَّة فى قضايا الفقهيات فضلاً عن قضية مرتبطة بالعقائد ، وأما الحديث الثانى - وهو الذى يرتقى إلى رتبة الحسن - فإنه يتحدث عن الملائكة . فالنص فيهم فأن نحمله على غيرهم فذلك خطأ ، ثم إنَّ قضايا الغيب تحتاج إلى نصوص ، وأين النصوص التى تقول: إن فلاناً كذا أو إنَّ فلاناً كذا ؟ وقضايا الغيب لا تدخل فى باب القياسات الفقهية أصلاً ، إنَّ هذا الموضوع يجب أن يُستأصل من دوائر التصوف وغيره استئصالاً لما يترتب عليه من خدش لجناب التوحيد ، على أنه لوجود التأويل وما رأيناه من بعض متكآت لأصحاب ذلك علينا أن لا نتسرع فى التكفير والرمى بالشرك إلا حيث كان الرمى فى محله واضحاً برهانه بيِّنة حُجَّته ، ولذلك استعملنا كلمة « الخطأ » فى بداية هذه الكلمة احتياطاً ، ولكن كلمة « الخطأ » بمعناها العام قد يدخل فيها ما هو كفر .

* * *

فصل

فى ما يسمى « شطحات الصوفية »

من أعظم المآسى ومن أفظع الانحرافات فى تاريخ الإسلام والمسلمين ما أدخله الناس تحت عنوان « شطحات الصوفية » ، فإنه من الطامات الكبرى والدخن الفظيع والبلاء الأعظم نتبرأ إلى الله ممن لا يبرأ من ذلك ، سئلت عائشة رضى الله عنها كما ورد فى حديث صحيح : هل رأى محمد ﷺ ربه عَزَّ وجَلَّ ؟ قالت : « سبحان الله ، لقد قَفَّ شعرى لما قلت » [1] ...

(١) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى . قف الشعر : وقف من منابته .

مع أنَّ هذه القضية خلافية ومع ذلك اقشعر من ذكرها جلد أمنا رضى الله عنها ، فبالله عليكم لو أنَّ عائشة رضى الله عنها سمعت مَن يقول : « إنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم هو الله » فكيف يكون موقفها ؟ فبالله لو أنَّ أحداً من الصحابة سمع إنساناً يقول عن نفسه : « أنا الله » فماذا يكون الموقف ؟ فوالله لا يكون الموقف معه إلا السيف يقطع رقبته ، ولقد كان موقف المسلمين من هذا الموضوع هو هذا فى كل العصور المشهود لها بالخيرية ، عصر الصحابة والتابعين وتابعى التابعين ، بل حتى فيما بعد ذلك حتى قتلوا الحلاَّج . ذكر السيوطى « تاريخ الخلفاء » وفيها - أى فى سنة ٣٠١ هـ - أدخل الحسين الحلاَّج مشهوداً على جمل إلى بغداد فصُلب حياً ونودى عليه : « هذا أحد دعاة القرامطة فاعرفوه ، ثم حُبِس إلى أن قُتِل فى سنة تسع » ، ويقول كذلك السيوطى فى نفس الكتاب : « وفى سنة تسع - أى بعد الثلاثمائة - قُتِل الحلاَّج بإفتاء القاضى أبى عمرو والفقهاء والعلماء أنه حلال الدم . وفى أحواله السيئة أخبار أفردها الناس بالتصنيف » ، والملاحَظ أنَّ ما بين سجنه وقتله كان حوالى تسع سنين مما يدل على أنه لم يُتسرع فى قتله ، فإذا كان الأمر كذلك حتى مقتل الحلاَّج - وقد أجمعت الأمة على وجوب قتله - أليس ذلك دليلاً على أن صدر هذه الأمة مجمع على لعنة مَن يتجرأ على الله بمثل ذلك ، وللأسف الكبير فإنَّ هذا الذى قاله الحلاَّج فأجمعت الأمة على قتله به أصبح فلسفة تُقرَّر وعلماً يُدرس حتى وُجدَ مَن يذكر أنه متى يجوز للإنسان أن يقول : « أنا الله » ومتى لا يجوز ، ألا لعنة الله على منَ لا يتبرأون ممن لا يتبرأ من مثل هذا ، أن يشاهد الإنسان أنَّ كل شىء فعل الله،ومن جملة ذلك أفعال الإنسان نفسه ، هذا شىء ، وأن يقول الإنسان عن نفسه « أنه الله » فهذا شىء آخر . أن يشهد الإنسان أنَّ كل شىء قائم بالله ، هذا شىء ، وأن يقول إنسان عن نفسه : « أنه الله » هذا شىء آخر ، إنه لمن عمى القلب والبصر والبصيرة أن تستمر مثل هذه الطامات فى الأمة مهما كانت التبريرات والتأويلات ، ألا يخجل هؤلاء من الله ومن عباد الله وهم يتشدقون بمثل هذا الكلام لقد قال

ربنا : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [1] ، وهؤلاء يريدون أن نُسلِّم للواحدَ حاله وهو يقول : « أنا اللّه » ، فأى جهل هذا وأى كفر هذا وأى دخَنَ وأى دغل ؟ وكيف يستريح قلب لسماع مثل هذا الدنس النجس ويعتبر هذا علماً ؟ تاللّه ما هو إلا تلبيسات الشيطان ووساوسه ، ومع أننى فى سيرى إلى اللّه أذاقنى اللّه من فضله من معانى اسمه « الصمد » جَلَّ جلاله وهو المقام الذى زَلَّ به هؤلاء ، وتاللّه لا أرى لهؤلاء إلا القتل إن أصروا على هذه التشدقات والدعاوى ، ولنر بعض ما يتمسك به هؤلاء الضالون :

يقولون : إنَّ الحديث القدسى الصحيح يقول : « مَن عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرَّب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرَّب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطيَنه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » [2] .

أقول : هل هذا مما يُتمسك به كدليل على أنه يجوز للإنسان أن يقول عن نفسه إنه اللّه والحديث نفسه يقول : « وما يزال عبدى يتقرَّب إلىَّ ... » ؟ أيعمون عن كلمة « العبد » ويتمسكون بقضية مجازية ليقولوا كلمة هى الكفر بعينه ؟

ويقولون : إنَّ الحديث القدسى : « يابن آدم ، مرضتُ فلم تعدنى قال : يارب، كيف أعودك وأنت رب العالَمين ؟ قال : أما علمتَ أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده ؟ أما علمتَ أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟ يابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمنى . قال : يارب ، كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمتَ أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ؟ أما علمتَ أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ؟ ... » [3] .

أقول : هل هذا مما يُتمسك به كدليل على مثل هذا والحديث نفسه يقول : « مرض عبدى فلان » ، أيعمون عن كلمة : « عبدى » ويتجرأون على اللّه هذه الجرأة ؟

---

(١) المائدة : ١٧ - ٧٢ (٢) رواه البخارى . (٣) رواه مسلم .

لقد قال الله عزّ وجَلّ مبيناً أن خلافته عليه السلام عن الله كاملة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ (١) ، وقال جَلّ شأنه : ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ (٢) ، فهل قائل يقول : بأنّ محمداً هو الله ؟ أو قال محمد ﷺ عن نفسه ذلك ؟ يا ويلاه يا ويلاه .. كيف يقر لمسلم قرار وهو يسمع مثل هذا الكفر ؟ وكيف يستروح قلبه لسماع مثل هذا ؟ فهذا رسول الله ﷺ مَن أنزله الله عزّ وجَلّ هذه المنزلة يأمره أن يقول : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾(٣) ، وهؤلاء يقولون : « أنا الله » ، فمتى تثور فى قلوب المسلمين عقيدة الحق الصافية التى كانت عليها الأجيال الأولى فيقتلون مَن تجرأ على مثل هذا الكلام لينقطع دابر هذا الكفر اللعين ، إنّ إجماع الأمة منعقد حتى مقتل الحلاّج على أن قائل مثل هذا الكلام واجب القتل ، فكيف يصبح مثل هذا الكلام وكأنه اللغة العادية فى كثير من الدوائر ؟ إنه لشىء مؤسف مؤسف ، وإنه لشىء يجب أن تطهر منه هذه الأمة وذلك بإقامة حلقات التصوف المحرَّر من الزيغ والدغل .. قال حجة الإسلام الغزالى فى « إحيائه » : « وأما الشطح : فنعنى به صنفين من الكلام أحدثهما بعض الصوفية :

أحدهما : الدعاوى الطويلة العريضة فى العشق مع الله تعالى والوصال المغنى عن الأعمال الظاهرة حتى ينتهى قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب ، فيقولون : قيل لنا كذا ، وقلنا كذا ، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاّج الذى صُلِب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس، ويستشهدون بقوله : « أنا الحق » ، وبما حكى عن أبى يزيد البسطامى أنه قال : « سبحانى سبحانى » . وهذا فن من الكلام عظيم ضرره على العوام حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم وأظهروا مثل هذه الدعاوى ، فإنّ هذا الكلام يستلذه الطبع إذ فيه البطالة من الأعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال فلا تعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم

---

(١) الفتح : ١٠ . (٢) النساء : ٨٠ . (٣) الكهف : ١١٠ ، فصلت : ٦

ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة ، ومهما أُنكر عليهم ذلك لم يعجزوا أن يقولوا : هذا إنكار مصدره العلم والجدل ، والعلم حجاب والجدل عمل النفس ، وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق . فهذا ومثله مما قد استطار فى البلاد شرره وعظم فى العوام ضرره حتى مَن نطق بشىء منه فقتله أفضل فى دين الله من إحياء عشرة ، وأما أبو يزيد البسطامى رحمه الله فلا يصح عنه ما يُحكى ، وإن سُمِعَ ذلك منه فلعله كان يحكيه عن الله عَزَّ وجَلَّ فى كلام يردده فى نفسه كما لو سُمِعَ وهو يقول : ﴿ إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى ﴾ [1] فإنه ما كان ينبغى أن يُفهم منه ذلك إلا على سبيل الحكاية .

الصنف الثانى من الشطح : كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائعة وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل ، وتلك إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط فى عقله وتشويش فى خياله لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه - وهذا هو الأكثر - وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره لقلة ممارسته للعلم وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعانى بالألفاظ الرشيقة ، ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أن يشوّش القلوب ويُدهش العقول ويحيِّر الأذهان ، أو يُحمل على أن يُفهم منها معان ما أريدت،ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه » .

ثم بعد كلام يقول الشيخ الغزالى :« وأما الطامات فيدخلها ما ذكرناه فى الشطح ، وأمر آخر يخصها وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة ، كدأب الباطنية فى التأويلات، فهذا أيضاً حرام وضرره عظيم ، فإنَّ الألفاظ إذا صُرفت عن مقتضى ظواهرها من غير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ ، فإنه

---

(١) طه : ١٤

مايسبق منه إلى الفهم لا يوثق به ، والباطن لا ضبط له بل تتعارض فيه الخواطر ويمكن تنزيله على وجوه شتّى ، وهذا أيضاً من البدع الشائعة العظيمة الضرر ، وإنما قصد أصحابها الإغراب لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة له، وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم كما حكيناه من مذاهبهم فى كتاب المستظهرى « المصنف فى الرد على الباطنية » ، ومثال تأويل أهل الطامات قول بعضهم فى تأويل قوله تعالى : ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ (١) أنه إشارة إلى قلبه وقال : هو المراد بفرعون وهو الطاغى على كل إنسان ، وفى قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ (٢) أى كل ما يتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله عزّ وجلّ فينبغى أن يلقيه ، وفى قوله صلى الله عليه وسلم : « تسحّروا فإن فى السحور بركة » (٣) أراد به الاستغفار فى الأسحار ... وأمثال ذلك حتى ليحرّفون القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء ، وبعض هذه التأويلات يُعلم بطلانها قطعاً كتنزيل فرعون على القلب فإن فرعون شخص محسوس تواتر إلينا النقل بوجوده ، ودعوة موسى له كأبى جهل وأبى لهب وغيرهما من الكفار وليس من جنس الشياطين والملائكة مما لم يدرك بالحس حتى يتطرق التأويل إلى ألفاظه ، وكذلك حمل السحور على الاستغفار فإنه كان صلى الله عليه وسلم يتناول الطعام ويقول : « تسحّروا »(٤)، « وهلموا إلى الغذاء المبارك » (٥) .

فهذه أمور يُدرك بالتواتر والحس بطلانها نقلاً ، وبعضها يُعلم بغالب الظن، وذلك فى أمور لا يتعلق بها الإحساس ، فكل ذلك حرام وضلالة وإفساد الدين على الخلق ولم يُنقل شىء من ذلك عن أصحابه ولا عن التابعين ولا عن الحسن البصرى مع إكبابه على دعوة الخلق ووعظهم ، فلا يظهر لقوله صلى الله عليه وسلم:

---

(١) طه : ٤٣ — (٢) القصص : ٣١ — (٣) متفق عليه
(٤) متفق عليه . — (٥) رواه أبو داود والنسائى .

« مَن فسَّر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » [1] معنى إلا هذا النمط ، وهو أن يكون غرضه ورأيه تقرير أمر وتحقيقه،فيستجر شهادة القرآن إليه ، ويحمله عليه ، من غير أن يشهد لتنزيله عليه دلالة لفظية لغوية أو نقلية ، ولا ينبغى أن يُفهم منه أنه يجب ألا يُفسَّر القرآن بالاستنباط والفكر فإنَّ فى الآيات ما نقل فيها عن الصحابة والمفسرين خمسة معان وستة وسبعة،وعُلِمَ أنَّ جميعها غير مسموع من النبى ﷺ ، فإنها تكون متنافية لا تقبل الجمع فيكون ذلك مستنبطاً بحسن الفهم وطول الفكر ، ولهذا دعا صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضى الله عنه فقال : « اللّهم فقهه فى الدين وعلّمه التأويل » [2] ، ومَن يستجيز من أهل الطامات مثل هذه التأويلات مع علمه بأنها غير مرادة بالألفاظ ويزعم أنه يقصد بها دعوة الخلق إلى الخالق ، يضاهى مَن يستجيز الاختراع والوضع على رسول الله ﷺ لما هو فى نفسه حق ولكن لم ينطق به الشرع ، كمن يضع فى كل مسألة يراها حقاً حديثاً عن النبى ﷺ فذلك ظلم وضلال ودخول فى الوعيد المفهوم من قوله صلى الله عليه وسلم : « مَن كذب علىَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » [3] ، بل الشر فى تأويل هذه الألفاظ أطم وأعظم ، لأنه مبطل للثقة بالألفاظ وقاطع طريق الاستفادة والفهم من القرآن بالكلية ، فقد عرفتَ كيف صرف الشيطان دواعى الحق عن القوانين المحمودة إلى المذمومة ، فكل ذلك من تلبيس علماء السوء بتبديل الأسامى ، فإن اتبعت هؤلاء اعتماداً على الاسم المشهور من غير التفات إلى ما عُرِف فى العصر الأول كنت كمن طلب شرف الحكمة باتباع مَن يسمى حكيماً ، فإنَّ اسم الحكيم صار يُطلق على الطبيب والشاعر والمنجم فى هذا العصر وذلك بالغفلة عن تبديل الألفاظ » . (انتهى كلام الغزالى) .

* * *

(١) الرواية المعروفة لهذا الحديث : « من قال فى القرآن بغير علم ... » وفى رواية : « فليتبوأ مقعده من النار » . رواه الترمذى وغيره ، وقد صححه الترمذى وضعفه غيره .

(٢) رواه أحمد والطبرانى .　　　(٣) متفق عليه .

فصل

فى بعض ما يصادفه السائرون إلى الله

١ - مما يصادفه السائرون إلى الله عَزَّ وجَلَّ حالة الملل والكلل ، وهى حالة تواجه العاملين إذا لم يعطوا لأنفسهم راحة فى العمل ، وقد أشار إلى هذه الحالة الحديث الشريف الصحيح : « خذوا من الأعمال ما تطيقونه ، فإنَّ الله لا يمل حتى تملوا ، وإنَّ أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قَلَّ » [١] ، وإذن هناك حالة من الملل تصيب القلب،وقد قال الإمام علىّ رضى الله عنه : « روِّحوا القلوب ساعة بعد ساعة،فإن القلوب إذا كلَّت عميت » ، وهذا كله يفيد أن حالة الملل حالة ينبغى أن يحتاط لها السالك إلى الله أولاً : بأن لا يحمِّل نفسه فوق طاقتها ، وثانياً : بأن يروِّح عن نفسه بإعطاء نفسه بعض حظوظها المباحة ، والحكيم ينوى نية صالحة وهو يعطيها هذه الحظوظ فتكون حتى راحته استجماماً وعبادة ، كما أنَّ الحكيم إذا ملَّت نفسه من عمل فإنه يمكن أن ينقلها إلى عمل آخر ، فإذا شبعت نفسه من التلاوة مثلاً اشتغل فى الذكر ، وإذا شبعت من الذكر اشتغل فى العلم ، وإذا ملَّت من نوع من العلوم اشتغل فى نوع آخر ، وإذا شبعت من العلوم الشرعية اشتغل فى المطالعة العامة ، وإذا شبعت من هذا كله أعطى للتكفر والتأمل لنفسه نصيباً ، ويعد إعطاء الأهل حقوقهم من واجبات الوقت وهذا موضوع يُلفت النظر إليه وتصعب الإحاطة فى شأنه فليلاحَظ ، ولاحِظ هذه النقول : قال ابن عطاء : « لما علم منك وجود الملل لوَّن لك الطاعات ، وعلم ما فيك من وجود الشره فحجرها عليك فى بعض الأوقات، ليكون همك إقامة الصلاة لا وجود الصلاة ، فما كل مصلٍّ مقيم » .

٢ - ومما يصادفه السائرون إلى الله حالة القبض والبسط،وهما حالتان متعاقبتان على القلب تعاقب الليل والنهار ، ويفرِّق أئمة السلوك بين القبض النفسى الذى سببه الحزن على فوات شىء ، وبين القبض القلبى الذى هو حالة

---

(١) متفق عليه .

سببها روحى ، وبين البَسط النفسى الذى سببه تمتع النفس بأمر دنيوى ، وبين البَسط القلبى الذى سببه روحى ، وعلى السالك إلى الله أن يتنبه كثيراً لهاتين الحالتين وأن يُحسن استقبالهما و علاجهما ، فقد يجره القبض إلى سوء أدب مع الحق أو الخلق ، وقد يجره البسط إلى سوء أدب مع الحق أو مع الخلق ، وضبط الإنسان نفسه عند البسط أشق ، لذلك قالوا : « ولا يحافظ على حدود الأدب فى البسط إلا قليل » . وفى حكمة القبض والبسط يقول ابن عطاء : « بسطك كى لا يبقيك مع القبض ، وقبضك كى لا يتركك مع البسط ، وأخرجك عنهما كى لا تكون لشئ دونه ، العارفون إذا بسطوا أخوف منهم إذا قبضوا ، ولا يقف على حدود الأدب فى البسط إلا قليل ، البسط تأخذ النفس منه حظها بوجود الفرح ، والقبض لا حظ للنفس فيه » .

والقبض النفسى سببه الجهل بالله وهو عقوبة . قال تعالى : ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ ، يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَىْءٍ ، قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ [(١)] . ولذلك قالوا : « لا تأتينا الهموم والغموم إلا من جهلنا بالحى القيوم » .

وأما القبض القلبى فقد يكون تعريفاً بالله،وقد يكون أثراً من استشعار القلب لخشية الله ، والبَسط النفسى هو أثر من آثار جهل بالله ، أو أثر من تلذذ النفس بمتعة حلال أو حرام ، وهذا النوع من البسط على الإنسان أن يحتاط فى شأنه كثيراً لأنه قد يكون أحياناً سبباً من أسباب مقت الله ، وفى قصة قارون درس : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ، إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الفَرِحِينَ ﴾[(٢)].

وأما البسط القلبى فهو أثر عن طاعة أو شعور بأنس أو غير ذلك من معان قلبية . قال تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [(٣)] ، وعلى كل حال فلا بد أن يراعى الإنسان حالى القبض والبسط فيدرك أسبابهما ويتحكم فيهما ، فقد يكون القبض أثراً من آثار تضييع حقوق الوقت ولذلك قالوا : « مَن لم يراع الوقت فوقته كله مقت » .

---

(١) آل عمران : ١٥٤ (٢) القصص : ٧٦ (٣) يونس : ٥٨

٣ – مما يصادفه السائرون إلى الله حالتا الفَرق والجَمع ، والمراد بالجمع أن يكون قلب الإنسان مجموعاً على الله ، والمراد بالفرق الحالة التى لا يكون فيها القلب مجموعاً على الله أو أن يحس القلب بنوع من التشويش العام أو عدم الاطمئنان . وهو على أنواع .. منها أن يحس الإنسان بالخلق ويغفل عن الحق ، أو أن يحس الإنسان بقلق أو اضطراب أو تشويش أو شىء من هذا ، وأحياناً يعرف سبب ذلك وأحياناً لا يعرف . هاتان الحالتان تمران على السالك كثيراً ، أما غير السالك فإنه يكون فى حالة فرق دائم ، لأنّ الأصل فى حقه الغفلة حتى إذا استيقظ القلب وبدأ يستشعر حالات الفناء فى الأفعال والفناء فى الصفات والفناء فى الذات عندئذ يمكن أن يحس بهذه الحالة : حالة الفرق أو الجمع ، وأحياناً يصل الفرق إلى حالة من القوة يجد الإنسان نفسه فيها شبه عاجز عن أى عمل ، وأحياناً ينتقل الإنسان من حالة فى الجمع تعتبر هى المقام الأرفع أو الرفيع إلى حالة فى الفرق تكاد تكون وسوسة خالصة ، وفى مثل هذا المقام يقول ابن عطاء : « ربما وردت الظلمة عليك ليعرفك قدر ما مَنَّ به عليك » . ومن النصوص التى ندرك بها قضية الفَرق والجَمع وتعاقبهما على القلب هذا النص :

« عن أُبَىّ قال : كنتُ فى المسجد ، فدخل رجل يصلى فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه ، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على النبى ﷺ فقلت : إنّ هذا قرأ قراءة فأنكرتها عليه ، فدخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه ، فأمرهما رسول الله ﷺ فقرآ فحسَّنَ شأنهما فسقط فى نفسى من التكذيب ولا إذ كنت فى الجاهلية ، فلما رأى ما غشينى ضرب فى صدرى ففضتُ عرقاً وكأنى أنظر إلى الله تعالى فَرقاً فقال لى : « يا أُبَىّ ، أرسل إلىّ أن أقرأ القرآن على حرف ... إلخ »[١] ففى هذا النص نجد فرقاً كبيراً أعقبه جمع عظيم .

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

ومن هذا النص ندرك أنّ للفرق أسبابه ، وللجمع أسبابه ، ومن هذه الأسباب ما نستطيع التحكم به ، ومنه ما لا طاقة لنا به ، والله عَزّ وجَلّ يقول : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ [1] . والسالك إلى الله يحاول إذا وقع فى الفرق أن يعرف أسبابه وأن يتلافاها ، ويحاول ما استطاع أن يبقى فى حالة جمع على الله . وبهذا ينتهى الباب الأخير من هذه الرسالة ولم يبقى إلا كلمة ختام .

* * *

(١) الأنفال : ٢٤

كلمة ختام

إنى لأعلم أنّ هذا الكتاب سيثير مناقشات ، ومع ذلك فقد أرسلته للطبع وليس أمامى خيار فى ألا أفعل . فالحركة الإسلامية وقد جعلت إحدى سماتها أنها حقيقة صوفية لا يسعها إلا أن تبيّن ماهية هذه الحقيقة الصوفية ، ولا يصح أن يبقى فراغ فى هذا الشأن ، ولا أزعم أنّ كل ما ذكرته هنا هو رأى هذه الحركة ، لكنى حاولت جاهداً أن أعتمد ما ظننته حقاً ثم ما ظننته رأى هذه الحركة.

ولقد اعتمدتُ حكم ابن عطاء والمباحث الأصلية كمرجعين لأنهما كتابان كان الأستاذ البنا يركّز عليهما على نقد له لبعض ما ورد فيهما .

ولقد كنت أتمنى أن أكتب فصولاً وأن أنقل نقولاً عن أفذاذ هذه الأمة باتجاهاتها الرئيسية فى تأييد ما ذهبت إليه فى كل موطن ، وكم كنت حريصاً أن أنقل النقول الكثيرة عن ابن تيمية وابن القيم فى قضية السير إلى الله من أجل أن يرى بعض الناس أن الحساسية فى كثير من الأمور لا يقرها العلم .

وأستغفر الله على ما أخطأت ، وأشكره على ما أحسنت ، وأسأله لى ولشيوخى ولوالدىّ وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات مغفرة منه ورحمة ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وسلّم .

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

* * *

رقم الإيداع ٤٥٥٦ / ٩٢
I.S.B.N. 977-00-3402-9